

# نَحْيَاتُ الْقُرْآنِ

أَسْلَوبٌ جَدِيدٌ فِي التَّفْسِيرِ أَبْلَوْسُونِي  
لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ



العلم و المعرفة في القرآن

الجزء الثاني

سَاجِدٌ لِّلَّهِ الْعَظِيمِ الْمُكَفِّفِ لِلشَّجَاعِ  
نَاجِيٌّ مُكَافِرُهُ شَرِيكٌ  
شَاعِرٌ بِرِيحِ الْمَغْرِبِ الْمَغْرِبِ







## البحث عن عظمة الله ومعرفته في القرآن الكريم

أسئلة مهمة ومصيرية :

الكل يريد أن يعرف أحوبة هذه الأسئلة :

من أين جئنا؟

أين نحن؟

وإلى أين نذهب؟

وبالطبع فشمة سؤال مهم آخر إلى جانب هذه الأسئلة الثلاثة وهو :

«لماذا جئنا؟» هل كان مجئنا غاية؟ وإن كانت له غاية فما هي؟.

وما هي الوسائل المتوفرة لدينا من أجل الوصول إلى هذه الغاية؟

من هو الميدىء الأصلي لهذا العالم ، ومن أين تَبَعَ عالم الخلق؟

وأخيراً ، هل هناك طريق لمعرفة هذا الميدىء الكبير؟

هذه هي أهم أسئلة البشر.

\* \* \*

إنّ الذين لا يرون ضرورة في العثور على أحوبة هذه الأسئلة هم الغرقى في الحياة

المادية اليومية إلى درجة أَكْمَمُ لا يفكرون في شيء سوى «النوم والأكل واللذة الجنسية» ،

فهم كالأنعام لا علم لهم «بالعلم الإنساني».

أو أَكْمَمُ سعوا وحاولوا العثور على جواب هذه الأسئلة لكنهم لم يصلوا إلى شيء ،

فيئسوا وكفوا عن البحث.

وإنطلاقاً من أن «السؤال» هو الدافع «للحركة» دائماً ، الحركة نحو الإجابة ، وأنّ الأسئلة كلما كانت متنوعة وعميقة كانت الحركة أوسع وأكثر تجذراً ، لهذا يجب أن تستقبل الأسئلة المهمّة بصدرور واسعة ، ولا نخشى كثرة الأسئلة وأهميتها ، بل نستقبلها بكل رحابة صدر.

ويمكن أن تكون محصلة عمر الإنسان ليست في الحقيقة شيئاً سوى العثور على أجوبة الأسئلة ، وأنّ نتيجة جهود كل علماء العالم وال فلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بلا استثناء هي الأجابة عن بعض هذه الأسئلة.

يحاول علماء الفلك أن يشرحوا كيفية ظهور السماوات والنظام الذي يحكمها. وعلماء الجيولوجيا يجيبون على الأسئلة ذات العلاقة بظهور الأرض وتركيبها. وعلماء الأنثروبولوجيا والتحليل النفسي وكل الذين يدرسون العلوم الإنسانية والاجتماعية يريدون أن يعثروا على أجوبة الأسئلة المتعلقة بهذا الم وجود العجيب المسمى بـ «الإنسان».

ويريد الفلاسفة بمساعيهم المتواصلة أن يطلعوا على حقيقة المبدىء ومصير العالم . إلى الحد الذي يستطيع عقل البشر أن يصل إليه . أو الإجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بهذا المجال على الأقل.

نستنتج مما ذكرناه أنه إن كان البحث حول «الخالق لعالم الوجود» ومبدأ هذا العالم الكبير الذي نعيش فيه من أقدم البحوث وأرسخ الأسئلة الإنسانية ، فليس ذلك أمراً عجياً. ولهذا نرى من واجبنا السعي بقدر استطاعتنا للعثور على جواب هذه الأسئلة :  
من هو مبدىء عالم الوجود؟ وكيف يمكن معرفته؟!

\* \* \*

## د الواقع في البحث عن عظمة الله

- ١ . الدافع العقلي
- ٢ . الدافع العاطفي
- ٣ . الدافع الغطري



## ١ . الدافع العقلي

تمهيد :

قلنا إنّه لا توجد حركة بدون حافر أو دافع ، وبالطبع فلا يمكن للحركة في طريق معرفة مُبدئ عالم الوجود أن تكون بلا حافر ، ومن هنا يذكر الفلاسفة والعلماء ثلاثة دوافع أساسية للبحث عن الله ، وجميعها أشار إليها القرآن الكريم إشارات واضحة.

١ . الدافع العقلي.

٢ . الدافع العاطفي.

٣ . الدافع الفطري.

وللبعض من هذه الحوافر فروع خاصة بها.

لنبتداً أولاً بـ «الحافر العقلي» ونتأمل خاسعين في الآيات الكريمة أدناه :

١ . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَحْيِبُوا اللَّهَ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحِبِّيْكُمْ﴾ . (الأنفال /

(٢٤)

٢ . ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّكِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّسِيْنِ﴾ . (آل عمران /

(١٦٤)

٣ . ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ . (الحديد / ٢٥)

٤ . ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحَلِّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْحَبَائِثَ وَيَنْهَاهُمْ إِصْرَرُهُمْ وَالْأَعْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ . (الأعراف / ١٥٧)

٥ . ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضْرُونَ ... فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا

رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . (الشعراء / ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧)

٦ . ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْدَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مُّثْلِ صَاعِقَةِ عَادٍ وَّثَمُودٍ﴾ . (فصلت / ١٣)

٧ . ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَمْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ

مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ . (سباء / ٤٦)

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### التحقيق من مسؤوليات الإنسان الأساسية :

الإنسان يحب الكمال ، ويعتبر هذا الحب خالداً عند كل الناس ، يبقى أن كل إنسان يرى كماله في شيء معين ، فيذهب نحوه ، والبعض يذهبون وراء السراب يحسبونه ماءً ويلهثون خلفَ القيم الوهمية والكمالات الخيالية ويتصورونها واقعاً.

قد يسمى هذا المبدأ أحياناً بـ «غريزة حب المنفعة ودفع الضرر» التي يجد الإنسان نفسه على ضوئها بأنه ملزم أن يكون له تعامل جاد مع كل موضوع يتعلق بمصيره (بلحاظ النفع والضرر).

لكن إطلاق تعبير «غريزة» على هذا الحب يعدّ تعبيراً غير صحيح ، فالغريزة عادة تطلق على أمور تؤثر في أفعال البشر أو باقي الأحياء بدون تدخل التفكير ، ومن هنا تستعمل بالنسبة للحيوانات أيضاً.

وعلى هذا الأساس فمن الأفضل أن نستخدم تعبير «الرغبات السامة» التي استعملها البعض مثل هذه الموارد.

وعلى كل حال ، فالحب للكمال والميل نحو المصالح المعنوية والمادية ودفع كل أنواع الضرر يجبر الإنسان على التحقيق حتى في مواضع الاحتمال ، وكلما كان هذا الاحتمال أقوى ، وذلكر النفع والضرر أعظم ، كان التحقيق والبحث أكثر ضرورة.

من المستحيل أن يتحمل شخص تأثير أمر مهم في مصيره ، ولا يرى من واجبه التحقيق حوله.

وقضية الإيمان بالله والبحث عن الدين تعتبر من هذه القضايا بلا شك ، لأنّ هنالك في محتوى الدين كلام عن القضايا المصيرية ، وعن القضايا التي يرتبط خير وشر الإنسان بها ارتباطاً وثيقاً.

البعض يذكر مثلاً من أجل إيضاح هذا الموضوع ، فيقول : لنفترض أننا نجد إنساناً واقفاً على مفترق طرقين ونسمعه يقول بقطع ويقين : إنّ البقاء هنا خطأ ، واختيار هذا الطريق (إشارة إلى أحد الطريقين) هو الآخر خطأ ، والطريق الثاني هو طريق النجاة ، ثم يذكر قرائن وشواهد لكل ما قاله ، فما من شك أن أي عابر سبيل يرى نفسه ملزماً بالتحقيق ويعتقد أنّ اللامبالاة تجاه هذه الأقوال مخالفة لحكم العقل ، وبلحاظ هذه المقدمة ننتقل إلى تفسير الآيات.

\* \* \*

إنّ أول آية من الآيات المعنية بالبحث تَعتبر دعوة رسول الله إلى الإسلام دعوةً إلى العيش والحياة الحقيقية ، وتدل هذه الدعوة على أنّ بالإمكان جمع كل محتوى الإسلام في مفهوم «الحياة» ، الحياة التي تشمل الحياة المعنوية وتشمل الحياة المادية ، الحياة الشاملة والجامعة.

مع أنّ البعض فسر معنى الحياة هنا بآنه بخصوص «القرآن» أو «الأيمان» أو «الجهاد» <sup>(١)</sup> ، لكن مما لا شك فيه أنّ الحياة مفهوم واسع يشمل كل هذه العناوين المذكورة وكل ما هو مؤثر في حياة الإنسان المعنوية والمادية.

وعلى كل حال ، إذا دعانا شخص بمثابة هذه الدعوة فهل يمكن أن نغض الطرف عن

(١) ذكرت هذه الاحتمالات عن المفسرين في تفسير الكبير ، ج ١٥ ص ١٤٧ ؛ وتفسير الميزان ، ج ٩ ، ص ٤٣ ؛ وتفسير روح المعانى ، ج ٨ ، ص ١٦٩ ؛ وتفسير القرطبي ، ج ٤ ص ٢٨٢٥.

دعوته ولا نرى من مسؤوليتنا حتى التحقيق في هذه الدعوة؟.

هنا يريد القرآن بهذا التعبير أن يوجد حافز الحركة نحو التحقيق حول الدين لدى كل من له القابلية على هذه الحركة.

يقول الراغب في كتاب «المفردات»: إن حقيقة «الاستجابة» هي السعي والقابلية على استلام الجواب، وأن هذا الموضوع ينتهي عادةً بالجواب فقد فسروه بمعنى «الإجابة»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

الآية الثانية تعدّ بعثة الرسول من أعظم النعم الإلهية التي منحها الله سبحانه وتعالى للمؤمنين ، ثم تذكر في تفسير هذه النعمة ثلاثة برامج مهمة للرسول : تلاوة الآيات الإلهية : **﴿بِتُّلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾** ، والتزكية والتربية : **﴿وَيُزَكِّيْهِمْ﴾** ، وتعليم الكتاب والحكمة **﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾**.

ونتيجة كل هذه البرامج هي النجاة من «الضلال المبين» : **﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَهِي ضَلَالٌ مُّبِينٌ﴾**.

إن كل هذه التعبيرات هي من أجمل إحياء محفزات الحركة نحو الإسلام لدى الناس ، أو على الأقل من أجمل أن يرى كل إنسان نفسه ملزماً بالتحقيق حول الإسلام لأنّه من الممكن أن يكون أكبر نفع وضرر للإنسان كامناً في هذا التحقيق.

«الميّة» : من مادة «من» وهي في الأصل كما يعتقد البعض بمعنى القطع ، لهذا فإن : **﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٌ﴾** بمعنى الثواب الذي لا ينقطع أبداً ، وكذلك يقال لنوع من الاصماغ والترشحات ذات الطعم الحلو والتي تشاهد كالقطرات الصغيرة مستقرة على أوراق الأشجار تشبه قطرات الندى ، يقال لها «المن».

ولكن يعتقد الراغب أن «المن» في الأصل بمعنى الحجر الذي يَرِنُونَ به ، والذي أطلق

(١) ولكن يجب الالتفات إلى أن «الإجابة» تكون فعلاً متعدياً بدون حرف الجر ، في حين أن «الاستجابة» تذكر غالباً مع حرف اللام.

فيما بعد على النعم الكبيرة الثقيلة.

و حينما تستخدم هذه المفردة في القاموس الإلهي فمعنى « منح النعم » و حين تستخدم في قاموس البشر فتعني غالباً التحدث بالنعمة التي يجزها الإنسان لغيره ، من هنا كان معناها الأول إيجابياً والثاني سلبياً و مذموماً.

\* \* \*

الآية الثالثة تشير إلى هدف مهم آخر من أهداف بعثة الأنبياء ، وهو مسألة « العدالة الاجتماعية » ، فتقول : إننا جهزنا الرسل بثلاثة أشياء :

أولاً : البراهين الواضحة التي تشمل « المعجزات » ، و « البراهين العقلية » : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا إِلَيْنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

ثانياً : الكتاب السماوي الذي يبين المعارف ويشرح للناس مسؤولياتهم.

وثالثاً : الميزان : وهو الوسيلة التي بواسطتها توزن الأشياء ، والعجب أن بعض المفسرين قد فسّروا الميزان بالمعنى الذي ذكرناه ، في حين أنّ أغلب المفسرين يعتقدون أنّ المراد من الميزان هي الوسيلة التي بواسطتها يقام العدل في شخص بواسطتها الحق من الباطل ، الزيادة من النقصان ، الخير من الشر ، القيم الحقة والخيرة من القيم الباطلة والشريرة ، و بإمكاننا أن نفسّر الميزان بالقوانين الإلهية.

صحيح أنّ هذه الأمور مذكورة في نص الكتب السماوية ، ولكن ذكرها بشكل مستقل جاء بسبب أهميتها.

وعلى كل حال ، هل من الممكن أن يسمع إنسان بأنّ شخصاً يدعى الدعوة إلى وجود مثل هذه الحقائق المصيرية ولا يرى أنّ من واجبه التحقيق في هذه الدعوة؟.

يقول الفخر الرازي : الناس ثلاثة أنواع : نوع في مقام « النفس المطمئنة » وهم المعنيون بالآية : ﴿أَنَّزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ ، النوع الثاني في مقام « النفس اللوامة » وهم أصحاب اليمين الذين يحتاجون إلى معيار قياسي من أجل المعرفة والأخلاق ، ليكونوا في أمان من الافرط

والتفريط ، وهم المقصودون بتعبير «الميزان» ، النوع الثالث هم أصحاب «النفس الأمارة» الذين تعنيهم الآية : «انزلنا الحديد» أي هم المستحقون للعقاب والجزاء <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

في الآية الرابعة إشارة إلى الأبعاد المختلفة لبعثة الأنبياء وبالخصوص السياسية والاجتماعية ونزول الأديان السماوية ، وفيها ذكر لبعض أوصاف رسول الله ﷺ فقد جاءت لترغيب الناس في اتباعه ، منها : ﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحَلِّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْحَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرُهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

لا شك أن هذه أمور مصيرية وذات علاقة وثيقة بمسألة تكامل الإنسان وخирه وشره ، بل مجرد احتمالها يكفي لدفعه نحو التحقيق.

«الأصر» : على وزن مصر ، يعني في الأصل الربط والاغلاق وحبس الشيء بقوة وعنوة ، ثم أطلقت على الحمل الثقيل والأعمال الشاقة التي تعوق الإنسان عن النشاط ، ولهذا سُمِّيت الجبال والمسامير التي تربط بها الأعمدة «آصار» ، ولهذا أيضاً سمي العهد والوعد والذنب بالاصر <sup>(٢)</sup>.

يمكن الاستنباط من التعبيرات التي وردت في كلمات أرباب اللغة والمفسرين أن معنى الكلمة «إصر» الجسم الثقيل الذي يُربط بقدم السجين لكي لا يستطيع أن يتحرك ، وإن ذكره إلى جانب الأغلال وهي الأطواق والسلال التي تقييد بها الأعناق يناسب هذا المعنى ، ثم أطلقت هذه المفردة على معنى آخر يتناسب وأصل الكلمة.

مع إن الكثير من المفسرين فسروا «الإصر» و «الأغلال» في هذه الآية بمعنى التكاليف الشاقة أو الامتحانات العسيرة والمعقدة التي حلّت بالامم السابقة ، لكن الظاهر أن هاتين المفردتين مفهوماً أوسع وأشمل يستوعب كل أنواع فيود الاسر والحمل الثقيل الذي

يسبيه

(١) التفسير الكبير ، ج ٢٩ ، ص ٢٤١.

(٢) تفسير مجمع البيان ، ج ٤ ، ص ٤٨٨ ؛ التفسير الكبير ، ج ١٥ ، ص ٢٥ ؛ تفسير روح المعانى ، ج ٩ ، ص ٧٢ ومفردات الراغب ، مادة (إصر) وكتاب العين ، ج ٧ ص ١٤٧.

«الجهل» و «الشهوات» و «الذنوب» و «الاستبداد» و «الاستعمار» وما شاكل ، وهي أمور ترتفع وتزول تحت ظل وجود رسول الله وتعليماته التحريرية.

\* \* \*

الآية الخامسة كلام ورد عن لسان محطم الأوثان إبراهيم عليه السلام عندما خاطب الوثنين موجهاً إليهم على عملهم القبيح هذا (عبادة الأصنام) ، وقال من أجل إيقاض عقولهم حيث كانوا يعطون في سبات عجيب :

﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضَرُّونَ؟؟؟! فلابد للعبادة أن تكون إما من أجل الربح والمكافأة والمنفعة أو من أجل دفع الضرر والعقاب.

وبالطبع لم يكن لديهم أجوبة إيجابية على هذه التساؤلات سوى الإعتماد باتباع وتقليد السلف والقول : ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَعْمَلُونَ﴾.

تدل هذه التعبيرات جيداً بأن حافر النفع والضرر (ليس النفع والضرر المادي فحسب فالنفع والضرر المعنوي أفضل وأرفع منه) ويمكن أن يكون حافزاً للحركة باتجاه معرفة الله.

\* \* \*

حول نزول آيات سورة فصلت وهي الآية السادسة في بحثنا هذا ، نقرأ أن «أبا جهل» سأله «الوليد بن المغيرة» وهو من رجال عرب الجاهلية المعروفين وهو من أهل النظر والمشورة يرجح إليه عند المضلالات : ما هذا الذي يقوله «محمد»؟ أهو كهانة أم سحر؟ أهو تكهن؟ ... فقال «الوليد» : يجب أن أذهب إليه بمنفي وأتحقق ، وعندما جاء إلى النبي ﷺ قرأ له بعضاً من آيات سورة فصلت إلى أن جاء إلى الآية التي وردت في بحثنا : ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْنَاكُمْ صَاعِقَةً مُّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودٍ﴾.

فارجح «الوليد» لسماع هذه الآيات واقشعر بدنه ووقف شعر رأسه ، فنهض من مكانه وعاد إلى بيته وأغلق الباب على نفسه ، حتى ظن أكابر قريش أنه يميل نحو الدين

الإسلامي ، وعندما جاءوا إليه وسألوه عن شأنه ، قال : ما صبوت (اي لم اسلم) واني على دين قومي وآبائي ولكنني سمعت كلاماً صعباً تقشعر منه الجلود ، فلا هو بالشعر ولا بالخطب ولا بالكهانة ، ولما قيل له : إذن ما نقول فيه؟ قال : قولوا هو سحر ، فانه آخذ بقلوب الناس <sup>(١)</sup>.

أولاً يمكن ملئ هذه التهديدات الواردة في الآيات القرآنية وبقية المصادر الدينية أن تكون حافزاً على التحرك نحو التحقيق (بالنسبة لمن لم يؤمنوا لحد الآن).

\* \* \*

في الآية السابعة من البحث ، أمير الرسول ﷺ أن يخاطب جميع معارضيه ويعظمهم بمسألة واحدة : ﴿فُلَّ إِنَّمَا أَعْظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَسْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا إِصْاحِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَى عَذَابٍ شَدِيدٍ ...﴾.

كل تعبير هذه الآية تعبير مدرسة.

فالتعبير بـ «إنما» من أجل الحصر.

والتعبير بـ «الموعظة» يستخدم في الموضع التي يحكم فيها العقل بشيء ، ولكن لكون الإنسان غافلاً عنه فهناك شخص حرير يوقظه ويعظه.

والتعبير بـ «القيام» دليل على الاستعداد الكامل لتنفيذ الأهداف الجدية.

والتعبير بـ «مسني» و «فرادي» إشارة إلى النشاطات الجماعية والفردية والجهود الشاملة في هذا السبيل «لا شك أنّ الإنسان يفكر بشكل أعمق عند انفراده ولكنه يفكر بشكل أكمل حين يكون ضمن الجماعة ، لأنّ الأفكار ستتحدّد مع بعضها ، والجمع بين هذين (التفكير على انفراد وضمن الجماعة) هو أفضل الطرق» <sup>(٢)</sup>.

(١) بحار الأنوار ، ج ١٧ ، ص ٢١١ وتفاسير أخرى (الأصل في الحديث مفصل وقد نقلناه بتلخيص ، لاحظوا تفصيله في التفسير الأمثل ذيل الآية ١٣ من سورة فصلت).

(٢) قال بعض المفسرين : «مسني» إشارة إلى الماناظرة التي لها تأثير كبير في كشف الحق ، في حين أنّ «فرادي» إشارة إلى القراءة في الوحدة ، واحتمل بعض آخر أن «مسني» إشارة إلى التفكير الذي يقوم به الإنسان خلال النهار ضمن الجماعة و «فرادي» التفكير الذي يحصل في الليل وعند الإنفراد (تفسير القرطبي ، ج ٨ ، ص ٥٣ و ٩٣).

ثم التعبير بـ «التفكير» الذي ينبع من الصميم ويهدى الإنسان إلى البراهين العقلية الواضحة.

والتعبير بـ «لكم» هو الآخر متزج بمسألة الإنذار والإلتفات إلى العذاب الشديد وفيه إشارة إلى أنّ الموضوع هنا هو نفعكم وضرركم فقط ، ولا هدف للنبي ﷺ سوى هذا. أفلا يجب والحال هذه أنّ يأخذوا دعوته مأخذ الجد ويفكرروا فيها ويعثروا على الحق ثم يتبعوه؟

### النتيجة :

إنّ الآيات أعلاه وآيات مشابهة أخرى تكشف النقاب جيداً عن الحافر العقلي للبحث والتنقيب في طريق «معرفة الله» وتدل على أنّه لا يمكن لأي إنسان عاقل أن يتقاوم ويُسْكِنَ أَزاء الدعوات العظيمة لأنبياء الله ورسله على صعيد الدعوة إلى الله ذات العلاقة الوثيقة بمصير الجميع ، وهذا هو الحافر الأول للتحقيقـات الدينية.

\* \* \*

### توضيحـان

#### ١ . الدافع العقلي لفهم الدين في الروايات الإسلامية

١ . ورد في حديث عن الإمام موسى بن جعفر عـلـيـهـالـأـمـرـاتـ أن أحد أصحابه سـأـلـهـ عـنـ الـضـعـفـاءـ (الـمـسـطـعـفـينـ) فـكـتـبـ لـهـ الإـلـمـاـنـ فـيـ الـجـوـاـبـ : «الـضـعـفـ منـ لـمـ تـرـفـعـ إـلـيـهـ حـجـةـ ، وـ لـمـ يـعـرـفـ الـاـخـتـلـافـ ، فـإـذـاـ عـرـفـ الـاـخـتـلـافـ فـلـيـسـ بـمـسـطـعـفـ» <sup>(١)</sup>.

٢ . وجـلـوهـ هـاـيـ تـوـحـالـيـ دـنـيـاـ اـزـ دـورـ روـيـ نـفـسـ هـذـاـ معـنـىـ عـنـ الإـلـمـاـنـ الصـادـقـ عـلـيـهـالـأـمـرـاتـ قـوـلـهـ : «مـنـ عـرـفـ اـخـتـلـافـ النـاسـ فـلـيـسـ بـمـسـطـعـفـ» <sup>(٢)</sup>.

(١) أصول الكافي ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ ، (باب المستضعف) ، ح ١١.

(٢) المصدر السابق ، ح ١٠.

وفي هذا إشارة إلى أنّ الإنسان حين يطلع على وجود الاختلاف سوف يرغمه عقله على التحقيق والمطالعة (النظر) ، وعندما لا يُعتبر مستضعفًا.  
وبالطبع فالقصد من «المستضعف» هنا هو «المستضعف فكريًا» الذي نسميه أحياناً بـ «الجاهل القاصر».

٣ . جاء في حديث آخر عن النبي الأكرم ﷺ : «أربعة تلزم كل ذي حجى وعقل من أمتي ، قيل : يا رسول الله ما هن؟ قال : إستماع العلم وحفظه ونشره والعمل به» <sup>(١)</sup>. وبهذا يعتبر النبي ﷺ الاستماع والتحقيق من آثار وعلامات العقل والدرأية.

## ٢ . المعاندون الملحوظون

كان دائماً في مقابل الأحرار الذين يرون التحقيق في الحق واجبهم العقلي ، هناك جماعة يخشون رؤية الحق كالخفافيش ، وحتى لو ارتفع صوت منادي الحق وَدَوْيَ في آذانهم سدوا آذانهم لكيلاً يسمعوا صوته.

ينقل القرآن عن جماعة من قوم نوح عليهما السلام على لسان هذا النبي العظيم عندما اشتراكهم إلى الله : ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي أَذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ . (نوح / ٧)

ولم يكن حال المشركين بأقل من هؤلاء ، بل كأئمّهم ورثوا قوم نوح المعاندين الذين تحدث عنهم القرآن : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ .  
(فصلت / ٢٦)

إنّ هذه الجماعة التي لها أتباع ومقلدون في كل عصر وزمان لا يسمحون لأنفسهم بالتحقيق في ما يجري أبداً ، إنّهم جهلة حمقى يخشون نور الشمس كأئمّهم الخفافيش ، يلحوذون إلى الظلمة دائماً ، ويفتخرن بالجهل ، إنّهم أكثر حرماناً من الجميع لأنّهم أعداء تفضحهم الشمس.

(١) تحف العقول ، مواعظ النبي ، ص ٤٠ .

## ٢ . الدافع العاطفي

تمهيد :

ثمة مثل معروف يقول : «إِنَّ النَّاسَ عَبِيدُ الْأَحْسَانِ». ورد نفس هذا المعنى تقربياً في حديث عن أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام : «الإنسان عبد الاحسان» <sup>(١)</sup>. وورد عنه عليه السلام : «بِالْإِحْسَانِ تَمْلِكُ الْقُلُوبَ» <sup>(٢)</sup>. وفي حديث آخر عنه أيضاً : «أَفْضَلُ عَلَى مَنْ شِئْتَ تَكُنْ أَمِيرَه» <sup>(٣)</sup>. وجذور كل هذه المفاهيم في حديث الرسول عليه السلام إذ يقول : «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ قُلُوبَ عَبَادِهِ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا وَبِغَضْبِ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا» <sup>(٤)</sup>. والخلاصة هي أن هنالك حقيقة تقول : إِنَّ الَّذِي يُسَدِّي خَدْمَةً لِشَخْصٍ أَوْ يَنْعِمُ عَلَيْهِ نِعْمَةً فَسَيَكُونُ عَطْفَهُ هَذَا عَلَيْهِ مُنْطَلِقاً مِنْ حُبِّهِ لَهُ وَيَكُونُ هَذَا الْآخِرُ مُحِبًّا مِنْ اسْدِي إِلَيْهِ الْخَدْمَةِ وَالنِّعْمَةِ ، يَحْبُّ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ تَمَامًا وَيَشْكُرُهُ ، وَكَلَّمَا كَانَتْ هَذِهِ النِّعْمَةُ أَهْمَّ وَأَوْسَعُ ، كَانَ تَوْجِهُ الْعَوْاطِفِ نَحْوَ «الْمُنْعَمِ» وَ«مَعْرِفَتِهِ» أَكْثَرَ . ولهذا جعل علماء علم الكلام «العقائد» مسألة «شكر المنعم» . ومنذ القِدَمِ . إِحدى الدوافع على التحقيق حول الدين و معرفة الله.

(١) غير الحكم.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بخار الأنوار ، ج ٧٧ ، ص ٤٢١ .

(٤) تحف العقول ، ص ٣٧ (قسم من كلمات النبي عليه السلام).

ولكن يجب الانتباه إلى أن «شكر المنعم» هو قرار عاطفي قبل أن يكون قراراً عقلياً.

نختم هذه الإشارة ببيت شعر لأبي الفتاح البستي الشاعر العربي المعروف :

أحسن إلى الناس تستبعد قلوبهم فطالما استبعد الإنسان إحسان

بعد هذه الإشارة ننتقل إلى القرآن ونتأمل خاسعين في الآيات أدناه :

١. ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئَدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (النحل / ٧٨)

٢. ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا

وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (النحل / ١٤)

٣. ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيَّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

(النحل / ١١٤)

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

شكر المنعم سلم إلى معرفة الله :

تحدث الآية الأولى عن أهمية النعم الإلهية لتحرك في الناس روح الشكر وتدعوهם عن هذا الطريق إلى معرفة «المنعم» ، إنَّ الحديث عن النعمة وسيلة للمعرفة ، فقد تحدث القرآن عن «العين» و «الأذن» و «العقل» بقوله : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئَدَةَ﴾.

فعن طريق السمع تعرفون على العلوم النقلية وعلوم الآخرين.

وعن طريق البصر ومشاهدة أسرار الطبيعة وعجائب الخلقة تعرفون على العلوم التجريبية ، وعن طريق العقل تعرفون على العلوم العقلية والتحاليل المنطقية.

ومع أنَّ هذه المواضيع الثلاثة معطوفة على بعضها في هذه الآية بالواو ولا تعني

بالضرورة الترتيب ، إلَّا أنَّه ليس من المستبعد أن يكون هذا هو الترتيب الطبيعي لها ، لأنَّ

الإنسان عندما يولد لا يمتلك القدرة على النظر والمشاهدة إلى فترة من الزمن بعد ولادته ، ولأنّه معتمد على الظلام فهو يخاف من النور ويغمض عينيه لمدة من الزمن ، في حين أنّ الأذن تسمع الأصوات من أول لحظة ، ومن الواضح أنّ القدرة العقلية والتمييز والشعور تبدأ بالعمل والنشاط لدى الإنسان بعد السمع والبصر ، خاصةً وأنّ «الفؤاد» كما يصرح أرباب اللغة بمعنى «العقل الناضج العميق» ولا يمثل مرحلة عادمة من العقل ، وطبعاً فإنّ مثل هذا الشيء يظهر بعد ذلك.

فضلاً عن أنّ الآية المذكورة يمكن أن تكون إشارة إلى حقيقة أنّ الوصول إلى «الكليات العقلية» يأتي بعد العلم بـ «الجزئيات» عن طريق الحس ، وعلى كل حال ، فالآية تصرح أنّ المدف من إساءة هذه النعم هو تحريك روح الشكر لدى البشر ، والذي يدعوهم بالنتيجة إلى محنة الخالق ومعرفة الله وإطاعة أوامره.

وبالطبع فإنّ هذا لا ينافي كون بعض العلوم الإنسانية علوماً فطرية لأنّ المعلومات الفطرية عند الولادة موجودة في طبيعة الإنسان على شكل الاستعداد والقابلية ، وليس لها طابع الفعلية ، ثم تثمر بعد ذلك.

\* \* \*

الآية الثانية تشير إلى ثلات نعم إلهية أخرى تتعلق جميعها بتسخير البحار وتعتبرها دافعاً نحو الاستفادة من فضل الله وشكراً ، ومن هذه النعم :

أولاً : اللحوم التي تستخرج من البحر والسماء بـ «لَحْمًا طَرِيًّا» ، وهو اللحم الذي لم يبذل الإنسان جهداً في تربيته أبداً ، وإنما رتبه يد القدرة الإلهية في أعماق البحار ووضعه في متناول أيدي الإنسان مجاناً ، فيعتبر نعمة كبيرة ، خاصة في عصر وزمان كانت تكثر فيه اللحوم الفاسدة وكان الناس يضطرون إلى الاحتفاظ باللحوم إلى فترة معينة عن طريق تملحها أو شيهها وتجفيفها تحت أشعة الشمس ، وكانت هذه اللحوم تسبب الكثير من الأمراض والتسوس للمسافرين ، في حين كانوا يستخدمون اللحوم الطازجة بكل سهولة في سفراهم البحري أو الساحلية.

ثانياً : ثم تشير الآية إلى المواد المستعملة للزينة المستخرجة من أعماق البحار والمستخدمة من قبل البشر وتقول : ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ . أي أن الله وفر لكم أكثر المواد الغذائية ضرورة بالإضافة إلى الحاجات ذات الطابع التجميلي الصرف.

ثالثاً : وفي المرحلة الأخيرة تشير الآية إلى واحدة أخرى من بركات البحار التي كان لها دور مؤثر جداً في حياة البشر حتى في يومنا الحاضر ، وهي استخدام البحر كطريق كبير وواسع ومتصل لحمل ونقل أنواع الأmente التي يحتاجها الناس في السفر ، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ حوالي ٧٥ بالمائة من وجه الأرض مغطىً بالبحار التي تصل إلى كل نقاط العالم ، وأنّ قسماً كبيراً من البضائع والمواد الضرورية تنقل عن هذا الطريق ، وأنّ قسماً كبيراً من الأسفار يتمّ من خلال هذا الطريق ، ومن هنا تتضح أهمية هذا الموضوع.

يقول عزّل : ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَارِخَ فِيهِ﴾ .

ثم يضيف في النهاية : ﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

وبحذا جعل الالتفات إلى هذه النعم أيضاً وسيلة لإحياء روح الشكر وبالتالي اكتساب المعرفة بالله ، وإلا فما حاجة الله إلى شكرنا؟ كل هذه ذرائع إلى معرفة ذاته وصفاته والحركة نحو هذا الكمال المطلق.

والجدير بالذكر أنّ «ماواخر» هي جمع «ما خر» من مادة «خر» (على وزن فخر) ، وهذه المادة كما يستفاد من محصلة كلمات أرباب اللغة والمفسرين بمعنى الشق والخرق ، كشق «أمواج الماء» بصدر السفينة ، أوشق «أمواج الرياح» بواسطة الوجه والأنف والتقدم نحو الأمام ، أو شق الأرض لأجل الزراعة.

ولأنّ هذه الأمور غالباً ما تكون مصحوبة بالصوت فقد اطلقـت هذه المفردة على صوت هبوب الرياح الشديدة أيضاً<sup>(١)</sup> ، إنّ كل حياة الإنسان والعالم تعطـيها موانع يجب على

(١) تفسير الكبير ، ج ٢٠ ، ص ٧ وقد جاء نفس هذا المعنى في تفسير روح المعاني والقرطبي تذيلـاً ل الآية المنظورة في بحثنا.

الإنسان كشفها واحتيازها كي يشق طريقة بالتقدم والتطور ، وهذه من النقاط المهمة والحساسة.

وبالضمن فلقد علمنا أن «الماواخر» تعني السفن والمراكب ، ولذلك فقد فسر ابن عباس «الماواخر» بالسفن التي في حالة حركة «الجارية» <sup>(١)</sup> حيث إن قيمة السفينة تكمن في كونها متحركة.

\* \* \*

أما الآية الثالثة والأخيرة والتي خاطبت مشركي مكة أو المؤمنين ، وفي احتمال قوي أن الآية عنت بخطابها الاثنين معاً ، فقد أمرت بقولها : **﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾**

والملفت للنظر هنا أن الآية ذكرت في آخرها : **﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾** فالبعض قال : إن هذه القضية شرطية وذلك لأن هؤلاء لا يعبدون الله اصلاً فكيف يشكرون نعمته ، فيكون الأمر «سالباً بانتفاء الموضوع».

وأيضاً يرد احتمال حول هذه المسألة وهو أن جزء القضية الشرطية هي عبارة «فكلوا مما رزقكم الله ...» والذي ورد مسبقاً حيث يعني بان هذه الأرزاق في حالة كونها حلالاً طيباً عندما أكون عبداً ومطيناً لله سبحانه وتعالى ، لأن كل النعم خلقها الله سبحانه وتعالى من أجل المؤمنين ، ومثل ذلك مثل المزارع الذي يسقي الورد ماءً ، فهو إنما يعمل ذلك من أجل أن يحصل على الورود لا أن يجني الأشواك بالرغم من أن الأشواك لا تخلو من فوائد ، وقد ذكروا تفسيراً ثالثاً وهو أن الآية تخاطب الوثنيين ، أنكم إذا أردتم العبادة فاعبدوا من هو ولي نعمتكم ، لماذا تعبدون الأصنام التي لا دور لها مطلقاً <sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير الكبير ، ج ٢٠ ، ص ٧ ، وكذلك ورد هذا المعنى في تفسير روح المعاني وتفسير القرطبي وذلك في تفسير الآية قيد البحث هذا.

(٢) تفسير الكشاف ، ج ٢ ، ص ٦٤٠ ، وثمة تفسير آخر ورد كاحتمال من الأحتمالات في تفسير الميزان وروح المعاني تذيلاً للآيات المنظورة في البحث.

وليس من المستبعد الجمع بين هذه التفاسير لأنّ المخاطب حسب الظاهر هم جميع المؤمنين والكافرين ، بالرغم من أنّ الآيات السابقة واللاحقة تدل على أنّ الكلام موجه إلى المؤمنين أكثر مما هو موجه إلى الكفار.

وعلى كل حال ، فالعلاقة بين «النعمـة» و «الشـكـر» و «العـبـادـة» ثم «مـعـرـفـةـ الـمـعـبـودـ» و «وـليـ النـعـمـةـ» تتـضـحـ بـجـلـاءـ منـ هـذـهـ الآـيـةـ.

وبهـذاـ نـتوـصـلـ إـلـىـ الـحـافـرـ الثـانـيـ لـعـرـفـةـ اللهـ وـهـوـ مـسـأـلـةـ شـكـرـ المـنـعـمـ.

\* \* \*

### شـكـرـ المـنـعـمـ فـيـ الرـوـاـيـاتـ إـلـاسـلـامـيـةـ :

١ . جاء في حديث عن أمير المؤمنين علي عليه السلام : «لو لم يتوعد الله على معصيته لكان يجب ألا يعصي شكرًا لنعمه» <sup>(١)</sup>.

إنّ التعبير بـ«الواجب» في هذا الحديث هو في الحقيقة نفس تلك الوظيفة التي تبع من عواطف الإنسان.

٢ . نقرأ في حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشه ليتلها ، فقالت : يا رسول الله لم تتعجب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ <sup>(٢)</sup> فقال : يا عائشه ألا أكون عبداً شكوراً» <sup>(٣)</sup>.

٣ . يقول الإمام الرابع علي بن الحسين عليهما السلام في أحد أدعية الصحيفة السجادية : «والحمد لله الذي لو حبس عن عباده معرفة حمده على ما أبلاهـمـ منـ مـنـنـهـ المـتـابـعـةـ وأـسـبـغـ عـلـيـهـمـ نـعـمـهـ الـمـتـظـاهـرـةـ لـتـصـرـفـواـ فـيـ مـنـنـهـ فـلـمـ يـحـمـدـوـ وـتـوـسـعـواـ فـيـ رـزـقـهـ فـلـمـ يـشـكـرـوـهـ وـلـوـ كـانـواـ كـذـلـكـ لـخـرـجـواـ مـنـ حـدـودـ إـلـاـنـسـانـيـةـ إـلـىـ حـدـ الـبـهـيـمـيـةـ فـكـانـواـ كـمـاـ وـصـفـ فـيـ مـحـكـمـ

(١) نـجـ الـبـلـاغـةـ ، الـكـلـمـاتـ الـقـصـارـ ، الـكـلـمـةـ ٢٩٠.

(٢) إـشـارـةـ إـلـىـ ذـيـلـ الآـيـةـ الـأـوـلـىـ مـنـ سـوـرـةـ الـفـتـحـ مـنـ التـفـسـيرـ الـأـمـلـ.

(٣) أـصـوـلـ الـكـافـيـ ، جـ ٢ـ ، بـاـبـ الشـكـرـ ، حـ ٦ـ.

كتابه إنّ هم إلّا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً»<sup>(١)</sup>.

٤ . جاء في كلام آخر من نهج البلاغة : «... ولو فكروا في عظيم القدرة وجسم النعمة لرجعوا إلى الطريق وحافوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة»<sup>(٢)</sup>.  
تتصحّ من هذه الروايات العلاقة الروحية بين «شكراً النعمة» و «معرفة الله وإطاعة أوامره».

\* \* \*

---

(١) الصحيفة السجادية ، الدعاء الأول.

(٢) نهج البلاغة ، الخطبة ١٨٥ .



### ٣ . الدافع الفطري

تمهيد :

عندما نتحدث عن الفطرة فالمقصود هو نفس تلك الاحساسات الداخلية والإدراكية التي لا تحتاج إلى أي استدلال عقلي.

عندما نشاهد منظراً طبيعياً جيلاً جداً أو زهرة ذات لون ورائحة طيبة نحس بقوة جذب تدفعنا نحوها ، ويسمى هذا الاحساس بالميل نحو الجمال وحبه ولا نرى أي حاجة هنا للبرهنة على إثبات قولنا هذا.

أجل ، إن الميل للجمال يعد من الرغبات المتعالية للروح الإنسانية. إن الاندفاع نحو الدين وخاصةً معرفة الله هو أيضاً من هذه الاحساسات الفطرية والداخلية ، بل هو من أقوى الدوافع في أعماق طبيعة وروح جميع البشر. ولهذا السبب لا نشاهد قوماً أو أمة لا في الحاضر ولا في الماضي التاريخي لم تكن تمتلك نوعاً من العقائد الدينية تتحكم في فكرها وروحها ، وهذه عالمة على أصلية هذا الاحساس العميق.

وانطلاقاً من أن التوحيد الفطري يُطرح في مجال براهين معرفة الله كبرهان مستقل مع كل آياته ، لا نرى داعياً للبحث المسهب حول هذا الموضوع ، فنكتفي بذكر نقطة واحدة ونؤجل المزيد من البحث حول هذا الموضوع في محله إن شاء الله.

عندما يذكر القرآن قصص نصيحة الأنبياء العظام فإنه يؤكد في عدة مواضع على هذه النقطة وهي أن الرسالة الأصلية للأنبياء تمثل بازالة آثار الشرك والوثنية (وليس إثبات وجود الله ، لأن هذا الموضوع مخباً في أعماق فطرة كل إنسان).

وبتعبير آخر : إِنَّمَا لَمْ يَكُنُوا بِصَدَدِ غَرْسٍ «بِذُورِ عِبَادَةِ اللَّهِ» فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، بِلْ كَانُوا فِي صَدَدِ سَقَايَةِ الْغَرْسَةِ الْجَدِيدَةِ الْمُوجَودَةِ وَاسْتِعْصَالُ الْأَشْوَاكِ وَالْأَدْغَالِ الْزَّائِدَةِ الْمُضَرَّةِ الَّتِي قَدْ تَقْتَلُ أَوْ تُذَبِّلُ هَذِهِ النَّبَاتَاتِ بِصُورَةِ تَامَّةٍ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ.

وردت جملة : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ﴾ أو ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فِي كَلَامِ الْكَثِيرِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَهِيَ عَبَارَاتٌ تُفِيدُ نَفِيَ الْأَصْنَامِ وَلَيْسَ اثْبَاتٌ وَجُودَ اللَّهِ . كَمَاجَاءَ فِي دُعَوَةِ رَسُولِ الْإِسْلَامِ ﷺ : ﴿أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي لِكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ . (هُودٌ / ٢)

وَدُعَوَةُ نُوحٍ عليه السلام : ﴿أَن لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ . (هُودٌ / ٢٦)

وَدُعَوَةُ يُوسُفَ عليه السلام : ﴿... أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . (يُوسُفٌ / ٤٠)

وَدُعَوَةُ النَّبِيِّ هُودٍ عليه السلام : ﴿... أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ . (الْأَحْقَافُ / ٢١)

وَفَضْلًا عَنْ هَذَا فَإِنَّا نَمْتَلِكُ فِي أَعْمَاقِ نُفُوسِنَا أَحَاسِيسٍ فَطَرِيَّةً أَصْبِلَةً أُخْرَى ، مِنْهَا مَا نَرَاهُ فِي نُفُوسِنَا فِي الرَّغْبَةِ الشَّدِيدَةِ لِلْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْأَطْلَاعِ . فَهَلْ مِنْ الْمُمْكِنَ أَنْ نَشَاهِدَ هَذَا النَّظَامُ الْعَجِيبُ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمُتَرَامِيِّ ، وَلَا تَكُونَ لَنَا رَغْبَةُ فِي مَعْرِفَةِ مَصْدِرِ هَذَا النَّظَامِ؟

أَلِيْسَ مِنَ الْغَرَبَةِ أَنْ يَقْضِي أَحَدُ الْعُلَمَاءِ مَدَةً عَشْرِينَ سَنَةً مِنْ أَجْلِ التَّعْرِفِ عَلَى حَيَاةِ النَّمْلِ ، وَيَثَابِرُ عَلَمَ آخرَ عَشْرَاتِ السَّنِينِ لِمَعْرِفَةِ عَادَاتِ أَوْضَاعِ بَعْضِ الطَّيُورِ أَوِ الْأَشْجَارِ أَوِ اسْمَاكِ الْبَحَارِ بِدُونِ أَنْ يَكُونَ لَدِيهِ دَافِعٌ لِحُبِّ الْعِلْمِ؟ هَلْ يَمْكُنُ أَنْهُمْ لَا يَرِيدُونَ مَعْرِفَةَ مَصْدِرِ هَذَا الْبَحْرِ الْلَّامِتَنَاهِيِّ الَّذِي يَشْمَلُ الْأَشْيَاءَ مِنَ الْأَزْلِ إِلَى الْأَبْدِ؟!

نَعَمُ ، هَذِهِ دَوْافِعُ تَدْعُونَا إِلَى «مَعْرِفَةِ اللَّهِ» ، الْعُقْلُ يَدْعُونَا إِلَى هَذَا الطَّرِيقِ ، الْعَوَاطِفُ تَجْذِبُنَا نَحْوَ هَذِهِ الْأَبْجَاهِ ، وَالْفَطْرَةُ تَدْفَعُنَا إِلَى هَذِهِ الْجَهَةِ .

كَانَتْ هَذِهِ خَلَاصَةً لِلْمَحْفَرَاتِ وَالْدَّوَافِعِ الْوَاقِعِيَّةِ وَالْحَقِيقِيَّةِ لِظَّهُورِ الدِّينِ وَمَعْرِفَةِ اللَّهِ .

## توضيحات

### التبيريات المنحرفة :

هناك إصرار عجيب من قبل بعض علماء الاجتماع والنفس الماديين في الغرب والشرق على أنّ مصدر ظهور الدين والعقيدة التوحيدية معلول للجهل أو الخوف أو عوامل أخرى من هذا القبيل.

بالطبع إنّ هذا الأمر ليس عجيباً في نظر البعض ، لأنّهم كما ييدو قد اتخذوا قرارهم باتفاق مسبق ، ويعتبرون من المسلمات أن ليس ثمة شيء غير عالم المادة ، لهذا يرون أنفسهم ملزمين بأن يفسروا كل ظاهرة على أساس العوامل المادية.

من ناحية أخرى نعلم أن وجود العقائد الدينية ما ينفك ينزل أركان المادة ، وإذا أضفنا إلى هذا المعنى الصراعات الشنيعة بين الكنيسة وعلماء العلوم الطبيعية في القرون الوسطى ، يمكن الاستنتاج أنّ مثل هذه التفاسير المادية للدين والاعتقاد بالله جزء من العداء الذي تكّنه المدارس المادية للدين.

مع أنّ البحث في كل هذه النظريات بشكل مفصل يحتاج إلى أحاديث طويلة يُخرّجنا الدخول فيها عن كُنه بحثنا التفسيري ، ولكن ييدو من الضروري الإشارة إليها هنا بشكل مختصر ، لكننا نكرر أن كل هذه التفاسير قائمة على أساس أحكام مسبقة وهي أن نسلّم بعدم وجود عالم وراء الطبيعة ، وبأنّ عالم الوجود يتلخص في نفس عالم الطبيعة هذا. ويمكن تحديد هذه النظريات . أو بعبارة أدق هذه الفرضيات . بشكل عام في خمس

فرضيات :

### ١ . نظرية الجهل

يقول أحد علماء الاجتماع المعروفين : «مع أنّ العلم والفن كشف الكثير من الأسباب الخفية ، إلا أنّ الكثير من هذه الأسباب ما تزال بعيدة من نطاق العلم وباقية في لفيف

الأسرار ، وضرورة التوصل إلى هذه الأسباب دعت إلى ظهور الدين»<sup>(١)</sup>.  
ويضيف أحد الفلاسفة الماديين : أنّ الإنسان عندما ينظر إلى الأحداث من زاوية تاريخية فسيتصور العلم والدين عدوين لا يقبلان الصلح ! وذلك لسبب واضح جدّاً ، فالذى يعتقد بحركة العالم بلحاظ قانون العلية لا يستطيع أن يسمع ولو للحظة واحدة بأن يدخل عقله تصور يقول : إنّ بامكان موجود خلق الموانع والعثرات في واقع الأحداث<sup>(٢)</sup>.  
وبعبارة أبسط إِنَّهُمْ يَرِيدُونَ الْأَدَعَاءَ أَنْ جَهَلَ الْإِنْسَانَ بِالْعُلُلِ الطَّبِيعِيَّةِ كَانَ السَّبَبُ فِي تَصْوِرِهِ لِوُجُودِ قُوَّةٍ وَرَاءِ الطَّبِيعَةِ أَوْجَدَتْ هَذَا الْعَالَمُ مَا انْفَكَتْ تَدِيرَهُ ، وَلِهَذَا فَكُلُّمَا اتَّضَحَتْ أَسْبَابُ وَالْعُلُلُ الطَّبِيعِيَّةِ تَرَلَّ الاعْتِقَادُ بِالْدِينِ وَبِعِبَادَةِ اللَّهِ.

### إنّ الخطأ الأساسي لاتباع «فرضية الجهل» ينبع من :

أولاً : إِنَّهُمْ ظَنُوا أَنَّ الإِيمَانَ بِوُجُودِ اللَّهِ يَعْنِي إِنْكَارَ قَانُونِ الْعُلِيَّةِ ، وَإِنَّا عَلَى مُفْتَرَقِ طَرَيْقَيْنِ : إِمَّا التَّسْلِيمُ بِالْعُلُلِ الطَّبِيعِيَّةِ أَوْ لِوُجُودِ اللَّهِ ، فِي حِينَ أَنَّ الإِيمَانَ بِقَانُونِ الْعُلِيَّةِ وَالْكَشْفَ عَنِ الْعُلُلِ الطَّبِيعِيَّةِ مِنْ وَجْهِهِ نَظَرُ الْفَلَاسِفَةِ الْإِلَهِيِّينَ يَعْدُ أَحَدُ أَفْضَلِ طُرُقِ مَعْرِفَةِ اللَّهِ.

إِنَّا لَا نَبْحُثُ عَنْ وَجْهَةِ وُجُودِ اللَّهِ وَسَطْهُ الْفَوْضَى وَالْحَوَادِثُ الْعَامِضَةُ وَالْمَبْهَمَةُ ، أَبْدَأً ، بَلْ نَبْحُثُ عَنْ وَجْهَهِهِ فِي وَسْطِ الْأَنُورَ وَالنَّظَمِ الْمَعْرُوفَةِ لِعَالَمِ الْوَجُودِ ، لِأَنَّ وَجْهَهُ هَذِهِ النَّظَمِ عَلَامَةٌ وَاضْحَى عَلَى وَجْهَهِهِ مَصْدِرُ عِلْمٍ وَقَدْرَةٍ فِي عَالَمِ الْوَجُودِ.

ثانياً : لِمَاذَا تَرَاهُمْ يَغْفِلُونَ عَنْ هَذِهِ النَّقْطَةِ ، وَهِيَ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَمِنْذَ أَقْدَمِ الْعَصُورِ وَلَحْدَ الْآنِ يَرِى دَائِمًا نَظَامًا خَاصًا يَحْكُمُ الْعَالَمَ ؟ نَظَامًا لَا يَمْكُنْ تَبَرِيرُ ارْتِبَاطِ وَجْهَهِهِ بِالْعُلُلِ الَّتِي لَا شَعْرُورَ لَهَا ، وَكَانَ يَعْتَبِرُهُ دَوْمًا عَلَامَةً عَلَى وَجْهَةِ وُجُودِ اللَّهِ ، وَكُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّ هَذِهِ النَّظَمَ كَانَ مَعْرُوفًا فِي الْمَاضِي بِدَرْجَةِ أَقْلَى ، وَكُلُّمَا تَطَوَّرَ عِلْمُ الْبَشَرِ ، إِكْتَشَفَتْ مِنْهُ دَقَائِقَ وَطَرَائِفَ

(١) جامعه شناسى ، ساموئيل كنيك ، ص ٢٠٧ (علم الاجتماع عند ساموئيل كنيك).

(٢) الدنيا التي أراها ، ص ٥٨ . وَكُمْ هُوَ مَضْحَكُ قَوْلَ «أَوْغُسْتُ كُونْتُ» إِنَّ الْعِلْمَ عَزَلَ أَبَا الْكَائِنَاتِ مِنْ وَظِيفَتِهِ وَسَاقَهُ إِلَى مَكَانٍ مُنْزَوٍ (أَيِّ بِاِكْتِشَافِ الْعُلُلِ الطَّبِيعِيَّةِ لَمْ يَقِنْ مُثْمَةً مَحْلَ الْلَّاءِيَّانَ بِاللَّهِ) (الدَّوَافِعُ نَحْوَ الْمَادِيَّةِ ، ص ٧٦).

جديدة واتّضح علم وقدرة خالق عالم الوجود أكثر.

ومن هنا فإننا نعتقد أن «الإيمان بوجود الله» و «الدين» يتقدم إلى الأمام بتقدم «العلوم» ، وكل اكتشاف جديد لأسرار ونظم هذا العالم إنما هو خطوة جديدة لمعرفة الله بصورة أفضل ، فلم يكن بامكان السابقين أبداً أن يعرفوا الله بالشكل الذي نعرفه اليوم ، تطور العلوم لم يكن على ما هو عليه الآن.

\* \* \*

## ٢ . نظرية الخوف

ذكر المؤرخ الغربي المعروف «ول دبورانت» في تاريخه ضمن بحث عنوان منابع الدين عن الحكم الروماني «لوكروتيوس» بأنّ «الخوف هو الأم الأولى للآلهة ، ومن بين أنواع الخوف هو الخوف من الموت الذي يحتل مكانة أهم بين بقية أنواع الخوف ... ولهذا لم يكن باستطاعة الإنسان البدائي أن يصدق بأنّ الموت ظاهرة طبيعية ولذا كان يتصور له سبباً ما ورائياً على الدوام» <sup>(١)</sup>.

ويكرر «راسل» نفس هذا الكلام بصياغة أخرى في قوله :

«أتصور أنّ مصدر الدين هو الخوف والرهبة قبل كل شيء ، الخوف من الكوارث الطبيعية ، الخوف من الحروب وما شاكل ، والخوف من الأعمال غير اللائقة التي يرتكبها الإنسان أثناء غلبة الشهوات عليه» <sup>(٢)</sup>.

ويتّضح بطلان هذه الفرضية من حيث إنّ أتباعها كأنّهم قد تعاهدوا جميعهم بشكل ضمني على الاتفاق بأنّه ليس ثمة جذور ما ورائية للدين والاعتقاد بعبادة الله ، ولا بدّ من البحث عن سبب له في الطبيعة ، سبب يعود إلى نوع من الظن والخيال ، ولهذا فهم دائماً يرون الأمور الفرعية وينسون المسألة الأصلية.

(١) قصة الحضارة ، لـ «ول دبورانت» ، ج ١ ، ص ٨٩.

(٢) العالم الذي أعرفه ، ص ٥٤.

صحيح أن الإيمان بالله يمنح الإنسان طمأنينة واقتداراً روحياً ، وصحيح أنه يمده بالشجاعة قبال الموت والحوادث العصبية ، إلى درجة أنه في بعض الأحيان يكون مستعداً لكل ألوان التضحية والفداء ، لكن لماذا ننسى ما هو أمام أعين البشر دائماً أي النظام الذي يحكم الأرض والسماء والنباتات والأحياء ووجود الإنسان ذاته؟! وبعبارة أخرى فإن الإنسان مهما كان جاهلاً بعلم التشريح والفسلحة وما شابه ، لكنه حينما ينظر إلى بناء عينه وأذنه وقلبه ويده ورجله يراه بناءً عجيباً ودقيقاً ، وهذا لا يمكن تفسيره أبداً بعوامل اللاشعور والصدفة ، فنemo غصن من الزهور ، زنبور العسل ، بزوع الشمس والقمر وسيرهما المنتظم وبقية الظواهر الأخرى لا يمكن تفسير كل هذه الظواهر بالصدفة واللاشعور.

هذا هو الشيء الذي كان موجوداً ولا يزال دائماً أمام أعين الإنسان وهو السبب الأصلي في ظهور الإيمان بوجود الله ، لماذا يتجاهلون هذه الحقائق البينة ويتشتبهون بمسألة الخوف والجهل؟ لا شيء غير خوفهم من نمو العقائد الدينية؟ لماذا تركوا الطريق الأصلي النير وسلكوا الطريق المنحرف؟ والسبب هو أن الأحكام المسقبة حالت بينهم وبين معرفة الحقيقة؟!

### ٣ . نظرية العامل الاقتصادي

إن أتباع هذه النظرية يعتقدون بأن القوة التي تحرك التاريخ هو شكل وسائل الانتاج ، ويعتبرون جميع الظواهر الاجتماعية سواء الثقافية منها أو العلمية أو الفلسفية أو السياسية وحتى الدين وليدة هذا العامل !

ولأصحاب هذا الرأي تبريرات عجيبة من أجل الربط بين ظهور الأديان والمسائل الاقتصادية ، منها قولهم : إن الطبقة الحاكمة في المجتمعات البشرية قد أوجدت الدين من أجل القضاء على مقاومة الشعوب المستعمرة وتخديرها ، ويلفتون الأنظار إلى عبارة «لينين» المعروفة التي أوردها في كتابه «الاشتراكية والدين» والتي يقول فيها : «الدين أفيون الشعوب»!

ولهم في هذا الموضوع كلام كثير هو في الغالب تكرار للمكررات. ومن حسن الحظ أنّ أتباع هذه النظريّة «الاشتراكيون» قد أجابوا على إشكالاتهم بأنفسهم من خلال عباراتهم المتناقضة ، فهم عندما يواجهون الإسلام وكيف كان سبباً في حركة ونحوه أمة متخلفة ، وكيف استطاع أن ينهي سلطة المستعمرات من أمثال سلاطين ساسان وقياصرة الروم وفراعنة مصر و «تباعية» اليمن ، يضطرون إلى استثناء الإسلام على الأقل من هذا المقطع التاريخي .

وفوق كل هذا ، عندما يشاهدون اليوم الحركات والنهضات الإسلامية التي تنطلق ضد المستعمرات (خاصة في العصر الحاضر) بوجه حكام الشرق والغرب وانتفاضة الشعب الفلسطيني ضد الكيان الصهيوني ، فليس أمامهم سبيل سوى أن يشكّوا في تحلياتهم ، بغض النظر عن الذين يعيشون حصاراً في حصار ولا يستطيعون أن يصروا حتى نور الشمس الساطع.

وعلى كل حال ، مع الأخذ بنظر الاعتبار التاريخ المعاصر والقديم لا سيما الخاص بالإسلام ، يتضح جيداً أنّ الدين وخلافاً لزعمهم ليس مادة مخدرة وأفيوناً أبداً ، فضلاً عن أنّه السبب في ظهور أقوى الحركات الاجتماعية وأكثرها مثاراً للإعجاب ، والقضايا الاقتصادية تشكل بدورها جزءاً من حياة الإنسان ، وحصر الإنسان في الزاوية الاقتصادية يعتبر أكبر خطأ في معرفة الإنسان ومعرفة نوازعه وميوله المتعالية.

#### ٤ . النظريّة الجنسيّة

والآن تعالوا واستمعوا للسيد «فرويد» الذي يريد أن يقيم جسراً بين «ظهور الدين» و «الغريزة الجنسيّة» ويعتبر الدين وليداً للغريزة الجنسيّة! إنه يحاول أن يربط هذا الموضوع في فرضيته بـأحدى القبائل الوهمية (للأب في هذه القبيلة الخيالية نساء كثيرات ، أمّا الأولاد الشّباب فيعانون الحرمان ، وأحياناً ثار الأولاد وقتلوا الأب وأكلوا لحمه ، ثم ندموا على فعلتهم ، لقد غضوا النظر عن نساء القبيلة وعمدوا

إلى إدانة وتقبیح عملهم) ومن هنا نشأ بينهم نوع من الحظر وبتعبيره «تابو» أي (حظر الرواج من المحارم).

ويضيف : يوجد في القبائل المتواحشة اليوم شيء باسم «التوتم» وهو الأب أو كبير العشيرة بالنسبة لاعضاء القبيلة ، ويعتبر حاميهم وولي نعمتهم إِنَّهُمْ يَحْتَرِمُونَ «التوتم» ويتصورون أنّ عليهم أن يتشبّهوا به ويقلّدوه (هذا الاعتقاد بالتوتم نابع من نفس الاعتقاد بالقبيلة الوهمية أيضاً).

يعتقد فرويد أنّ الإيمان بالتابو والتوتم هو السبب لظهور العقائد الدينية ، ووفقاً لما ذكرنا أعلاه فإن له علاقة بالقضية الجنسية !<sup>(١)</sup>.

وفضلاً عن أنّ فرضية فرويد الجنسية قائمة على أساس اسطورة (اسطورة القبيلة الوهمية) ، فإنّ تخليلاته تشبه إلى حد كبير الأساطير والخرافات ، وهذا ناتج من أنّه ينظر إلى روح وجسم الإنسان الذي يحمل أبعاداً وميلات متنوعة من زاوية واحدة وبعد واحد.

صحيح أنّ للإنسان غريزة جنسية ، لكن من المسلم به أنّ وجود الإنسان لا ينحصر في الغريزة الجنسية ، فجسمه يقع تحت تأثير عوائز مختلفة ، ولروحه ميول متعلالية مختلفة ، «فَالنَّظَرُ مِنْ بَعْدِ وَاحِدٍ» خطأ لم يقع فيه فرويد فحسب بل إنّ الاشتراكيين الذين يحصرون وجود الإنسان في البعد الاقتصادي قد وقعا فيه بشكل آخر ، وكلا النظريتين اخطأتا خطأً فاحشاً في معرفة الإنسان.

كان الأجرد بفرويد وبدل الاعتماد على الأوهام أن ينظر إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الإنسان منذ فجر حياته وحتى اليوم أصبح نظاماً حاكماً على العالم المترامي وعلى وجوده هو لا يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية غير العاقلة وغير العالمة ، وكان هذا هو المنطلق في ظهور الاعتقاد بالله ، فلماذا يرفضون نهجاً بهذا الوضوح ويسلكون طريق الجهل والضلال؟!

(١) الاقتباس من فرويد والفرويدية.

## ٥ . نظرية الحاجات الأخلاقية

يقول «أنشتاين» في بحث عنوان «الدين والعلوم» : بقليل من الدقة يتضح أنّ الأحساس والانفعالات التي أدّت إلى ظهور الدين مختلفة ومتباعدة جدّاً .. وبعد أن يشير إلى نظرية الخوف يضيف :

إنّ النزعة الاجتماعية لدى البشر هي أيضاً من أسباب ظهور الدين ، فالفرد يرى أنّ أباً وأمه ، أصدقاءه وأقاربه ، قادته وعظامه ، يموتون ، ويرحلون من حوله واحداً واحداً ، إذن فالرغبة في الهدى والحبّة وأن يكون محبوباً في مجتمعه وأن يكون له أمل في شخص ما معتمداً عليه ، تمهد الأرضية في نفسه لقبول الاعتقاد بالله<sup>(١)</sup>.

وبهذا فهو يريد أن يفترض دافعاً أخلاقياً واجتماعياً لظهور الدين.

وهنا أيضاً نلاحظ أنّ الذين طرحا هذه الفرضية قد خلطوا بين «الأثر» و «الدافع»<sup>(٢)</sup> ، في حين أنّنا نعلم أن ليس كلّ أثر هو دافع بالضرورة ، فممن الممكن أن نعثر على كنز أثناء حفرنا لبئر عميق ، وهذا هو «أثر» ، والحال أنّه لا شك في أنّ المحرّك والداعي الأساسي لحرثنا البئر شيء آخر وهو الحصول على الماء وليس اكتشاف كنزاً.

وعليه فصحيح أنّ بامكان الدين تسكين ومعالجة آمال وألام الإنسان الروحية ، وأنّ الإيمان بالله يخلصه من الاحساس بالوحدة عند فقد الأحبّة والأصدقاء وبملاً الفراغ الناتج من فقدانهم ، ولكن هذا أثر وليس دافعاً.

الحافز الأصلي للدين والذي يبدو منطقياً جدّاً هو في الدرجة الأولى ما أشرنا إليه سابقاً ، فحينما يرى الإنسان نفسه وجهاً لوجه أمام نظام في عالم كلما تأمل فيه أكثر تعرف على عمقه وتعقيده وعظمته أكثر ، فهو لا يستطيع أبداً أن يعتبر ظهور ولو «وردة» واحدة بكل ما لها من ظرافات وبناء عجيب ، أو ظهور «عين» واحدة بكل ما فيها من نظام ضيق ودقيق ومعقد ، لا يستطيع أن يعتبر ذلك وليداً للطبيعة غير العاقلة والمصادفات العمياء الصماء ، ومن هنا يبحث الإنسان عن مبدئه لهذا النظام.

(١) الدنيا التي أراها ، ص ٥٣.

وبالطبع فهناك أمور أخرى تدعم هذا المعنى أشرنا إليها سابقاً.  
والعجب أن «انشتاين» نفسه الذي اقترح مثل هذه الفرضية تراجع عن كلامه في  
مكان آخر وأعرب عن عقيدته في موحد عالم الوجود وإيمانه الراسخ بذلك المبدىء الكبير  
بشكل ملفت للنظر ، يدل على إله ينكر الاعتقاد الممزوج بالخرافات ولا ينكر التوحيد  
الخالص من أي خرافة.

إله يقول : «ثمة وراء هذه الأوهام معنى واقعي لوجود الله لم يتوصل إليه سوى القليل  
من الناس» ثم يصرح بعقيدته وعقيدة كبار العلماء بنوع من الإيمان الديني الذي يسميه  
«الأحساس الديني بالخلق» أو «الوجود» ويدعوه في مكان آخر بـ «الحيرة اللذيدة من  
نظام الكائنات العجيب الدقيق».

والألطف من ذلك أنه يقول : «إن هذا الإيمان الديني سراج درب البحوث في حياة  
العلماء» <sup>(١)</sup>.

طبعاً الكلام هنا كثير وإذا أردنا أن نترك العنوان للقلم حسب التعبير الدارج فسوف  
نخرج عن شكل البحث في التفسير الموضوعي.  
لهذا نعود إلى أصل الحديث مرة أخرى ، وننهي هذا البحث ، ونلتفت النظر إلى أنه  
يجب البحث عن دافع ظهور الأديان في مطالعة عالم الحلقة أولأ «الحافر العقلي والمنطقى» ،  
ثم في الجاذبية الذاتية العنيفة «الحافر الفطري» ، ثم في التوجّه نحو ذلك المبدىء الكبير  
بسبب التمتع بنعمة اللامتناهية «الحافر العاطفي» <sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) الدنيا التي أعرفها ، ص ٥٦ و ٦١

(٢) من أجل مزيد من المعلومات في هذا المجال يراجع كتابنا «الحافر في ظهور الأديان».

براهين معرفة الله :

- ١ . بُرهان النظم
- ٢ . برهان التغيير والحركة (يبحث في مجلد ٣)
- ٣ . برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقير) (يبحث في مجلد ٣)
- ٤ . برهان العلة والمعلول (يبحث في مجلد ٣)
- ٥ . برهان الصدّيقين (يبحث في مجلد ٣)
- ٦ . الطريق الباطني لمعرفة الله (الفطرة) (يبحث في مجلد ٣)



## ١ . بُرهان النظم

### التمهيد :

إنّ أوسع برهان اعتمد عليه القرآن الكريم في آياته وسورة في إثبات «معرفة الله» هو «برهان النظم» بشكل غطى هذا البرهان على كافة البراهين التي وردت في القرآن الكريم. وهذا يدل على أنّ أفضل وأوضح طريق لعرفة الله وتنزيهه من كافة ألوان الشرك من وجهة نظر هذا الكتاب السماوي العظيم هو البحث في نظام الخلقة وأسرار الوجود وأيات الآفاق والأنفس.

### مميزات برهان النظم :

لهذا البرهان خصائص من أجلها اعتمد وأكّد عليه القرآن الكريم إلى هذا الحد.

- ١ . إنّ برهان النظم يقنع العلماء كما يقنع عامة الناس ، أي أنّ كل فئة تستطيع الاستفادة والانتفاع منه حسب قابليتها ، وذلك لأنّ الناس مختلفون في إدراك أسرار الخلقة.
  - ٢ . ليس في برهان النظم الجفاف الموجود في الاستدلالات الفلسفية ، بل على العكس فيه لطف خاص يمنح الإنسان حبّ الاطلاع على ذلك الميدىء الكبير ، ويوجد فيه نوعاً من الاندفاع والشوق نحوه ، ويخلق لديه حالة من الخضوع الممزوج بالحبّ ومعرفة الله ، وبتعبير آخر فهو يروي عقل الإنسان كما يروي عواطفه وأخلاقه.
- وأخيراً فإنّ برهان النظم وبسبب دراسته لأنواع النعم الإلهيّة ضمن دراسة نظم هذا العالم فهو يؤكد على مسألة شكر المنعم ، وهذا بحد ذاته حافز آخر من حواجز التوحيد.

٣ . إنّ برهان النظم برهان في حال تطور (متجدد) ، وبتعبير آخر هو برهان لا متناه ، المقدمة الكبيرة وإن كانت ثابتة ، لكن صغرها تمثل أعصاناً متفرعة ومورقة وذات برأعم نامية لهذا البرهان ، لأنّ أي اكتشاف من الاكتشافات العلمية حول أسرار الخلقة إنما يشكل مصدراًًاً وصغيراًًاً جديدة لهذا البرهان ، فهو لهذا جديداً دائماً ، وفي كل يوم يأخذ شكلاً آخرًا ، وهو متتطور ومتقدم إلى جانب تطور العلم والمعرفة البشرية.

٤ . إنّ برهان النظم يدعو الإنسان إلى سلوك الآفاق والأنفس ، وهذا السلوك المملوء بالبركة يزيد من مستوى معرفة الإنسان في كل يوم ويجعل تفكيره مزدهراً ، خاصة وأنّ أسس برهان النظم مختلطة بحياة الإنسان وهو يواجهها في كل خطوة من خطواته ، وليس كالبعض الآخر من البراهين التوحيدية التي تقع على هامش قضايا الحياة وخارجها.

٥ . برهان النظم هو البرهان الوحيد الذي يستطيع إخضاع الفلسفه التجربيين الذين ينكرون الاستدلالات العقلية الحضرة ، ويستخدم حرية العلم التي يستخدموها في إثبات «المادية» ضدهم ، وهو بهذا اللحاظ ذو فاعلية عالية.

ولهذا ليس من العجيب أن يضع القرآن الكريم الغالبية العظمى من مباحثه التوحيدية على أساسه ، لكن من العجيب أن بعض المحققين المتأثرين بشدة ببراهين أخرى (البراهين الفلسفية الحضرة) يتجاهلون الأهمية القصوى لهذا البرهان وكأنّهم لا علم لهم بمميزاته وآثاره العميقة.

### أسس برهان النظم :

يرتكز هذا البرهان في شكله الأول على ركيزتين أساسيتين ، بحسب ما هو مصطلح يشكل صغيراًًاً وكبيراً.

- ١ . هنالك نظام دقيق ومحسوب يحكم عالم الوجود.
- ٢ . أينما وجدنا نظاماً دقيقاًًاً ومحسوباًًاً فمن غير الممكن أن يكون وليد الحوادث التصادفية ، بل لابدّ أن يصدر عن علم وقدرة عظيمين.

والنتيجة هي أن هناك مبدأ علم وقدرة عظيم وراء نظام عالم الخلقة (سواء أطلقنا عليه اسم الله أو وضعنا له إسما آخر) لأن التسمية لا تؤثر في مثل هذه البحوث.

### العلاقة بين النظام والعلم :

قبل كل شيء يجب إثبات المقدمة الثانية المسمى بـ«القياس» ، ومن أجل هذا لابد من تعريف مختصر لـ«النظام».

يمكن القول : أن أي منظمة أو موجود يعمل وفق برنامج معين ويعطي نتائج معينة ، هو موجود منظم ، وعلى هذا الأساس فإن «الحساب» و «البرنامج» و «المدف» تشكل العناصر الأصلية الثلاثة للنظام ، فمثلاً الساعة نموذج لـ«الموجود المنظم» ، ذلك أن أجزاءها مصنوعة وفق حساب دقيق ، ثم هنالك برنامج لتركيبها ، والمدف منها هو التشخيص الدقيق للوقت.

ولأجل التوصل إلى هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) يمكن الاستعانة بعده أدلة :

١ . الوجود : مع أنها لم نر أبداً الكثير من العلماء الكبار والمخترعين والفنانين المهرة ، ولم يبق منهم سوى الآثار ، إلا أننا حين ننظر إلى تلك الآثار والكتب والصناعات واللوحات التحفية والأبنية البدوية ، نعترف بدون الحاجة إلى دليل بعقلهم وذوقهم وعلمهم ومهاراتهم الصناعية والفنية.

٢ . من أجل إثبات هذه العلاقة يمكن . بالإضافة إلى الوجود . الاستعانة بالدليل المنطقي ، فمن أجل أحداث بنية منظمة واظهارها إلى الوجود يجب أن يكون هناك اختيار في سبع مراحل على الأقل.

فلو تصورنا بنية عظيمة وجليلة ومحكمة ، وجب أن نمارس عملية الاختيار والانتخاب بشكل محسوب على عدة أصعدة «أولها» نوعية المواد المستخدمة ، و «ثانيها» مقدار وكمية المواد ، و «ثالثها» جودة المواد ، و «رابعها» الأشكال والأحجام المختلفة ، و «خامسها» إيجاد الانسجام بين الأجزاء ، و «سادسها» إيجاد التناوب بينها ، و «سابعها»

من حيث وضع كل من الأجزاء في مكانه المناسب.

وهذه الاختيارات السبعة يجب أن تتم كل واحدة منها وفقاً للعلم والاطلاع والحساب ، وأحياناً الحسابات الدقيقة جداً ، ومن هنا عندما نرى مثل هذه البناءة نتيقن أن صانعها بلا شك كان يملك العلم والمعرفة والاطلاع الواسع.

٣ . يمكن إثبات هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) عن طريق آخر (عن طريق البرهان

الرياضي).

إن «حساب الاحتمالات» الذي أصبح اليوم فرعاً علمياً مستقلاً في الجامعات ذو فاعلية جيدة جداً في مجال العلاقة بين النظام والعلم ، وهو نفس الشيء الذي ندركه بصورة إجمالية في حياتنا ، لكن حساب الاحتمالات يعكسه في شكلٍ رياضي واضح.

إتنا لا نصدق أبداً أن إنساناً أمياً يستطيع عن طريق الصدفة أن يؤلف كتاباً في مجال «الفلسفة» مثلاً أو «الآداب والشعر» أو «الطب» ، بمعنى أن نعطيه آلة طابعة فيبدأ بدون أن يعرف الحروف بالضغط على أزرار الآلة ليطبع كتاباً.

وليس من المستحيل كتابة كتاب علمي عن طريق الصدفة فحسب ، بل لا يمكن كتابة حتى رسالة قصيرة أيضاً.

لأنه لو افترضنا أن حروف الآلة الطابعة ثلاثة حروف فقط ، (وهي بالطبع أكثر بكثير ، لأن بعض الحروف صور متعددة ، فمثلاً حرف الباء الأولية والباء الوسطية والباء النهائية والباء المفردة تشكل أربع صور مختلفة لحرف الباء) يقول حساب الإحتمالات هنا : إن الظهور التصادفي لكلمة «من» المكونة من حرفين هو احتمال واحد من تسعينات احتمال .  
\*(١ / ٣٠ / ١ / ٩٠٠).

واحتمال ظهور الكلمة مكونة من ثلاثة أحرف هو احتمال واحد من ٢٧ ألف احتمال ، وحين نصل إلى الكلمة مكونة من خمسة أحرف سوف نحتاج حدود ٢١ مليون !! .  
والآن إذا كانت الحروف الموجودة في رسالة قصيرة هي مائة حرف فإن مجموعه احتمالات هذه الأحرف هي العدد ٣٠ مرفوعاً إلى الأس ١٠٠ بحيث أن رسالتنا المعينة

تشكل احتمالاً واحداً من هذا العدد الهائل من الاحتمالات ، أي عدداً كسرياً بسطه واحد ومقامه العدد ٣ إلى يمينه مائة صفر .

إنّ مقام هذا الكسر من الضخامة بحيث لا يمكن حسابه ، ولا شيء في هذا العالم يصل إلى ضخامة هذا العدد .

ولأجل إيضاح هذه الحقيقة يكفي أن نعلم أننا لو قطعنا جميع المحيطات على الكرة الأرضية قطرة قطرة وحسبنا عددها لكان عددها أقل من عدد على يمينه واحد وعشرون صفرأً فقط .

وعلى هذا الحساب لو حسبنا كتاباً مكوناً من ألف صفحة فإنّ عدد الاحتمالات سيتضخم إلى درجة أنّ الاحتمال التصادي لعدده الكسري «البسيط» يتساوى مع الصفر أي أنه مستحيل .

وبهذا الدليل ، إذا أدعى شخص مثلاً : أنّ «ابن سينا» مؤلف كتاب «القانون» في الطب كان أمياً تماماً ، وأنّ «المنتبّي» لم يكن له ذوق شعري مطلقاً ، وأنّ «أنشتاين» لم يكن يفقه شيئاً من الرياضيات وأنّ بنائي الأبنية التاريخية الشهيرة لم يكن لهم أدنى اطلاع في فن العمارة ، وأنّ جميع الآثار التي تركوها ظهرت بمحض الصدفة والحركات غير المقصودة لأيديهم على الأوراق أو على المواد الإنسانية! فلا شك أنّ من يقول مثل هذا الكلام إن لم يكن يمزح فهو مجنون !.

وخلال القول أنّ علاقة النظام بالعلم واضحة إلى درجة أنّ الكثير من العلوم والمعارف البشرية قائمة على النظام ، فمثلاً جزءاً منهم من تاريخ الحضارة البشرية كتب من خلال مطالعة ودراسة الآثار الجذابة للسلف التي خلفوها بعد رحيلهم .

والعلماء . بمطالعة الآثار التي يعشرون عليها بواسطة الحفريات أو التي يكتشفونها في قبور ومعابد الأقوام الغابرة . يتوصّلون إلى مستوى ثقافتهم وحضارتهم ونوعية عقائدهم . في حين إذا أنكينا علاقه النظام والعلم إنما تكفي كل هذه الاستنباطات .

الآن وقد اتضحت تماماً العلاقة بين النظام والعلم ، وبعبارة ثبتت كبرى البرهان ،

ننطّق

إلى مصاديقها في عالم الوجود التي اعتمد عليها القرآن الكريم.

واللطيف أن آيات القرآن لا تتحدث مطلقاً عن كبرى برهان النظام ، أي «علاقة النظام والعلم» ، لأنّها كانت واضحة ووهدانية إلى حد أنّه لم تكن ثمة حاجة لبيانها ، وكما قلنا فإنّ الإنسان إذا أنكر هذه العلاقة يجب عليه إنكار الكثير من الحقائق الموجودة في حياته ، وما من شك في أن منكري هذه العلاقة يشبهون بـ «السفسيطائيين» الذين ينكرون الحقائق أثناء حديثهم ، ولكنهم في حياتهم اليومية يقبلون جميع الحقائق مثل الآخرين ، فمثلاً لو ترموا يراجعون الطبيب ويستعملون الدواء وينفذون إرشادات الطبيب حرفاً بحرف ، أي أنّهم يعترفون رسميًّا بوجود «الطبيب» و «الدواء» و «علم الطب» و «الصيدلة» ومئات الأمور الأخرى الدائرة في هذا الفلك.

إنّ منكري «علاقة النظام والعلم» أيضاً بدورهم يستنتاجون علمياً وعملياً من أي أثر علمي وصناعي وأدبي وفني ، وجود مبدئي واع وذي ذوق وفن ، ولا يعتمدون أبداً على الاحتمالات المجنونة.

الآن وقد أتضحت علاقة النظام والعلم تماماً ، وثبتت كبرى البرهان حسب الاصطلاح المنطقي ، نرج على مصاديقها في القرآن الكريم والتي اعتمد عليها. ونعتقد أن من الضروري ذكر هذه النقطة وهي : أنّ الفلاسفة الماديين الذين حاربوا برهان النظم (إنكار وجود النظام في العالم أو إنكار علاقة النظام والعلم) وعلى رأسهم «دافيد هيوم» لم يتحفونا بسوى مجموعة من الوساوس التي لا قيمة لها ، الوساوس التي لم يكونوا يقبلونها في حياتهم أبداً.

\* \* \*

## ١ . آياته في خلق الإنسان

في البداية نعن خاسعين في الآيات الكريمة أدناه :

- ١ . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَتْتُمْ بَشَرً تَتَشَرَّوْنَ﴾ . (الروم / ٢٠)
- ٢ . ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبَتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ . (الإنسان /

(٢)

- ٣ . ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ .

(المؤمنون / ١٢ و ١٣)

- ٤ . ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحَسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَيَدْأَبُ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْنَدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ . (السجدة / ٦ - ٩)

- ٥ . ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يُبْثِتُ مِنْ ذَابَةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقَنُونَ﴾ (١) . (الجاثية / ٤)

\* \* \*

## شرح المفردات :

«بَشَرٌ» : من أصل «بَشَرَة» بمعنى ظاهر جلد الإنسان ، ولكن يستفاد من «مقاييس اللغة» أنّ أصلها هو ظهور شيء ذي حسن وجمال ، لذا فإنّ حالة «البَشَر» (على وزن الْيُسْر) بمعنى الفرح والانبساط ، وانطلاقاً من أنّ هذه الحالة خاصة بالإنسان ، كانت مفردة «البَشَر»

(١) هنالك في هذا المجال آيات متعددة أخرى أيضاً ، صرفنا النظر عن ذكرها لتقريب مضمونها مع ما ذكرناه من الآيات ، من جملتها آيات سورة النجم ، ٤٥ - ٤٦ . ٦٧ ؛ غافر ، ١١ ؛ فاطر ، ٣٨ . ٣٧ ؛ الكهف ، ٤ ؛ النحل ، ٢ ، ٤ ؛ الانعام ، ٤ .

اسمًا للنوع الإنساني <sup>(١)</sup> ، وهذه المفردة تطلق على الرجل والمرأة والمفرد والمشنى والجمع <sup>(٢)</sup> .  
**«سُلَالَةٌ»** : (على وزن عُصَارَة) بمعنى الشيء المأخوذ من شيء آخر ، فيكون خلاصته وعصارته ، وهي في الأصل من **«سَلَّ»** على وزن **«حَلَّ»** بمعنى سحب وحرر برفق وتستخدم لسحب السيف من القرباب أيضًا ثم اطلقت على عصارة وخلاصة الأشياء <sup>(٣)</sup> ، وحينما نقرأ في الآيات المذكورة أن الله خلق الإنسان من سلالة من طين ، فمعنى ذلك من العصارة المصطفاة من الطين ، وقال البعض : إن المراد من هذا هو أن آدم مخلوق من عصارة كل الأترة الموجودة على الأرض (ولهذا فقد استخلص آثار الجميع في وجوده) وإطلاق **«السليل»** على **«الابن»** من باب أنه ناتج من عصارة وجود الأب والأم.

**«النطفة»** : في الأصل بمعنى **«الماء الصافي»** ، واعتبرها بعض أهل اللغة بمعنى **«الماء القليل»** ، وبما أن الماء الذي يمثل المبدأ في ظهور الإنسان قليل ومصطفى وعصارة من كل الجسم فقد أطلقت هذه المفردة عليه ، ويقال للسوائل الحارة **«ناطف»** أيضًا.

**«أمشاج»** : جمع **«مَسْبَحٌ»** (على وزن نشج) بمعنى الشيء المخلوط ، والبعض اعتبرها جماعًا **«مشيَّح»** ، ولأن ماء الرجل والمرأة يختلطان عند انعقاد نطفة الإنسان فقد أطلقت هذه المفردة عليه.

جاء في **«لسان العرب»** أن هذه المادة في الأصل بمعنى اللونين المختلفين الذين يتزجان مع بعضهما (ثم أطلقت على الأشياء المختلفة التي تختلط مع بعضها).

خلق الإنسان من (نطفة أمشاج) ، يمكن أن تكون إشارة إلى المواد المختلفة التي تشكل النطفة ، أو القابليات المتنوعة التي تجتمع في النطفة عن طريق عامل الوراثة وغيره من العوامل ، أو أنه إشارة إلى كل هذه الامتزاجات.

\* \* \*

(١) مقاييس اللغة ، لسان العرب والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٢) لسان العرب ، وجمع البحرين.

(٣) مفردات الراغب ، مجمع البحرين ، ولسان العرب.

## جمع الآيات وتفسيرها

### آيات الأنفس الأولى :

للقرآن الكريم عبارات متعددة حول بداية ظهور الإنسان ، يقول في أول آية بهذا

الخصوص :

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾.

ويقول في الآية الرابعة : ﴿وَبِئْدًا خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ﴾.

ويقول في الآية الثالثة : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾.

ويقول في الآية ١١ من سورة الصافات : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَأَرْبِ﴾.

ويقول في الآية ٢٦ من سورة الحجر : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِّا

مَسْنُونٍ﴾.

و جاء في الآية ١٤ من سورة الرحمن : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَارِ﴾.

«الصلصال» : في الأصل يعني لوي الصوت في الجسم اليابس ، ولهذا سمى الطين اليابس الذي يصدر منه صوت عند ارتطام جسم آخر به بالصلصال ، وحين يفخر على النار يقال له «الفخار».

«الفخار» : مأخذ من مادة «فخر» أي الفخور كثيراً ، ولأن الأشخاص الفخورين أناس كثيروا الضجيج والكلام وفارغون ، فقد أطلق هذا الاسم على الكوز وكل فخار فارغ الجوف ، بل أطلق على كل أنواع الفخار <sup>(١)</sup>.

يستفاد من مجموع الآيات أعلاه أن الإنسان كان تراباً في البداية ، وقد امتنج هذا التراب بالماء واستحال إلى الطين ، وقد أخذ هذا الطين بعد مضي فترة شكل الوحل ثم استخلصت من عصاراته المادة الأصلية لآدم ثم جُفِّفت ، وباحتيازها المراحل المهمة تكون آدم.

لكن في آيات أخرى من القرآن كالآية الثانية المعنية ، يعتبر خلقة الإنسان من نطفة

(١) مفردات الراغب ؛ وجمع البحرين ؛ ولسان العرب.

مختلطة : ﴿مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾.

وفي الآية الثالثة يعتبرها أولاً من «عصارة الطين» ، ثم من «نطفة في الرحم» : ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾.

واضح أن المراد من هذه الآيات هو خلقة الإنسان في المراحل والأحياء اللاحقة ، وبهذا فإن جدنا الأول مخلوق من التراب ، وأولاده وعقبه من نطفة أمشاج.

وثمة احتمال في تفسير الآية أعلاه هو : بما أن المواد المكونة للنطفة مأخوذة جميعها من التراب (لأن غذاءنا إنما من المواد الحيوانية أو النباتية ونعلم أن جميع هذه المواد نحصل عليها من التراب) ، لهذا فلم يكن الإنسان الأول من التراب فحسب ، بل إن جميع الناس في المراحل اللاحقة ينشأون من التراب أيضاً<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وعلى كل حال ، فهذه حقيقة من العجائب الكبيرة في عالم الوجود وغرائب عالم الخلقة أن يولد . من مادة ميتة وبلا روح ولا قيمة لها كالتراب . موجود حي وعاقل ذو قدر وقيمة كالإنسان ، فهذه من الآيات البينات لذلك المبدىء الكبير ، و «إن ذلك الخالق جدير بالشكر والثناء لأنّه خلق من الماء والطين مثل هذا الشكل الجذاب».

وبشكل عام فإن ظهور الحياة من موجود ميت ما يزال من ألغاز عالم الفكر والمعرفة ، فضمن أي شروط وظروف يخرج موجود حي من موجود ميت كالتراب؟ يعتقد كل العلماء أن الكورة الأرضية حين انفصلت عن الشمس كانت كلها ناراً محترقة ، ولم تكن عليها حياة مطلقاً ، ثم بردت قليلاً قليلاً وهطلت عليها سيول الأمطار من العازات المضبوطة الموجودة حولها ، ف تكونت البحار ، بدون أن يكون فيها كائن حي ، ثم ظهرت بوادر الحياة سواء النباتية أو الحيوانية وأخيراً خلق الإنسان!

إننا سواء اعتقدنا بالخلق المستقل للإنسان (كما هو ظاهر الآيات القرآنية) ، أو

اعتبينا

(١) ورد في تفسير الميزان ، ج ١٦ ، ص ١٧٣ إشارة مقتضبة لهذا المعنى.

الإنسان متكاملاً من أنواع الأحياء الأخرى (كما يقول أتباع داروين ، ونظريه التكامل) ، فمهما كان فإن جذور هذا الإنسان تعود إلى التراب ، فهو منشق ومخلوق منه ، وإذا كان ظهور كائن حي أحادي الخلية وبمحاري من التراب ، مخيّراً لأفكار كل العلماء ، فكيف بظهور الإنسان من التراب الميت الخلالي من الروح؟

هنا يجب الاعتراف أننا بأجزاء آية كبيرة من آيات الحق وعلامة مخيّرة من عظمة الله ، آية من العالم الصغير هي نموذج متكامل للعالم الكبير.

يقول كاتب «سر خلق الإنسان» «غرسي موريسن» في معرض إشارته إلى بداية ظهور الحياة على الكوكبة الأرضية :

«وَقَعَتْ حَادِثَةٌ عَجِيبَةٌ فِي بَدْيَةِ ظَهُورِ الْحَيَاةِ عَلَى الْكُوكَبِ الْأَرْضِيِّ كَانَ لَهَا أَثْرٌ كَبِيرٌ عَلَى حَيَاةِ الْمُوْجُودَاتِ الْأَرْضِيَّةِ ، حِيثُ أَصْبَحَ لَاحْدِي الْخَلَائِيَا خَاصَيَّةٌ عَجِيبَةٌ وَهِيَ أَنَّهَا وَبِوَاسِطَةِ ضُوَءِ الشَّمْسِ بَدَأَتْ تَحْلُّلَ وَتَحْرِزَ بَعْضِ التَّرَاكِيبِ الْكِيمِيَّيَّةِ وَتَوَفَّرَ بِهَا الْعَمَلُ الْمَوَادُ الْغَذَائِيَّةُ لِنَفْسِهَا وَلِسَائِرِ الْخَلَائِيَا الْمُشَابِهَةِ ، وَقَدْ تَغَدَّتِ الْخَلَائِيَا الْمُشَنَّطَةُ مِنْ إِحْدَى هَذِهِ الْخَلَائِيَا الْبَدَائِيَّةِ عَلَى الْأَغْذِيَّةِ الَّتِي وَفَرَّتْهَا لَهُمْ أَمْهَمُهُمْ وَأَوْجَدَتْ جِيلَ الْحَيَّانَاتِ ، فِي حِينٍ أَنَّ خَلِيلَةً أُخْرَى بَقَيَتْ عَلَى شَكَلِهَا الْبَنَائِيِّ وَكَوَنَتْ نَبَاتَاتَ الْعَالَمِ ، وَهِيَ الْيَوْمُ تَغْذِي كُلَّ الْأَحْيَاءِ الْأَرْضِيَّةِ.

ثُمَّ يُضَيِّفُ : هَلْ يُمْكِنُ التَّصْدِيقُ أَنَّهُ وَحْسَبُ الصَّدِفَةِ كَانَتْ إِحْدَى الْخَلَائِيَا مُنْشَأًا لِحَيَاةِ الْحَيَّانَاتِ وَخَلِيلَةً أُخْرَى كَانَتْ أَصْلًاً وَمَصْدِرًاً لِلنَّبَاتَاتِ؟».

وَوَفَقَ قَوْلُ آخَرِينَ :

إِنَّ الْعَلَمَاءَ يَقْسِمُونَ مُوْجُودَاتِ عَالَمِ الْمَادِ إِلَى نَوْعَيْنِ ، الْعَضُوَيْةِ (وَهِيَ الْمُوْجُودَاتِ الْقَابِلَةِ لِلْفَسَادِ كَأَنْوَاعِ النَّبَاتَاتِ وَأَجْسَامِ الْحَيَّانَاتِ) ، وَالْمُوْجُودَاتِ الْلَّا عَضُوَيْةِ «الْمَعْدِنِيَّةِ» الَّتِي لَا تَقْبِلُ الْفَسَادَ ، وَلِهَذَا يَقْسِمُونَ الْكِيمِيَّاءَ إِلَى قَسْمَيْنِ «الْكِيمِيَّاءِ الْعَضُوَيْةِ» وَ«الْلَّا عَضُوَيْةِ».

تَشَكَّلُ الْمَوَادُ الْعَضُوَيْةُ جَمِيعًا أَطْعَمَةُ الْإِنْسَانِ تَقْرِيَّاً ، وَهِيَ مَأْخُوذَةُ كُلِّهَا مِنِ التَّرَابِ ،

وحين تدخل جسم الإنسان تكون تراكيب كيميائية جديدة تناسب تغذية كل عضو من الأعضاء ، وهذه نفس الحقيقة التي يبينها القرآن بعبارة : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ أو ﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾<sup>(١)</sup>.

صحيح أنّ للإنسان علاوة على المادة الترابية روحًا إلهية ، ولكن لا شك أنّ الروح تكون مظهراً للأعمال والأفعال المختلفة بالتنسيق مع الجسم وعليه فإنّ هذه المادة الترابية تستطيع بالتنسيق مع الروح أن تقدم أنواع القابليات والأذواق والابتكارات والأعمال التي يختار فيها العقل.

مع أنّ الإنسان صار موضوعاً لعلوم مختلفة ، وهناك عالم خاص حول كل جانب من جوانبه يمارس دراساته وأبحاثه ، إلّا أنّ الإنسان ما يزال موجوداً مجھولاً ، ويلزم من الوقت سنين طويلة لكي يحل العلماء بجهودهم المتواصلة هذا اللغز الكبير في عالم الوجود وينيروا زواياه ، ورّيما لم يستطيعوا أبداً أن يقوموا بذلك !

يمكن لكل عضو من أعضاء جسم الإنسان أن يكون لوحده موضوعاً لحساب الاحتمالات : العين ، الأذن ، القلب ، العروق ، الجهاز التنفسي ، الكلى ، المعدة ، الكبد ، وأخيراً الجهاز العصبي المعَدّ ، وبعملية رياضية بسيطة يتضح أن أي عقل لا يوفق على أكّها خلقت صدفة.

نعم ، إله من أجل التوصل إلى بنية ونوع فعالية وفصيلة كل واحد من الأعضاء فقد درسآلاف العلماء والعقول المفكرة وكتبت مئات أوآلاف الكتب حولها.

هل يصدق أحد أنه من أجل معرفة كل واحد من هذه الأعضاء تلزم كل هذه العلوم والعقول والذكاء والدراءة ، بينما لا يلزم صنعها علماً وعقلاً على الإطلاق؟! كيف يمكن أن يكون فهم أسلوب عمل إحدى المعامل متطلباً لسنين من المطالعة ، بينما تكون صناعة هذا المعلم قد حصلت على يد العوامل غير العاقلة؟ أي عقل يصدق هذا؟!

هنا لا يعتبر ظهور الإنسان من المادة البسيطة (التراب) ومن سلالة من طين ومن

الحما

(١) مقتبس من إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة ، ص ٢٣ و ٢٤ .

المستون إحدى أعمال الخلق العظيمة والآيات الكبيرة على وجود الله فحسب ، بل إنّ كل واحدة من خلايا الجسم بامكانها أن تكون مرآة عاكسة لعظمة الله وجوده.

### التعقيد والدقة في نظام الخلق :

يقولون : إن للجهاز الفلاني نظام معقد ، هذا عندما يكون بناؤه متكوناً من أجزاء وتشكيلات مختلفة ذات ارتباطات متعددة ومتعددة ، ويقوم بأعمال متباعدة مهمة ، فمثلاً الحاسبة الألكترونية التي تستطيع فضلاً عن أعمال الحساب الأصلية أن تحل أنواع المعادلات الجبرية والقضايا الهندسية وتؤدي مختلف الحسابات الرياضية بسرعة أو تحفظها في حافظتها ، تعتبر ذات نظام معقد.

يقول العلماء : إن خلف غشاء شبكيّة العين يوجد تسعون ألف حزمة عصبية تربط بين خلايا الشبكيّة وسلسلة الأعصاب (بالطبع لكل عين من عيني الإنسان تسعون ألف حزمة) وهذا نظام عجيب ومعقد جدّاً ، وبأخذ هذه النقطة بنظر الاعتبار نعود إلى أصل البحث :

في عالم الخلقة وعلاوة على قضية الظرافة والدقة ، ثمة أنظمة معقدة غاية التعقيد ، تبهر الإنسان وتحيره ، وحسب تعبير بعض العلماء فإنّ في مدينة جسم الإنسان العظيمة أبنية تكون أكبر ناطحات السحاب في العالم إلى جانبها مثل كوخ طيني. وكما نوج : نأخذ بناء الخلية وهي من بين الأنظمة المعقدة في العالم ، والذى اكتشفتاليوم أسرار عظيمة منه.

وكذلك فإنّ الإنسان وبشكل معدل في جسمه «عشرة ملايين مiliar» وحدة حية صغيرة تسمى «الخلية».

كان أول من اكتشف الخلية ووضع لها تسمية ، عام ١٦٦٥ يدعى «هوك» في القرن السابع عشر الميلادي ، وطبعاً فإنه لم يكن يعلم يومذاك ما في بناء هذه الوحدة الصغيرة من تعقيد يبعث على الحيرة ، ولكن العلماء الذين جاؤوا بعده واصلوا مساعيه وتوصلوا إلى أسرار نسرد فيما يلي جانبًا من شهادتهم :

١ . يمكن تشبيه خلية مجهرية واحدة بمدينة فيها آلاف التأسيسات مجهزة بمنشآت ومعامل لتبديل المواد الغذائية إلى المواد التي يحتاجها الجسم ، بحيث لا يمكن أن نقيس أعظم وأحدث الظواهر الصناعية للبشر بها.

٢ . تتكون هذه المدينة الصغيرة والصاخبة من ثلاثة أقسام :

أ) جدار الخلية وهو بمثابة سور المدينة.

ب) القسم الأوسط للخلية (السايتو بلازم).

ج) النواة أو مركز القيادة.

إنّ سور المصنوع حول الخلية من اللطافة والظرافة بحيث لو وضعنا ٥٠٠ ألف من هذه الجدران إلى جانب بعضها فمن الصعب أن تساوي سمك ورقة اعتيادية ! ومع هذا فهو حساس ومحكم قبال هجوم العوامل الخارجية إلى درجة أن سور الصين المعروف ليس شيئاً يذكر بالقياس إليه !

وهذا السد الرقيق مصنوع بدوره من ثلاثة جدران أو من ثلاثة طبقات اصطلاحاً ، يتشكل طفافاً من الأنسجة البروتينية وأسفله مليء بالدهنيات وهذه الدهنيات لاتسمح لشيء أبداً بالدخول داخل المدينة إلا بفتح رمزي ، وهذا المفتاح الرمزي هو : أنّ المواد التي تريد الدخول إلى المدينة يجب أن تتمكن من إذابة دهون الجدار فيها والنفوذ إلى الداخل ، وهذا دليل يثبت أنّها صديقة وليس من الأعداء ، وبهذا فإنّ هذه المدينة محروسة بشدة من كل جانب بدون حاجة إلى حارس.

٣ . يوجد في داخل هذه المدينة (الخلية) قنوات كثيرة تمرّد من الجدران إلى أطراف «النواة» ، أي حصن قيادة الخلية ، تأخذ المواد الغذائية وتحيلها إلى بروتينات.

واللطيف أنّ ٢٣ نوعاً خاصاً من الأحماض تدخل هذه الخلية ، والبروتين يتكون من تركيب عدة أنواع منها.

٤ . النواة الأصلية بمفردها تمثل ناطحة سحاب مكونة من آلاف الطبقات بحيث تكون ناطحات السحاب المعروفة في نيويورك متزلاً متواضعاً إلى جانبها.

للنواة الأصلية في الخلية وهي مقر القيادة تشكيلات معقدة : غشاء النواة ، العصارة الداخلية ، والخدمات الرفيعة حولها التي تتولى كل منها مهمة خاصة.

٥ . العجيب أنّ في نواة الخلية وحدات صغيرة جداً وظيفة تسمى «الجينات» يصل عددها طبقاً لدراسات العلماء إلى حدود ٢٥ ألف جين.

ليست «الجينات» هي الكل في الكل في أعمال الخلايا وحسب ، بل إنّها تمسك بكل نشاطات الجسم ، ومن أهمها التحكم بالأمور الوراثية ونقل الصفات والخصائص إلى الخلايا اللاحقة ، أي أنّ انتقال كل الصفات الوراثية عند البشر وسائر الحيوانات يتمّ عن طريق الجينات.

ولأنّ العمل الأساسي للجين يقع على عاتق الحامض الخاص في النواة ، لذا يمكن تسميته بالعقل الإلكتروني أو كامبيوتر الجين.

والأعجب من هذا ، أنّ نفس هذه الجينات متكونة من أجزاء أخرى تصل طبقاتها من ٣٠ إلى ٥٠ ألف حسب ما يعتقد العلماء.

وختصر الكلام أنّ هذه المدينة العظيمة بذلك السور العجيب وألاف المنافذ والبوابات ، وألاف المعامل والمخازن وشبكة الأنابيب ومركز القيادة بتأسيساته الكثيرة وارتباطاته المتعددة والنشاطات الحياتية المتنوعة في تلك الحدود الصغيرة ، من أعقد وأدهش مدن العالم ، إذ إنّا لو أردنا أن نصنع مؤسسات تقوم بنفس الأعمال (ولا نستطيع ذلك أبداً) ، وجب علينا اقتطاع عشرات الآلاف من المكتارات من الأرض لوضعها تحت اختيار هذه المؤسسات والأبنية المختلفة والأجهزة المعقدة لتكون جاهزة لمثل هذا البرنامج ، لكن المدهش أنّ نظام الخلق قد ضغط كل هذا في مساحة تعادل ١٥ مليون مليمتر !<sup>(١)</sup>.

أجل ، في خلقة الإنسان آلاف آلاف من الآيات والعلامات الإلهية : ﴿الْعَظَمَةُ لِلَّهِ﴾.

**الواحد القهّار** ﴿﴾.

\* \* \*

---

(١) من كتب فسلحة الحيوان ، فسلحة الوراثة ، والسفر إلى أعماق وجود الإنسان.



## ٢ . آياته في نمو الجنين

تمهيد :

ظللت تحولات نمو الجنين في بطن أمه ولسنين طويلة خافية عن أعين العلماء ، إلى أن رفعت يد العلم النقاب عن هذا العالم المملوء بالأسرار ، وأظهرت أن النطفة عندما تستقر في محلها من الرحم وتبدأ سيرها التكاملية ، ماذا تطوي من المراحل المختلفة والمتعددة حتى تصبح على هيئة إنسان كامل ، والعجيب أن القرآن الكريم أكد عدة مرات على قضية نمو الجنين في آياته المختلفة وفي ذلك العصر والزمان الذي لم تكن فيه علوم ولا اكتشافات ، تارةً لإثبات التوحيد وتارةً لإثبات المعاد.

مع إن «علم الأجنة» ما زال في مراحله الأولى ، ومعلوماتنا عن هذا العالم الغامض ما تزال قليلة جدًا ، ولكن حتى هذا المقدار الذي كشف العلم البشري النقاب عنه ، قد وضع دنيا من العجائب والغرائب مقابل أعين العلماء.

بهذه الإشارة نتأمل خاسعين في الآيات الكريمة التالية :

- ١ . ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ \* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ \* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا \* ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ . (المؤمنون / ١٤ . ١٢)
- ٢ . ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّنْ مَّنِيْ \* ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَى \* فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى﴾ . (القيامة / ٣٧ . ٣٩)
- ٣ . ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ . (يس / ٧٧)

٤ . ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقْتَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ

سَوَّاْكَ رَجْلَاهُ﴾ . (الكهف / ٣٧)

٥ . ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

إِتَّبَعْتُمُوهُ أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلَتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ

تَعْقِلُونَ﴾<sup>(١)</sup> . (غافر / ٦٧)

\* \* \*

### شرح المفردات :

«العلقة» : من مادة «علق» (على وزن شفق) وهي في الأصل بمعنى العلاقة والإرتباط

بشيء ، ولهذا جاءت كلمة «علق» بمعنى «الدم المتاخر» و «الديдан المصاصة للدماء» ،

وقد سميت «العلقة» بهذا الاسم لأنها أحدى مراحل تكوين الجنين في رحم الأم ، فهي تشبه

قطعة الدم المتاخرة<sup>(٢)</sup> .

جاء في «مقاييس اللغة» أنّ أصل مفهوم هذه المفردة هو ارتباط وتعلق شيء موجود

أعلى منه ثم اتسع مفهومها بعد ذلك<sup>(٣)</sup> .

«المضخة» : من مادة «مضخ» بمعنى مضخ الطعام ويعنى قطعة اللحم التي يمضغها

الإنسان لمرة واحدة شرط أن تكون غير مطبوخة ، وإطلاق هذا المصطلح على إحدى

مراحل الجنين التي تأتي بعد مرحلة «العلقة» جاء من باب تشابهها مع مثل هذا اللحم ،

ففي ذلك الحين يصبح الجنين على شكل قطعة حمراء فيها الكثير من العروق ذات اللون

الأخضر ، ويقال أحياناً «قلب الإنسان مضخة من جسده» ، كل هذه التعبيرات تعود إلى

أصل واحد<sup>(٤)</sup> .

(١) توجد على هذا الصعيد آيات أخرى في القرآن الكريم نكتفي بذكر رقمها وسورتها لتقارب معناها من الآيات

المذكورة أعلاه ، فاطر ، ١١ ؛ والحج ، ٥ .

(٢) مفردات الراغب.

(٣) وفي كتب اللغة الأخرى تشبه هذا التعبير كما في لسان العرب وجمع البحرین.

(٤) مقاييس اللغة ؛ مفردات الراغب ؛ مجمع البحرین ؛ لسان العرب وصحاح اللغة.

«المني» : في الأصل من مادة «مَنَى» (على وزن سَعَى) بمعنى التقدير والقياس ، وبما أنّ في ماء النطفة مقياس إنسان أو حيوانٍ ما ، فقد اطلقت هذه المفردة عليه ، ولهذا أيضاً يسمى الموت بـ «المني» فهي الأجل المقدر للإنسان أو الحيوان.

وإطلاق مفردة «التميّ» على الآمال جاء بسبب أنّ الإنسان يُصوّر ويُحدّد آماله في قلبه ، ولأنّ الكثير من الآمال لا تطابق الواقع تأتي مفردة «الأمنية» أحياناً بمعنى الكذب<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### عالم الجنين الغامض :

كما أشرنا سابقاً فإنّ القرآن الكريم أكد مراراً على مسألة المراحل التكاملية لنمو الجنين في رحم الأم ، ودعا الناس كافة إلى مطالعتها بدقة ، واعتبرها إحدى الطرق للوصول إلى معرفة الله ، وكذلك إحدى طرق إثبات إمكانية المعاد.

إنّ الآيات الأولى المعنية بالبحث وبقرينة العبارة الأخيرة منها : **﴿فَتَسَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾** تشير إلى قضية التوحيد ، وبالرغم من أنّ الآيات اللاحقة من نفس سورة «المؤمنون» هذه تدلّ على أنها تشير إلى قضية المعاد أيضاً وبهذا تكون هذه الآيات قد تعرضت إلى مسألة معرفة الله وتوحيده بالإضافة إلى معاد.

وقد تحدثت في البداية عن خلق الإنسان من **﴿سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾** ثم من **﴿نُطْفَةٍ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾** ، وبعد ذكر هاتين المراحلتين تنتقل إلى ذكر خمس مراحل أخرى :

١ . مرحلة «العلقة» حيث تتبدل النطفة إلى دم متاخر في داخله الكثير من العروق.

٢ . مرحلة «المضعة» حيث يصبح هذا الدم المتاخر على شكل قطعة من اللحم.

٣ . مرحلة «العظم» حيث تتبدل كل الخلايا اللحمية إلى خلايا عظمية.

٤ . يأتي دور مرحلة تغطية العظام باللحم حيث تغطي العضلات كل العظام :

**﴿كَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾**.

(١) مفردات الراغب ، مجمع البحرين ، ولسان العرب.

٥ . هنا تغير لمحجة القرآن وتخبرنا عن تحول وخلق مهم وجديد للجنين ، فيقول بتعبير فيه أسرار وخفايا : ﴿ثُمَّ أَنْشَأَنَا هُنْكُمْ أَخْرَى﴾ .

وعندما تنتهي هذه المراحل السبع يصف القرآن هذه الحلقة العجيبة أجمل وصف بعبارة : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ، وهي عبارة لم تأت في أي آية أخرى من القرآن ولم تستخدم في مجال أي موجود آخر .

ذكر المفسرون تفاسير متنوعة في المراد من العبارة الغامضة : ﴿الْخَلْقُ الْآخِرُ﴾ . ويبدو أن أنسابها وأقرها إلى القصد هو بلوغ الجنين مرحلة الحياة الإنسانية ، حيث يظهر فيه الحس وينبدأ بالحركة ، ويضع قدمًا في عالم الحيوانات والبشر ، يعبر القرآن عن هذه الطفرة الكبيرة والعجيبة بكلمة «الإنساء» في إشارة إلى الطريق الطويل الذي يقطعه الإنسان خلال هذه المدة القصيرة .

نقرأ في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير عبارة : ﴿ثُمَّ أَنْشَأَنَا هُنْكُمْ أَخْرَى﴾ قوله : «هو نفح الروح فيه» <sup>(١)</sup> .

صحيح أنّ الجنين كائن حي منذ لحظاته الأولى ، ولكنه وحتى فترة معينة لا يمتلك أي إحساس وحركة في بطن الأم ، ويكون في الحقيقة أشبه بالنبات منه بالحيوان أو الإنسان ، ولكن بعد مضي عدة أشهر تُبَعَّثُ فيه الروح الإنسانية ، ومن هنا جاء في الروايات الإسلامية أنّ الجنين لا يستحق قبل بلوغه هذه المرحلة الدية الكاملة أبدًا ، أمّا إذا بلغ هذه المرحلة كانت ديته نفس الديمة الكاملة للإنسان <sup>(٢)</sup> .

التعبير بـ «أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» بالرغم من أنّه لا خالق غير الله إنّما هو لأجل أنّ مفردة «الخلق» ليست فقط بمعنى الإيجاد بعد العدم فحسب ، بل لها معانٌ أخرى منها : «التقدير» و «الصناعة» و «إعطاء الأشكال الجديدة للأشياء الموجودة في العالم» ، ولا شك أنّ الإنسان يستطيع بما منحه الله من قوى أن يوجد تغييرات كثيرة على مواد هذا العالم

(١) تفسير نور الثقلين ، ج ٣ ، ص ٥٤١ ، ٥٦ و ٥٧ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٥٤١ ، ٥٦ و ٥٧ .

المختلفة ، فيصنع من الحديد والفولاذ المсанع والمعامل أو يبني من المواد الإنسانية بناءً عظيماً بأحجام مختلفة.

إذن فللخلق مفهوم واسع يشمل كل هذه الأمور.

ولهذا ورد في القرآن الكريم عن لسان النبي عيسى عليه السلام قوله : ﴿إِنِّي أَخْلُقُ كُلَّمَنَ الطِّينِ كَهْيَةً الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ . (آل عمران / ٤٩)

وبالطبع فإنّ الخالق الحقيقي أي ذلك الذي يوجد المادة والصورة وإليه تعود كل قدرات وخصائص الأشياء هو الله فقط ، ومهمة غيره من الخالقين وهم الخالقون المجازيون ، هي تغيير الأشكال وتصميم الموارد.

\* \* \*

تشير الآية الثانية من الآيات المنظورة إلى مرحلة بداية ظهور الإنسان أولاً ، أي عندما كان قطرة ماء حقير اسمه المني ، ثم تذكر مرحلة العلقة فقط من بين مراحل نمو الجنين ولا تذكر المراحل الأخرى إلا تحت عنوان : ﴿فَخَلَقَ فَسَوَى﴾ وهو تعبير شامل جداً ، وتشدّد خاصة على قضية ولادة الجنس «المذكر» و «المؤنث» وهي من أعقد المظاهر المتعلقة بعلم الأجنحة : ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الرَّوْجَيْنِ الذَّكَرُ وَالْأُنْثَى﴾ .

«سوى» : من مادة «تسوية» بمعنى التنظيم والتسوية ، ويعتقد البعض أنّها إشارة إلى خلق الروح الذي جاء في الآية السابقة بشكل آخر.

ويرى البعض أنّ كلمة «الخلق» إشارة إلى خلق الروح ، وكلمة «سوى» إشارة إلى تنظيم وتعديل أعضاء الجسم الإنساني ، وفسّرها البعض بالتعديل والتكميل . لكن الظاهر أنّ تعبيرات الآية شاملة وواسعة بحيث تستوعب كل ألوان الخلق والتنظيم والتعديل والتكميل التي تطأ على العلقة حتى ساعة وضع الحمل<sup>(١)</sup> .

يقول الراغب في كتاب المفردات : تقال «التسوية» لصيانته الشيء من الأفراط والتفرط من حيث المقدار والنوعية.

(١) تفاسير القرطبي ، روح المعاني ، في ظلال القرآن ، الميزان والكبير ، في التعقيب على الآية المعنية.

في الآية الثالثة يؤكد على نقطة جديدة أخرى ويقول بعد الإشارة إلى خلق الإنسان

من النطفة ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

وقد وردت تفاسير متعددة لهذا التعبير : فقالوا تارة إنّما إشارة إلى مرحلتي «الضعف» و «القوّة» لدى الإنسان ، حيث كان يوماً ما نطفة حقيقة ويصبح لاحقاً قوياً ومتقدراً إلى درجة قيامه بالخصومة والضجيج ازاء كل شخص حتى ازاء الله! .

وقالوا تارة إنّما إشارة إلى ملكة النطق والفهم والشعور لدى الإنسان ، فهذه النطفة الحقيقة يصل بها الأمر إلى عدم الاقتصار على النطق فقط ، بل إلى التمتع بالقدرة على الاستدلال المنطقي بانواعه والاقتدار العقلي ، ونحن نعلم أنّ ظاهرة النطق والبيان والمنطق والاستدلال من أهم ظواهر الوجود الإنساني.

وقيل أحياناً : إنّ هذا التعبير إشارة إلى النزاع العجيب الذي يحصل بين الخلايا الذكيرية «الحيامن» من أجل التسلط والاتحاد بالخلية الانثوية «البيضة» ، لأنّ نطفة الذكر عندما تدخل الرحم تتحرك آلاف الحيامن بسرعة كبيرة لتصل إلى نطفة الأنثى وتتحد معها. وأول حيمن يصل إليها وينفذ إلى داخلها يسد الطريق على بقية الحيامن ، لأنّ غشاء مقاوماً سيحيط بالبيضة وينبع من نفوذ بقية الحيامن إليها ، وبهذا فإنّ البقية سيهزمون في هذا الصراع العجيب ويعتصهم الدم ، ولهذا يشير القرآن الكريم بعد ذكر مرحلة النطفة إلى قضية ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

في الآية الرابعة أيضاً يرد ذكر الخلقة من التراب ثم النطفة وبعد ذلك مرحلة التسوية والتنظيم ، وفي الآية الخامسة وهي آخر الآيات يضيف القرآن إلى كل هذا مرحلة «الولادة» وخروج الجنين من بطن الأم على شكل طفل وليد : ﴿لَمَّا يُخْرِجُكُمْ طِفَالًا﴾.

وكما نعرف فإنّ أهم عجائب الجنين هي نهاية عمره ، بالولادة ، أية عوامل تؤدي إلى

(١) إعجاز قرآن از نظر علوم روز ، ص ٢٧ (بالفارسية).

إصدار الأوامر للجنين بالخروج في لحظة معينة! وتقلبه عن شكله العادي (في الحالة العادية يكون رأس الجنين إلى الأعلى ووجهه إلى ظهر الأم) فترسل رأسه إلى الأسفل لتسهيل عملية ولادته؟!.

في البداية يُخرب كيس الماء الذي كان الجنين يسبح فيه ، وخرج الماء ويستعد الجنين لدخول الدنيا لوحده.

يصيب الأم ألم شديد ، تضغط كل عضلات بطنها وظهرها وجانبيها على الجنين ، وتدفعه إلى الخارج.

إن التفاعلات الكيميائية والتغييرات الفيزيائية التي تحصل للجسم أثناء الولادة على درجة من الغرابة والعجب بحيث تحكي جميعها عن علم وقدرة غير متناهيين أوجدا هذه البرامج مثل هذا المدف المهم.

وبهذا نستنتج بوضوح من الآيات المذكورة أن النظام المعقد والمذهل لنمو الجنين يُعدُّ من الآيات والعلامات المهمة التي تخبر عن وجود العلم والقدرة اللامتناهية لموجده ، ومن جانب آخر على قدرته على قضية المعاد والحياة بعد الموت ، ذلك أن الجنين يتخذ كل حين حياءً ومعاداً جديداً ، ولذلك كان هذا النمو دليلاً على التوحيد بقدر ما هو دليل على المعاد.

\* \* \*

### توضيحات

#### ١ . صورة في الماء

هنا لك مثل رائق ومشهور عندما يراد التذكير بعدم ثبات شيء معين فيقولون : «إنه كالصورة في الماء» لأنها تتبعه بأقل حركة أو نسيم ، لكن العجيب أن الله الكبير يجعل كل الصور المختلفة للإنسان وللكثير من الأحياء الأخرى صوراً في الماء ويدع كل هذه الصور في قطرة من ماء النطفة ، من يرسم الصور في الماء سوى الله الكبير؟

## ٢ . في ظلمات ثلاث

والأغرب من ذلك حسب قول القرآن ، هو أنّ هذه الخلقي التي يوجدها الله واحدة تلو الأخرى في ماء النطفة ليخرجها خلال فترة قصيرة على هيئة إنسان كامل يقوم بها عَجْلَنَ جميعاً في محل مظلم لا تصل إليه يَدُ أحد ، كما يقول القرآن : **﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أَمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلْمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لِأَلَّا هُوَ فَائِي تُصْرِفُونَ﴾** . (الزمر / ٦)

إنّ الظلمات الثلاث كما يرى الكثير من المفسرين وكما أشارت بعض الروايات هي : ظلمة بطن الأم ، ثم ظلمة الرحم ، وبعد ذلك ظلمة «المشيمة» (الكيس الخاص الذي يحتوي الجنين) التي تكون على شكل ثلاث ستائر سميكّة حول الجنين <sup>(١)</sup> . يحتاج الرسامون والناحاتون المهرة أن ينفذوا صورهم أمام النور والضياء الكامل ، لكن ذلك الخالق الكبير يرسم صورة على الماء في ذلك المنزل المظلم بحيث يفتّن ويهز الجميع ويجذبهم للمشاهدة.

## ٣ . مقر الأمان والأمان

يقول القرآن بصرامة : إننا جعلنا نطفة الإنسان في مقر الأمان والأمان : **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكْبُنِ﴾** . (المؤمنون / ١٣)

والحقيقة إنّ أكثر نقاط الجسم صوّناً هي تلك التي تستقر فيها النطفة والجنين بحيث تكون محمية من كل جانب ، فمن ناحية هنالك العمود الفقري والأضلاع ، ومن ناحية أخرى هنالك العظم القوي المسمى بالخوض ، ومن ناحية ثالثة الأغطية والعضلات المتعددة التي تحتويها البطن ، بالإضافة إلى أن أيدي الأم تحول بشكل لا شعوري أشياء وقوع بعض الحوادث الخطيرة إلى درع مقابل البطن !

(١) تفسير مجمع البيان ؛ تفسير الميزان ؛ التفسير الكبير وتفاسير أخرى (روى المرحوم الطبرسي في مجمع البيان نفس هذا المعنى ضمن حديث عن الإمام الباقر عَلَيْهِ الْكَفَافُ).

والأغرب من كل هذا أن الجنين يقع في داخل كيس مملوء بماء لزج بحيث يكون معلقاً في داخل ذلك الكيس وفي حالة تامة من فقدان الوزن ، أي لا يواجه أي ضغط من أي جانب ، ذلك لأن بنية الجنين وخاصة في بداياته تكون رقيقة جداً بحيث يمكن لأقل ضغط عليه أن يسحقه.

ولهذا الكيس بما يحتويه من ماء خاصية القابلية على مواجهة الضربات ، وهو تماماً كاللواكب المزنة التي توضع لأفضل السيارات ، حيث بامكانها امتصاص وابطال مفعول أية ضربة توجه إليه نتيجة الحركات السريعة للأم.

والألطف أنه يحفظ درجة الحرارة بالنسبة للجنين ضمن الحدود المعتدلة ، ولا يسمح للحرارة والبرودة المفاجئة التي تهاجم بطنه الأم من الخارج أن تترك آثارها بسهولة على الجنين ! فهل يمكن العثور على مقر أكثر أماناً من هذا؟ وما أجمل تعبير القرآن حين يسمى مقر النطفة بـ «القرار المكين»؟!

#### ٤ . خصيّم مبين

هذه أيضاً إحدى عجائب الجنين ، سواء فسّرناها بمعنى قدرة الإنسان على الكلام والاستدلال والاحتجاج ، كما قال بعض المفسرين ، أو فسّرناها كونها المسابقة والنزاع الذي يحصل بين الحيامن أثناء الحركة باتجاه البوياضة (نطفة الأنثى) في رحم الأم ، والذي ينتهي بنجاح أحد الحيامن في اتحاده بالبوياضة ، أمّا بقية الذين اهزموا في هذه الخصومة فاُنهم يفنون ويجدّبهم الدم ، أو اعتبرناها إشارة إلى كلام التفسيرين.

وعلى كل حال ، فهذه من النقاط الظريفة والبدعة للجنين ، إذ يظهر من موجود منحط وحقير ظاهرياً إلى ظاهرة سامة وقيمة جداً.

#### ٥ . تغذية الجنين

تغذية الجنين بدورها إحدى العجائب ، لأن النمو والرشد السريع للجنين يستلزم مواداً

غذائية كاملة ونظيفة ومصفّاة من ناحية ، ومن ناحية أخرى يحتاج إلى الأوكسجين والماء بالقدر الكافي الذي يجب أن يصل الجنين بشكل مستمر ، وقد جعل الله هذه المهمة على عاتق جهاز اسمه «الحبل السري» الذي خلقه منذ اللحظات الأولى إلى جانب الجنين ، والذي يرتبط من أحد طرفيه بقلب الأم عن طريق شريانين ووريد واحد ، ومن طرفه الآخر بالجنين عن طريق عقدة السرة.

يمتص هذا الجهاز كل المواد الغذائية والماء والأوكسجين اللازم بواسطة نظام الدورة الدموية للأم ، ثم ينقل هذه المواد بعد تصفيتها ثانيةً إلى الجنين ، ثم يقوم باستقطاب الفضلات والروائد والكاربونات وما شاكل ويعيدها إلى دم الأم.

إذن فالحبل السري يلعب دور الجذب والدفع بالإضافة إلى كونه مصفّي بحيث يستطيع الإنسان من خلال مجرد مطالعته للبناء المذهل لهذا الحبل السري أن يصل إلى عظمة الخالق.

اللطيف أنه ورد حديث عن أحد المعصومين عليهما السلام يقول فيه ما معناه : إن الجنين يستفید من النسم الذي تستنشقه الأم !

لم تمض سوي سنوات على اكتشاف العلماء بأنّ رئتي الجنين لا تقومان بنشاطهما التنفسي وأنّه يسبح في ماء الرحم وأنّه بحاجة إلى الأوكسجين؟ ولم تمض سوي سنوات على معرفتهم أنّ الأوكسيجين الذي تستنشقه الأم يدخل إلى دمها وينتقل إلى الحبل السري فيتفتح منه الجنين عن طريق سُرْتَه؟

على أية حال ، لم يمض زمن طويل على ذلك لكن العين البصيرة للإمام عليهما السلام رأت هذه الحقيقة منذ مئات السنين فقال : إن الجنين يستفید من هذا النسم ، هل هناك تعبير مقابل الهواء الملوث الذي تتنفسه أفضلي من كلمة النسم الذي استخدمه الإمام للاشارة إلى الأوكسيجين؟<sup>(١)</sup>

(١) إقتبس من كتاب أولين دانشكاه ، ج ١ ، ص ٢٥٣ (بالفارسية).

## ٦ . مصير الجنين من حيث الجنس

لم يتمكن أحد من الإجابة عن السؤال القائل : كيف وبتأثير أيّة عوامل يصير الجنين ذكراً أو أنثى؟ أيّ أنّ العلم لم يعثر لحد الآن على جواب له ، فمن الجائز أن تكون بعض المواد الغذائية أو الأدوية مؤثرة في هذا المجال ، لكن المسلم به هو أن تأثيرها ليس مصرياً وجازماً.

ومع هذا فالعجب مشاهدة تعادل نسبي دائم بين هذين الجنسين (الرجل والمرأة) في المجتمعات البشرية ، وإن كان ثمة اختلاف فأنه ليس بالاختلاف الملفت للنظر.

تصوروا يوماً يختل فيه هذا التعادل فتكون نسبة الرجال إلى النساء عشرة إلى واحد مثلاً ، أو على العكس يكون عدد النساء عشرة أضعاف الرجال ، أية مفاسد عظيمة سوف تظهر؟ وكيف سيضطرب نظام المجتمعات البشرية؟ وهل أن المجتمع الذي يكون فيه مقابل كل رجل عشر نساء أو مقابل كل إمرأة عشرة رجال يستطيع أن يوفر لنفسه حياة هادئة؟ لكن الذي خلق الإنسان لحياة سالمه ، أوجد هذا التوازن العجيب والغامض فيها ، أجل إن الله تعالى ووفقاً لمشيئته وحكمته يهب لمن يشاء ذكوراً ويهب لمن يشاء إناثاً : ﴿يَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ إِناثاً وَيَهَبْ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ . (الشورى / ٤٩) لكن هذه المشيئه والإرادة محسوبة.

## ٧ . تغييرات سريعة ومبهمة

من العجائب الأخرى في الجنين ، أن النطفة الأصلية للإنسان تكون في بدايتها مجرد موجود أحادي الخلية ، ينمو ويكثر بواسطة الانشطار على شكل متواالية هندسية ، تحدث هذه الكثرة وهذه التحولات بصورة سريعة جداً وكما قال القرآن : ﴿خَلَقْنَا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ﴾ ولو استمر هذا النمو على هذه السرعة بعد الولادة لكان للإنسان خلال مدة قصيرة قامة بطول الجبال ! ولضيق به وجه الأرض ، ولكن نفس الذي منح الجنين السرعة في سيره التكاملية سوف يخفف منها عند وصول الإنسان إلى مرحلة معينة ثم يوقفها بالتدرير !

## ٨ . نظرة الرحم المستقبلية !!

ما هي العوامل التي تجعل من الخلايا الناتجة عن خلية واحدة تأخذ أنواعاً متباعدة :  
خلايا غضروفية ، عظمية ، عضلية ، جلدية ، وغيرها؟ هل هو الرحم الذي قدر مستقبل  
هذا الموجود فمنع الخلايا أشكالها كلاً في محلها؟ إن كان له مثل هذا الذهن والقدرة والإبداع  
فمن وبه هذا الذهن والقدرة والإبداع؟!

يقول العالم المعروف «الكسيس كارايل» في كتاب «الإنسان ذلك المجهول» : «كأنَّ  
كل جزء من الجسم على معرفة بالاحتياجات الحالية والمستقبلية لكل الجسم ، وهو يغير  
نفسه وفقاً لهذه الاحتياجات ، للزمان والمكان مفاهيم أخرى عند الأنسجة ، لأنَّها  
(الأنسجة) تدرك جيداً بعيداً كإدراكها للقريب والمستقبل كإدراكها للحال ، فمثلاً تصبح  
الأنسجة اللينة للأعضاء الجنسية للمرأة في نهاية فترة الحمل ألين وأكثر قدرة على الاتساع ،  
وهذا التغيير يُسهل عبور الجنين في الأيام اللاحقة عند الولادة ، وفي نفس الوقت تزداد خلايا  
الثدي ويكبر هذا العضو بل إنه يمارس نشاطه وينتاج اللبن استعداداً لتغذية الوليد حتى قبل  
الولادة ..

إنَّ وضع وسلوك العضلات على طول فترة نمو الجنين في رحم الأم ، يكون وكأنَّها  
تعلم المستقبل مسبقاً ، فيُراعي انسجام الأعضاء في لحظتين زمنيتين متفاوتتين أو في نقطتين  
مكانيتين مختلفتين» <sup>(١)</sup>.

مهما سميَّنا هذا الموضوع فاته لن يتغير ، لكنه على أية حال يخبر بوضوح عن وجود  
مبدأ كبير للعلم والقدرة فيما وراءه.

## ٩ . كفاءة العظام

قرأنا في تفسير الآية ١٤ من سورة المؤمنون أنَّ للقرآن تعبيراً خاصاً عن قضية ظهور  
العضلات يقول فيه : **﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾** ، إنَّ اختيار كلمة : **﴿كَسَوْنَا﴾** إحدى  
معجزات القرآن العلمية ، فقد ثبتاليوم أنَّ العظام تظهر قبل الأنسجة اللحمية <sup>(٢)</sup>.

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ١٩٠.

(٢) إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة ، ص ٢٩.

## ١٠ . خروج الجنين

كما قرأنا في تفسير الآية ٥ من سورة الحج ، فإنّ الله ينسب إخراج الجنين من الرحم إلى نفسه : **﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾** إنّ هذا التعبير يكشف عن أهميّة عملية الولادة التي توصل إليها العلماء في عصرنا الحاضر .

ما هو العامل الذي ينظم زمان الولادة؟ وما هي الظروف الالزامية لإصدار الأوامر للجنين بالخروج؟ وكيف تُعدُّ جميعُ أعضاءِ الجسم لهذا التحول المهم؟ وضمن أيّة عوامل ينقلب جسم الجنين تدريجياً ليخرج رأسه إلى الدنيا أولاً؟ هل تراه يعلم أنّ ولادته ابتدأ برجليه غير مكنة أو أنها مستعصية جدّاً؟ من يصدر الأوامر لكل عضلات جسم الأم بتسلیط أشد الضغوط على الجنين من أجل الخروج؟

وتطهّر أهميّة هذا الموضوع عندما يختل هذا النّظام نادراً ويضطر الأطباء إلى عملية «فتح البطن» «الولادة القصصيّة» ، وربما كان وجود مثل هؤلاء الأشخاص القلة ، إنذاراً للجميع لكي يفكروا بأهميّة هذا الموضوع .

بالطبع يمكن في بعض الحالات التنبؤ بزمان الولادة على وجه التقرّيب ، ولكن في بعض الحالات تحصل الولادة قبل الموعد وأحياناً بعده . وهكذا فإنّ عملية الولادة بكل ما يتعلق بها من أمور محسوبة ، إنّ هي إلّا آية أخرى من آياته تبارك وتعالى .

## ١١ . التغييرات المذهلة في لحظة الولادة

ذكرنا أنّ أحداً لا يستطيع تعين لحظة الولادة بصورة دقيقة ، وما يتتبّع به الأطباء عموماً أو خصوصاً لإخبار الناس فإنه ذو طابع تخميني فقط ، كما تقول الآية :

**﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَرْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾**

(١) . (الرعد / ٨)

(١) «تغیض» من مادة «غیض» على وزن فیض يعني امتصاص السائل أو احتوائه ، ثم جاءت بمعنى النقصان .

ظاهر الآية أنّ هذا من العلوم الإلهيّة الخاصة ، وهو العلم بخصائص الجنين من كل الجوانب قبل ولادته ، فهو عَجُلٌ لا يعلم بالجنبين من حيث جنسه فقط وإنما يعلم بكل قابلياته وأذواقه وصفاته الظاهرة والباطنة ، كما أنّ لحظة ولادته لا يعلمها إلّا الله ، ومن أجل أن لا نتصور أنّ الزيادة والنقصان تأتيان بدون حساب أو ميرر ، بل إنّ ساعتها وثانيتها ولحظتها محسوبة جميّعاً ، فقد أضاف قائلاً : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

المثير هو ظهور تغييرات عجيبة على نظام حياة الوليد في لحظة ولادته وهي تغييرات ضرورية جدّاً لتكيفه مع المحيط الجديد ، وسوف نشير إلى اثنين منها فقط :

أ) تغيير نظام دوران الدم ، فعملية دوران الدم في الجنين دوران بسيط ، لأنّه لا يتحرك الدم الملوث نحو الرئتين من أجل التصفية ، إذ لا تنفس هناك ، ولهذا كان إثنان من أجزاء قلبه (البطين الأيمن والأيسر) الذي يتحمل أحدهما مسؤولية إيصال الدم إلى الأعضاء والثاني يتحمل مسؤولية إيصال الدم إلى الرئتين للتصفية ، على اتصال مع بعضهما ، ولكن بمحرّد أن يولد الجنين تُغلق البوابة بينهما وينقسم الدم إلى قسمين ، قسم يُرسل إلى كل خلايا الجسم لتغذيتها والقسم الآخر إلى الرئتين لتصفيته.

أجل ، ما دام الجنين في بطن الأم فإنه يحصل على ما يحتاج من الأوكسجين من دم الأم ، لكن عليه أن يكتفي ذاتياً بعد الولادة ويحصل على الأوكسجين بواسطة الرئة والتنفس ، الرئة التي كانت قد خُلِقتْ وأُعِدَتْ مسبقاً بشكل تام في رحم الأم ، سوف تمارس عملها فجأة بأمر إلهي واحد ، وهذا من العجائب حقاً.

ب) إنسداد عقدة السُّرّة وجفافها وسقوطها (عادةً ما يقطعون عقدة السُّرّة التي تعتبر طريق تغذية الجنين بواسطة الحبل السري من دم الأم ، ولكن حتى لو لم يقطعوها فإنّها تتيبس وتسقط تدريجياً).

---

وكذلك بمعنى الفساد ، ولهذا فسر البعض كلمة تغيير في الآية أعلاه بمعنى نقصان الجنين والبعض بمعنى الولادة قبل الموعد وهو المعنى المشهور بين المفسرين ، وهو المروي في حديث عن الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليهما السلام ، كما أنّ ذيل الآية يدل على ذلك.

أيًّا كما أنَّ طريق الحصول على الاوكسجين يتغير عند الولادة ، فإنَّ طريق التغذية يتغير أيضًا ويشكل مفاجيًّا ، ويبدأ الفم والمعدة والأمعاء التي اكتملت في الفترة الجنينية ولكنها لم تكن تعمل ، فتبدأ بالعمل فجأة ، وهذه واحدة أخرى من العجائب المهمة في خلقة الإنسان.

## ١٢ . بكاء الأطفال

غالبًا ما يكثر الأطفال الرضع من البكاء ، من الممكن أن يكون هذا البكاء دلالة على آلامهم ، فهم لا يمتلكون لسانًا غير لسان البكاء للافصاح عن الألم ، أو أنَّه بسبب الجوع والعطش ، أو بسبب الانزعاج إزاء ظروف الحياة الجديدة سواء كانت حراً أو بارداً أو ضوءً شديداً أو ما شابه ، لكن من الممكن أن يكثي الأطفال بدون هذه الظروف أيضًا ، وهذا البكاء رمز حيائهم وبقائهم.

فهم في ذلك الحين بحاجة شديدة إلى الرياضة والحركة والحال أن ليس بامكانيهم الرياضة ، الرياضة الوحيدة القادرة على تحريك كل وجودهم بما فيه الأيدي والأرجل والقفص الصدري والبطن وإدارة الدم بسرعة في كل العروق لتغذية كافة الخلايا بصورة متواصلة ، هي «رياضة البكاء» التي تعتبر بالنسبة للطفل رياضة كاملة ، ومن هنا إذا لم يبكِ الوليد فيتحمل أن يتعرض لأضرار جمة أو تتعرض حياته كلها إلى الخطر.

وفضلاً عن هذا فإنَّ هنالك رطوبة عالية في مخ الأطفال إذا بقيت هناك يمكن أن تؤدي إلى أمراض وأوجاع شديدة ، أو تسبب العمى ، والبكاء يعمل على خروج الرطوبة الزائدة من أعينهم على شكل دموع ، فيضمن ذلك صحتهم.

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبِين في حديثه المعروف بـ «توحيد المفضل» بعد الإشارة إلى هذا الأمر : «أَفَلَيْسَ قَدْ جَازَ أَنْ يَكُونَ الْطَّفَلُ يَنْتَفِعُ بِالْبَكَاءِ وَوَالْدَاهِ لَا يَعْرَفَانِ ذَلِكَ فَهُمَا دَائِبَانِ لِيُسْكِنَاهُ وَيَتَوَحَّيَانِ فِي الْأُمُورِ مَرْضَاتِهِ لَنَلَا يَكْيُّ ، وَهُمَا لَا يَعْلَمَانِ أَنَّ الْبَكَاءَ أَصْلَحُ لَهُ وَأَجْلَمُ عَاقِبَةً ...» <sup>(١)</sup>.

(١) بخار الأنوار ، ج ٣ ، ص ٦٥ و ٦٦.

وفي نفس الرواية ، يشير الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى جريان الماء من أفواه الأطفال الذي يكتمل مهمّة دموع أعين الأطفال ، ويقول : «فجعل الله تلك الرطوبة تسيل من أفواههم في صغرهما لما لهم في ذلك من الصحة في كبرهم» <sup>(١)</sup>.

### ١٣ . اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الأطفال

لو كان للطفل عقل منذ البداية فلا شك أنه كان يتّألم بشدة ، لأنّه سوف يشعر آنذاك بالضعف والمذلة ، فهو لا يستطيع المشي ولا الأكل ولا القيام بأبسط الحركات ، يجب أن يلقّوه بقمash ويضعوه في المهد ويعطوه بعضاً ويشطفوه ويحفظوه.

يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ ضمن الإشارة إلى هذا الموضوع في حديثه المسمى بـ «توحيد المفضل» : «إنه لو كان يولد تام العقل مستقلاً بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد ، وما قدر أن يكون للوالدين في الأشتغال بالولد من المصلحة ...» <sup>(٢)</sup>.

بالإضافة إلى أنّ الانتقال إلى عالم جديد بكل شيء ومحظوظ كان سبب له من الوحشة والاضطراب ما قد يضر بفكرة وأعصابه ، لكن تلك القدرة الأزلية التي خلقت الإنسان للتكامل قدرت فيه كل هذه الأصول.

كذلك لو كانت حواسه متكاملة ، وفتح عينيه فجأة وشاهد مشاهد جديدة واستمعت أذنه إلى الأصوات والأنغام الجديدة ، لما كان في وسعه تحملها ، فكان التدريج في تلقي برامج الحياة الجديدة هو الأسلوب الأمثل.

الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئَدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. (النحل / ٧٨) وفقاً لهذه الآية فإنّ الإنسان لا يمتلك أي علم في البداية ولا يتمتع حتى بالسمع والبصر ، ثم وهب الله القدرة على السمع والنظر والتفكير ، رِيمَا كان ذكر السمع قبل ذكر الأبصار

(١) بخار الانوار ، ج ٣ ، ص ٦٥ و ٦٦.

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٤.

إشارة إلى أن النشاط السمعي عند الوليد يبدأ أولاً ، وبعد فترة تكتسب الأعين قدرتها على الابصار ، بل إن البعض يعتقد وكما أسلفنا أن للأذن في عالم الجنين مقداراً من القابلية على السمع ، فهي تسمع أنغام قلب الأم وتعتاد عليها.

#### ٤ . غذاء الطفل مُعدٌ قبل ولادته

لا يستطيع وليد الإنسان والكثير من الحيوانات في بداية ولادته أن يأكل الأطعمة الجافة والثقيلة ، ولهذا فقد هيأت يد الخالق المقتدرة غذاءً خاصاً في ثدي الأم إسمه «اللبن» ، والحقيقة أن نفس دماء جسم الأم التي كان الطفل ينتفع منها في الفترة الجنينية تحول إلى لبن ضمن عملية تغير واسعة وسريعة ، فتغذّيه حتى الفترة اللاحمة.

يتغير شكل ثدي الأم بصورة تدريجية خلال فترة الحمل ، ويكبر شيئاً فشيئاً نتيجة الإفرازات التي يقذف بها الجبل السري إلى دم الأم ليأمرها بالاستعداد الكامل ، وهكذا يُهيء الثدي نفسه لوظيفته المستقبلية الثقيلة.

إن الأنابيب الموجودة في الثدي والممتدة حتى قمة الثدي «الحلمة» ، تتشعب وتزداد وتفرز إفرازات بسيطة ، وعند ولادة الطفل تعلن عن استعدادها التام.

العجب أن ترشح اللبن من خلايا الثدي ليس دائماً وإلا لخرج اللبن بصورة متواصلة إلى الخارج ، بل إنه بمجرد ملامسة شفتى الوليد لثدي الأم ويدئه بالامتصاص تتجه الحوافر العصبية عن طريق الأعصاب إلى النخاع ومن النخاع إلى المايبوتالموس فتؤدي إلى نوعين من الإفراز ، يصب أحدهما في الأثداء عن طريق الدم فيضغط على الأنسجة الحبيطة بأنابيب اللبن ليندفع اللبن باتجاه الحلمة ، وتتم كل هذه الأعمال خلال ٣٠ ثانية ، والأعجب أنّ اللبن لا يتحرك في ذلك الثدي الذي يرضع منه الطفل فقط ، بل يحدث هذا في الثدي الآخر أيضاً فيكون مستعداً ، ولذا يؤكد الأطباء على إرضاع الوليد من كلا الثديين.

اللبن غذاء كامل ، وخاصية لبن الأم الذي يعتبر غذاءً أكمل بالنسبة لوليدها ولا يستطيع شيء في العالم أن يحل محله.

يحتوي الحليب على أنواع الفيتامينات كفيتامين A، B، D، P وفيتامينات أخرى ، وقد اكتشف فيه العلماء ٢٢ مادة مختلفة ، علاوة على أنواع الأنزيمات <sup>(١)</sup> ، والكثير من الأدوية الضرورية تنتقل عن طريق لبن الأم إلى ولديها ، ومن هنا فإن الأطفال المحرمون من لبن الأم يصابون بمحظوظ الأعراض .

يبدو أنّ لبن الأم لا يغذى جسم الطفل فحسب ، بل إنّه يروي عواطفه وروحه أيضاً ، ولهذا قد يصاب المحرمون من لبن الأم بمشاكل ونواقص عاطفية بعض الأحيان .

وعلى هذا الأساس يقول القرآن الكريم : ﴿وَالوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أُولَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَ الرَّضَاعَة﴾ . (البقرة / ٢٣٣) إنّ عجائب وغرائب اللبن أكثر من أن يحتويها هذا المختصر ، وإذا أردنا أن نترك العنان للقلم مثل هذه الأبحاث تكون قد خرجننا عن بحثنا التفسيري .

\* \* \*

---

(١) من أجمل مزيد من الاطلاع تراجع دائرة معارف القرن العشرين ، مادة (لبن) ، والجامعة الأولى (أولين دانشگاه) ، ج ٦ ، وإعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة ، وقد وردت إشارات مثيرة حول هذا المعنى في حديث توحيد المفضل (بحار الأنوار ، ج ٣ ، ص ٦٢) .

### ٣ . آياته في عالم الحياة

تمهيد :

إن ظاهرة الحياة هي أعقد ظواهر هذا العالم حسب ما نعلم ، ظاهرة حيرت عقول كل العلماء ، وقد مضتآلاف السنين والعلماء يفكرون فيها ، لكن هذا اللغز لم يُحل لحد الآن.

ما هو السبب الذي أدى إلى أن تضع الموجودات الحامدة وبطفرة عجيبة ، أقدامها في مرتبة الحياة والعيش فتكون لها تغذية ونمو وتناسل؟!

من الممكن أن يصنع الإنسان جهازاً بالغ التعقيد ( كالعقل الإلكتروني المتطورة جدأ ) بعد قرون من التجارب ، وهذا بدوره شاهد على سعة اطلاع وعمرنة من صنعوه ، ولكن هذا الجهاز الدقيق والمعقد للغاية لا ينمو أبداً ، ولا يداوي أو يرممكسورة وعيوبه ، ولا يتناصل بصورة مبدائية مطلقاً.

أما الكائنات الحية ، فإنها فضلاً عن بنائها الدقيق والمعقد والمذهل إلى أقصى الحدود ، فانها تستطيع القيام بهذه الأعمال وأعمال أخرى كثيرة ، والقليل من المطالعة حول وضعها يشكل آية واضحة ودليلًا يبيناً على العلم والقدرة اللامتناهية لخالقها.

يُكثّر القرآن من الاستناد إلى موضوع الحياة والموت في آياته المختلفة ضمن قضية إثبات وجود الله ، ونفي الشرك بانواعه ، ويؤكد عليه كثيراً ، والحق أنه كذلك.

بعد هذه الإشارة نقرأ خاسعين الآيات الكريمة أدناه :

١ . ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبَّ وَالنَّوْيَ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَلَمَّا تُوفَّكُونَ ﴾ . (الانعام / ٩٥)

- ٢ . ﴿كَيْفَ تَكُفُّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . (البقرة / ٢٨)
- ٣ . ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . (يونس / ٥٦)
- ٤ . ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ الَّلَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ . (المؤمنون / ٨٠)
- ٥ . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُونِ اللَّهِ مِنْ وَلَىٰ وَلَا نَصِيرٌ﴾ . (التوبه / ١١٦)
- ٦ . ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ أَبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ . (الدخان / ٨)
- ٧ . ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ . (البقرة / ٢٥٨)
- ٨ . ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمُصِيرُ﴾ . (ق / ٤٣)
- ٩ . ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذِلِّكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . (الروم / ٤٠)
- ١٠ . ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ . (النحل / ٦٥)

\* \* \*

### شرح المفردات :

«الحياة» : يقول الراغب في المفردات : تستخدم الحياة في معانٍ مختلفة : الحياة النباتية ، الحياة الحسية «حياة الحيوانات» ، الحياة العقلانية «حياة البشر» ، الحياة بمعنى زوال الغم والحزن ، الحياة الأخرى الخالدة ، والحياة المذكورة كونها إحدى الصفات الإلهية ، و يأتي لكل واحدة منها بشاهد من الآيات القرآنية.

ولكن في «مقاييس اللغة» يذكر لهذه المفردة معنيان أساسيان ، أحدهما الحياة مقابل الموت ، والآخر «الحياة» وهو ما يقابل الوقاحة والصلافة.

غير أن البعض يعتقد برجوع المعنيين إلى أصل واحد ، لأنّ الذي يتمتع بالحياة والخجل إنما يصد نفسه عن الضعف والعجز ويتحرك باتجاه الخير والطهارة ، وإن كان الشعاب العظيم يسمى بـ «الحياة» فذلك لشدة تحركها التي تعتبر من أبرز آثار الحياة والعيش ، وتسمى القبيلة بـ «الحي» بلحاظ امتلاكها حياةً اجتماعيةً وجماعيةً<sup>(١)</sup>.

وبالطبع فإنّ لهذه المفردة معانٍ كنائية كثيرة من جملتها «الإيمان» في مقابل الكفر ، و «الطراوة» في مقابل الذبول ، و «الحركة» في قبال السكون ، ويطلق على التحية اسم «التحية» من باب أنّ فيها طلباً للسلامة والحياة.

«الموت» : هو بالضبط النقطة المقابلة للحياة ، لهذا كانت له أنواع مختلفة يقابل كل منها نوعاً من أنواع الحياة ، منها «الموت النباتي» كما في قول القرآن حول المطر ﴿أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتَةً﴾. (ق / ١١)

و «الموت الحيواني» و «الموت العقلي» أي الجهل . و «الموت» بمعنى الغم والحزن كما يقول القرآن الكريم : ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾. (ابراهيم / ١٧)

«الموت» : بمعنى النوم ، كما قالوا : «النوم موت خفيف» مثلما أنّ الموت نوم ثقيل .

واعتبر البعض «الموت» بمعنى الإنحصار التدريجي للكائن الحي ، و «الموتة» حالة شبيهة بالجنون ، وكأنّ العقل والعلم يموتان في تلك الحالة.

كما أنّ البعض فرق بين «الميّت» و «المائت» وقالوا : الميت هو الميت أمّا «المائت» فهو موجود في حالة الانحصار والانحدار نحو الموت .

ولهذه المفردة معانٍ كنائية كثيرة منها «الكفر» ، و «النوم» ، و «الخوف» . وسميت الأرض الموات بالموات لافتقادها الحياة النباتية ، والقابلية على الغرس والزراعة ، وأقّا بعد أن تهيأ للغرس والزرع فيسمونها «مهيأة» .

ورد في قواميس اللغة أنّ أصل هذه المفردة هو ذهاب القوة ، والذي يعتبر موت الكائنات الحية من مصاديقه البارزة .

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ؛ مفردات الراغب ، لسان العرب ؛ مجمع البحرين ؛ وكتب اللغة الأخرى .

## جمع الآيات وتفسيرها

### خلق الحياة آية الخلق :

جرى الاستناد في الآيات العشر أعلاه وعدد آخر من الآيات القرآنية إلى قضية الحياة والموت بعنوان إحدى الآيات الإلهية الكبيرة وعلامات الذات المقدسة للخالق ، كان التأكيد في أغلبها على حياة وموت الإنسان ، وفي بعضها على الحياة والموت بشكل عام أي عند جميع الأحياء ، وفي البعض أكدت على حياة وموت النباتات.

في الآية الأولى المخصصة للبحث ، ورد كلام عن فلق النواة والحبة بواسطة القدرة الإلهية ، وعن استخراج الكائن الحي من الكائن الميت وبالعكس الكائن الميت من الحي ، بحيث تشمل الحياة والموت بمعنى الواسع للكلمة في النباتات والحيوانات والبشر.

الملفت للنظر أن بذور النباتات ذات جدار صلب ومحكم ، والنواة أكثر إحكاماً منه ، إذ ليس فلقها بالأمر الممكن بسهولة ، ومع هذا فالفلقة الخارجة من داخل الحبة والنواة بحيث لا يمكن وصف رقتها ولطافتها ، أمّا كيف يمكن لتلك الفلقة اللطيفة أن تفلق تلك القلعة والهصن الحصين فتخرج من خلال جدرانه وتستمر في طريقها؟ فليس ذلك سوى القدرة الإلهية الفريدة ، وكأنّ عبارة : **﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبَّ وَالنَّوْءِ﴾** إشارة دقيقة إلى هذا المعنى.

و حول كيفية إخراج الله تعالى الميّت من الحيّ والحيّ من الميّت ، ذكر الكثير من المفسرين الماضين الأمثلة عليها ، بخروج الدجاجة من البيضة ، والشجر والنبات من الحبة والنواة ، والإنسان من النطفة ، في حين صار من المسلم به لدى العلماء اليوم أن الكائنات الحية تظهر دائماً من الكائنات الحية ، أي أنّ في داخل حبة ونواة النباتات والأشجار فضلاً عن الكمية المعينة من المواد الغذائية ، توجد خلية حية هي في الحقيقة نبات وشجرة مجهرية صغيرة جدّاً وإذا استقرت في المحيط المناسب فسوف تستفيد من هذه المواد الغذائية فتنمو وتكبر ، وكذلك بالنسبة إلى نطفة الإنسان والحيوان فإنّ الخلايا الحية كثيرة ، وهي المصدر لتكاثر وتناسل الإنسان والحيوان.

أجاب بعض المفسرين المعاصرين (كالماغي ومؤلف تفسير المنار) الذين التفتوا إلى

هذا الإشكال بأن هذه الخلايا الخاصة مع أنها تسمى في عرف علماء العلوم الطبيعية بالكائنات الحية ، ولكنها لا تحدُر بهذه التسمية في العرف العام للناس واللغة ، لأن أيًّا من آثار الحياة والعيش لا تظهر عليها <sup>(١)</sup> .

والأفضل أن نقول : إن المراد بخروج الكائن الحي من الميت لا يعدو أحد المعينين

التاليين :

**الأول :** هو بالرغم من أن الكائنات الحية في الظروف الحالية تخرج دائمًا من البذور والحبوب والنطف الحية ، ولكن لا شك أن الأمر لم يكن كذلك في البداية ، لأن الكرة الأرضية عندما انفصلت عن الشمس كانت عبارة عن كتلة من نار ، ولم يكن عليها أي كائن حي ، ثم ظهرت أول الكائنات الحية من الكائنات غير الحية ضمن ظروف لا علم لنا بها اليوم وبأمر الله بعد سلسلة من القوانين البالغة في التعقيد.

**والفرضية القائلة :** إن من الممكن للحياة أن تكون قد انتقلت من الكواكب الأخرى إلى الكرة الأرضية بواسطة القطع والأجرام السماوية والتي يُصرّ البعض عليها ، لا تستطيع أن تحل لنا أية مشكلة ، لأن الإشكال يصدق على تلك الكواكب أيضًا ، فهي ولا شك كانت في البداية كتلاً محترقة ، ولا يستطيع أي كائن حي أن يتحمل تلك الظروف.

**الثاني :** هو أن البذور والحبوب والنطف الأولى لم تكن إلا موجودات صغيرة جدًا لكنّها نمت وتطورت عن طريق تغذيتها على المواد الغذائية غير الحية وهي في الحقيقة تجذب إليها الموجودات غير الحية وتحولها إلى حية ، وعليه فإنّآلاف الآلاف وملايين الملايين من الخلايا الحية قد ظهرت من الموجودات الميتة ، وعن هذا يقال : إن الله يخرج الميت من الحي ويخرج الحي من الميت.

**والبعض قالوا :** إن المراد بهذا التعبير ولادة «الكافر» من «المؤمن» و «المؤمن» من «الكافر» ، أو ولادة الجنين السقط من الإنسان الحي ، وولادة الطفل الحي من الأم التي تموت فجأة ولا يزال الطفل حيًّا في بطنها.

(١) تفسير المراغي ، ج ٧ ، ص ١٩٧ ؛ وتفسير المنار ، ج ٧ ، ص ٦٣١ .

ولكن مما لا شك فيه أن هذه الأقوال هي مصاديق للمفهوم الكلي للآية ولا تشمل كل مفهوم الآية ، المفهوم الأصلي للآية هو أحد المفهومين المشار إليهما . وعلى آية حال فالتعقيد الذي يحيط بقضية الحياة والموت من الدرجة بحيث أن العلماء لا يزالون عاجزين عن فهم أسراره ، فإذا كان فهم أسرار إحدى الظواهر يحتاج إلى كل هذا العقل والتفكير والذكاء ، فهل يمكن إيجاد هذه الظاهرة بدون الحاجة إلى أي عقل وذكاء؟! ولهذا يقول القرآن في نهاية نفس هذه الآية : ﴿ذلِكُمُ اللَّهُ فَإِنِّي ثُوَفَكُونَ﴾ .

\* \* \*

تقول الآية الثانية بلهجة الاستفهام الموجّه : ﴿كَيْفَ تَكُفِّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمْتَكِّمُ ثُمَّ يُحْيِكُمْ﴾ وفي هذا إشارة إلى أن قضية الحياة والموت كافية لمعرفة الله . وبتعبير آخر فإن ظاهرة الحياة والموت في عالم الخلقة من أهم الوثائق لإثبات وجود الله .

إن الإنسان عندما يفتح عينيه ويعرف نفسه ، فإنه يطالع هذه الوثيقة الكبيرة قبل كل شيء .

ويدرك الإنسان جيداً أن حياته ليست من عنده لأنّه كان يوماً في عداد الموجودات غير الحياة ، إذن ، ثمة قدرة وهبته الحياة ، الحياة بكل أسرارها ورموزها ، بكل دقائقها وتعقيداتها .

اعتبر بعض المفسرين «الكفر» في هذه الآية بمعنى «كفران النعمة» ، أي كفران نعمة الحياة والموت ، هذا الموت الذي هو مقدمة لحياة أخرى ، ولكن الظاهر هو أن الكفر هنا بمعنى إنكار وجود الله أو إنكار توحيده من قبل المشركين .

بالإضافة إلى أنه جرى التأكيد في هذه الآية على قضية المعاد ، أي أن ظهور الحياة والموت تمثلاً دليلاً على التوحيد بالإضافة إلى كونهما دليلاً على إمكان المعاد .

\* \* \*

الآية الثالثة تُعد ضمن آيات المعاد ، ولكن كما قلنا فإن قضية الحياة والموت دليل على إثبات وجود الله وعلى إثبات المعاد ، والتعبير بـ **﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمْتِدُ﴾** إشارة إلى أنّ الحياة والموت بيد الله فقط ، ولا يمكن لأحد سوى الله القادر المتعال أن يصنع مثل هذه الظاهرة المهمّة والعجبية إلى أقصى الحدود.

\* \* \*

أما الآية الرابعة فقد وردت ضمن آيات التوحيد في سورة (المؤمنون) ، وأكدها على قضيتي «قضية الحياة والموت» ، و «قضية ذهاب وإياب الليل والنهار» ولهذين شبه كبير فيما بينهما ، الموت كالظلمة ، والحياة كالنور والضياء ، وربما كان تقدس الليل على النهار من هذا الباب أيضاً ، ذلك أنّ الموت كان قبل أن تكون الحياة وكان الإنسان سابقاً أجزاءً ميّنة ثم أنعم الله عليه فكساه ثوب الحياة ، وسواء كان «اختلاف الليل والنهار» بمعنى ذهاب وإياب الليل والنهار (من مادة «خلفة» على وزن حِرفة بمعنى التناوب في المجيء والحلول محل البعض) ، أو من مادة «حِلَاف» بمعنى التباين والاختلاف التدريجي في فصول السنة المختلفة ، وأيّاً كان المعنى فهو يدل على النظام الدقيق الذي يحكمهما وما يرافقه من فصول أربعة ومن بركات ناتجة عنها ، كما أنّ لقضية الموت والحياة والنظام الذي يحكمها في المجتمع الإنساني نتائج وآثاراً كثيرة لا يمكن بدونها تنظيم حياة الإنسان.

فإذا لم يمت أحد ، لما كانت الأرض مهلاً للحياة ، وإن مات الجميع بسرعة خلت الأرض أيضاً ، ولكن خالق هذا العالم جعل فيه نظاماً دقيقاً بحيث لا تخلي الأرض من أقوام يعيشون عليها ويتمكنون من الانتفاع من موهب الحياة ، وهذه هي سنة الله فقوم يأتون وقوم يذهبون.

ولهذا يقول تعالى في نهاية الآية : **﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** أفلًا تتفكرن في قدرة الخالق وربوبيته ووحدانيته؟ وإنّ من المستحيل ظهور هذا النظام البديع من غير علم ولا تدبير.

\* \* \*

وفي الآية السادسة جاءت قضية الحياة والموت إلى جانب قضية الربوبية ، فهو والله سبحانه مالكم وربكم أنتم وآبائكم ، الأولين وهو خالق الموت والحياة . وبشكل أساسي فإن قضية الموت والحياة إحدى فروع ربوبية الله سبحانه وتعالى ، «الربوبية» بمعنى الإصلاح والتنظيم والتربية ، وهذه لا تحصل إلا عن طريق الحياة والموت ، الحياة تعطي الإنسان إمكانية التكامل ، والموت أيضاً مقدمة لتكامل آخر وحياة جديدة في عالم أوسع .

\* \* \*

تعكس الآية السابعة الحوار التاريخي بين النبي إبراهيم عليه السلام وجبار زمانه «نمرود» ، ويبدو أن هذا الحوار جاء بعد قصة تحطيم إبراهيم الأصنام وظهوره كبطل من الأبطال وشياع صيته في كل مكان واضطرار نمرود إلى إحضاره <sup>(١)</sup> . إن أول سؤال سأله هذا الرجل الأناني الذي أذهب عقله غرور السلطان للنبي إبراهيم عليه السلام هو : «من إلهك؟» .

فاعتمد إبراهيم قبل كل شيء في جوابه على ظاهرة الحياة والموت المهمة وقال : «ربى الذي يحيي ويميت» .

فقال الجبار الطاغي نمرود مع علمه الأكيد بأحقية كلام إبراهيم ومن أجل استغفال من حوله وتخدير عقولهم : إنني استطيع القيام بهذا أيضاً «أنا أحسي وأميّت» . لم يذكر القرآن ما صنعه نمرود من أجل إثبات ادعائه هذا ، ولكن الكثير من المفسرين قالوا : إنه أمر فوراً باحضار إثنين من السجناء ، فأطلق سراح أحدهم وحكم على الآخر بالموت وقال : أرأيت كيف أن الحياة والموت بيدي؟ ! والفارز الرازي استبعد هذا المعنى في تفسيره وهو أن يكون الحاضر في مجلس نمرود

(١) ورد هذا المعنى وهو أن الحوار أعلاه حصل بعد تحطيم الأصنام من قبل إبراهيم في عدة تفاسير منها تفسير المراغي ج ٣ ، ص ٢١ ؛ والكبير ج ٧ ، ص ٢٥ .

من البلة والسداجة بحيث لا يدركون الفرق بين عمل نمود وبين الحياة والموت التي تحصل عن طريق الله.

ويقول : إن قصد نمود هو قوله : أتراك تزعم أنَّ اللَّهَ يَقُولُ بِذَلِكَ مِنْ دُونِ أَيِّهَا وَاسْتَطْعَةٍ ؟ هذا غير صحيح ، وإنْ كَانَ ذَلِكَ يَحْصُلُ عَنْ طَرِيقِ الْاسْتِفَادَةِ مِنْ عَالَمِ الْأَسْبَابِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَمْكُنُنَا أَيْضًا<sup>(١)</sup> .

ولكن يبدو أن الفخر الرازي نسي هذه النقطة ، وهي : أن الجهلاء في كل عصر وزمان ليسوا قليلين ، خاصة المتعلمين الذين يحيطون بحكم الجور والاستبداد والتجبر . وقد ورد ما يشبه هذا المعنى في حياة موسى وفرعون حيث حاول فرعون استغفال وخداع أهل مصر بكلماته الراكية المضحكه ودعاهم إلى عبادته .

إن تفسير الفخر الرازي يلائم جماعة من الفلاسفة يجتمعون مع بعضهم وبصطعنون مثل هذه السفسيطات ، أمثال لو كان الفاعل فاعلاً بالواسطة لكان كذا ولو كان بلا واسطة لكان كذا.

\* \* \*

الآية الثامنة تعتبر إيجاد الحياة والموت أمراً خاصاً بالله ، شأنها شأن الآية الثالثة ، وتعتبر عودة جميع الخلق إلى بارئهم عزوجل .

\* \* \*

وفي الآية التاسعة يخاطب الله تعالى المشركين بلهجة حازمة فيقول : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمْتَكِّمُ ثُمَّ يُحِيِّكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، هل بامكالهم إحياء شيء أو إماتته؟ أو رزقه؟ وما دامت كل هذه الأمور خاصة بالله ، فما لكم تشركون به : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

\* \* \*

(١) تفسير الكبير ، ج ٧ ، ص ٢٤.

وأخيراً وفي الآية العاشرة والأخيرة يطرح الله قضية حياة النباتات ، وهو وجهٌ مشرق ، جميل و مليء بالأسرار من وجوه الحياة ، ويعرض على البشر صورة الأرضي الميتة كيف يُلبس هذه الصحاري اليابسة الفاقدة للحياة لباس الحياة بزخة مطر واحدة أو عدة زخات ، فتتصاعد من كل جانب من حوالبها أنغام الحياة فتتجلى ساحة البعث والنشور في هذه البقعة.

ويضيف في آخر الآية : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ ، يسمعون انغام تحميد وتسبيح النباتات ويصغون بآذان قلوبهم لسممات التوحيد من كل نبات يخرج من الأرض ويردد ذكر «وحده لا شريك له» : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

\* \* \*

### توضيحان

#### ١ . لغز الحياة الكبير

كشف تطور العلم والمعرفة البشرية النقاب عن الكثير من الحقائق ، وأوضح العديد من قضايا هذا العالم الكبير ، ولكن كما أشرنا فعلى الرغم من ذلك فما زالت هنالك الكثير من الألغاز تواجه الإنسان ، وأحد أهم هذه الألغاز هو لغز الحياة ، القضية التي لم يُعط اللثام عن وجهها لحد الآن رغم جهود ومساعيآلاف الآلاف من العلماء والعقول المفكرة على مر التاريخ البشري ، وما زالت مستترة خلف ستار من الابهام.

واللطيف أن القرآن الكريم خاطب المشركين قبل أربعة عشر قرناً قائلاً : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقُلُوْهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾.

المثير أن عجز البشر اليوم عن خلق الذبابة بمقدار عجزه قبل أربعة عشر قرناً ، وعجزه أجزاء هجوم الذباب والجراد وبقية الحشرات يصل إلى درجة عدم جدواه كل ما يستخدم من أجهزة التسميم والمكافحة الحديثة.

قد يُقال : إنَّ الإنسان صنع أجهزة قيمة أكثر أهمية من خلق الذباب كالسفن الفضائية والعقول الألكترونية المعقدة وأمثال ذلك.

ولكن هذا خطأ كبير وقياس باطل ، إذ ليس للسفينة الفضائية أو العقل الإلكتروني أي نمو أو تحول ذاتي ويستحيل أن ينجب مثيله ، ولا يمكن من داخل نفسه ترميم ما يطرأ عليه من الأضرار ، فهو لا يصلح قطعاً أبداً ، ويحتاج إلى المداية والقيادة من خارجه ، والحال أنَّ للذباب من هذه الوجوه أفضليَّة واضحة على تلك السفينة الفضائية أو جهاز الكمبيوتر ، ولكن كثرة الذباب أدى إلى تصوره من قبلنا كموجود حقير ولا أهمية له ، ولو كانت هنالك ذبابة واحدة فقط في العالم لاتضح آنذاك مدى ما سيوليه العلماء لها من الاهتمام.

وفضلاً عن هذا فإننا لا نحتاج أساساً إلى هذه المفاضلة ، فالهدف هو إيضاح أن بناء الكائن الحي حتى لو كان خلية واحدة والتي أشرنا إليها إشارات واضحة في البحوث الماضية ، على قدر من الغموض والتعقيد بحيث يدلُّ على أنَّ صانعه ذو علم وقدرة غير متناهيين ذو اطلاع تام بقوانين الحياة المعقدة ، وبتعبير أصح أنَّه هو الذي وضع هذه القوانين. كيف يمكن أن تحتاج معرفة ظاهرة كهذه إلى كل هذا العقل والشعور ولا يحتاج صنعها إلى أي عقل أو شعور؟!

وهذا هو الأمر الذي نحن في صدد إثباته في هذه البحوث ، والذي يشكل هدف القرآن من الآيات المذكورة وآيات مشابهة أخرى.

نختم هذا الحديث بذكر نقطة ، وهي أنَّ الحياة والعيش رغم أنها من أبرز الظواهر ، ولكن حقيقتها غير واضحة لحدَّ الآن لأحد ، إنَّ ما نراه هو آثار الحياة التي تمثل (النمو والتحول والتغذية والتناسل ، والاحساس والحركة والتفكير) ، ولكن ما هي تلك الحقيقة التي تكون بمثابة المصدر لهذه الآثار؟ لا يعلم أحد بذلك لحدَّ الآن ، وما زالت العقول في حيرة من ذلك.

## ٢ . هل بامكان الإنسان صناعة كائن حي؟

لا شك أن الكائنات الحية وجدت في البداية من كائنات غير حية ، سواء حدث هذا الأمر على الكرة الأرضية أو على الكواكب السماوية الأخرى ، ولكن تحت أي ظروف؟ ووفقاً لأي معايير حدثت هذه الطفرة العظيمة؟ إن هذا الأمر بقى مجھولاً لحد الآن ولم يتسع لأحد معرفته ، طبعاً أن البعض من العلماء يأملون بأنهم سوف يكتشفون هذه المعايير وهذه الظروف ، ويقولون : لعلنا في النتيجة نستطيع أن نصنع خلايا حية من مركبات غير حية.

لأحد يعلم جدوى ومنطقية هذا الأمل؟ وهل سيتحقق مثل هذا الأمل عملياً في نهاية المطاف أم لا؟ وعلى فرض أن الإنسان سيكتشف ظروف بداية الحياة ومعادلتها وسوف يستطيع صناعة خلايا حية في داخل المختبرات ، ولكن يجب أن لا ننسى أن : أولاً : إن هذا العمل حين يأتي عن طريق تقليد عالم الخلقة وتركيب المواد المختلفة مع بعضها لن يكون سوى ما يشبه الصناعات التجميعية التقليدية.

ثانياً : على فرض أن مشكلة صناعة الخلية الحية سوف تُحل ، ولكن تبقى هنالك مشكلة الكائنات المعقّدة متعددة الخلايا ، كبنية الذبابة أو الجراد أو الطائر أو الأسماك الكبيرة وأخيراً الإنسان ، فمن الذي يستطيع أن يوجد مثل ما ذكرنا عن طريق الصناعة؟ يقول أحد العلماء وهو «البروفسور هانز» : سوف يصل الإنسان بعد ألف سنة إلى سر الحياة ، ولكن هذا لا يعني أنه سيستطيع صناعة ذبابة أو حشرة أخرى أو حتى خلية حية.

ثالثاً : لنفترض أننا ضمناً مثل هذه الأهداف بمعونة الهبة الإلهية المسماة بالعقل ، وتطورت العلوم وتقليل قوانين الطبيعة ، لكن هذا لن يكون له أدنى تأثير على ما نحن بصدده الوصول إليه ، لأنّه إن كان بالإمكان إيجاد خلية حية واحدة باستخدام كل هذه النماذج الموجودة والمواد الطبيعية الجاهزة يحتاج إلى كل هذا العلم والمعرفة ، فما مقدار العلم والمعرفة اللازمة لخلق أنواع متعددة من الموجودات الحية بلا نموذج أو مواد سابقة؟ هل يمكن أن نعتبر للطبيعة الجامدة الفاقدة للشعور والعقل دوراً في خلق هذه الموجودات؟

وألفت انتباهمكم إلى عبارة ظريفة عن «غرسي موريسن» رئيس أكاديمية العلوم بنويورك في كتاب «سر خلق الإنسان» ، يقول :

«قال هيغل : أعطوني الهواء والماء والمواد الكيميائية والزمان وسوف أخلق بها إنساناً ، لكن هيغل نسي أنه بحاجة إلى نطفة وجرثومة الحياة من أجل هذا المشروع أيضاً ، إنّه بعد أن يجمع الذرات اللامرئية ويرتبها إلى جانب بعضها ضمن نظام وترتيب خاص بخلقة الإنسان ، عليه أن يمنح الروح لهذا القالب ! وعلى فرض أنه وُفق للقيام بكل هذه الأمور الخارقة للعادة ، هنالك احتمال واحد فقط من بين ملايين الاحتمالات لخلق حيوان لم تشاهد عين الدهور شيئاً أغرب منه ، والأعجب هو أن هيغل لن يقول بعد الموقفية في هذا الأمر أنّ هذا الموجود العجيب ظهر بحسب الصدفة والحدث ، بل يقول : «إنّ ذكائي ونبيولي هو الذي خلقه» <sup>(١)</sup> .

تارة يتصور بعض السذج أنّ بالإمكان تبرير ظهور الحياة عن طريق الحوادث والصدف الكثيرة ، والحال أننا لو أردنا ووفق حساب الاحتمالات حساب عملية ظهور ذرة واحدة من البروتينات ، وهي إحدى المواد المكونة للكائنات الحية . عن هذا الطريق ، لما كفى عمر الكرة الأرضية لظهورها !

ول «جورج والد» أستاذ علم الأحياء في جامعة «هارفارد» كلام عن شروط ظهور الحياة واستحالة إمكان خلق الحياة بالصدفة والذاتية ، هذه خلاصته :

«من أجل تشكيل البروتين يجب التحام مئات أوآلاف الجزيئات «أهماض أمينية» بحسب مختلفة وبأشكال متنوعة على شكل سلسلة ، وإن عدد أنواع البروتينات لا محدود حقاً ، لأنّه لا يمكن العثور على نوعين من الحيوانات يكون لهما نوع واحد من البروتينات ، إذن فجزئيات المواد العضوية تشكل مجموعة عظيمة لا حدود لتنوعها وتعقيدها يبعث على الحيرة ، ومن أجل صنع موجود حي واحد لا تحتاج إلى مقدار كافٍ ونسبة معينة من أنواع البروتينات اللامتناهية فحسب ، بل يجب ترتيبها ترتيباً صحيحاً أيضاً ، أي أنّ بناءها

(١) سر الخلق ، ص ١٣٩ إلى ١٤١ .

له من الأهمية ما لتركيبها الكيميائي من الأهمية».

ثم يضيف : «إنّ بناء البروتينات معقد حقاً ، وإن اعقد الأجهزة التي صنعها الإنسان (كالعقل الإلكتروني) هي بحكم الألعوبة مقابل أبسط الكائنات الحية! يكفي الإنسان أن يفكر في هذه العظمة لتتصحّح له استحالة الخلقة الذاتية أو بالصدفة» <sup>(١)</sup>.

نختم هذا الكلام بحديث قيّم عن الإمام الصادق عليه السلام ، وحديث رفيع المعاني عن أمير المؤمنين علي عليه السلام ، للإمام الصادق عليه السلام كلام مفصل قاله للمفضل في حديث التوحيد المعروف بـ «المفضل» حول خلقة الإنسان وأعضائه المختلفة ، يقول المفضل :

سيدي : إنّ قوماً يقولون أنه من صنع الطبيعة! فيجيب الإمام عليه السلام :

«سلهم عن هذه الطبيعة أهي شيء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال؟ أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة ، فما يمنعهم من إثبات الخالق؟ فإنّ هذه صنعته ، وإن زعموا أنها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عملاً وكان في أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة ، علّم أن هذا الفعل للخالق الحكيم ، وأنّ الذي سّوه طبيعة هو سُنة في خلقه الجارية على ما أجرها عليه» <sup>(٢)</sup>.

ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام : «ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها ، وما كان من مُرّاجحها وسائمهها وأصناف أسنانها وأجناسها ، ومتبلدة أنماطها ، وأكياسها ، على إحداث بعوضة ، ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى ايجادها ولتحيرت عقولها في علم ذلك» <sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) معرفة الحياة «شناحت حيات» ، ص ١١ (بالفارسية).

(٢) بحار الأنوار ، ج ٣ ، ص ١٦٧.

(٣) نجح البلاغة ، الخطبة ١٨٦.

## ٤ . آياته في خلق الروح

تمهيد :

الروح أيضاً من أعجب ظواهر عالم الوجود وأكثراها غموضاً ، ومع أكثراً أقرب الأشياء إلينا إلا أنها بعيدون جداً عن معرفتها وتشخيصها.

لم تتوقف جهود ومساعي العلماء وال فلاسفة من أجل معرفة الروح في أي زمان من الأزمان ، واستطاعوا بفضل هذه الجهود أن يكشفوا اللثام عن بعض الأسرار ، ولكن الوجه والأسرار الخافية للروح لم تتغير لحد الآن ، وما زالت هناك الكثير من الأسئلة حول هذا الموضوع بدون جواب.

ومن هنا كان خلق روح الإنسان من الآيات المهمة الدالة على علم وحكمة وتدبر الخالق.

وعلى هذا الصعيد نتأمل خاسعين في الآيات الكريمة أدناه :

- ١ . ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورُهَا وَتَمْوِاهُا﴾ . (الشمس / ٧ و ٨)
- ٢ . ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ فَلِ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قِلِيلًا﴾ . (الاسراء / ٨٥)
- ٣ . ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأً مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِين﴾ . (الحجر / ٢٨ و ٢٩)
- ٤ . ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ حَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَخْسَنُ الْخَالِقِين﴾ . (المؤمنون / ١٤)

٥ . ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى  
عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . (الزمر /

(٤٢)

\* \* \*

### شرح المفردات :

إنّ مفردة «الروح» تعني في الأصل التنفس والنفخ ، ويعتقد بعض أرباب اللغة أنّ «الروح» اشتقت في الأصل من «الريح» بمعنى الهواء والنسيم والرياح ، وبما أنّ روح الإنسان أي ذلك الجوهر المستقل المجرّد ومصدر الحياة والتفكير هي جوهر لطيف تشبه من حيث تحركها ومنحها للحياة التنفس والنسيم ، فقد استعملت هذه المفردة للتعبير عنها ، بالإضافة إلى أنّ علاقة الروح بالجسم لها ارتباط وثيق بالتنفس ، لهذا استعملت هذه الكلمة في خصوص روح الإنسان.

يعتقد البعض أنّ المعنى الأصلي لهذه المادة هو «ظهور وحركة شيء لطيف» سواء كان في عالم الجسم أو في عالم الروح والمعنى ، ومن أجل هذا أطلقت هذه الكلمة أيضاً على ظهور مقام النبوة وقضية الوحي وبخلٍ نور الحق.

«الروح» : (على وزن قَوْم) التي تعني السرور والفرح والراحة والنجاة من الغم والحزن ، وهي الأخرى مأخوذة من هذا المعنى ، كذلك يطلق على الالطاف والرحمة الإلهية «روح الله».

مفردة «الريحان» تستخدم في كلام العرب لـ «الورد» من أجل رائحتها الطيبة المنعشة ونسيمها المعطر.

ومفردة «الرواح» بمعنى «طرف الغروب» حيث تعود الحيوانات إلى حضائرها ل تستريح.

وعلى كل حال ، فإنّ مواضع استعمال هذه المفردة في القرآن الكريم متنوعة جداً ، فتأتي حيناً بمعنى ملاك الوحي ، وحياناً بمعنى الملائكة الكبير من ملائكة الله الخالص (أو

المخلوق الأفضل بين الملائكة) ، وتأتي أحياناً لتدل على القوة الإلهية المعنوية التي يسند الله المؤمنين بها ، وجاءت تارة بمعنى الروح الإنسانية ، وهذا ما أشرنا إليه في الآيات أعلاه <sup>(١)</sup> . «النفس» : يقول الراغب في المفردات : النفس بمعنى الروح ، وتأتي أحياناً بمعنى ذات الشيء ، و «النفس» (على وزن فَصَ) بمعنى الهواء الذي يدخل ويخرج من وإلى جسم الإنسان عن طريق الفم.

وقد أطلقت مفردة «النفس» هذه على الدم أيضاً ، لأنّ الدم إذا خرج من جسم الإنسان بمقادير كبيرة فارقته روحه ، وربما أطلقت هذه الكلمة على كل وجود الإنسان. على أية حال ، فإنّ أحد المعاني المعروفة للنفس هو «الروح» التي ذكرت عدة مرات في القرآن الكريم.

١ . «النفس الامارة» التي تأمر الإنسان بالسوء : ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.

(يوسف / ٥٣)

٢ . «النفس اللوامة» التي ترتكب الذنوب بعض الأحيان ثم تندم وتلوم نفسها :

﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾. (القيامة / ٢)

٣ . ﴿النفس المطمئنة﴾ وهي النفس الوالصلة إلى مرحلة الأطمئنان والراحة والطاعة التامة لأوامر الله والمشمولة بعنایاته : ﴿بِاِيَّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ إِذْ جَعَى إِلَى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَةً﴾. (الفجر / ٢٧)

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### الروح اعجوبة عالم الخلقة :

ورد في الآية الأولى من الآيات التي اختنناها لبحثنا هذا قسم يختص بالروح الآدمية وحالقها.

(١) مفردات الراغب ؛ لسان العرب ؛ مجمع البحرين ؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

ذلك الله الذي خلق الخلق ونظم القوى الروحية للإنسان إبتداءً من الحواس الظاهرة وهي مقدمة الإدراكات الروحية وانتهاءً بقوة التفكير ، الحافظة ، التخييل ، الإدراك ، الابتكار ، الإرادة والتصميم : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

وعلّمه طرق المداية بعد تنظيم هذه القوى : ﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾. مع أنّ القوى الروحية للإنسان متنوعة وكثيرة جدّاً ، ولكن القرآن هنا وضع إصبعه من بين كل تلك القوى على مسألة «إلهام الفجور والتقوى» (إدراك الحسن والقبح) ، لأنّ هذه المسألة لها تأثير كبير جدّاً في مصير الإنسان وسعادته وشقاءه.

قلنا مراراً : إنّ القسّم يدلّ على الأهميّة والعظمة ، أهميّة المقصّم به والمقصّم له ، خاصة القسّم القرآني لحمل الناس على المزيد من التفكّر في آيات «العظمة» الإلهيّة. فضلاً عن أنّ «النفس» في هذه الآية ذكرت بصيغة النكرة ، وهي في مثل هذه الموارد من أجل التأكيد على أهميّة الموضوع أو كثرته <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

تشير الآية الثانية إلى السؤال الذي طرح من قبل جماعة من المشركين أو أهل الكتاب ، حيث وفدوا على الرسول الأكرم ﷺ وسألوه عدة أسئلة كان أحدها عن الروح كما قال القرآن : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾.

ثم يأمر القرآن الرسول الأكرم ﷺ : ﴿فَلِرُوحٍ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. إنّ في هذا الجواب غير المستعين إشارة عميقة إلى مدى غموض ومحظوظية هذه الظاهرة الكبيرة في عالم الوجود ، ومن أجل أن لا يقول أحد لماذا لم تظهر واحدة من أسرار الروح؟ يضيف الله في آخر الآية : ﴿وَمَا أُوتِيْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(١) تفسير روح البيان ، ج ١٠ . ص ٤٤٢ ؛ وتفسير روح المعاني ، ج ٣٠ . ص ١٤٢ ، وقد احتمل بعض المفسّرين أن تكون «النفس» في الآية أعلاه إشارة إلى الروح والجسم كليهما ، مع أنّ عبارة : ﴿فَالْهَمَّهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ تناسب الروح أكثر ، وكذلك الآية : ﴿فَذَلِكَ أَفْلَحَ مِنْ رَكِّاها ...﴾.

وليس من العجيب أن لا تطلعوا على أسرار الروح بهذا «العلم القليل» و «المعرفة اليسيرة» (خصوصاً في ذلك الزمان وتلك البيئة).

روي عن ابن عباس في بعض الروايات أنّ قريش أرسلت بعض رؤوسها إلى علماء اليهود في المدينة وقالت لهم : إسألوهم عن محمد لأنّهم من أهل الكتاب وهم من العلم ماليس لنا ، فجاؤوا المدينة وسألوا علماء اليهود ، فقال اليهود في جوابهم : إسألوه عن ثلاثة أمور : قصة أصحاب الكهف ، وذي القرنين ، وقضية الروح ، فإنّ أجاب عن جميعها أو سكت عن جميعها فليس ببني ، أمّا إن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهونبي.

فعادت رؤوس قريش إلى مكة وعرضت الأسئلة على الرسول ﷺ ، فقدم لهم الرسول شرحاً وفياً حول ذي القرنين وأصحاب الكهف ، ولكنه فيما يخص السؤال عن الروح إكتفى بذلك الجواب المغلق بأمر من الله (١) ، ومع أنّ هناك تفاسير مختلفة لمعنى الروح في الآية أعلاه في روايات الموصومين عليهما السلام وكلمات المفسرين ، ولكن أغلب هذه التفاسير لا تتنافى مع بعضها ويمكن الجمع بينها ، والروح الإنسانية من جملة المفاهيم الداخلية في مدلول الآية المعنية (٢).

\* \* \*

في الآية الثالثة كلام عن حوار الله مع الملائكة حول خلق البشر ، حيث يقول عزّوجلّ مخاطباً الملائكة : ﴿إِنَّى خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمِّا مَسْنُونٍ \* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

ثمة نقطتان تثيران الاهتمام في هذه الآية ، الأولى إضافة روح الإنسان إلى الله إذ يقول

:

(١) تفسير روح المعاني ، ج ١٥ ، ص ٢٤١ «قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل فقالوا : سلوه عن الروح فسألوه فنزلت : ﴿يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الرُّوحِ فَلَمْ يَرَوْهُ وَمَا أُوتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(٢) وردت في تفسير الميزان أقوال متعددة في هذا المجال ، منها أنّ المراد بالروح هي الروح الواردة في الآية الشريفة : ﴿يَوْمَ يَقُولُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفَّا﴾ ومنها أنّ المراد بها جبرائيل وقال بعض المفسرين : إنّها تعني القرآن ، وأخر التفاسير هو أنّ المراد بها الروح الإنسانية ، ثم يضيف : إنّ المبادر من إطلاق الروح هو هذا.

«من روحي» ، وهذا دليل على منتهى عظمة وأهمية الروح الإنسانية ، وهذا من قبيل الإضافة التشريفية حسب المصطلح ، كـ «بيت الله» و «شهر الله» التي تشير إلى أهمية الكعبة وعظمة شهر رمضان المبارك ، وإلا فإن كل مكان هو بيته وكل الأشهر أشهره. والثانية أمر جميع الملائكة بالسجدة لأدم بعد نفح الروح فيه ، وهذا برهان آخر على عظمة مقام الإنسان ، ذلك أن السجدة تفيد منتهى الخضوع ، فكيف لو كانت من قبل كل الملائكة؟ وهذه خير علامة على المقام الرفيع لأدم.

\* \* \*

في الآية الرابعة وبعد الإشارة إلى خلق النطفة وتطورات الجنين والألبسة المختلفة التي يكسو بها الله هذه القطعة الصغيرة في مختلف المراحل ، يُغيّر عَجَّلَ لحجة الكلام ويقول :

**﴿ثُمَّ أَنْشَأَنَا هُنْكًا آخَر﴾**

إن التعبير بـ «الانشاء» (الابحاج) في هذه المرحلة وخلافاً للمراحل السابقة التي عبر عنها بالخلقة ، إضافةً إلى استخدام «ثم» التي تستعمل عادةً من أجل الفصل يدل جمیعه على أنّ الخلق في هذه المرحلة يختلف تماماً عن المراحل السالفة ، وهذه علامة على أنّ المراد هو خلق الروح التي ترتبط بالجسم بعد تكامله.

والمثير أنه يعبر بـ «خلقآ آخر» وهو تعبير غامض ومغلق ، خلافاً للتعبيرات السابقة التي يتحدث فيها عن «النطفة» و «العلقة» و «المضغة» و «العظام» و «اللحم» وهي مفاهيم معروفة جمیعاً ، وهذا دليل آخر على اختلاف المرحلة الأخيرة عن المراحل الماضية. ومن العجب أن بعض المفسرين ذكروا تفاسير لعبارة : «الخلق الآخر» لا تنسجم أبداً مع روح الآية ، من جملتها : أنّ المراد بإنشاء الخلق الآخر هو ظهور الأسنان والشعر على الجسم <sup>(١)</sup> ! في حين أنّ هذا لا يتناسب أبداً مع تعبير الآية ولا شك أنّ ظهور الأسنان والشعر

(١) روي هذا الاحتمال عن بعض المفسرين في تفسير روح المعانى ، ج ١٨ ، ص ١٤ ؛ وتفسير القرطبي ، ج ٧ ، ص ٤٥٠٢.

ليس له من الأهمية ما يوازيسائر تطورات الجنين المختلفة.

في نهاية الآية وردت جملة عجيبة أخرى تشكل دلالة أخرى على الأهمية القصوى لخلق الإنسان في المرحلة الأخيرة أو في مجموع هذه المراحل ، يقول تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْحَالِقِينَ﴾ فسبحان العليم الحكيم الذي أودع القابلية والجدارة في مثل هكذا موجود حقير.

«تبارك» : من مادة (بَرَكَ) بمعنى صدر الناقة ، وبما أن للناقة حين تضع صدرها على الأرض نوع من الثبات ، فقد جاءت هذه المفردة بمعنى «الثبات والدوار» ولأن كل نعمة كانت دائمة إزدادت أهميتها ، فقد سُمِّيت هكذا نعم بالمباركة. إن استخدام هذه المفردة في خصوص الله إشارة إلى عظمته وقدسيته وخلود ذاته المطهرة.

\* \* \*

في الآية الخامسة والأخيرة من الآيات المعنية في بحثنا هذا يشير عَزْجَكَ إلى مسألة بقاء الروح ، بتعييره : ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ . وبلحاظ أن الكلمة ﴿يَتَوَفَّ﴾ تعني القبض والاستلام الكامل ، و «الأنفس» هي الأرواح ، يتضح أن الروح ينفصل كلياً عن الجسم عند الموت وبأمر الله ، ولكن عند النوم يحصل هذا الانفصال بشكل ناقص : ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ . ثم أشار إلى عدم عودة بعض الأرواح في حالة النوم وعوده البعض الآخر حتى أجل مسمى ، وأضاف : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَفَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ <sup>(١)</sup> .

(١) يقول الفخر الرازي في تفسيره وتعقيباً على هذه الآية : إن الله الحكيم جعل ارتباط الروح الآدمية بالجسم على ثلاثة أقسام : تارة يسفع شعاع الروح على جميع الأجزاء الظاهرة والباطنية للجسم ، وهذه حالة اليقظة ، وتارة يسحب هذا الشعاع من الأجزاء الظاهرة ويبقى في الباطنية وهذه حالة النوم ، وتارة يرتفع شعاعها عن الأجزاء الظاهرة والباطنية وتلك حالة الموت.

يستفاد من هذه الآية وبكل سهولة أن الإنسان تركيب من الروح والجسم ، وأنّ الروح جوهر غير مادي ، وأنّ النوم درجة ضعيفة من الموت ودليل على ضعف الارتباط بين الروح والجسد.

ويستفاد أيضاً أنّ الموت لا يعني الفناء والهلاك ، بل هو نوع من البقاء واستمرار الحياة.

والنتيجة هي أنّ الروح الإنسانية بكل قواها وقدراتها التي تجعلها من أعقد وأعجب ظواهر عالم الوجود هي إحدى آيات الله الكبرى ، كيف يمكن أن يكون خالق كل هذا العلم والقدرة والفكر والذكاء والذوق والإبتكار والإرادة والتصميم هي الطبيعة الفاقدة للعقل والشعور ولكل أنواع العلم والفكر والذكاء والإبتكار؟!.

بل على العكس ، فهذه القطرات والروافد الصغيرة علامات على وجود محيط كبير تبع جميعها منه ، وهذه الإشعاعات الباهتة قبس من تلك الشمس الكبيرة.

\* \* \*

### توضيحات

#### ١ . القوى الظاهرة والباطنية للروح

عَدَّ القدماء خمسة قوى ظاهرة وخمسة قوى باطنية للروح الآدمية ، أمّا القوى الظاهرة فهي : حاسة النظر ، السمع ، الشم ، الذوق ، اللمس ، وهي نوافذ روح الإنسان نحو عالم المحسوسات والروابط بين ذلك الجوهر المجرد وعالم المادة . إنَّ كل واحدة من هذه القوى عالم واسع مليء بالأسرار ، وكل واحدة من أدوات هذه القوى ، أي العين والأذن واللسان والغدد الشَّيْئَة والأعصاب الموزَّعة في كافة أنحاء الجلد ، آية من آيات الله تتضمن في داخلها عالماً من العلم والحكمة .

وقد عدَّ الفلاسفة القدماء القوى الباطنية خمسة أيضاً :

١ . الحس المشترك .

٢ . الخيال ، والذي يعتبر ذاكرة الحس المشترك .

- ٣ . القوة الواهمة التي تدرك مفاهيم من قبيل الحبّة والعداء.
- ٤ . القوة الذاكرة التي تحفظ في داخلها الإدراكات الواهمة.
- ٥ . قوة التخييل التي تُصرّف المفاهيم والصور الجزئية الموجودة في خزانة الخيال والذاكرة فترسم صوراً مختارة لا وجود لها في الخارج.

وكل واحدة من هذه القوى الخمس هي عالم مليء بالأسرار بحد ذاتها.

لَكُنَّ عُلَمَاءُ وَفَلَاسِفَةُ الْيَوْمِ لَا يَحْدُدُونَ الْقُوَى الظَّاهِرِيَّةَ بِتِلْكَ الْقُوَى الْخَمْسِ الْمُعْرُوفَةِ ،  
وَلَا الْقُوَى الْبَاطِنِيَّةُ بِتِلْكَ الْقُوَى الْخَمْسِ الْمُذَكُورَةِ ، إِنَّهُمْ يَضْعُونَ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ قُوَى كَثِيرَةَ ،  
وَيَعْتَبِرُونَ الرُّوحَ الْأَدْمَيَّةَ مُخْزَنًا عَجِيبًا فِيهِ أَنْوَاعُ الْقُوَى وَمُخْتَلِفُ الْأَذْوَاقِ وَالْقَابِلِيَّاتِ وَالْإِدْرَاكَاتِ  
الَّتِي يَخْتَلِفُ فِيهَا أَفْرَادُ الْبَشَرِ .

لَقَدْ وَضَعَ عِلْمُ النَّفْسِ وَالْتَّحْلِيلِ النَّفْسِيِّ يَدَهُ الْيَوْمَ عَلَى مَنَاطِقَ غَامِضَةَ وَمَبْهَمَةَ مِنْ  
رُوحِ الْإِنْسَانِ وَأَكْتَشَفُ فِيمَا أَكْتَشَفَ فِيهَا عَلَمًا جَدِيدًا وَسَرِيرًا بِاسْمِ «الضمير الخفي» أو  
«ضمير اللاشعور» وَوَضَعَ أَمَامَ أَعْيْنِ الْبَشَرِ الْمُزِيدَ مِنَ الْعَجَابِ عَنْ هَذَا الْمَوْجُودِ الْمُجْهُولِ .

\* \* \*

## ٢ . الروح .. الظاهرة الخفية في عالم الوجود

مَعَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يُشَرِّحُ الْكَثِيرَ مِنَ الْجَزِئِيَّاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْبَنَاتِ وَالْحَيَّاتِ  
وَالْحَيَّاتِ عِنْدَ ذِكْرِهِ لِلآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ سَوَاءَ كَانَتْ آيَاتِ آفَاقٍ أَوْ آيَاتِ أَنْفُسٍ ، لَكِنَّهُ حِينَ  
يَصِلُّ إِلَى قَضِيَّةِ الرُّوحِ لَا يَزِيدُ عَلَى قَوْلِهِ : ﴿فَلِرُوحٍ مِّنْ أَمْرِ رَبِّيٍّ وَمَا أُوْتِيْتُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا  
قَلِيلًا﴾ .

أَوْ إِنَّهُ يَقُولُ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ أَوْ يَعْبُرُ عَنْهَا بِإِنْشَاءِ الْخَلْقِ الْآخَرِ : ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ  
خَلْقًا آخَرًا﴾ ، أَوْ إِنَّهُ يُنْسِبُ الرُّوحَ إِلَى نَفْسِهِ فَيَقُولُ : ﴿وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ .  
إِنَّ كُلَّ هَذِهِ التَّعَابِيرِ تُحْكِيُّ عَنْ أَنَّ خَلْقَ الرُّوحِ يُخْلِفُ عَنْ خَلْقِ بَقِيَّةِ الْمَوْجُودَاتِ ،  
وَلَيْسَ هَذَا إِلَّا بِسَبِبِ تَعْقِيدِ قَضِيَّةِ الرُّوحِ وَأَسْرَارِهَا الْعَظِيمَةِ .

\* \* \*

### ٣ . نشاطات الروح المختلفة

للإنسان نشاطات روحية وفكرية عديدة ، سواء في الشعور أو في اللاشعور ، بحيث يمكن لكل واحد من هذه النشاطات أن يكون موضوع بحث مستقل في كتب متعددة (وغالباً ما كان) ، وقسم من هذه النشاطات على النحو التالي :

أ) «التفكير» من أجل الوصول إلى المهمولات ، أو بتعبير الفلاسفة حركة الفكر نحو المباديء ، ثم حركته الأخرى من المباديء نحو الأهداف والمراد.

ب) «الابتكار» من أجل حل مشاكل الحياة غير المتوقعة ، ومواجهة الحوادث المختلفة ، ورفع الاحتياجات المتنوعة والابداعات والاكتشافات والاختراعات.

ج) «الذاكرة» لحفظ أنواع المعلومات التي يحصل عليها الإنسان عن طريق الحس أو التفكير وتبويتها وخزنها ثم استذكارها عند الحاجة.

د) «التجربة وتحليل القضايا» من أجل معرفة علل وجدور الحوادث عن طريق فصل المفاهيم الذهنية عن بعضها ، ثم تركيبها ، ثم الوصول إلى علل ونتائج الحوادث.

هـ) «التخيل» أي إيجاد صورة ذهنية قد لا تكون في بعض الأحيان موجودة في الخارج كمقدمة لفهم القضايا الجديدة.

و) «الإرادة والتصميم» لأجل القيام بالأعمال أو التوقف عنها أو تغييرها.

ز) «الإدراكات الفطرية والعقلية» وهي الأساس في الاستدلالات النظرية وغير البدئية.

ح) العشق ، الحب ، العداوة وعشرات الظواهر الروحية الأخرى ذات التأثيرات الإيجابية أو السلبية في أفعال الإنسان.

وبالطبع فهذه القضايا ليست منفصلة عن بعضها ، بل هي متمركزة جميعها في داخل روح الإنسان ، إنما أمواج من هذا الحيط اللامتناهي ، وأنوار من هذه الشمس الساطعة ، وهذا ما يدل على أنّ الروح الآدمية أرفع آيات الله وأهم علاماته.

وفي قول القرآن الكريم إشارة إلى هذه الحقيقة : **﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾**

**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفْلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ . (الذاريات / ٢١)**

ولا نذهب بعيداً فإنَّ الذاكرة الإنسانية التي تمثل أرشيفاً للمعلومات المختلفة على درجة من الغرابة والعجب بحيث لو أردنا توظيف مئات الأشخاص لحفظ وظيفة وترتيب معلومات أحد الأشخاص لاستحصال عليهم القيام بنشاط الذاكرة بهذه السرعة والدقة. ولو سلبت منا الذاكرة لساعة واحدة لما أمكننا الحياة ، فلا نصلُّ الطريق إلى منازلنا فحسب ، بل سيصيغنا النسيان حتى في أن نضع اللقمة في فمِنا عند تناول الطعام ، سيكون كل شيء بالنسبة لنا مجهولاً ووحشياً وغريباً ومحيراً.

فقد أحد الشباب جزءاً من ذاكرته نتيجة حادث سير أصابه بضربة دماغية ، وعندما حملوه إلى بيته أنكر بيته! وقال : إنَّ هذه هي المرة الأولى التي أضع فيها قدمي هنا! بل حتى أمه كان يتصورها امرأة غريبة ، وبدت اللوحة الفنية التي رسمها بيديه مجهولة تماماً في عينيه ، وكان يقول : إنّها أول مرة أراها.

إنّا نحمل في أرشيف ذاكراتنا صوراً لآلاف الموجودات وآلاف آلاف البشر وآلاف آلاف المواد المختلفة وآلاف آلاف الخواطر واللقطات وآلاف آلاف المعلومات المختلفة الأخرى ، والعجيب أنَّ استحضار أحدي الخواطر لا يحتاج أكثر من واحد بالآلاف من الثانية من أجل أن يستطع الإنسان الانتباه إلى خاطرة معينة من بين معلوماته المحبوبة التي مضت عليها لحظة أو سنة أو خمسون سنة ، خاصة وأنَّ العلماء يشيرون إلى إحدى الأعمال المخيرة للذاكرة والتي يسمونها «معجزة الذاكرة» وهي بالترتيب الآتي :

كثيراً ما ينسى الإنسان إسم شخص أو موضوع ثم يجهد ويحاول أن يتذكره ويقلب رفوف أرشيف ذاكرته واحداً بعد الآخر ولكن دون جدوى.

حسناً ، إنَّ كان الإنسان يعلم ذلك الاسم أو الموضوع ، فلماذا يبحث عنه؟ وإن لم يكن يعلمه فكيف يبحث عن شيء لا يعلمه؟ أفييمكن أن يبحث الإنسان عن ضالة لا يعرف ما هي أو من هي؟!

ومع هذا فيصدق على ذاكرة الإنسان أن تبحث عند النسيان عن ضالة لا تعلم ما هي؟ وفجأة تصل إلى الرف الذي يحمل ضالتها فتعثر عليها<sup>(١)</sup>.

وهنا توجد نقطة دقيقة يكمن فيها الحل المذهل للقضية ، وهي : في مثل هذه الموضع لا يبحث الإنسان عن ذات ذلك الاسم أو الموضوع الذي لا يعرف ما هو بل من أجل العثور عليه تراه يبحث عن مجموعة الحوادث التي يعلم بشكل إجمالي أنه اخترنها في ذهنه بمعية الاسم المطلوب (لأنّ الحوادث المختلفة تختزّن على شكل مجموعات مجموعات) ، فمثلاً هو يعلم أنه تعرف لأول مرة على الشخص المعنى الذي نسي أسمه في اليوم الفلاني والمحل الفلاني ، لذلك يطلب من أرشيف الذاكرة وبشكل فوري إضماره ذلك اليوم وذلك المحل ويتصفحها بسرعة البرق ليعثر في طياتها على اسم ذلك الشخص.

ونختم هذا الكلام بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام ورد في توحيد المفضل ، يقول :

«تأمل يا مفضل هذه القوى التي في النفس وموقعها من الإنسان ، أعني الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك ، أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال الحفظ وحده كيف كانت تكون حاله؟ وكم من خلل كان يدخل عليه في اموره ومعاشه وبخارته إذا لم يحفظ ماله وما عليه وما أخذه وما أعطى ، وما رأى وما سمع ، وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه من أساء به ، وما نفعه مما ضرره ، ثم كان لا يهتدي لطريق لو سلكه ما لا يُحصى ، ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره ، ولا يعتقد ديناً ، ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى ، بل كان حقيقةً أن ينسليخ من الإنسانية أصلاً».

ثم يضيف الإمام : «وأعظم من النعمة على الإنسان في الحفظ النعمة في النسيان ، فإنّه لولا النسيان لما سلا أحد عن مصيبة ولا انقضت له حسرة ، ولا مات له حقد ، ولا استمتع بشيء من متع الدنيا مع تذكر الآفات ...»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) الاقتباس من كتاب «حافظة» من سلسلة «وجه مى دام» (بالفارسية).

(٢) بخار الأنوار ، ج ٣ ، ص ٨٠ و ٨١ (بشيء من التلخيص).

#### ٤ . مقارنة عقل الإنسان بالعقل الألكترونية

في بعض الأحيان يقارن البعض من علمي الاطلاع بناء روح وفكير الإنسان وعقله ببناء العقول الإلكترونية ، والحال أن الفرق بينهما أكبر من الفرق بين الطائرة اللعبة التي يلعب بها الأطفال وطائرة عملاقة حقيقة ! والسبب هو :

إن نشاط العقول الإلكترونية محدود بحدود حافظتها فقط ، وحافظتها هي تلك التي يغذيها الإنسان بالمعلومات ، ولذلك ليس لها وراء حدود هذه الحافظة المحدودة أي نشاط على الاطلاق .

وفضلاً عن أن العقول الإلكترونية تفتقر لأي نوع من أنواع الإبتكار والتفكير أجزاء إحدى الحوادث الجديدة مهما كانت بسيطة ، كردة الفعل مقابل هبوب الرياح الشديدة مثلاً ناهيك عن الإبتكار والإبداع في القضايا المهمة والمعقدة .

ثم حتى لو افترضنا صحة المقارنة بينهما فأي عقل يصدق أن صناعة العقل الإلكتروني الذي يُعدُّ أُعجوبة الصناعات البشرية ، قد تمت على يد إنسان أمي أو أعمى أو أصم أو مجنون ؟

أفيمكن للطبيعة المقادمة للروح والعقل والتفكير والإبتكار أن توجد الروح والعقل والإبتكار؟ ومن هنا نقول : إن في داخل روح الإنسان الآلاف من آيات الخالق وعلاماته .

\* \* \*

#### ٥ . أصلية واستقلال الروح

مع أنه لا يوجد بالنسبة لنا فرق في البحوث المتعلقة بآيات الله بين أن تكون روح وفكير الإنسان جوهراً مستقلاً ومجرداً عن المادة ، أو مرتبطاً بها ومن آثارها (وهذا هو الجدل المعروف بين الفلاسفة الإلهيين والماديين) ، ولكن لا شك أنه متى ما ثبتت أصلية واستقلال الروح اكتسبت هذه الآية الإلهية مزيداً من التأثير والجاذبية .

يصر الماديون على أن الروح والفكير من الخواص «الفيزيو كيميائية» للخلايا الدماغية

والتي تزول تماماً بفناء الجسم ، والحال أن للروح والفكر الآدمي ظواهر لا يمكن تفسيرها بالتفاصيل المادية أبداً.

فمثلاً يجد كل شخص حقيقة في داخله تسمى «الأنّ» ، وهي واحدة ليست أكثر من بدأة العمر حتى نهايته ، «أنّ» منذ الطفولة وحتى الآن شخص واحد لم أزد ولم أتغير ، وسابقى أنا ذلك الشخص إلى آخر العمر ، بالطبع درست وتعلمت القراءة والكتابة ولهذا فقد حصلت وعلى نسبة من التكامل ، لكنني لم أتحول إلى إنسانٍ آخر ، بل ما أزال ذلك الشخص السابق.

في حين إذا أخذنا الأجزاء المادية للجسم نرى أن جميع تلك الذرات في حال تغيير وتبدل ، وأنّ جميع خلايا الجسم تتغير كل سبعة أعوام مرة واحدة تقريباً ، أي أنّ الشخص البالغ من العمر سبعين سنة أصابه تبدل في أجزاء جسمه المادية عشرة مرات ، رغم أنّ «الأنّ» (شخصيته الإنسانية) ثابتة لم تتغير ، وهذا يدل على أن حقيقة «الأنّ» حقيقة ما وراء المادة ولا تتغير بتغيرات المادة.

فضلاً عن أنّ في أذهاننا حفائق مخزونة تكون أكبر من مخنا وخلايانا المخية آلاف الآلاف من المرات ، تصور السماوات وال مجرّات ، الشمس والقمر وغيرها ، فمن المستحيل أن تكمن هذه الصور الكبيرة في الجزء المادي من وجودنا ، ولا سبيل إلا أن تتعكس في الجزء غير المادي أي الروح ، لأنّ الجزء المادي أي المخ ليس إلا موجود صغير.

وعلاوة على هذا فإنّ الظواهر المادية تقبل التجزئة والقسمة جميعاً في حين توجد بين مفاهيمنا الذهنية مفاهيم لا تقبل التجزئة إطلاقاً.

إنّ خصوصية «تصوير الواقع» والاطلاع على العلم الخارجي بالنسبة لنا ، وال الموجودة في علومنا ومعارفنا ، هي حقيقة لا يمكن تبريرها عن طريق الخواص «الفيزيو كيميائية» للمخ. وهذه البراهين الأربع وبراهين واضحة أخرى تدل بجلاء على أنّ الروح حoyer مستقل وبمحض من المادة <sup>(١)</sup>.

---

(١) من أجمل مزيد من الشروح راجع ، ذيل الآية ٨٥ من سورة الإسراء من «التفسير الأمثل».

## ٦ . خصوصيات الروح في القرآن الكريم

يمكن استخلاص الخصوصيات والصفات التالية للروح الإنسانية بالاستفادة من آيات القرآن الكريم :

أ) تتمتع الروح الآدمية بالاستقلال وتبقى بعد انفصالها عن الجسد مستقلة ، والآية

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ ...﴾ . (الزمر / ٤١)

تشهد بهذه الحقيقة.

ب) من الممكن أن تتنعم الروح الآدمية وبعد انفصالها عن الجسم في عالم البرزخ

بانواع النعم الإلهية أو أنها تتعدب ب مختلف صنوف العذاب الشديد ، وفي آية ﴿حَيَاةُ

الشُّهَدَاءِ﴾ كما ورد في الآية ١٦٩ من سورة آل عمران.

وآية «عذاب آل فرعون» كما ورد في الآية ٤٦ من سورة غافر.

دليل على هذا المعنى.

ج) يختلف بناء الروح إختلافاً كبيراً عن بناء الجسم كما قرأنا ذلك في الآيات المعنية

حيث إن الله تعالى يعتبر الروح من عالم «الأمر» وخلقها من نوع «إنشاء الخلق الآخر»

الآية ٨٥ من سورة الاسراء و ١٤ من سورة المؤمنون.

د) إن علم الإنسان عن حقيقة الروح وأسرارها قليل جداً ، وآية ﴿وَمَا أُوتِيْتُمْ مِّنَ

الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ . (الاسراء / ٨٥)

شاهد على هذا المدعى.

ه) في حالة النوم تضعف علاقة «الروح» ، بـ «الجسم» وفي حالة الموت تنقطع نهائياً

كما في ورد في سورة الزمر ، الآية ٤٢ .

و) الروح والظواهر الروحية بصورة عامة من الآيات المهمة على عظمة الله ووسيلة

مهمة لمعرفته تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . (الزمر / ٤٢)

\* \* \*

## ٧. مسک الختام حول الروح

إن البحث حول الروح أكبر وأوسع من أن نستطيع تبيان جميع أبعاده في هذا الموجز السريع ، وإذا أردنا أن نترك عنان القلم خرجننا من بحثنا التفسيري ، لذلك يمكن الرجوع إلى الكتب الفلسفية والكلامية والروائية ، من أجل المزيد من التفصيات وقد وردت بحوث متعددة في «التفسير الأمثل» في هذا المضمار ، ونلاحظ بحوثاً وشروحًا وافية في تفسير الميزان ، المجلد الأول في تفسير الآية : **﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ﴾** . (البقرة / ١٥٤)

ذكر العلامة الجلسي في كتابه المشهور بحار الانوار ١٧ دليلاً عقلياً ونقلياً لإثبات أنّ حقيقة الإنسان ليست مجرد هذا الجسم <sup>(١)</sup> .

وفي نفس هذا الكتاب يذكر نقاًلاً عن المحقق الكاشاني ١٤ قولهً حول حقيقة الروح <sup>(٢)</sup> .

ونختم هذا البحث بحديث لطيف عن أمير المؤمنين عليه السلام ، حيث روى عنه أئمّة قال : «الروح في الجسد كالمعنى في اللفظ» <sup>(٣)</sup> .

يقول أحد العلماء واسمـه الصفري : «إنـي لم أر مثـالـاً حول الروح أـجـمـلـ وـأـفـصـحـ من هذا المـثـالـ» ، نـعـمـ الـرـوـحـ كـالـمـعـنـىـ وـالـجـسـمـ كـالـلـفـظـ !

\* \* \*

(١) بـحـارـ الـأـنـوارـ ، جـ ٥٨ـ ، صـ ٦ـ إـلـىـ ١٠ـ .

(٢) المـصـدـرـ السـابـقـ ، صـ ٧٥ـ .

(٣) سـفـيـنـةـ الـبـحـارـ ، جـ ١ـ ، صـ ٥٣٧ـ ، مـادـةـ (الـرـوـحـ)ـ .

## ٥ . آياته

### في الهدایة الفطریة والغیریة للإنسان والحيوان

#### تمهید :

ليس البشر فحسب بل الكثير من الأحياء الأخرى تولد من أمهاها ولديها حصيلة من العلوم والمعارف الفطرية والغیرية ، العلوم التي لم يكن ثمة معلم يعلمها وليس وليدة التجربة والاختبار ، بل إن المعلم الأول هو الذي أودعها منذ البداية في عمق وجود الإنسان وسائر الحيوانات بطريقة تثير العجب والذهول.

إن دراسة هذه العلوم والمعارف والهدایة الفطریة والغیریة تعد آيات عظيمة على عظمة الله وعلامة بيّنة لعلمه وقدرته.

وبهذه الإشارة القصيرة ، نقرأ خاسعين لآيات الكريمة أدناه :

- ١ . ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ . (طه / ٥٠)
- ٢ . ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيَنَاهُ التَّجْدِيدَ﴾ . (البلد / ١٠٠ . ٨)
- ٣ . ﴿فَأَلْهَمْهَا فُجُورَهَا وَتَفْوَاهَا﴾ . (الشمس / ٨)
- ٤ . ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفُوا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . (الروم / ٣٠)
- ٥ . ﴿الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَ عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ . (العلق / ٤ . ٥)

٦ . ﴿الرَّحْمَنُ عَلَمَ الْقُرْآنَ حَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَمَهُ الْبَيَان﴾ . (الرحمن / ٤ . ١)

٧ . ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّر﴾ . (الغاشية / ٢١)

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

أستاذ الأزل :

الآية الأولى من الآيات التي احتزناها في بحثنا هذا تتناول حوار موسى بن عمران عليه السلام مع فرعون ، فعندما سأله فرعون وأخاه هارون : من هو ربكمما هذا الذي تدعون له؟ أجابه فوراً : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ .

واضح أن كل موجود خلق من أجل هدف ، وكل صنف من أصناف النباتات والحيوانات وال موجودات سواء كانت طيوراً أو حشرات أو حيوانات أو صحارى أو بحاراً ، كل خلق لبيئة خاصة ، ونرى بوضوح أن لها انسجاماً كاملاً مع بيئتها وقد زوّدت بما تحتاج إليه ، هذا في المرحلة الابتدائية من خلقها.

أما في مرحلة المداية التكوينية فنشاهد بجلاء أن ليس هنالك موجود يترك حاله بعد خلقه بل إنه يُساق نحو أهدافه بتوجيه خفي ، وللكثير منها علوم و المعارف لم تصلهم بلا شك عن طريق التجربة الشخصية ولا عن طريق تعليم المعلم ، إن هذه المداية التكوينية والعلوم والمعارف من آيات الذات المقدسة التي خلقت هذا العالم الكبير وما انفك تحديه وتسيره.

وبالطبع فإن هذا الكلام لا يخص الإنسان وحده ، بل إن مفاد الآية هو بحث كلي وجامع وعام يشمل أفراد البشر ، وهذا أمر يختلف عن هداية الأنبياء والرسل المسمة بالهداية التشريعية والخاصة بالإنسان.

إن الطفل الذي يولد من أمّه يتّجه وبدون أي مقدمة نحو ثدي الأم بفمه ويعتص عصارة روحها ، وتارة يضع يديه الصغيرتين على الثدي فيحرك منابع اللبن فيه ، من اين تعلم هذا الدرس الذي يضمن له تغذيته واستمرار حياته؟

من اين يعلم أنّ أفضل سبيل لرفع حاجاته التي لا يستطيع القيام بها هو «البكاء» البكاء الذي يهز الأم في نومها ويقطّتها ويفرض عليها معونته ، وكذلك العلوم والمعارف الأخرى التي يستفيد منها الإنسان في مراحل أخرى من دون الحاجة إلى معلم.

يُوحَدُ في آيات أخرى من القرآن ما يشبه هذا المعنى : نقرأ في قوله تعالى :

﴿وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى﴾ . (الأعلى / ٣)

وفي الآية الثانية من الآيات المخصصة لبحثنا هذا وعند تذكرة الإنسان بنعمه عليه ،

يقول بعد الإشارة إلى نعم العين واللسان والشفاء : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْن﴾ .

«نَجْدٌ» : في اللغة بمعنى المكان المرتفع والفلة ، وهي تقابل «التهامة» التي تطلق على الأرضي المنخفضة والواطئة والمساوية لمستوى سطح البحر وما شاكل ، وانطلاقاً من أنّ المعرفة بأسس السعادة وطرقها وسلوك هذه الطريق يشبه إلى حدٍ ما سلوك الطرق المرتفعة بما فيها من مشاق ومشاكل كثيرة ، فقد استعملت مفردة «نَجْدٌ» هنا بمعنى طريق الخير ، ثم جاء الاطلاع على طرق الشر إلى جانبها بعنوان «التغليس» ، وعليه يكون معنى الآية هو : «إِنَّا هدَيْنَا إِلَيْهِ الْإِنْسَانَ إِلَى هَذِينَ الْمَكَانَيْنِ الْمَرْتَفَعَيْنِ» ، وهذان المكانان هما طرق الخير والشر.

لهذا نقرأ في حديث عن الرسول الأكرم ﷺ : «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! هَمَا بَنَحْدَانَ : بَنَحْدَ الخير وَبَنَحْدَ الشَّرِّ ، فَمَا جَعَلَنِي بَنَحْدَ الشَّرِّ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ بَنَحْدَ الخير» .<sup>(١)</sup>

يحصر البعض من ذوي النظر المحدود مفهوم الآية الواسع في داخل موضوع محدود ، ويقولون : إنّ المقصود من هذين المكانين المرتفعين هما ثديا الأم! وقد ورد في الحديث أن الإمام علي عليه السلام سُئِلَ عن معنى «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» وهل تعني ثديي الأم كما يدعي البعض .

إنّ المداية الإلهية في هذا الحال تحصل طبعاً عن طرق مختلفة ، عن طريق الوجدان الأخلاقي ، الفطرة ، الدلائل العقلية ، وتعاليم الرسل (أي أنها تشمل أنواع المداية التكوينية والتشريعية) ، لكن سياق الآيات يناسب المداية التكوينية أكثر.

\* \* \*

(١) تفسير نور الثقلين ، ج ٥ ، ص ٥٨١ ؛ وتفسير مجمع البيان ؛ وتفسير القرطبي ، وقد روی نفس هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام تعقباً على الآيات المنظورة.

وفي الآية الثالثة بعد القسم بروح الإنسان ، وخلق الروح ، يشير إلى مسألة الهام الفجور والتقوى ويقول : إنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَهْمَمَ نَفْسَ إِنْسَانَ الْفَجُورُ وَالتَّقْوَى : **فَأَهْمَمُهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا** ، و «الهام» مِنْ مادة «لَهْمٌ» على وزن (فَهُمْ) أي (ابتلاع) أو (شرب) الشيء<sup>(١)</sup>.

ثم جاءت بمعنى القاء الأمر في قلب الإنسان من قبل الباري تعالى ، فكأنما يلتهم القلب ذلك الأمر بتمامه ، ولللام معنى آخر أيضاً وهو «الوحي» ، حيث استُخدِّم أيضاً بهذا المعنى أحياناً.

وتعني «الفجور» حرق حجاب التقوى ، وارتكاب الذنوب ، وهي من مادة «فَحْرٌ» التي تعني الانشقاق الواسع ، أو انكشاف ظلمة الليل بواسطة بياض الصبح . و «التقوى» : من مادة «الوقاية» ، وتعني «الصيانة» ، والمقصود هنا الأساليب التي تمنع الإنسان من التلوث بالذنوب والقبائح.

من هنا يُفهم بوضوح من هذه الآية أنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قد أُودعَ مسألة إدراكِ الحُسْنِ واللُّبْحِ العُقْلَيْنِ وَفَهْمِ الْحَسَنِ وَالسَّيِّءِ بِشَكْلٍ فَطَرِيٍّ دَخْلَ رُوحِ إِنْسَانٍ كَيْ يَهْدِيَهُ الطَّرِيقَ نَحْوَ السَّعَادَةِ وَالْتَّكَامِلِ.

وورد في حديث الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية أنه قال : «بَيَّنَ لَهَا مَا تَأْتِي وَمَا تَرْكَ»<sup>(٢)</sup> ، فالمقصود هو أنَّ اللَّهَ بَيَّنَ لِإِنْسَانٍ مَا يَحْبَبُ فِعْلُهُ وَمَا يَحْبَبُ تَرْكُهُ أَوْ بِتَعْبِيرِ آخْرٍ عَلَمَهُ «الواجبات ، والمحرمات».

و حول السبب في تقدُّم «الفجور» على «التقوى»؟ يقول بعض المفسّرين : لأنَّ «التَّطَهُّرَ مِنَ الذَّنَبِ» يُمْثِلُ الأُرْضِيَّةَ لِ«التحلي بالتقى» ، باعتبار أنَّ (التحلية) تكون قبل «التحلية» ، و «التطهير» قبل «إعادة البناء» دائمًا<sup>(٣)</sup>.

(١) لسان العرب مادة (لَهْمٌ) بناءً على ذلك فحينما تستعمل هذه المادة في باب الافعال تفيد «الابتلاع والشرب» وقال بعض إلهاً تستخدم في امور الخير فقط ، وإن المراد من الهام الفجور في الآية هو صده عن الخير أيضاً.

(٢) تفسير نور الشفلين ، ج ٥ ، ص ٥٨٦ ، ج ٧.

(٣) تفسير روح المعانى ، ج ٣٠ ، ص ١٤٣ .

على أية حال ، فلو لم يكن إدراكُ حُسْنٍ وَقُبْحِ الأَفْعَالِ فطرياً بالنسبة للإنسان ، أي لو كانت هناك حاجة للاستدلال من أجل فَهِمِ قُبْحِ الظلم وَحُسْنِ العدْلِ والاحسان والأعمال الأخرى فمن المُسْلِمِ إِنَّهُ سيختَلُّ نَظَامُ الْجَمَعَةِ الْبَشَرِيِّ ، لأنَّ الْكَثِيرَ مِن الْخِلْفَاتِ الْعَقَائِدِيَّةِ تَنْشَأُ مِنْ الْإِسْتَدَلَالَاتِ النَّظَرِيَّةِ ، حِيثُ لَا يَوْجِدُ أَسَاسٌ وَجْدَانِيٌّ مُتِينٌ لِهَذَا الْمَعْنَى ، فَيَمْنَعُ كُلُّ شَخْصٍ لِنَفْسِهِ حَرِيَّةَ الْقِيَامِ بِأَيِّ عَمَلٍ.

أَجَلَّ إِنَّ هَذِهِ الْمَدَائِيَّةُ الْإِلَاهِيَّةُ فِي الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلإِنْسَانِ مَصِيرَيَّةٌ إِلَى أَبْعَدِ الْحَدُودِ ، وَهَذِهِ النِّعَمَةُ وَهَذِهِ الْمَدَائِيَّةُ مَهْمَةٌ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي لَا يَمْكُنُ قِيَاسُهَا بِسَائِرِ النَّعَمِ الْأُخْرَى.

\* \* \*

وَفِي الْآيَةِ الْرَّابِعَةِ طُرِحَتْ مَسَأَلَةُ فَطْرَةِ الدِّينِ ، وَهُوَ «الَّذِينَ هُنَّ حَنِيفُونَ» أَيِّ الْخَالِيِّ مِنْ كُلِّ أَشْكَالِ الْمَهْوِيِّ وَالْإِتْجَاهِ نَحْوَ الْبَاطِلِ وَالْأَخْرَافِ ، وَالظَّاهِرُ مِنْ كُلِّ أَشْكَالِ الشُّرُكَ وَالْتَّلُوُّثِ :

**﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَنِيفُونَ فِطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾**

وَالاستفادةُ مِنْ تَعْبِيرِ **﴿الَّذِينَ﴾** نَظَرًا لِسُعَةِ مَفْهُومِهِ ، حِيثُ يَشْمَلُ جَمِيعَ اصْوَلِ الدِّينِ ، وَالْحَدِّ الْأَدْنِيِّ مِنْ مَجْمُوعِ فَرْوَنَةِ الدِّينِ ، بِأَنَّهُ لَيْسَ مَعْرِفَةَ اللَّهِ وَالْتَّوْحِيدِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا اصْوَلُ وَفَرْوَنَةِ الدِّينِ كَافِةً أَوْدَعَتْ مِنْذِ الْبَدَائِيَّةِ فِي رُوحِ الْإِنْسَانِ بِنَحْوِ اِجْمَالِيٍّ وَبِصُورَةٍ فَطَرِيَّةٍ ، وَهَذِهِ هِيَ «الْمَدَائِيَّةُ التَّكَوِينِيَّةُ» الَّتِي يُمْكِنُ أَنْ تُوْجَدَ أَكْثَرُ الْأَثَارِ جَاذِبَيَّةً لِدِيِّ الْإِنْسَانِ فِيمَا لَوْ تَنَاغَمَتْ مَعَ «الْمَدَائِيَّةِ التَّشْرِيعِيَّةِ» لِلْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الْكَلَمُ .

بَنَاءً عَلَى ذَلِكَ فَانَّ أَصْلَ كُلِّ دُعَوَةٍ مَوْجُودَةٍ فِي الشَّرِيعَةِ لِهِ وَجُودٌ فِي أَعْمَاقِ فَطْرَةِ الْإِنْسَانِ ، وَلَا يَعْرَضُ أَيُّ دِينٍ إِلَرَادَاتِ الْفَطْرَةِ لِلْإِنْسَانِ ، بَلْ يَرْشُدُهَا وَيُكَمِّلُهَا مِنْ خَلَالِ الطَّرِيقِ الْمَشْرُوعِ ، وَلَهُذَا فَانَّ التَّعْبُدَ وَالتَّدَبُّرَ مَوْجُودَانِ دَاخِلِ رُوحِ الْإِنْسَانِ بِصَفَتِهِمَا هَدَائِيَّةٌ تَكَوِينِيَّةٌ ، وَإِذَا مَا حَصَلَ اِخْرَافٌ مَا فَانَّهُ طَارِئٌ ، لَهُذَا فَانَّ دُورَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الْكَلَمُ هُوَ اِزَالَةُ هَذِهِ الْأَخْرَافَ ، كَيْ تَحْصُلَ إِمْكَانِيَّةُ تَفَتُّحِ الْفَطْرَةِ الْحَقِيقِيَّةِ.

وَهُنَا نَكْتَفِي بِهَذَا الْمَقْدَارِ حِيثُ سَتَكَلُّ مَفْصَلًا بِخَصْصَوْصِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي بَحْثِ التَّوْحِيدِ الْفَطَرِيِّ فِي الْجَلْدِ الْثَّالِثِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وقد تحدثت الآية الخامسة عن التعليم الإلهي بواسطة القلم ثم أشارت بشكل عام إلى تعليم الإنسان للمسائل التي يجهلها إذ يقول تعالى : ﴿الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمَنْ عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

قد يكون التعليم الإلهي بواسطة القلم إشارة إلى القراءة والكتابة التي حدثت لأول مرة على أيدي الا نبياء عليهما السلام<sup>(١)</sup> ، أو لأنَّ الله تباركَ وتعالى قد أوجَدَ هذا الذوق والقابلية لدى الإنسان هدایةً فطريةً حيثُ أُبْتُدِعَ بعد اتضاح القراءة والكتابة ، فبدأت مرحلة ما بعد التاريخ مع إيجاد الخط (حيثُ نعلمُ أنَّ الفاصل الزمني بين مرحلتي ما قبل التاريخ وما بعد التاريخ هي مسألة اكتشاف الخط).

على أية حالٍ ، فقد حصلَ التعليمُ بالقلم عن طريق المدایة الإلهيَّة. ويمكن أن تكون جملة ﴿عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ إشارة إلى العلوم الفطرية المختلفة التي أودعها الله تعالى فكر الإنسان ، المتضمنة لإدراك القبح والحسن ، والفحور والتقوى وكذلك القضايا البدويَّة التي تكون أساساً للقضايا النظرية في العلوم الاستدلاليَّة ، والاطلاع على قواعد الدين واصول الأحكام الإلهيَّة أيضًا.

\* \* \*

وفي الآية السادسة بعْدَ أن ينسبَ تعليم القرآن إلى الله الذي هو مصدرُ جميع الرحمات والكرامات ، يتحدثُ عن خلق الإنسان ويقول : ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَمَهُ الْبَيَانَ﴾. ولـ «البيان» : مفهومٌ عامٌ حيثُ يُطلقُ على كلِّ شيءٍ موضِّحٌ لأنواع الاستدلالات العقلية ، والمنطقية التي تُبَيِّنُ المسائلَ المعقَّدة ، أو الخط والكتابة ، أو الكلام الذي يعد من ابرز مصاديقه.

وقد اعطى المفسرون احتمالاتٍ كثيرة في تفسير «البيان» ، فقد اعتبرها فريق منهم

(١) نقل عدَّةٌ من المفسرين أنَّ آدم عليهما السلام كان أول من كتب بواسطة القلم (تفسير القرطبي ، ج ١٠ ، ص ٧٢١٠ ؛ وتفسير روح البيان ، ج ١٠ ص ٤٧٣).

معنى بيانُ الخير والشَّرِّ ، وفريق آخر بمعنى بيانُ الحال والحرام ، وثالث اعتبرها بمعنى الاسم الأعظم ، ورابع بمعنى تعليم اللغة <sup>(١)</sup>.

لكن من الواضح أنَّ ظاهر (البيان) هو التَّكُلُّم ، وتبعد بقية الاحتمالات ضعيفة <sup>(٢)</sup>.  
وهنا كيف علِّمَ الله تعالى الإنسان التَّكُلُّم؟ قال بعض المفسرين : إنَّ الله هو الذي «وضع اللغات» ثم علِّم الأنبياء عليهم السلام عن طريق الوحي ، لكن ييدو أنَّه ليس هناك دليل واضحُ لهذا الرأي ، إنما المقصود هو الاهتمام الباطني من قبل الله تعالى للإنسان ، حيث استطاع من خلال إيجاد الصوت عن طريق الحنجرة ، ثم إيجاد الحروف عن طريق حركة اللسان والاعتماد على مخارج الحروف ، ثم تركيبها مع بعضها وإيجاد الكلمات ، ثم تسمية الأشياء والمفاهيم المختلفة ، بحيث يعكس مقاصدُه الباطنية والمفاهيم المادية والمعنوية ، الجزئية والكلية ، المستقلة وغير المستقلة كافية عن هذا الطريق السهل الذي هو في متناول أيدي الجميع ، والحقيقة أنَّه لو لم تكن هذه الهيئة الالهية الخالقة ولم يعرف الإنسان التَّكُلُّم لما وُجِدَتِ الحضارة ، ولما ارتفع العلم إلى هذا الحد ، ولما تَمَكَّنَ الإنسان من بناء قواعد حياته على أساس التعاون الجماعي ، لأنَّ التعاون فرعٌ من علاقة التقارب مع الآخرين.

وورد في تفسير الميزان أنَّ من أقوى الأدلة على أنَّ اهتداء الإنسان إلى «البيان» قد تم بالهَمِّيِّ ، هو اختلافُ اللغات باختلافِ الأمم والطوائف في الخصائص الروحية والأخلاقية والنفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التي يعيشون فيها <sup>(٣)</sup>.

وقد قدرَ بعض المحققين عدد اللغات الموجودة في العالم بـ «ثلاثة آلاف لغة» ، وقال بعضهم أنَّ العدد يفوق ذلك <sup>(٤)</sup>.  
وهذا الاختلاف عجيبٌ حقاً ، وهو من براهين قدرة وعظمة الله تبارك وتعالى.

(١) تفسير القرطبي ، ج ٩ ، ص ٦٣٢٢ ، وتفسير روح المعاني ، ج ٢٧ ، ص ٨٦.

(٢) إذا فُسِّرَتْ (البيان) في بعض الروايات على أنَّها الاسم الأعظم فهو من باب ذكر المصدق الواضح.

(٣) تفسير الميزان ، ج ١٩ ، ص ١٠٧.

(٤) دائرة المعارف «فريد وجدي» ، ج ٨ ، ص ٣٦٤.

فَأَصْلُ التَّكَلُّمِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْعَظِيمَةِ ، وَهَذَا التَّنْوِعُ فِي الْلُّغَاتِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ أُخْرَى ،  
وَكَلَّاهَا يُعْتَبَرُ مِنْ خَصَائِصِ خَلْقَةِ الْبَشَرِ .

مِمَّا لَا شُكَّ فِيهِ . أَنَّ عَمَّلَهَا لَيْسَ إِلَّا تَقْليْدٌ لِلْفَاظِ مُحَدَّدَةٍ صَادِرَةٍ عَنِ الْإِنْسَانِ مِنْ غَيْرِ ادْرَاكٍ  
لِمَفَاهِيمِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ ، فَالْإِنْسَانُ وَحْدَهُ الَّذِي يَسْتَطِعُ . بِنَحْوِ غَيْرِ مُحَدَّدٍ وَبِادْرَاكٍ تَامٌ . أَنَّ  
يَكُونَ جُمَلًا وَيَصْبِبُ فِيهَا مَفَاهِيمَ مُخْتَلِفَةً وَيَعْبُرُ عَنْهَا .

وَفِي «تَوْحِيدِ الْمُفَضِّلِ» ، يَلْفَتُ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ الْأَنْبَاءُ النَّظرَ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْعَظِيمَةِ ،  
حِيثُ يَقُولُ عَلَيْهِ الْأَنْبَاءُ لِلْمُفَضِّلِ : «... اطِّلِ الْفَكْرَ يَا مُفَضِّلَ فِي الصَّوْتِ وَالْكَلَامِ وَتَهْيَةِ آلَاتِهِ فِي  
الْإِنْسَانِ ، فَالْحِنْجَرَةُ كَالْأَنْبُوبَةُ لِخُرُوجِ الصَّوْتِ ، وَاللِّسَانُ وَالشَّفَّاتُ وَالْأَسْنَانُ لِصِيَاغَةِ الْحُرُوفِ  
وَالنُّغْمَ ، أَمْ تَرَ أَنَّ مِنْ سُقْطَتِ أَسْنَانِهِ لَمْ يَقُمْ السِّينُ ، وَمِنْ سُقْطَتِ شَفَتِهِ لَمْ يَصْحِحْ الْفَاءُ ،  
وَمِنْ شَقْلِ لِسَانِهِ لَمْ يَفْصِحْ الرَّاءُ ، وَأَشْبَهُ شَيْءٍ بِذَلِكَ الْمَزْمَارَ الْأَحْمَرَ...»<sup>(١)</sup> .  
ثُمَّ يَشْرُعُ الْإِمَامُ عَلَيْهِ الْأَنْبَاءُ تَفَاصِيلَ ذَلِكَ لِلْمُفَضِّلِ وَيَدْعُوهُ إِلَى التَّفَحُصِ بِهَذَا الْأَمْرِ .

\* \* \*

وَفِي الْآيَةِ السَّابِعَةِ وَالْأُخِيرَةِ مِنْ بَحْثِنَا ، يَخَاطِبُ تَعَالَى الرَّسُولَ عَلَيْهِ الْأَنْبَاءُ وَيَأْمُرُهُ : **﴿فَذَكِّرْ**  
**إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾** ، فَقَدْ يَكُونُ الْمَقْصُودُ مِنْ «الْتَّذَكِيرَ» إِشَارَةً إِلَى أَنَّ حَقَائِقَ هَذِهِ الْعِلُومِ  
وَالْمَعَارِفِ وَخَلَاصَتُهَا مُوْجَدَةٌ فِي وَجْهِنَّمِ وَرُوحِ الْإِنْسَانِ طَبْقًا لِلْهَدَايَةِ الإِلَهِيَّةِ ، ثُمَّ تَتَفَتَّحُ هَذِهِ  
الْعِلُومُ فِي ظُلُمِ تَعَالَيمِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرَّسُولِ (عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ ) ، حِيثُ تَخْرُجُ مِنْ مَرْحَلَةِ «الْخَفَاءِ» إِلَى مَرْحَلَةِ  
«الظَّهُورِ» ، وَمِنْ «الْأَجَالِ» إِلَى «الْتَّفَصِيلِ» وَمِنْ «الْبَاطِنِ» إِلَى «الظَّاهِرِ» .  
وَقَدْ وَرَدَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَرْبَعُ مَرَاتٍ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ عِنْدَ بِيَانِ وَقَائِعِ قَوْمِ  
«فَرْعَوْنَ» وَ«عَادَ» وَ«ثَمُودَ» وَ«لُوطَ» حِيثُ يَقُولُ تَعَالَى : **﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذَّكِّرِ**  
**فَهَلْ مِنْ مُذَكَّرٍ﴾** . (الْقَمَرُ / ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠)

(١) بِحَارُ الْأَنْوَارُ ، ج ٣ ، ص ٧١ .

وهذا الكلام معروفٌ أيضاً عن بعض الفلاسفة اليونانيين ، حيث يقولون : «ليست العلوم والمعارف إلا التذكير ، ولقد أودعت جميع القواعد العلمية روح الإنسان دون استثناء ، وقد نسيها الإنسان إلا أنها تعود إلى الذاكرة بمساعدة المعلمين».

يقول الفخر الرازي في تفسيره : «لو قال قائلٌ : هذا يقتضي وجود أمرٍ سابقٍ فسيَّر ، ونقول : ما في الفطرة من الانقياد للحقٍّ هو كالمensi فهل من مذكُّر يرجع إلى ما فُطِّر عليه»<sup>(١)</sup>.

على أيّة حالٍ ، فإنّ جميع هذه الآيات دليلٌ حيٌّ على الهدایة الإلهيَّة الفطرية للإنسان.

\* \* \*

### توضیح

#### الهدایة الفطریة والغیریة في العلم المعاصر :

مع تطور علم النفس ، وعلم التحليل النفسي ، وبحوث العلماء حول الحواس ذات الأسرار الغريبة للحيوانات ، اكتُشِفت الكثير من أسرار الهدایة الفطریة والغیریة والمدهشة في عالم الأحياء ، ونواجه ظواهر تعجز العلوم عن تفسيرها ، ولا يمكن أبداً الوقوف على مصدر هذه الهدایات ، إلا أنَّ نُسلِّم بأنَّ مبدئ عالم الوجود الذي تكفل بهدایة جميع الكائنات هو الذي وهَّب هذه العلوم عن طريق الالهام الفطري الخفي للإنسان أو الحيوانات. ولدينا في هذا المجال قدر وافر من الشواهد بحيث لو جُمعت لشَكَّلت كتاباً كبيراً ،

منها الحالات الدقيقة الآتية :

١ . إنَّ الطفل حين ولادته يعرُفُ جيداً ومن دون الحاجة إلى معلمٍ كيفية الامساك بالثدي والرضاعة ، واستخدام اليد والأصابع لهذا العمل ، وعكس وايصال حاجاته إلى الأم عن طريق البكاء ويكون حاملاً لاستعدادات خفية اكتسبها من أمِّه ، من بينها : ابتداع الكلمات ،

(١) تفسير الكبير ، ج ٢٩ ، ص ٤٢ .

قابلية التكلم وفهم اللغات بالإضافة إلى إدراك الحسن والقبح وقسم كبير مما يجب وما لا يجب ويحمل في نفسه بشكل فطري معرفة عالم الوجود بالإضافة إلى معرفة الله سبحانه وتعالى.

يقول أحد العلماء : حينما تختضن الأمهاتُ أطفالهنَ لتهديتهم فهنَ يضعنهم على الجانب الأيسر من الصدر بلا علمٍ منهنَ بهذا الفعل ، حيثُ يضعنَ أطفالهن بجوار قلوبهن ، فيهداً الطفل بمجرد سماعه ضربات قلب الأم لأنَّه اعتاد على سماع هذا الصوت عندما كان حينينا في بطن أمِه وقلما توجد أم ملتفة إلى هذه المسألة ، ولذا فاكِّها تؤدي عملها هذا في هذا المجال بالهامٍ فطريٍّ محض.

٢ . إنَّ مسأَلَةَ الْهَدَايَا الْفَطَرِيَّةِ وَالْغَرِيْزِيَّةِ فِي عَالَمِ الْحَيَّاَتِ أَوْسَعُ بَكْثِيرٍ عَمَّا هِيَ عَلَيْهِ فِي الْإِنْسَانِ ، حِيثُ يُرَسِّ عِلْمَاءُ الْعَصْرِ نَمَادِجَ مَدْهُشَةً مِنْهَا ، فَقَدْ جَاءَ فِي كِتَابٍ «الْبَحْرُ دَارُ الْعَجَائِبِ» تَأْلِيفُ «فِرْدَ دِيَنَانْدِلِينِ» مَا يَأْتِي :

«إنَّ تصرفات بعض الأسماك تُعدُّ من أسرار الطبيعة حيث يعجز كُلُّ إنسانٍ عن بيان سببها ، فاسمك الـ «قزل آلا» تترك مياه البحر لنعود إلى مياه الأنهار العذبة التي بدأت حياتها فيها ، وتسبح بجَدٍ في الاتجاه المعاكس لتيار الماء ، وتقفز من فوق الصخور ، بل وتصعد أعلى الشلالات أيضًا ، وقد تملأ النهر لكثرتها أحياناً ، وعندما تصل هذه الأسماك إلى المكان الذي تبحثُ عنه تضع بيوضها ثم تموت !

فكيف تهتمي هذه الأسماك إلى الأنهار المناسبة ياترى؟ أكثُر إثارة للعجب من اختراع المذيع والتلفاز ، لأنّها لا تمتلك خارطةً ، كما أنّ قابليتها على الرؤية تحت الماء ضعيفة ، وليس هناك من يُدّلُّها على الطريق <sup>(١)</sup> .

٣ . وجاء في نفس ذلك الكتاب : «إِنَّ تَصْرِيفَ «الْجَرَى» أَكْثَرُ عَجَبًا مِنْ هَذَا ، فَهِينَما يَبْلُغُ سَمْكَ الْجَرَى «الْأَنْجِلِيزِي» ثَمَانِي سَنَوَاتٍ يَهْجُرُ الْحَوْضَ أَوَ النَّهَرَ الَّذِي يَعِيشُ فِيهِ وَيَزْحِفُ لِيَلًا كَالْأَفْعَى عَلَى الْأَعْشَابِ الرَّطِبَةِ حَتَّى يَصِلُ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ ، ثُمَّ يَطْوِي الْخَيْطَ

(١) البحر دار العجائب ، ص ١١٦.

الاطلسي سباحةً ويتوجه نحو المياه القريبة من «مثلث برمودا» حيث تضع الاناث بيوضها تحت الماء هناك وتموت ... والمدهش أنّ صغار سمك الجريّ تعود على سطح الماء ثم تبدأ سفراً طويلاً نحو الوطن الأم ، حيث تستغرق هذه الرحلة سنتين أو ثلاث سنوات!  
فكيف يعرف الجريّ هدفه هذا مع أنه لم يسلك هذا الطريق أبداً؟!  
إنّ الجواب عن هذا السؤال يستوي فيه جميع الناس حتى أعلم العلماء وهو (لا أعلم)

.<sup>(١)</sup>

٤ . يقول «فيتوس درفيشر» مؤلف كتاب «الحواس الحفيّة للحيوانات» : «لقد اكتشف العلماء أسراراً مذهلة عن الخفافش ، منها وجود أربعة أنواعٍ من الخفافيش التي تصطاد الأسماك ، فهي تحلق ليلاً فوق الماء وتمد أرجلها فيه فجأةً لصطاد سمكةً وتأكلها ، إنه سرٌ مدهشٌ فمن أين لها العلمُ بـأَنَّ في تلك النقطة سمكةً تسبح تحت الماء؟ لم يفلح الإنسانُ بالقيام بهذا العمل حتى الآن بالرغم من وسائله واحتراكاته العلمية ، فلا تستطيع أي طائرةٍ قاذفةٍ أن تحدد مكاناً معيناً لغواصه تحت الماء ، وإن استطاعت فعلها أن تطلق موجات خاصة على الماء كي تحدد مكان الغواص من خلال الذبذبات التي تبعث من الغواصة إلى الطائرة بواسطة الأمواج اللاسلكية.

أجل ، فالطائرة على عكس الخفافش لم تستطع الاطلاع مباشرةً على مكان وجود المهد الذي تحت الماء ، .. يقول البروفسور «غيري فون» «ليس هناك توضيحاً يمكن قبوله لهذا الموضوع أبداً».

ثم يضيف قائلاً : «ولم يكتشف الإنسان شيئاً حتى الآن إلا ويجد الطبيعة قد سبقته إليه».

ومن الطبيعي أن يبعث هذا الاكتشاف عند الإنسان الغرور ، لكنه لا يلبث أن يجد نفسه متأنراً عن الطبيعة في هذا المضمار.

لذا فقد استحدثَ العلماء الأميركيون علماً جديداً باسم «البولوجيا» . علم البيئة . ، وهدفه تعلم الفنون والأساليب الجديدة من الدروس التي تمنحها لنا الطبيعة من خلال الوصول إلى أسرارها.

(١) البحر دار العجائب ، ص ١١٦.

ثم يضيف قائلاً : «لو وضعنا أحد هذه اللبائن «الخفاش» في صندوقٍ مُقفلٍ مُظلمٍ وابتعدنا به ثلاثة كيلو متر عن عُشهِ ثم اطلقناه ، نجده يعود مباشرةً وباقصر وقتٍ إليه بالرغم من كونه شبهٍ أعمى ، وكون ذلك المكان مجهولاً بالنسبة إليه» <sup>(١)</sup>.

٥ . ويوضح الكاتب المعروف «غرسي موريسن» في كتابه «سرُّ خلق الإنسان» وفي فصوله تحت عنوان «الشعور الحيواني» ، صوراً لنماذج من هذا القبيل منها :

إنَّ الطيور تبني وتتَّوَجَّدُ أعشاشها بشكٍّلٍ غرزي (على الرغم من أنَّها لم تَرْ نموذجاً من قبل) ، فطَّيِّرُ السنونو الذي يبني عُشهُ في رواق البيوت يهاجر في فصل الشتاء إلى المناطق الدافئة ، وأمّا إذا لاحَت طلائع الربيع فهو يعود إلى وكره.

والكثير من الطيور تهاجر نحو الجنوب والمناطق الحارة ، وأغلبها يقطع مئات الفراسخ براً وبحراً إلَّا أنَّها لا تضلُّ الطريق إلى أوكرارها أبداً.

والأسمَّاك الحَرَّة تعيش سُنواتٍ عديدةٍ في البحر ، ثم تعود إلى النهر الذي جاءت منه ، والأكثر عجباً أنَّها تقفرُ من شاطئ النهر المرتفع وتذهب إلى النهر الذي ولدت فيه ... فالأسمَّاك الحَرَّة تتَّبعُ شعورها الباطني ، وتذهب إلى الساحل الذي كان ملأً لنشوئها ونموها ، فأيُّ شعورٍ يؤدّي إلى أن يعود هذا الحيوان إلى وطنه بهذا النحو الدقيق؟ «لا علم لأحد».

فلو أخرجنا فرخَ طيرٍ من عشهِ وقمنا بتربته في بيئَةٍ أخرى ، فهو يبدأ ببناء عشٍ له عند بلوغه مرحلة الرشد والتكامل وبالأسلوب الذي يتبعه أبواه ، فهل أنَّ الأعمال المحددة والمختلفة التي تصدر عن جميع مخلوقات الأرض تحدث صدفةً ، أم أنَّ العقل والشعور العام يؤدّي إلى صدورها؟ <sup>(٢)</sup>.

٦ . ويقول أحد العلماء الفرنسيين ويدعى «فارد» بصدق طائِرٍ يسمى «أكسيكلوب»

ما يأتي :

(١) الحواس الخفية للحيوانات ، ص ١٧.

(٢) سُرُّ خلق الإنسان ، الفصل ٨ ، الشعور الحيواني.

«لقد درست أحوال هذا الطائر ، فوجدت من خصائصه أنه يموت عندما يُكمل وضع بيوضه ، أي أنه لا يرى فراخه أبداً ، ولذلك فإن الفراخ سوف لن ترى وجه الأم المليء بالحنان إلى الأبد ، وعندما تخرج من البيضة تكون على هيئة اليرقة عديمة الريش والأجنحة ولا قدرة لها للدفاع عن نفسها تجاه ما يهدد حياتها ، لذلك فعليها البقاء لمدة سنة كاملة على هذه الحال وفي مكانٍ آمنٍ ، وأن يكون غذاؤها إلى جانبها ، لهذا فحينما تشعر الأم بحلول موسم وضع البيوض تبحث عن مقطعٍ خشبي فتقوم بثقبه ، ثم تشتعل بجمع الأطعمة ، فتجمّع الأوراق والأغصان التي يمكن استخدامها لتغذية فراخها لمدة سنة كاملة وتُعدهُ لواحدٍ من هذه الفراخ ، ثم تضعه في نهاية الثقب وتضع عليه بيضةً واحدة وتبني فوقه سقفاً قوياً نسبياً من عجينة الخشب ، وتبقي تشتعل بجمع الأطعمة ، وبعد تأمين قوت سنة كاملة لفريخ آخر ووضعها على سقف الطبقة الأولى تضع بيضةً أخرى ثم تبني طبقة ثانية ، وهكذا تقوم ببناء عدة طبقاتٍ ثم تموت بعد الفراغ من العمل ! (تأملوا جيداً .. من اين جاءت معرفة هذا الطائر الضعيف بأنَّ فراخه مثل هذه الحاجات؟ ومِمَّ استلهم هذه التعاليم؟ فهل تعلمها من أمها؟ في الوقت الذي لم يرها أبداً ، أم من خلال التجربة ، علمًا أنَّ هذا العمل لا يقع إلا مرهًة واحدة في حياته ...

ألا يجب الاعتراف بأنَّ هذا الفعل يستند إلى الماهِمِ غيبي وغريزي حيث وضعته يد القدرة الإلهية في كيانه؟!).

٧ . يقول العالم النفسي الروسي المعروف «بلاتونوف» في كتابه «علم النفس في الاتحاد السوفييتي» :

«التقييت أثناء الحرب العالمية العظمى صدفةً بطبيب لم يَر النوم لبعض ليالي ، ثم تمكَّن من النوم قليلاً ، وأثناء ذلك جيء بعدهِ كبيرٌ من الجرحى الذين يجب علاجهم فوراً ، إلَّا أنَّ الطبيب المذكور لم يستيقظ ، فحرَّكناه وسَكَبنا الماء على وجهه ، فكان يحرِّك رأسه ويعود إلى النوم ، فأشرتُ إلى الموجودين بالسكتوت «كي اوقظه» ، ثم قلتُ له بمدْوَه وبشكلٍ واضحٍ : أيها الطبيب جاؤوا بالجرحى وهم بحاجةٍ ماسِةٍ إليك ، هنا استيقظ فوراً.

ثم يضيف : كيف يمكن تبرير هذا الأمر ، فهؤلاء الذين كانوا يسعون لايقاظه كانوا

يوجهون التأثيرات على القسم غير الفعال من دماغه ، بينما وضع «دائرة الحراسة من المخ» في حالة انذار وترقب فهذا الجزء يبقى مستيقظاً حتى في أعمق حالات النوم ، ومن خلال دائرة الحراسة هذه يقيم الإنسان علاقاته مع العالم الخارجي (ويودع المسائل التي يرغب بها في هذه الدائرة بلا قصد منه).

والأم التي تنام إلى جانب طفلها المريض ولا يمكن لأعلى صرخات الذين من حولها أن توقعها ، تستيقظ لأقل آنٍ تصدر من طفلها.

والطحان الذي ينام عند حدوث العواصف المصحوبة بالبرق والرعد يستيقظ بمجرد توقف طاحونته عن العمل ، كل ذلك بسبب ايداعهم لما يريدونه في دائرة الحفظ في المخ في حالة اللاشعور» <sup>(١)</sup>.

٨ . ويقول «درفيشر» في كتابه حول الحمام الراجل وعودته المدهشة إلى عشه :

«لو وضعنا هذا الطائر في صندوق مغلٍ مظلمٍ وأبعدناه مئات الكيلو متراً عن وكره ، وسلكنا به الطرق المتلوية والمعقدة أثناء رحلتنا ، فإنه حال اخراجه من الصندوق يطير مباشرةً نحو عشه بعد عشرٍ أو عشرين ثانيةً من رؤية النور ، وقد ثبت ذلك عن طريق الاختبارات المتكررة التي قام بها عالمٌ معروفٌ يُدعى الدكتور «غرامر» .. ويع肯 توضيح اسلوب عمله بهذا المثال : فلو أنَّ هذا الطائر كان في مدينة هامبورغ فإنه يعلم أين تكون الشمس عند الساعة الفلاحية من اليوم ، فإذا أخذوه إلى مدينة «بروم» مثلاً فإنه يفهم أنَّ الشمس هناك تكون إلى الشمال من ٢٥ / ١ درجةً شرقاً بنصف درجة.

فمن أجل عودته إلى وكره في هامبورغ يجب عليه التحليق نحو الشمال الشرقي مع الأخذ بنظر الاعتبار وضع الشمس في هامبورغ.

إلا أنَّه ليس معلوماً كيف تقوم هذه الطيور بتحديد طرقها عندما يكون الجوُّ غائماً حيث تختفي الشمس؟ لقد أثبتت التجارب أنَّ أغلبها يجد طريقه بدون الاستفادة من حركة الشمس كبوصلة لتحديد اتجاهها» <sup>(٢)</sup>.

(١) علم النفس في الاتحاد السوفيتي ، ص ١٩ «مع شيء من الاختصار».

(٢) الحواس الخفية للحيوانات ، ص ١٨٣.

ولو فرضنا أنَّ هذه الطيور تستفيد من حركة الشمس ، فمن المسلم به عدم مقدرها على تعين الزوايا ، وهي زوايا صغيرة جدًا ، لا يمكن قياسها الامن خالل الاستعانة بالمنقلة لتحديدتها ، وهذه مسائل لا يمكن تفسيرها إلَّا في ظل المدایة التکوینیة الإلهیة.

إنَّ هذا الطائر ومئات مثلُه دليلٌ حيٌّ على أنَّ وراء الطبيعة علمًا وقدرةً لا متناهية تحدى وتقود كلَّ موجودٍ في مسيرة حياته ... نعم كلُّ هذا دليلٌ على من لا دليل له.

٩ . ونختم الحديث بكلامٍ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام طبقاً لما جاء في «توحيد المفضل» ، حيث يقول عليه السلام : «فَكَرْ يَا مَفْضُلٍ فِي خَلْقَةِ عَجَيْبَةِ جَعْلِ الْبَهَائِمِ ، فَأَكْفَمْ يَوْمَنَ أَنفُسِهِمْ إِذَا مَاتُوا كَمَا يَوْمَيِ النَّاسُ مَوْتَاهُمْ ، وَإِلَّا فَأَيْنَ جِيفَ هَذِهِ الْوَحْشَوْنَ وَالسَّبَاعَ وَغَيْرِهَا لَا يَرَى مِنْهَا شَيْءٌ؟ وَلَيْسَتْ قَلِيلَةٌ فَتَخْفِي لَقْلَتَهَا ؟ بَلْ لَوْ قَالَ قَائِلٌ : إِنَّهَا أَكْثَرُ مِنَ النَّاسِ لِصَدْقٍ ، فَاعْتَبِرْ ذَلِكَ بِمَا تَرَاهُ فِي الصَّحَارِيِّ وَالْجَبَالِ مِنْ أَسْرَابِ الظَّبَا وَالْمَهَا وَالْحَمِيرِ وَالْوَعُولِ وَالْأَيَّالِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوَحْشَوْنَ ، وَأَصْنَافِ السَّبَاعِ مِنَ الْأَسَدِ وَالْبَطَّاعِ وَالْذَّئَابِ وَالنَّمُورِ وَغَيْرِهَا ، وَضَرُوبِ الْمَوَامِ وَالْحَشَرَاتِ وَدَوَابَّ الْأَرْضِ ، وَكَذَلِكَ أَسْرَابُ الطَّيْرِ مِنَ الْغَرَبَانِ وَالْقَطَّا وَالْأَوْزِ وَالْكَرَكَيِّ وَالْحَمَامِ وَسَبَاعِ الطَّيْرِ جَمِيعاً وَكُلُّهَا لَا يَرَى مِنْهَا شَيْءٌ مَاتَ إِلَّا الْوَاحِدُ بَعْدَ الْوَاحِدِ يَصْبِدُهُ قَانِصٌ أَوْ يَفْتَرِسُهُ سَبْعَ ....» <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) بخار الأنوار ، ج ٣ ، ص ٩٩ (مع شيء من الاختصار).



## ٦ . آياته في حالي النوم واليقظة

تمهيد :

لم يقتصر القرآن الكريم على إشارته إلى الموضوعات المهمة جداً كخلق السماوات والأرض ، والشمس والقمر ، وروح الإنسان ، بصفتها آيات وبراهين من الله تعالى فحسب ، بل نراه أحياناً يتعرض إلى المسائل العادية في نظرنا أيضاً ، لكي يوضح لنا أنَّ ليس هناك شيء عادي في هذا العالم ، فكلُّها آياتٌ حقيقةٌ كبيرةٌ كانت أم صغيرة ، وبراهين عظيمةٌ على علم وقدرة الباري تعالى.

ومن بين هذه الأمور التي تُعدُّ عاديَّة حسب الظاهر ، هي حالتا النوم واليقظة اللتان استند اليهما القرآن الكريم على وجه الخصوص.

بهذا التمهيد نقرأ خاسعين الآيات الكريمة الآتية :

١ . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَإِنْبَغَاوْكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ . (الروم / ٢٣)

٢ . ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ . (الفرقان /

(٤٧)

٣ . ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا﴾ . (النَّبَأ / ٩ - ١٠)

٤ . ﴿إِذْ يُغَشِّيْكُمُ النُّعَاسَ أَمَّةً مِّنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ .

(الانفال / ١١)

\* \* \*

## شرح المفردات :

حينما يتطرق بعض أرباب قواميس اللغة إلى مصطلح **«النوم»** يقولون إنَّ له مفهوماً معروفاً<sup>(١)</sup>.

## إلا أنَّ الراغب يقول في كتاب المفردات :

النوم : فُسر على أوجه كلها صحيح بنظرات مختلفة ، قيل هو استرخاء أعصاب الدماغ ببطويات البخار الصاعد إليه ، وقيل هو أن يتوفى الله النفس من غير موت ، قال : «الله يتَّوفِيُ الْأَنْفُسَ» الآية ، وقيل النوم موت خفيف والمموت نوم ثقيل<sup>(٢)</sup>. و «النُّعَاصُ» : «على وزن غبار» ويعني النوم القليل والخفيف ، وفسرَه بعض على أنه بداية النوم ، وهنا حيث يكون النوم خفيفاً في بدايته فانَّ كلا المعنيين يعودان إلى حقيقة واحدة.

و «السَّبَاتُ» : مأخوذه من مادة «سَبَّتْ» (على وزن ثُبْتٍ) أي «القطع» ، ولهذا سُميَّ يوم السبت بهذا الاسم في لغة العرب ، حيث كان يوماً لتعطيل الأعمال من أجل الراحة ، وممَّا يظهر أنَّ هذه التسمية مستوحاة من أفكار اليهود حيث يعتبرون يوم السبت عطلة لهم ، وهذا ما يعتقد به اليهود ، إذ يقولون إنَّ الله تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد وانتهى بعد ستة أيام فكان يوم السبت نهاية خلق البشر وللراحة إلا أنَّنا نعلم أنَّ هذا من الأخطاء الفاضحة لليهود ، لأنَّه في الوقت الذي لم تكن هناك سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر لم يكن هناك وجود لليوم والسبوع أيضاً وحينما يقول القرآن الكريم : **«خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ»** فالمقصود «ست مراحل».

وكلمة «السبت» جاءت بمعنى الراحة أيضاً<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

## جمع الآيات وتفسيرها

## النوم من آيات الله :

في الآية الأولى من البحث يَعْدُ القرآن الكريم نوم الإنسان في الليل والنهار أحدَ

(١) لسان العرب ج ١٢ ، ص ٥٩٥ ، مادة (نوم).

(٢) لسان العرب ، مادة (نوم).

(٣) مفردات الراغب ؛ مجمع البحرين ؛ لسان العرب.

البراهين على علم وقدرة الله تعالى فيقول : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ . وهو في نهاية الآية يؤكد هذا البرهان ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ . وَمِمَّا لَا شَكَ فِيهِ أَنَّ الْكَائِنَاتَ الْحَيَّةَ كَافَةً تَحْتَاجُ إِلَى الرَّاحَةِ لِتَجْدِيدِ قَوَاهَا ، وَأَكْتَسَابِ الطَّاقَةِ الْلَّازِمَةِ لِاِسْتِمْرَارِ نَشَاطَاهَا الْحَيَّاتِيَّةِ ، الرَّاحَةُ الَّتِي تَلَاقَهُمْ تَلَاقِيًّا ، وَجَبُرُ حَتَّى الَّذِينَ يَحْرُصُونَ عَلَى عَدْمِ التَّمَتعِ بِهَا .

فَإِنَّ عَامِلِ أَفْضَلِ مِنِ النَّوْمِ يَمْكُنُ أَنْ نَفْكِرَ بِهِ مِنْ أَجْلِ تَحْقِيقِ هَذَا الْمَهْدَفِ حِيثُ يَلْاحِقُ الْإِنْسَانُ بِشَكْلٍ اِجْبَارِيٍّ وَيُضْطَرُّهُ لِيَقْافِ جَمِيعِ نَشَاطَاتِهِ الْجَسْمِيَّةِ ، بَلْ حَتَّى بَعْضِ مِنْ نَشَاطَاتِهِ الْفَكْرِيَّةِ الْأَسَاسِيَّةِ ، وَفِي النَّتْيَاحِ يَغْطُّ فِي رَاحَةٍ عَمِيقَةٍ ، وَخَلَالَ هَذِهِ الْفَتَرَةِ تَقْوِيمُ أَجْهَزَةِ الْجَسْمِ بِاعْدَادِ الْبَنَاءِ وَالْإِسْتِعْدَادِ لِلْسَّعْيِ وَالْحَرْكَةِ مِنْ جَدِيدٍ . وَمِمَّا لَا شَكَ فِيهِ أَنَّ الْإِنْسَانَ لَوْلَا النَّوْمَ ، فَإِنَّهُ يَذْبَلُ وَيَتَلَفُّ ، وَيُصْبِيُّ الْعَجَزَ وَالْانْكَسَارَ بِسُرْعَةٍ ، لِذَلِكَ فَقَدْ قَالُوا : إِنَّ النَّوْمَ الْمُعْتَدَلُ وَالْإِسْتِقْرَارُ سُرُّ السَّلَامَةِ وَطُولِ الْعُمَرِ وَحِيَوَيَةِ الشَّابِ .

وَاللَّطِيفُ أَنَّ الْآيَةَ الَّتِي نَبَحَثُهَا وَضَعَتْ «النَّوْم» ، وَ﴿ابْتِغَاءَ فَضْلِ اللَّهِ﴾ فِي مَقَابِلِ بَعْضِهِمَا ، وَحَسْبَ قَوْلِ بَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْأَوَّلَ هُوَ عَلَامَةُ الْمَوْتِ وَالثَّانِي عَلَامَةُ الْقِيَامَةِ . إِنَّ تَعْبِيرَ «ابْتِغَاءَ فَضْلِ اللَّهِ» يُشَيرُ إِلَى نَقْطَةِ ظَرِيفَةٍ وَهِيَ أَنَّ سَعْيَ وَجْهَدَ الْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ مِنَ الْمَسَائِلِ ذَاتِ الْأَهْمِيَّةِ ، وَكَذَلِكَ الْفَضْلُ الْإِلَهِيُّ ، وَالْجَمْعُ بَيْنِ الْأَثْنَيْنِ يَجْعَلُ الْإِنْسَانَ يَسْتَفِيدُ مِنْ مَوَاهِبِ هَذَا الْعَالَمِ .

وَهُنَا تَوَجُّدُ نَقْطَةٌ جَدِيدَةٌ بِالْإِهْتِمَامِ أَيْضًا حِيثُ ذَكَرَتِ الْآيَةُ أَعْلَاهُ النَّوْمَ بِالنَّهَارِ إِضَافَةً إِلَى النَّوْمِ بِاللَّيْلِ : ﴿مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُعْتَبِرُ النَّوْمُ مُخْتَصًا بِاللَّيْلِ فَقَطَ حِيثُ تَؤَكِّدَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ هَذَا الْمَعْنَى ، إِلَّا أَنَّ بَعْضَ الظَّرُوفِ الَّتِي تَطَرَّأُ فِي حَيَاتِ الْإِنْسَانِ تَجْبُرُهُ عَلَى أَنْ يَسْهَرَ اللَّيْلَ وَيَنْامَ النَّهَارَ ، وَيُلَاحِظُ هَذَا الْأَمْرُ كَثِيرًا فِي السَّفَرِ لِيَلًا ، وَفِي الْمَنَاطِقِ الْحَارِّةِ جَدَّاً حِيثُ تَتَوَقَّفُ النَّشَاطَاتُ النَّهَارِيَّةُ بِسَبَبِ حَرَارَةِ الْجَوِّ وَيَكُونُ الْعَمَلُ فَقَطُ أَثْنَاءَ اللَّيْلِ .

وَفِي عَصْرِنَا الْرَّاهِنِ حِيثُ تَكُونُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُؤَسَّسَاتِ الصَّنْاعِيَّةِ ، وَمَعَالِمِ صَنَاعَةِ الْأَدْوَيَةِ مُضْطَرَّةً لِلْعَمَلِ لِيَلًا وَنَهَارًا ، إِذْ مِنَ الصَّعُوبَةِ اِيْقَافُ الْعَمَلِ ، مَمَّا يَدْفَعُ الْعَمَالَ إِلَى

تَقْسِيمٍ

أعمالهم إلى ثلات وجبات يومياً ، فتتضخم الحاجة إلى النوم في النهار أكثر من أي وقتٍ آخر.

والآن .. فلو لم يكن برنامج تنظيم النوم بيد الإنسان ، ولم يتيسر النوم نهاراً بدلاً عن الليل ، فمن المسلم به أن مشكلاتٍ كبيرةً ستعتربُ حياته.

\* \* \*

وفي الآية الثانية بعد ذكر : **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَاسِأً﴾** يشيرُ إلى مسألة النوم حيث يقول تعالى : **﴿وَالنَّوْمُ سُبَاتٌ﴾**.

ومن الممكن أن يكون تعبير «هو الذي» إشارة إلى الجانب التوحيدِي لهذه الأمور ، فكلٌ منها دليلٌ على الذات المقدسة ، أو جانب الانعامِ كي يعرفَ الإنسانُ ولِيَ نعمته ، ومن المسلم به أن الإشارة إلى ولِي النعمة ستكون مقدمةً لمعرفته أيضاً.

واللطيفُ أنَّه يقول بعد ذلك : **﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نَشُورًا﴾** <sup>(١)</sup>.

أجلٌ ... ففي وضح النهار تنتشر الروح ويستيقظ الإنسانُ بشكلٍ كامل ، إذ لا يخلو من شَبَهِ بنشورِ يوم القيمة والحياة ما بعد الموت.

وهذا الاحتمالُ ممكن أيضاً ، حيث يشير إلى انتشار الناس في ميدان الحياة وحركتهم نحو مقاصدهم المعيشية المختلفة ، وبهذا فإنَّ أحراس النوم والراحة تقرع مع حلول الظلام ، وتدق هذه الأحراس في النهوض مع بزوغ الشمس.

وفي الآية الثالثة تكرَّر هذا المعنى باختصارٍ طفيفٍ إذ يقول : **﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾** **﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِتَاسِأً﴾** ، فكما يصونُ اللباسُ الإنسانَ من الاحطاف ويكون له دوراً في سلامته فإنَّ ظلامَ الليل له مثل هذا الأثر.

\* \* \*

وفي الآية الرابعة والأخيرة في هذا البحث ، وحينما يتحدث القرآن الكريم عن وقائع غرفة بدر يشير إلى أنَّ أحدى نعمِ الله على المؤمنين في تلك الليلة التاريخية كانت **﴿إذ﴾**

(١) تأملوا جيداً أنَّ «النشور» معنى مصدر ، و «السبات» معنى مصدرٍ أيضاً أو اسمٌ مصدرٍ ، واطلاقهما على الليل والنهار يفيد المبالغة والتأكيد.

**يُعَشِّيْكُمُ التَّعَاسَ أَمَّنَةً مِنْهُ .**

لقد كانَ هذا النُّومُ الرَّغِيدُ سبِّاً في تجديدِ قواهمِ والاستعدادِ للمعركةِ الخامسةِ في ساحةِ المعركةِ بيدِ صباهاً ، وبخاصةِ بعد قطعِ تلكِ المسافةِ الطويلةِ إلى حدٍ ما ، تلكِ المعركةِ التي انتهت ببصرٍ مبينٍ للمسلمينِ.

ولعلَّ تَعبِيرَ «النُّعَاس» إشارةٌ إلى عدمِ استحوادِ النُّومِ العميقِ عليهم بالرغمِ من متعهم بالراحةِ ، كي لا يستغلَ العدوُّ الوضعَ السائدَ وياغِتُهُمْ ليلاً ، ولهذا كانتْ حقيقةُ ذلكِ النُّومِ نعمةً وكيفيَّةً نعمةً أخرى.

على أَيَّهِ حَالٍ ، فَإِنَّ الْآيَةَ أَعْلَاهُ تَعْتَبِرُ تَأكِيداً عَلَى أَثْرِ النُّومِ عَلَى أَعْصَابِ وَجْسِمِ وَرُوحِ الْإِنْسَانِ أَيْضًا ، وَتَجْدِيدِ الطَّاقَاتِ مِنْ أَجْلِ مُثَابَةِ أَكْثَرِ وَجَهَادٍ أَكْثَرَ فَاعْلَيَّةً فِي كُلِّ الْمَرَاحِلِ.

\* \* \*

### توضيح

#### ظاهرة النوم الخفية :

مع أنَّ «النُّوم» و «الرؤيا» تُعتبرُ بالنسبةِ لَنَا أَمْرًا عادِيًّا ، إِلَّا أَنَّ الْعُلَمَاءَ لَمْ يَتَوَصَّلُوا إِلَى عَمَقِ هَاتِينِ الظَّاهِرَتَيْنِ الْمُهَمَّتَيْنِ بِالرَّغْمِ مِمَّا بَذَلُوهُ مِنْ مُسَاعٍ وَجَهْدٍ . فَإِيُّ فِعْلٍ وَانْفَعَالٍ تَطْرَأُ عَلَى جَسْمِ الْإِنْسَانِ لِيَتَوَقَّفَ فَجَاهَةُ الْقَسْمِ الْأَعْظَمِ مِنْ نَشَاطَاهُ الْجَسْمَيَّةِ وَالرُّوْحَيَّةِ؟! وَيَحْصُلُ هَذَا التَّغْيِيرُ فِي جَمِيعِ أَجْزَاءِ جَسْمِهِ وَرُوْحِهِ كَذَلِكَ ، فَلَا يَفْهَمُ شَيْئًا وَلَا يَدِي أَيَّ حَرْكَةٍ وَيَسْتَلْقِي جَانِبًا كَالْمِيَّتِ ، وَلَوْ غَرَقَ الدُّنْيَا بِأَكْمَلِهَا فَهُوَ نَائِمٌ لَا يَدْرِي .

وَمَعَ كُلِّ هَذِهِ التَّوْضِيْحَاتِ وَالآرَاءِ وَالْفَرْضَيَّاتِ الَّتِي قِيلَتِ فِي هَذَا الْجَهَالِ ، فَقَدْ حَفَظَ النُّومَ عَلَى صُورَتِهِ الْمَدْهَشَةِ!

وَالْأَكْثَرُ عَجَبًا مِنْ ذَلِكَ مَسْأَلَةُ «الرؤيا» الَّتِي تُعَدُّ مِنَ الْأَلْغَازِ الْعَظِيمَةِ كَرْوَحُ الْإِنْسَانِ . وَطَبِعًا أَنَّ الْحَدِيثَ الْمُفَصَّلَ بِصَدْدِ حَقِيقَةِ وَأَسْرَارِ هَاتِينِ الظَّاهِرَتَيْنِ خَارِجٌ عَنْ مَوْضِعِ بَحْثِنَا ، لِأَنَّ الْغَالِيَّةَ مِنْ بَحْثِ الْآيَاتِ الْمُذَكُورَةِ هِيَ بِيَانِ الْمَنَافِعِ الْكَثِيرَةِ ، وَالْفَوَائِدِ الَّتِي لَا تُحْصَى لِلنُّومِ مِنْ جَانِبِ وَمِنْ جَانِبِ آخَرَ كَوْنِهِ نَعْمَةً مِنْ نَعْمَةِ اللَّهِ .

فالنوم المعتمد دائمًا يعتبر دليلاً على سلامٍ روح واعصاب الإنسان ، لذلك فإنّ أهمّ أسئلة الأطباء للمصابين بالأمراض النفسية تدور حول كيفية نومهم.

فلا تتوقف الأجهزة الأساسية في جسم الإنسان كالقلب والرئتين أثناء النوم ، لكنها تعمل بهدوء أكثر ، ويصبح دوران الدم في الأعضاء أكثر تناقضاً ، ويتوقف نشاط الدماغ تقريراً ، وتستقر جميع العضلات أيضاً ، فتؤدي كل هذه الأمور إلى حصول هذه الأعضاء على فرصة لتجدد بناء بنائهما.

وخلال النوم ترال سعوم الجسم ، و تعالج كثيرون من الأمراض.

لقد أورد «روخلين» في كتابه «الرؤيا في نظر بافلوف» بحثاً تحت عنوان «العلاج بالنوم العميق» قائلاً :

«بناءً على فرضية «بافلوف» فإن النوم عبارة عن ظاهرة توقفٍ من أجل الصيانة وتجديد القوى ، وعليه فيمكن استغلاله كعاملٍ للعلاج من الأمراض المختلفة ، وتأيد التجارب اليومية دور النوم في ذلك أيضاً».

ثم يضيف : «إن النوم العميق الطويل مؤثر على تحسّن صحة المريض ، لأنّ المرضى ينامون أكثر من المعهود بعد مرضٍ طويلاً من أجل استعادة قواهم وسلامتهم».

ويقول : «لقد واجه العالج عن طريق النوم رواجاً واسعاً في الاتحاد السوفيتي ، وقد استخدمت هذه الطريقة لأول مرة لمعالجة (جنون الشباب) «الشيزوفرينيا» الذي يعتبر من الأمراض النفسية الشائعة».

ويقول في جانب آخر من حديثه : «تم الحصول على نتيجةٍ مرضيةٍ لعلاج المصابين بارتفاع ضغط الدم عن طريق النوم العميق ... فالنوم الطويل الذي هو حالة من الراحة الكاملة للمخ ، يجدد قدرة الجهاز العصبي ويوازن تنظيم نشاط الأعضاء الداخلية ، ويترك أثراً إيجابياً مساعداً للوضع العام للإنسان» <sup>(١)</sup>.

أجل ؛ فالذي خلق الإنسان سالماً من أجل السعي والنشاط ، وضع جميع وسائل ذلك تحت تصرفه ، وأحدّها نظام النوم واليقظة ، النظام الذي تبرز فيه بكل وضوح براهين حكمة الباري عزّوجل .

(١) النوم في نظر بافلوف ، ص ١١٢ - ١١٦ (مع الاختصار).

## ٧ . آياته في بسط السماوات والأرض

تمهيد :

بعد أن ذكرنا آياتِ «الأنفس» نتجه صوبَ آياتِ الآفاقِ :

لقد كان النظر إلى السماوات والأرض على الدوام دافعاً لتفكير الإنسان ، وكلما تطور علمُ الإنسان تعاظم العالم السماوي ذو الأسرار العجيبة في نظره ، فلو قيَسْتْ عظمةُ السماوات في نظر علماء اليوم مع ما مضى لكانَتْ «كالقطرة» إلى «البحر» ، وليس معلوماً أن يكون «الغد» كذلك في قياسه مع «اليوم».

فماذا يجري في هذه المنظومة وال مجرّات الكبيرة ، والنجوم الثابتة والسيارة؟ وما هي العوالم الموجودة فيها؟

وإلى أيِّ زمانٍ يعود تاريخ ظهورها؟

وهل هناك من يسكنُ فيها؟ وإذا كان كذلك فهل أن حيَاتَهم تشبه حيَاتَنا أم يختلفون عنا؟

هذه الأسئلة وعشراً أخرى تشغُلُ فكرَ كُلِّ إنسانٍ باحثٍ ومتخصصٍ في أمر السماوات.

يقول علماء العصر : إنّا اليوم نرى نجوماً في السماء قد اختفت من الوجود قبل آلاف السنين وربما قبل ملايين السنين ، وهذا يعود إلى الفاصلة الخارقة بينها وبيننا ، وأن نورها قد بدأ حركته منذ آلاف أو ملايين السنين وما زال في طريقهلينا ، فإذا كان الميدان الحقيقي للسماء هكذا . وهو كذلك . ، فإلى أيِّ حدٍ يختلف مع ما نراه اليوم؟ ليس هناك من يستطيع الإجابة عن هذا التساؤل!

هذه التساؤلات وأمثالها كثيرةٌ حيث يصعب الإجابة عنها من قبل العلماء. لقد أصبحنا أمم مثل هذا العالم المملوء بالأسرار ، فعظمتُه من جانب ، والنظام والتقنيين اللذان يسودانه من جانب آخر ، تكشف الستار عن القدرة والعلم اللامتناهي لمن له اليد في هذا الخلق.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاسعين الآيات الشريفة الآتية :

١ . ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَّأُولَى الْأَلْبَابِ﴾.

(آل عمران / ١٩٠)

٢ . ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ﴾. (البقرة / ١٦٤)

٣ . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافُ السِّتِّكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾. (الروم / ٢٢)

٤ . ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. (الجاثية / ٣)

٥ . ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾. (العنكبوت

/ ٤٤)

٦ . ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. (يوحنا /

(٣)

٧ . ﴿وَلَيْسَ سَأْلَتْهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ

فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾. (العنكبوت / ٦١)

٨ . ﴿أَلَخْلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

يَعْلَمُونَ﴾. (غافر / ٥٧)

٩ . ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَأَطْرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. (ابراهيم / ١٠)

١٠ . ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَآنَا لَمُوسِعُونَ \* وَالْأَرْضَ فَرَشَنَاهَا فَيَعْمَمُ الْمَاهِدُونَ﴾.

(الذاريات / ٤٧ - ٤٨)

- ١١ . ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ . (الأنبياء / ٣٢)
- ١٢ . ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ . (الرعد / ٢)

\* \* \*

### شرح المفردات :

لكلمة «الخلق» معنيان كما يقول صاحب «مقاييس اللغة» ، أحدهما تقدير الأشياء ، والآخر النفي والمسطح .

ويقول الراغب في المفردات : «الخلق» أصله التقدير ، ويستعمل في ابداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء ، قال تعالى : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ أي أبدعهما بدلاله قوله : ﴿ بَدِينُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ ، ... وليس الخلق الذي هو الإبداع إلّا الله تعالى ، ولذلك قال في الفصل بيته تعالى وبين غيره : ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمْنٌ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، أمّا الذي يكون بالاستحاله فقد جعله الله تعالى لغيره في بعض الأحوال ، وتستعمل هذه المفردة في الكذب أيضاً (وربما اطلق على الكذب بسبب احتلاق وإيجاد موضوع ما في فكر السامع)

(١)

ويقول ابن منظور في «لسان العرب» : الخلق في كلام العرب ابداع الشيء على مثال لم يسبق إليه .

وعليه ... أنّ الكلمة الخلق تعني في الأصل التقدير والتنظيم وتنقية الأشياء ، إلّا أنها استخدمت فيما بعد بمعنى الابداع والإيجاد وتغيير هيئة الأشياء بال نحو الذي يتبارد هذا المعنى الآن .

ومعنى «السماء» استناداً إلى ما قاله علماء اللغة ، الشيء الذي يرتفع عالياً ، لذلك فإنّ البعض يعتقد أنّ لها صفة النسبة حيث يمكن أن تكون نسبة شيء إلى شيء آخر كالسماء إلى الأرض ، واشتقق «الاسم» من هذه المادة أيضاً لأنّ التسمية عامل في رفعه وسمو مقام المسمى .

(١) مفردات الراغب ، ص ١٥٨ .

واستناداً إلى كلام مؤلف «التحقيق» فإن السماء قد تكون ملموسةً ومادية كما في : **﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾** أو معنوية كما في : **﴿وَقَدْ نَرَى تَقْلُبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾**. (البقرة / ١٤٤)

ويقول «ابن منظور» في «لسان العرب» أيضاً : السمو : تعني الارتفاع والعلو<sup>(١)</sup>. وبناءً على ذلك فإنَّ الكلمة السماء لا تعني هذه السماء فقط بل أيَّ نَحْوٍ من الارتفاع والعلو ، ولكنها جاءت في الآيات المُتَخَبَّة في هذا البحث بشكلٍ عامٍ بمعنى السماء. وتُطلق «الأرض» في الأصل على الجزء الأسفل لكل شيء قبلة «السماء» التي هي الجزء الأعلى لكل شيء ، قال هذا الكلام صاحب «مقاييس اللغة» ، ويقول الراغب في تعبير مشابهٍ : الأرض هي الجرم الذي يقابل السماء ، ويعبرُ عن أسفل كل شيء بـ «الأرض».

وورد في كتاب «التحقيق» أنَّ الأرض لها مسميات متعددة بعضها أوسع من بعضها الآخر ، فهي تُطلق على المسكن ، والمحل ، والقرية ، والمدينة ، والبلد ، والكرة الأرضية ، وما تحت السماء ، وحتى ما موجود في عالم الجسم وتحت عالم الأرواح ، حيث يقال لكلٍّ منها «أرض» ، وفي هذه المفاهيم يلاحظ قيadan هما الانخفاض ، ومقابلة الارتفاع.

«أَرَضَة» (على وزن حَدَّة) وتعني الحشرة التي تخرج من الأرض وتأكل الخشب. واللطيف هو أنَّ أحد معاني «الأرض» هو مرض الزكام ، والآخر هو «الرُّعْدَة». ولعلَّ السبب في ذلك أنَّ هذه الأمراض تُقْدِعُ الإنسان وتُخلُّدُه إلى الأرض<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) في كتاب «العين» للخليل بن أحمد ذُكرت «سماء» بمعنى الارتفاع أيضاً ، ص ٣٩١.

(٢) مقاييس اللغة ؛ مفردات الراغب ؛ لسان العرب ؛ مجمع البحرين ؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم ، ص ٧١٢ وص ١١٣.

## جمع الآيات وتفسيرها

### ارتفاع السماء آية حق !

الحديث في أول آيةٍ من البحث هو عن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار اللذين يحصلان نتيجة دوران الأرض حول نفسها مقابل الشمس إذ يقول تعالى : **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولَئِكَ الْأَلْبَاب﴾**.

وكما أوضحنا في بحث المعرفة في المجلد الأول من هذا التفسير فإنَّ «الآلباب» جمع «لُبٌّ» أي العقل الصافي والعميق ، نَعَمْ .. فَمَنْ هُمْ مُثُلُّ هَذِهِ الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ يُسْتَطِيعُونَ أَنْ يَرَوُا آيَاتٍ وَبِرَاهِينَ كَثِيرَةً عَنِ الْقَدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالْخُتْلَافِ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَلَيْسَ آيَةً وَاحِدَةً أَوْ بَرْهَانًا وَاحِدًا فَقَطَّ.

واللطيف ما جاء في الرواية المشهورة الواردة في الكثير من التفاسير في تفسير هذه الآية حيث ورد فيها : قال ابن عمر : قلت لعائشة اخبرني بأعجب ما رأيت من رسول الله عليه السلام ، فبكت وأطالت ثم قالت : كل أمره عجب ، أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى الصق جلده بجلدي ، ثم قال لي : يا عائشة هل لك أن تأذن لي الليلة في عبادة ربِّي ؟ فقلت يا رسول الله إبني لأحب قربك وأحب مرادك قد أذنت لك ، فقام إلى قربة ماء في البيت فتوضاً ولم يكثر من صب الماء ، ثم قام يصلي ، فقرأ من القرآن وجعل يبكي ، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بللت الأرض ، فأتاه بلال يؤذن لصلاة الغداة فرأه يبكي ، فقال : يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال عليه السلام : يا بلال أفلأكون عباداً شكوراً ، ثم قال : ما لي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة : **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** ، ثم قال : **﴿وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا﴾** .<sup>(١)</sup>

صحيحٌ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَنْظَرُ إِلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَجْرَامِ السَّمَاوِيَّةِ يَهْتَدِي إِلَى آيَاتٍ مِّنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى ، إِلَّا أَنَّ ذُوِّي الْعُقُولِ وَالْأَلْبَابِ يَسْتَفِيدُونَ أَكْثَرَ مِنْ سُوَاهِمَ ، فَهُؤُلَاءِ يَرَوْنَ آثَارَ قَدْرَةِ اللهِ

(١) تفسير روح الجنان ؛ ج ٣ ، ص ٣٨٤ ؛ تفسير الكبير <sup>٩</sup> ص ١٣٤ ؛ وتفسير روح المعاني ، ج ٤ ، تفسير القرطبي ، ج ٣ ، ص ١٥٥٢ وتفاسير أخرى.

تعالى في كلّ مكان من السماء ، فهم يجدون في خلق كلّ منظومةٍ ، وكلّ مجرّة ، وفي حركاتها المنظّمة العجيبة أسراراً لم يجدوها سوى أولي الألباب.

وما يلفت النظر أنّه ذُكر في الآية الثانية **﴿قَوْمٌ يَعْقِلُونَ﴾** بدلاً من **﴿أُولَى الْأَلْبَابِ﴾** ، وفي الآية الثالثة «عَالَمِينَ» ، والرابعة والخامسة «مؤمنين».

وفي الحقيقة ، كما ورد من تفصيل سابقٍ في بحث «مصادر و مجالات المعرفة» في المجلد الأول من هذا التفسير فانَّ كلاً من الميزات أعلاه (الألباب ، التعلّق ، العلم ، والإيمان) تعتبر أرضيةً مناسبةً للمعرفة والاطلاع بشكل أكثر عن آيات الله.

وهذه مسألةٌ حديّةٌ بالاهتمام حيث يصف القرآن الكريم **﴿أُولَى الْأَلْبَابِ﴾** الذين تُفتحُ أمامهم أبوابُ معرفة الله من خلال مشاهدة خلق السماوات والأرض إذ يقول تعالى : **﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًاٰ وَقُعُودًاٰ وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بِاطِلًا﴾**. (آل عمران / ١٩١)

أي أنّ ذكر الله أولاً ، والتفّكر ثانياً ، والتأمل في المهدى من الخلق ثالثاً ، يُدّلُّهم كل ذلك على عظمة الخالق جلّ وعلا.

وعلى هذا الأساس فإنَّ تلكؤ علماء الطبيعة في معرفة الله سبحانه وتعالى بالرغم من معرفتهم لدقائق الأمور في هذا الوجود يعود إلى أكّهم اعتمدوا في بحوثهم على دراسة المعلول والمخلوق ولم يهتموا بدراسة علة العلل وخلق الوجود والمهدى من الخلق.

\* \* \*

وكما في الآية الأولى فقد وردت مسألة خلق السماوات والأرض في الآية الثانية ، إلى جانب اختلاف الليل والنهار ، أي مجيء وذهاب الليل والنهار (أو اختلافهما التدريجي على مدى فصول السنة) ، حيث يمثل ذلك إحدى الظواهر البارزة في السماوات والأرض ، إذ يسود النظام الدقيق هذه الظاهرة منذ أزمنة طويلة ، ويمكن تحديد لحظة شروق الشمس وغروبها قبل حصولهما ، والحدود الدقيقة للليل والنهار في كل فصلٍ وكلّ زمانٍ من السنة ،

ولأي بقعةٍ من بقاع الأرض ، ونعلم جيداً بأنه أينما يوجد نظامٌ دقيقٌ فاته يكمن وراءه علمٌ  
وعقلٌ ولِّ مدبِّرٌ .

\* \* \*

وفي الآية الثالثة ذكر مسألة اختلاف الألسن والألوان ، التي هي من آيات الأنفس ،  
إلى جانب مسألة خلق السماوات والأرض التي هي من آيات الآفاق ، حيث يقول تعالى :  
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافُ الْسِنَّتِكُمْ وَالْوَانِكُمْ﴾ .

وقد يكون اختلاف الألسن والألوان بمعنى اختلاف اللغات التي يتكلم بها الناس ،  
وألوان وجوههم ، أو بمعنى لحن أصواتهم واسلوب حيالهم ، وتفكيرهم وأذواقهم ، وقابليةهم ،  
أو جميعها ، فهذا التنوع العجيب الذي يكون وسيلة لتعرف الناس على بعضهم ، وإلى عدم  
خلو أيٌّ من المناصب الاجتماعية ، من خلال النظام الدقيق الذي يسوده ، لا ينفصل عن  
النظام العجيب السائد في السماوات والأرض بل يرتبطان معاً ، وكل دليلٌ على عظمة وقدرة  
وتدبر الذات المقدسة لله ، عَزَّوجَلَّ .

\* \* \*

وتشير الآياتان الرابعة والخامسة إلى خلق السماوات والأرض فقط ، وتُعَدُّ من آيات الله ، لأنَّ مَا لا يُرَبِّ فيه أَنَّ هذا الخلق العظيم هو من آيات الله البينات ، غير أنَّ الآية  
الخامسة استندت إلى مسألة التقنيين والمُهَدِّف من هذا الخلق وبيانه من خلال تعبير «بالحق» .

\* \* \*

وفي الآية السادسة طُرِحَ موضوعٌ جديدٌ ألا وهو خلق السماوات والأرض في ستة أيامٍ ، إذ يقول تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ .

وقد ورد ذكر خلق السماواتِ والأرض في ستة أيام في سبع آياتٍ من القرآن الكريم

١١

وهذا يُبرهن على أنَّ (القرآن الكريم) يولي اهتماماً حاصلاً لمسألة الخلق التدريجي للعلم ، وهو بذاته دليلٌ آخر على عظمة الخالق جلَّ وعلا.

ومع أنَّ بعض الماديين غير الواقعين وبسبب عدم معرفتهم لمعنى «اليوم» ، انتقدوا مثل هذه الآيات واستهزلوا بها<sup>(١)</sup> حيث إنَّهم يعتقدون أنَّ «اليوم» هنا بمعنى بياض النهار أو (الأربع وعشرين ساعة) ، إلَّا أنَّ الجميع يعلم أنَّ اليوم بهذا المعنى هو ناتجٌ من حركة الأرض وضوء الشمس ، وعندما لم يكن وجودُ للسماءات والأرض لم يكن هناك مفهومٌ للليل والنهار بهذه الهيئة.

فقد عَقَلَ هؤلاء عن هذه المسألة وهي أنَّ الكلمة «اليوم» وما يماثلها في بقية اللغات لها معانٍ مختلفة من حيث المفهوم والاستعمالات اليومية ، فمنها ما يعني «المرحلة» وقد تكون هذه المرحلة قصيرةً أو طويلةً جدًا ، كما يقول الراغب في كتاب «المفردات» الذي هو من الكتب اللغوية المعروفة : اليوم يُعبّرُ به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها ، وقد يُعبر به عن مدةٍ مِنَ الزَّمَانِ أيَّ مدةٍ كانت.

ونقول في الاستعمالات اليومية ، إنَّ الناس كانوا في يوم ما يسافرون على ظهور الحيوانات ، واليوم بوسائل النقل السريعة ، وكلا هذين التعبيرين «يُومٌ ، واليُوم» إشارة إلى حقبة طويلة ، ونقرأ في الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السلام : «واعلمْ بِأَنَّ الدَّهْرَ يوْمَانِ : يُومٌ لَكَ وَيُومٌ عَلَيْكَ»<sup>(٢)</sup>.

بل إنَّ الدنيا كلها عُدَّت يوماً واحداً ، وكذلك كل الآخرة في بعض العبارات ، فيقول أمير المؤمنين عليه السلام : «وإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ بِلَا حِسَابٍ ، وَغَدَّاً حِسَابٌ بِلَا عَمَلٍ».

والبيتان المعروفان عن الشاعر كليم الكاشاني تعبيرٌ لطيفٌ في هذا المجال ، وهذه

ترجمتهما العربية :

(١) الفرقان ، ٤٥٩ ؛ السجدة ، ٤٤ ؛ ق ، ٣٨ ؛ الحديد ، ٤٤ ؛ الاعراف ، ٤٥٤ ؛ هود ، ٧٠.

(٢) المادية التاريخية ، ص ٨٧.

(٣) نَحْجُ الْبَلَاغَةُ ، الرِّسَالَةُ ٧٢.

إِنَّ الْحَيَاةَ سَيِّئَةَ الصِّيَتِ يَوْمَانِ لَيْسَ أَكْثَرَ (كَلِيمٌ) فَيُوْمٌ مَرَّ بِتَعْلُقِ الْقَلْبِ بِهَذَا وَذَاكَ وَيَوْمٌ آخَرُ مَضِيَ فَلَدَعْنِي أَخْبَرَكَ كَيْفَ مَضَتْ؟ بِانْقِطَاعِ الْقَلْبِ عَنْ هَذَا وَذَاكَ وَعَلَيْهِ فَانَّ الْمَقْصُودُ مِنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ هُوَ سَتَ مَرَاحِلٌ ، وَقَدْ تَمَّ كُلُّ مَرْحَلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ مَلَيْنِي أَوْ آلَافَ الْمَلَيْنِ مِنَ السَّنَنِ ، وَمِنَ الْوَاضِحِ عَدْمُ تَوْفُّرِ أَيِّ دَلِيلٍ يَعْرَضُ هَذَا التَّحْدِيدُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعُلُمَيْةِ (١) .

وَلَكِنْ مِنَ الْمُحْتَمَلِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْمَرَاحِلُ السَّتُّ حَسْبَ التَّسْلِيسَلِ الْآتِيِّ :

١ . مَرْحَلَةٌ كَانَ الْعَالَمُ كُلُّهُ فِيهَا مُجَامِعٌ عَظِيمَةٌ جَدِّاً مِنَ الْغَازَاتِ الَّتِي تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا.

٢ . مَرْحَلَةٌ انْفَسَالٌ هَذِهِ الْغَازَاتِ عَنْ بَعْضِهَا وَالْدُورَانُ حَوْلَ مَحْوَرِ الْجَمْعَوْنَةِ الْمَرْكَزِيَّةِ.

٣ . الْمَرْحَلَةُ الَّتِي فِيهَا شَكَلَتْ بَعْضُ هَذِهِ الْمُجَامِعِ بِسَبِيلِ دُورَانِهَا حَوْلَ نَفْسِهَا مِنْظَوْمَاتٍ كَمِنْظَوْمَتِنَا الشَّمْسِيَّةِ.

٤ . الْمَرْحَلَةُ الَّتِي تَكَوَّنَتْ فِيهَا الْأَرْضُ وَاسْتَعْدَدَتْ لِلْحَيَاةِ ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهَا الْمَيَاهُ ، وَتَكَوَّنَتْ الْبَحَارُ.

٥ . مَرْحَلَةٌ ظَهُورُ الْأَشْجَارِ وَالْبَنَاتِ وَتَكِيَّةِ الْأَقْوَاتِ وَالْأَطْعَمَةِ عَلَى الْأَرْضِ.

٦ . مَرْحَلَةٌ ظَهُورُ الْحَيَوانَاتِ وَبَعْدُهَا إِنْسَانٌ عَلَى الْأَرْضِ.

وَالْمَسْأَلَةُ الْجَدِيرَةُ بِالْإِهْتِمَامِ هِيَ أَنَّ مِنْ بَيْنِ الْآيَاتِ السَّبْعِ الَّتِي يَبْيَنُّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ، تَمَّتِ الإِشَارَةُ فِي أَرْبَعِ آيَاتٍ مِنْهَا فَقْطَ إِلَى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ (٢) .

وَفِي ثَلَاثَ آيَاتٍ وَرَدَ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا يَنْهَا (٣) .

وَفِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ فَقْطَ اشِيرُ بِشَكْلٍ عَامٍ إِلَى تَفْصِيلِ هَذِهِ الْمَرَاحِلِ السَّتِّ ، فَمِنْ حَلْقَتَانِ

خَلْقٍ

(١) ذُكِرَ أَيْضًا فِي كِتَابِ الْقَامُوسِ الْمُقَدَّسِ الَّذِي هُوَ شَرْحٌ لِمَفَاهِيمِ التُّورَةِ وَالْأَنْجِيلِ ، شَرْحٌ فِيمَا يَخْصُ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ حِيثُ يُشَبِّهُ مَا وَرَدَ أَعْلَاهُ فِي بَعْضِ الْجَوَانِبِ بِالرَّغْمِ مِنْ اخْتِلاَطِهِ بِبَعْضِ الْخَرَافَاتِ كَاسْتَرَاحَةِ اللَّهِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ (الْقَامُوسُ الْمُقَدَّسُ ، ص ٨٤ كَلْمَةُ الْخَلْقِ).

(٢) الْحَدِيدُ ، ٤ ؛ الْأَعْرَافُ ، ٥٤ ؛ يُونُسُ ، ٣ ؛ وَهُودٌ ، ٧.

(٣) الْفَرْقَانُ ، ٥٩ ؛ السَّجْدَةُ ، ٤ ؛ قُ ، ٣٨.

الأرض ، وأربعة مراحل لإيجاد النباتات والحيوانات : **الَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ... وَقَدَرَ فِيهَا أَفْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ** ﴿١٠ . ٩﴾ . (فصلت / ١٠ . ٩)

بناءً على ذلك ، فإن المراحل السبعة تتعلق بخلق السماوات والأرض  
وموجوداتهما المتنوعة <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وتقول الآية السابعة من البحث إن هذا المعنى مسلم به حتى لدى الوثنيين وهو : إنَّ الله تعالى هو خالق السماوات والأرض ، ومسخرُ الشمس والقمر ، وأنَّ هؤلاء يفهمون أنَّ هذا العالم الجبار والنظام العجيب لا يمكن أن يكون مِنْ خلْقِ الأصنام ، بل إنَّ ضميرهم يحُكُّ بانَّهُ مِنْ خلق الله العالم القادر : **﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾**

وعليه فليس العلماء والمفكرون وحدهم الذين يصلون إلى معرفة الذات الإلهية المقدسة من خلال التفكير بأسرار الخلق ، وإنما الوثنيون الجهلاء كذلك يعرفون بشكلٍ عام الذات المقدسة من خلال مشاهدة هذا النظام بالرغم من أنَّهم يتبعون في وادٍ من الشرك بسبب الخرافات والجهل المحيط بهم.

\* \* \*

ومع أنَّ الآية الثامنة تقصدُ مسألة المعاد والقيمة بدلالة الآيات التي تليها وتقول إنَّ القادر على خلق السماوات والأرض بهذه العظمة ، قادرٌ على أن يحيي الموتى ، لأنَّ خلق السماوات والأرض أصعب وأعقد من خلق الإنسان ، لكنها مع ذلك دليلٌ واضحٌ على مسألة معرفة الله أيضاً ، لأنَّ وجودَ الإنسان بل وحتى عضو واحد من أعضاء جسمه كالعين والاذن ،

(١) ومن للتوضيح أكثر في هذا المجال يراجع التفسير الأعمى ذيل الآيات ٤ و ٥ الاعراف ؛ و ١٠ فصلت).

بل حتى بناء خلية واحدةٍ من خلايا هذه الأعضاء بكل ما فيها من التعقيد والابهام والأسرار والأنظمة يمكن أن يكون من آيات الله تعالى ، بناءً على ذلك فانَّ (خلق السماوات والأرض الذي هو أكْبَرُ وأعظم من خلق الإنسان أوضح برهانٍ على عظمة الله تعالى) ﴿لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾.

ومن المؤكد أنَّ خلق الإنسان إذا ما قيسَ مع كل جزءٍ من أجزاء هذا العالم فانه يُرجح عليه ، إِلَّاَهُ إِذَا قيسَ بكل السماوات الواسعة والأرض ، فمن المُسْلِمَ به أنَّ السماوات والأرض يرجح خلقُها على خلق الإنسان.

والظريف أنَّ القرآن الكريم حينما جاء بهذا التصريح لم يكن للناس حينذاك . ولا سيما المتخلفين في الحجاز . معرفة بعظمة السماوات ، ولعلهم كانوا يظنّون أنَّ السماء سقفٌ أزرق اللون قريبٌ منهم ، وقد تمَّ ثبتيه بواسطة مسامير فضية وهي النجوم !  
أجل ... إنّا اليوم ندرك جيداً المفهوم العميق لهذه الآية ، لأنَّ العلماء تخصصوا هذه السماء الواسعة من خلال المراصد الفلكية العملاقة ، وقد زودونا بأسرار وعجائب مذهلة عن عظمتها والنظام السائد فيها ، ومن أين ندرى أنَّ ما يشاهدونه اليوم لا يبلغ مushman عظمة هذا العالم ، ولعل هذه الحقيقة تتضح غداً للملأ ، لهذا يقول تعالى في آخر الآية :  
﴿وَلَكُنَّ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي الآية التاسعة تمَّ جمع دورةٍ كاملةٍ من دروس التوحيد ومعرفة الله في استفهمٍ إنكارٍ حيث يقول : «﴿أَفَيَاللهُ شَكٌ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾».

والحدير بالاهتمام هنا أنَّ الكلمة ﴿فاطِر﴾ تعني المشيق ، وجاء استخدام هذا التعبير إما بسبب تمزيق حجاب العدم والظلمة أثناء خلق السماوات والأرض وإشراق نور الوجود في

(١) ما معنى «لا يعلمون» هنا؟ هناك احتمالات مختلفة : أولاً هو : أنَّ الناس يجهلون عظمتها قياساً مع الإنسان ، والآخر أكْهُم يجهلون القدرة الإلهية الامتناهية ، والثالث ، أكْهُم يجهلون قدرته على مسألة المعاد ، أو يعلمون ، وحيث إِكْهُم لا يفصحون عن علمهم هذا ، فهم في حكم الجهلاء (ولكن لا يُستبعد أن تجتمع كل المعاني الثلاثة الأولى في الآية وكما قالوا بأنَّ حذف المتعلق دليل على العموم).

خلق السماوات والأرض ، أو إشارةٌ إلى ما يُعرفُ اليوم لدى علماء الفلك حيث إنَّ جميع هذه الأجرام والمنظومات كانت في اليوم الأول على هيئة مجموعةٍ كبيرة مترتبة بعضها ، وانفصلت عن المركز نتيجةً لحركتها حول نفسها وبتأثير القوة الدافعة لها عن المركز ، والقت بقطعٍ منها إلى الخارج وظهرت المنظومات وال مجرات الثابتة والسيارة <sup>(١)</sup> .

على أية حال ، سواءً كان المشركون هم المخاطبون في هذه الآية أو منكرو وجود الله تعالى ، أو كلاهما ، فاته يستفاد من هذه الآية الكريمة هذه الحقيقة ، وهي أنَّ التمعن في خلق السماوات والأرض يكفي لأنَّ يقتلع كُلُّ نوعٍ من أنواع الشك والريب في وجود الله ووحدانيته وقدرته من قلب الإنسان.

\* \* \*

ويشير في الآية العاشرة إلى خاصيةٍ أخرى من خصائص السماء والأرض إذ يقول

تعالى : ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْمَدٍ﴾

فمن المسلم به أنَّ خلقَ مثل هذه العوالم الجبارات يستلزم قدرةً مناسبةً له ، وهي قدرة الباري عزٌّ وجلٌّ وحدها.

ويضيف فيما بعد ﴿وَإِنَا لَمُوسِعُونَ﴾ .

وبالرغم من أنَّ بعض المفسرين اعتبروا ذلك بمعنى توسيعة الرزق عن طريق هطول المطر وغيره <sup>(٢)</sup> لكن ييدو أنَّ للآية معانٌ بالغة الأهمية والدقة ، حيث اتضح ذلك لعلماء عصرنا الحاضر ، وقد اميط اللثام عن معجزة من المعجزات العلمية للقرآن ، وهي أنَّ العالم في حال اتساع وبصورة مستمرة ، وأنَّ النجوم وال مجرات والأجرام تبتعد عن بعضها بشكل سريع.

(١) يقول الراغب في المفردات : «فَطْر» على وزن «سَنْسَنٌ» أي الشَّقْ طولياً ، ثم جاءت بمعنى الإيجاد والإبداع ، و«فَطْر» (على وزن مِنْ) تعني الإفطار وترك الصيام ، وكأنَّ الصيام ينفطر ، (والفطرة تعني الخلقة وهي مأموردة من هذه المادة أيضاً).

(٢) وقد فسَّر بعض المفسرين لفظة (موسعون) بمعنى (قادرون) أيضاً ، لأنَّه مفردة (الواسع) تأتي أحياناً بمعنى «القدرة» ، أمَّا مفهوم «التوسيع» فهو أوضح.

يقول أحد العلماء المعروفين ويُدعى «جورج غاموق» في كتابه «بداية ونهاية العالم» : «يُمْرُّ فضاءُ الكون الذي يتَّسَلُّفُ من ميلارات المجرات بحالةٍ من الامتداد السريع ، والحقيقة هي أنَّ عالَمَنَا ليس ثابتاً بل إِنَّ اتساعَه مسْلَمٌ به ، والوقوف على كون عالمنا يُمْرُّ بحالةٍ من الاتساع يَهْيِئُ لنا المفتاح الحقيقِي لكتوز أسرار النظريَّة الكونيَّة ، فلو أَنَّ العَالَمَ يُمْرُّ الْيَوْمَ بحالةٍ من الاتساع والامتداد فهذا يعني أَنَّه كَانَ يُمْرُّ بحالةٍ من الانكماس الشديد في عابرِ الْأَزْمَانِ» .<sup>(١)</sup>

وَمِمَّا يَعْثُثُ عَلَى الدَّهْشَةِ أَنَّ هَذَا التَّوْسُعَ يَسِيرُ سَرِيعاً بِالْقَدْرِ الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ «فُورِدْ هُوْفِلْ» في كتاب «حدود النجوم» : «لَقَدْ تَمَّ قِيَاسُ اقْصَى سَرْعَةِ لَتَبَاعِدِ الْكَرَاتِ حَتَّى الْآنِ بِمَا يَقْارِبُ ٦٦ْ أَلْفَ كِيلُو مِتْرٍ فِي الثَّانِيَةِ ، وَتُدَلِّلُ الصُّورُ الْمُلتَقَطَّةُ عَنِ السَّمَاءِ عَلَى هَذَا الْاِكْتِشَافِ الْمُهِمِّ بِوْضُوحٍ ، حِيثُ إِنَّ الْفَاصِلَةَ بَيْنَ الْمَجَرَاتِ النَّائِيَّةِ تَتَضَاعِفُ بِسَرْعَةٍ أَكْثَرَ مِنْ الْمَجَرَاتِ الْقَرِيبَةِ!»<sup>(٢)</sup>.

فَأَيُّ قُوَّةٍ عَظِيمَةٍ تَكْمِنُ وَرَاءَ هَذِهِ الْأَجْرَامِ وَالْمَنْظومَاتِ الْجَبَارَةِ حِيثُ تُبَعِّدُهَا عَنْ مَرْكَزِ الْعَالَمِ بِهَذِهِ السَّرْعَةِ النَّادِرَةِ مِنْ دُونِ أَنْ تَتَلاشِيَ عَلَى اِثْرِ هَذِهِ الْحَرْكَةِ؟!

ثُمَّ يَشِيرُ إِلَى الْأَرْضِ فَيَقُولُ : ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشَنَاهَا فِيْعَمُ الْمَاهِدُونَ﴾ .

فَالْتَّعْبِيرُ بِ«الْفَرَشَ» مِنْ نَاحِيَّةِ ، وَ«الْمَاهِدُ» مِنْ مَادَةِ (مَهَدٌ) مِنْ نَاحِيَّةِ اخْرَى ، إِشَارَةٌ إِلَى التَّغْيِيرَاتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي حَصَلَتْ مِنْذِ بَدَائِيَّةِ تَكْوِينِ الْأَرْضِ ، وَتَهْيَئَتِهَا لِحَيَاةِ إِنْسَانٍ ، وَجَعَلَهَا كَالْمَهَدِ أَوْ فَرَاشَ الرَّاحَةِ.

كُلُّ هَذِهِ دَلَائِلُ عَلَى ذَلِكَ الْعِلْمِ وَالْقَدْرَةِ الْأَزْلِيَّةِ.

\* \* \*

وَنَقَرَأُ فِي الْآيَةِ الْحَادِيَّةِ عَشَرَةً تَعْبِيرًا جَدِيدًا حَوْلَ خَلْقِ السَّمَاءِ إِذْ يَقُولُ : ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ .

(١) بِدَائِيَّةٌ وَنَهايَةُ الْعَالَمِ ، ص ٧٧ (مَعَ الْاختِصَارِ).

(٢) حَدُودُ النَّجُومِ ، ص ٣٣٨ .

فهل هناك سماءٌ في العالم على هيئة سقف يُحفظُ من نفوذ الكائنات الخارجية؟ نعم .. فالسماء هنا يمكن أن تكون إشارة إلى الفضاء الذي يحيط بالأرض ويبلغ سمكًا مئات الكيلو مترات ، فهذه الطبقة التي تتألف من الهواء المضغوط اللطيف وبقية الغازات المحيطة بجوانب الكورة الأرضية على هيئة سقف دائمي ، قويةٌ بالقدر الذي يصفها بعض العلماء بأنَّ لها مقاومةً بقدر سقفٍ فولاذِيٍّ بسمكٍ عشرة أمتار ، وهي لا تمنع نفوذ الأشعاعات المدمرة فحسب ، بل تمنع سقوط الصخور الفضائية التي تنجذب نحو الأرض باستمرار ، لاصطدامها بهذه الطبقة الجوية بسرعتها الخارقة ، فتكون مانعاً لحركة تلك الصخور ، كما ويؤدي هذا الاصطدام إلى احتراق تلك الصخور وانصهارها.

فلو لم تكن هذه الطبقة الجوية العظيمة لأصبح أهل الأرض عرضةً للملايين من قذائف الصخور الفضائية الصغيرة والكبيرة ليلاً نهاراً ، فماذا سيحصل؟ وهل يكون هناك وجود للاستقرار في «مهد الأرض»؟ وهل سيكون اسم المهد والمرقد لائقاً بها؟.

لا ضير أن تقرأ هذا الكلام الوارد على لسان عالمٍ معروفٍ يُدعى «فرانك آلن» حيث يقول في كتابه «النجوم للجميع» : «إنَّ الجوَّ الذي تتألَّف من الغازات التي تحفظ الحياة على سطح الأرض له من المقدار والسمك «بحدود ٨٠٠ كم» بحيث يستطيع أن يكون كالدرع للأرض يصونها من شر اصطدام ٢٠ مليون صخرةٍ فضائيةٍ مدمرةٍ تبلغ سرعتها ٥٠ كيلو متراً في الثانية يومياً!»<sup>(١)</sup>.

صحيحٌ أنَّ وزن بعض هذه الشهاب التي تتقاطر نحو الأرض يعادل ١٠٠٠ من الغرام إلا أنَّ القوة الناتجة عن سرعتها تعادل قوة انطلاق ذرات القنبلة النووية! .. وقد يبلغ حجمُ وزن بعض هذه الشهاب مقداراً كبيراً بحيث تجتاز هذه الطبقة وتصيب الأرض ، ومن الشهاب التي اجتازت الغلاف الغازي ووصلت إلى الأرض شهاب «سييريا» العظيم المعروف الذي أصاب الأرض عام ١٩٠٨ م وكان قطعةً بقدْرٍ كبيرٍ حيث احتلَّ (٤٠ كم) تقريراً من الأرض ، وأدى إلى حدوث اضرارٍ جسيمة «وكانَ الله تعالى يُنذرنا بهذا

(١) النجوم للجميع ، ص ٧٤.

الاسلوب .. لنتصور حالنا فيما لو تعرضنا لقصف الصخور السماوية يومياً .  
 فلو كان الغلاف الجوي حول الأرض بشكل أرق مما هو عليه «لأصابت الأرض يومياً عدداً ملايين من الأجرام السماوية والشهب الثابتة ، كما يقول «غرسي مورسن» مؤلف كتاب «سر الحق» : «ولم تَعُد الأرض صالحةً للحياة» <sup>(١)</sup> .  
 ولا ينبغي طبعاً نسيان الآثار المدمرة الناتجة عن اصطدام الأشعة فوق البنفسجية بالأرض في حالة عدم وجود هذا الغلاف فهي أكثر بكثير من أخطار آثار هذه الصخور ، ولعل هذا الأمر كان السبب في أن يقول الباري تعالى في نهاية الآية : ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ .

\* \* \*

ويشير في الآية الثانية عشرة والأخيرة إلى خاصية أخرى من خصائص السماوات ، وهي من المعجزات العلمية للقرآن الكريم إذ يقول : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ .

ويبرهن هذا التعبير على أن للسموات عموداً إلا أنه غير قابل للرؤى ، فهو عمود غير مرئي ، فاي شيء يمكن أن يكون هذا العمود سوى توازن قانون «الجذب» و «الدفع» ، أي «القوة الدافعة المركزية»؟ أحلإن تعادل الجذب والدفع هذا هو عمود قوي بحيث يرفع جميع كرات المنظومة الشمسية وبقية المنظومات في مدارتها بإحكام ، مع أنه غير مرئي ، كما وينع تساقطها على بعضها ، أو الابتعاد عن بعضها فيختل نظامها .

وي ينبغي الانتباه إلى أن «عمد» (على وزن صَمَدْ) اسم جمع من مادة «عمود» ، ولو أراد القرآن أن يقول : «إن السماء مرفوعة بلا عمد» ، لكان يكفي أن يقول : ﴿رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ ، إلا أن إضافة عبارة ﴿تَرَوْنَهَا﴾ يدل على أن المقصود هو نفي الأعمدة المرئية ، ويستلزم ذلك إثبات العمود اللامرئي .

(١) سر خلق الإنسان ، ص ٣٤ .

لذلك نقرأ في الحديث المشهور عن الإمام الرضا عليه السلام حيث كان يتحدث إلى بعض الجهلاء الذين كانوا يقولون : إنَّ السماء بلا عمود ، فقال الإمام عليه السلام : «سبحان الله أليسَ اللهُ يقول بغير عَمَدٍ تَرَوْهَا» ، ويحيب ذلك الشخص بنعم ، فيقول الإمام عليه السلام مباشرة : «ئَمَّ عَمَدٌ ولكن لا تَرَوْهَا» <sup>(١)</sup>.

وقد رُوي هذا المعنى بتعبير «عمود من نور» في حديث شيخ لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول : «هذه النجوم التي في السماء مدائٍ مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كلٌ مدينةٍ إلى عمودٍ من نور» <sup>(٢)</sup>.

والذى يشير الانتباه هنا هو بالرغم من أنَّ قانون الجذب والدفع لم يكن مذكوراً في تفاسير القدماء والসالفين ، فإنَّ منهم من فسر الآية كما ذكرنا آنفًا ، حيث قال بوجود عمودٍ غير منظور للسماء ، بالرغم من أنَّ البعض عبرَ عن هذا العمود غير المنظور بقدرة الله <sup>(٣)</sup>.

على أية حال ، فهذه احدى آيات الله العظيمة ، حيث رفع السموات بهذه الأعمدة القوية غير المنظورة ، والأنظمة المهيمنة على قانون الجذب والدفع ، بحيث لو حصل أقل تغيير في هذه المعادلة ، فسوف يختلط توازنها أو تتصادم فيما بينها بشدة وتخفي أو تبعد نهائياً وينقصم الارتباط بينها.

\* \* \*

### النتيجة :

مع أنَّ الآيات المتعلقة بخلق السموات والأرض في القرآن الكريم ليست محصورةً بما أوردناه آنفًا ، وإذا تقرر أنَّ ثُبُحَتْ كموضوعٍ مستقلٍ تحت عنوان : «السماء والأرض في

(١) تفسير البرهان ، ج ٢ ، ص ٢٧٨.

(٢) بخار الأنوار ، ج ٥٥ ، ص ٩١ ؛ تفسير القرطبي ج ٩ ص ٢٧٩.

(٣) تفسير مجمع البيان ، ج ٥ ، ص ٢٤٧ ؛ تفسير روح المعاني ، ج ١٣ ، ص ٧٨ ؛ تفسير الكبير ، ج ١٨ ص ٢٣٢ ؛ وتفسير القرطبي ، ج ٥ ص ٣٥٠٨.

القرآن الكريم» فاَنَّا تَوَلَّفَ كِتَابًا مُسْتَقْلًا<sup>(١)</sup> ، إِلَّا أَنَا إِخْتَرْنَا هَذِهِ الْآيَاتِ الْاثْنَيْ عَشْرَ مِنْ بَيْنِهَا وَأَوْرَدْنَاهَا ، وَمِنْ الْمُؤْمِلِ أَنْ يَفْتَحَ هَذَا الْبَحْثُ . أَيْ بَحْثٌ مَعْرِفَةِ اللَّهِ وَآيَاتِ وَجُودِهِ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْكَبِيرِ . الْطَرِيقُ أَمَانًا ، وَيُوَضِّحُ لَنَا بَأْنَّ فِي هَذَا الْخَلْقِ الْعَظِيمِ دَلَالَاتٍ وَافْرَةٍ لِلسَّائِرِينَ فِي طَرِيقِ اللَّهِ ، يُمْكِنُهُمْ مِنْ خَالِلِ التَّمْعَنِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ الْمَلِيءِ بِالْأَسْرَارِ أَنْ يَزْدَادُوا فُرِيًّا مِنْهُ ، وَمُثُلًا أُوعِيًّا قَلْوَبَهُمْ وَأَنفُسَهُمْ مِنْ حُبِّهِ أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ، فَيَرِدُونَ هَذَا الْكَلَامُ الْقَرَآنِي بِاسْتِمرَارٍ : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ ! .

### توضيحات

#### ١ . عَظَمَةُ وَوُسْعَةُ السَّمَوَاتِ

لَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ بِحَدُودِ سَعَةِ وَامْتَدَادِ السَّمَوَاتِ ، إِنَّ الشَّيْءَ الَّذِي نَعْلَمُهُ هُوَ أَنَّهُ كُلُّمَا ازْدَادَ عِلْمٌ وَتَفْكِيرُ الْإِنْسَانِ وَتَطْوِيرُهُ فَإِنَّ عَظَمَةَ السَّمَوَاتِ سُوفَ تَكُونُ فِي نَظَرِهِ أَكْبَرُ وَسُوفَ يَكْتَشِفُ أَبْعَادًا جَدِيدَةً عَنْ عَظَمَةِ السَّمَوَاتِ وَأَسْرَارِهَا ، وَتَقُولُ آخِرُ مَعْلَومَاتِ عِلْمَاءِ الْفَلَكِ بِهَذَا الْخَصُوصِ :

«إِنَّ مَنْظُومَتِنَا الشَّمْسِيَّةَ تَرْتَبِطُ بِ«دَرْبِ التَّبَانَةِ» الَّتِي هِيَ فِي الْوَاقِعِ أَحَدِ الْمُجَرَّاتِ ، وَقَدْ تَوَصَّلَ الْعِلَمَاءُ فِي بَحْثِهِمْ إِلَى أَنَّهُمْ تَنَالُفُ مِنْ مائَةِ مِلِيَّارَدِ نَجْمَةٍ احْدَادُهَا شَمِسَنَا هَذِهِ وَالَّتِي تُعْتَبَرُ أَوْسِطَهَا حَجْمًا (لَا تَنْسَى أَنَّ الشَّمْسَ أَكْبَرَ مِنَ الْأَرْضِ بِأَكْثَرَ مِنْ مِلْيُونِ مَرَّةٍ) ، وَإِذَا ضَرَبْنَا هَذَا الْعَدْدُ بِمائَةٍ تَصْبِحُ النَّتْيُوجَةُ مائَةَ مِلِيَّارَدٍ ، أَيْ أَنَّ حَجْمَ مُجْمُوعِ كَرَاتِ هَذِهِ الْمَجَرَّةِ يَعْدَلُ الْكَرَةِ الْأَرْضِيَّةِ بِهَذَا الْمَقْدَارِ ! .

وَإِذَا أَضَفْنَا هَذَا الْعَدْدَ إِلَى الْعَدْدِ الَّذِي اكْتَشَفَهُ الْعِلَمَاءُ فِي هَذَا الْعَالَمِ وَفَقَادُ لِبَحْثِهِمْ ، وَهُوَ مِلِيَّارَدٌ مَجَرَّةٌ عَلَى الْأَقْلَى ، يَقْفُزُ الْعُقْلُ وَالْعِلْمُ الْبَشَرِيُّ مُتَحِيرًا أَمَامَ عَظَمَةِ الْأَلَّهِ الَّذِي حَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ الْلَّامِتَاهِيَّ ، (تَفَحَّصُوا الْأَرْقَامَ أَعْلَاهُ وَتَفَكَّرُوا فِي عَظِيمَتِهَا) . عَلَمًا أَنَّ هَذِهِ الْأَعْدَادُ وَالْأَرْقَامُ هِيَ ضَمِّنَ حَدُودِ عِلْمٍ وَاطْلَاعِ الْبَشَرِ فِي الْوَقْتِ

الْمُحْضِ ،

(١) فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ذُكِرَتْ «السَّمَاءُ» أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَمَائَةِ مَرَّةٍ بِصِيغَةِ مُفْرِدةٍ أَوْ جَمِيعِ (السَّمَوَاتِ) .

وليس واضحًا ما سيكتشفُ من معلمٍ جديدٍ في المستقبلِ .

وهناك شهادةٌ لطيفةٌ جدًا لمرصد «بالومار» بخصوص عظمة السماوات حيث يقول : «في الوقت الذي لم تتم صناعة عدسة مرصد «بالومار» العملاق لم تكن سعة الدنيا حسب علمنا أكثر من ٥٠٠ سنة ضوئية (ومقصود من السنة الضوئية هو مقدار المسافة التي يقطعها الضوء بسرعةٍ ثلاثة الف كيلو متر في الثانية خلال سنة واحدة ، وثلاثة الف كيلو متر في الثانية تعني الدوران حول الأرض سبع مرات خلال طرفة عين) .

ولكن هذه العدسة ضاعفت دنيانا إلى الف مليون سنة ضوئية ، وفي النتيجة تم اكتشاف الملايين من المجرات الجديدة ، حيث يبعد بعضها عنا مليار سنة ضوئية ، ولكن هناك فضاءً عظيماً مهيباً ومظلماً بحيث لم يُرَ شيء من خلاله أبداً ويبعد الف مليون سنة ضوئية ... إلآن مما لا شك فيه هو وجود مئات الملايين من المجرات في ذلك الفضاء المهيب المظلم حيث تُصانُ الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرات ، ويُعتقد أن هذه الدنيا العظيمة التي نراها ليست سوى ذرةٍ صغيرةٍ متناهية من عالمٍ أعظم ، ولسنا نقطع بعدم وجود عالمٍ آخر في مكانٍ آخر من الدنيا!»<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

## ٢ . الدقة العجيبة في القوانين التي تحكم السماء والأرض

من المعروف أنه كلما تعاظمت الموجودات فلابد من أن تتضاعل دقة القوانين السائدة فيها ، بينما لا يصدقُ هذا المعنى على هذا العالم الشاسع أبداً ، أي أنه مع عظمته وسعته العجيبة وإثارته للجدل ، فهو ذو انظمٍ دقيقةٍ وظرفية ، ومن أجل إدراك هذه الحقيقة يكفينا الالتفات إلى المسائل الآتية :

أ) نحن نعلم أن الإنسان قد أفلح في نهاية المطاف أن ينزل سفينة الفضاء بطاقة يتألف من شخصين في النقطة التي حددتها العلماء في كوكب القمر ، ثم عادا إلى الأرض (تأمل

(١) مجلة الفضاء ، العدد ٥٦ فوردين ١٣٥١ .

جيداً ..) فعلى مدى الأيام الثلاثة التي قضتها السفينة في قطع المسافة بين الأرض والقمر ، كانت الأرض تدور حول نفسها وتغير مكانتها في السماء حول الشمس ، وكوكب القمر كان يدور حول نفسه وحول الأرض أيضاً ، فكم يجب أن تكون هذه الحركات مُنظمَةً ودقيقةً ومحبكة وثابتة بحيث يستطيع العلماء أن يحسبوا حسابَ هذه الحركات ويقدّرُوها من خلال العقول الالكترونية حتى تخط سفينة الفضاء في المكان الذي حدده على سطح كوكب القمر ، ومن ثم المكان الذي عيّنوه لعودتها إلى كوكب الأرض؟ فإذا اختلفت أحدي هذه الحركات وتداخلت فيما بينها ونقصت أو ازدادت مقدار ثانية واحدةٍ فمن المُسْلِم به أن حسابات العلماء ستتبّك ويكون عملهم غير ناجح.

أجل .. إن نظام عالم الوجود الدقيق هو الذي يمنح الإنسان فرصة القيام بمثل هذا العمل ، أي المبوط على سطح كوكب القمر وفي المكان الذي حدده.

ب) يستطيع علماء الفلك أن يخسّبُوا ويقدّرُوا أحداث المستقبل التي تتعلق بـ «الخسوف» و «الكسوف» في الكرة الأرضية قبل عشرات السنين ، وعدد ساعات الليل والنهار وشروع وغروب الشمس وبنوغ وافول القمر ، وهذا يعود إلى التنظيم الدقيق لحركاتها ليس إلا.

ج) كما اشرنا سابقاً أن قوة الجاذبية تجذب الأجرام السماوية نحو بعضها ، ييد أنَّ القوة الدافعة التي تحصل من حركة الدوران والتي تسمى بالقوة الطاردة تُبعدها عن بعضها. فإذا أريد أن تتحرك الكرة في مدارها ملايين السنين حركةً دقيقة وفي مدارٍ معَيْنٍ فيجب أن تتوزن هاتان القوتان تماماً ، وهذا ما نعرفه أيضاً حيث إنَّ الجاذبية تتناسب طردياً مع حجم الموجودات ، وعكسياً مع الجذر التربيعي للمسافة بينها (فلو ازداد الحجم فإنَّ الجاذبية تتضاعف ، وإذا تضاعفت المسافات تضعف الجاذبية طبقاً للمعادلة أعلاه).

وبناءً على ذلك فمن أجل أن تدور الأرض حول الشمس لمدة طولية جداً في مدارٍ ثابت ، ينبغي أن يكون حجم الشمس والأرض وكذلك المسافة بينهما ، وسرعة حركة الأرض حول الشمس وفق حسابٍ دقيق ، كي يتم التوازن بينهما ، وهذه المسائل ليست ممكناً دون تَدَخُّلٍ من عالم ذو علمٍ غير متناهٍ وعقلٍ مدبرٍ.

### ٣ . السموات السبع

مايلفت النظر هو أنّ الحديث عن (السموات السبع) ورد في سبع آياتٍ من القرآن الكريم <sup>(١)</sup>.

وَقَتَّ الإِشَارَةِ فِي أَحَدِي هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى طَبَقَاتِ الْأَرْضِ السَّبْعِ أَيْضًا ، حِيثُ يَقُولُ  
تَعَالَى : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ . (الطلاق / ١٢)  
وَمِنْ بَيْنِ جَمِيعِ التَّفَاسِيرِ الْمُخْتَلِفَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ عَنِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ ، يَظْهَرُ أَنَّ التَّفَاسِيرِ  
الصَّحِيحَ هُوَ أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ «السَّمَوَاتِ السَّبْعِ» هُوَ الْمَعْنَى الْحَقِيقِيُّ لِلْسَّمَوَاتِ السَّبْعِ ، أَيِّ  
السَّمَاءِ لَا تَعْنِي الْكَرَاتِ ، بَلْ مَجْمُوعَةِ النَّجُومِ وَالْكَوَاكِبِ فِي الْعَالَمِ الْعُلُوِّيِّ ، وَالْمَقْصُودُ مِنَ  
الْعَدْدِ ﴿سَبْعَةٍ﴾ هُوَ الرَّقْمُ الْمَعْرُوفُ ، وَلَيْسُ هُوَ لِلْكِثْرَةِ .

إِنَّهُ مَا يَظْهِرُ مِنَ الْآيَاتِ الْأُخْرَىٰ هُوَ أَنَّ كُلَّ مَا نَرَاهُ مِنْ نَجْوَمٍ ثَابِتٌٰ ، وَسِيَارَةٌ ، وَمُجَرَّاتٌ  
وَسُخْبٌ يَتَعَلَّقُ (بِالْجَمِيعِ السَّمَوَيِّيَّةِ الْأُولَىٰ) وَعَلَيْهِ فَهُنَّا كُلُّ مِجَامِعٍ عَظِيمَةٍ أُخْرَىٰ (كُلُّ  
سَمَوَاتٍ) تَلِيَ هَذِهِ الْجَمِيعَ الْعَظِيمَةَ ، حِيثُ إِنَّ بَعْضَهَا أَكْبَرُ مِنَ الْبَعْضِ الْآخَرِ ، وَتَلِكَ  
خَارِجَةٌ عَنْ مَتَنَّاولِ عِلْمِ الْإِنْسَانِ (لَحْدِ الْآَنِ عَلَىِ الْأَقْلِ).

نقرأ في قوله تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَاهُ السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَافِكِ﴾ . (الصفات / ٦)

وجاء في قوله تعالى : ﴿رَبِّنَا السَّمَاءُ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ﴾ . (فصلت / ١٢)

وورد هذا المعنى أيضاً باختلافٍ طفيفٍ في الآية الخامسة من سورة الملك.  
والجدير بالذكر أنَّ المرحوم العلَّامة المخلصي قد ذكر هذا الاحتمال كأحد التفاسير لهذه الآية إذ يقول : «الثالث : ما خطر بالبال القاصر ، وهو أن تكون جميع الافلاك الثمانية التي أثبتوها لجميع الكواكب فلها واحداً مسمى بالسماء الدنيا» <sup>(٢)</sup>.

(١) البقرة ، ٢٩ ؛ الاسراء ، ٤٤ ؛ المؤمنون ، ٦٦ ؛ فصلت ، ١٢ ؛ الطلاق ، ١٢ ؛ الملك ، ٣ ؛ نوح ، ١٥ (واشير في آيتين (المؤمنون ، ١٧ ؛ النبأ ، ١٢) إلى (سبع طرائق) وسبعاً شداداً أيضاً حيث يمكن أن يكونوا إشارة إلى السموات السبع أيضاً.

(٢) بحار الأنوار، ج ٥٨، ص ٧٨.

صحيحٌ أنَّ معداتنا العلمية الحديثة لم تكشف الحجب عن العوالم الستة الأخرى غير أنَّه ليس هنالك من دليل ينفيها من الناحية العلمية أيضًا ، ويحتمل أن يكشف النقاب عن هذا السر في المستقبل.

بل يظهر من اكتشافات بعض علماء الفلك أنَّ هناك الآن براهين تلوح في الافق عن وجود عوالم أخرى شبيهة لما نقلناه آنفًا عن مرصد «بالومار» الشهير فيما يتعلق بعظامه العالم ، ونكرر الجملة التي تشهد على كلامنا هذا «تم اكتشاف الملايين من المجرات الجديدة حيث يبعد بعضها عناً ملليار سنة ضوئية ، لكن هناك فضاءً عظيمًا مهيبًا ومظلماً لم يُرَ أَيُّ شيءٍ من خلاله أبداً ويبعد مسافة ملليار سنة ضوئية ، إلَّا أنَّ مَا لا شك فيه وجود مئات الملايين من المجرات في ذلك الفضاء المهيِّب المظلم ، حيث تصانُ الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرات ، ويعتقد أنَّ هذه الدنيا العظيمة التي نراها ليست سوى ذرَّةٍ صغيرةٍ متناهيةٍ من عالمٍ أَعْظَمْ ، وليسنا نقطع بعده وجود عالمٍ آخر في مكانٍ آخر من الدنيا»<sup>(١)</sup>.

يقول أحدُ العلماء في مقالٍ كتبه حول عظمة عالم الوجود ، بعد ذكر المسافات الهائلة والمذهلة للمجرات ، وبيان الأرقام المدهشة المحددة طبقاً إلى السنة الضوئية ما يأتي :

«لا زال المنجمون يعتقدون أَنَّهم لم يقطعوا سوى منتصف طريق ما يُمْكِنُ رؤيته من العالم العظيم ، ولا زال عليهم اكتشاف فضاءاتٍ أَخْرَى غير مكتشفة»<sup>(٢)</sup>.

وعليه فإنَّ العوالم التي تكشفت للبشر لحدَّ الآن مع عظمتها ما هي إلَّا زاوية صغيرة من هذا العالم الكبير ، وتصلح للمطابقة مع مسألة السموات السبع<sup>(٣)</sup>.

#### ٤ . لِمَ لا تنظرُون إلى السماء؟!

إِنَّ كثرة ووفرة آيات الله في عرض السموات ، وجمال السماء في الليل ، دَفَعَ القرآن

(١) مجلة الفضاء ، العدد ٥٦ فروردین ١٣٥١ .

(٢) مجلة (نيوز ويك) السنة ١٩٦٤ (لا ينبغي أن ننسى إِنَّ هذه الشهادة تعود إلى ما قبل ٢٤ سنة).

(٣) من أجل المزيد من الإيضاح حول التفاسير المختلفة التي ذكرت فيما يخص السموات السبع ، يُراجع التفسير الامثل (ذيل الآية ٢٩ من سورة البقرة).

الكريم والأحاديث إلى دعوة الناس باسرهم وخاص المؤمنين منهم إلى التفكير في السموات من أجل كسب المزيد من الإيمان ، فيقول القرآن الكريم في الآية ٦ من سورة ق : **﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقُهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَبَّنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾؟!**

وقد أمرت الروايات **﴿الْمُسْتَقِظُونَ فِي الْأَسْحَارِ﴾** خاصة ، أن ينظروا إلى السماء أولاً حين ينهضون **﴿لِصَلَوةِ اللَّيْلِ﴾** ، وأن يقرأوا الآيات الأخيرة من سورة آل عمران التي تتعكس فيها جميع هذه الحقائق بنحو عرفاً : **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...﴾** ثم يتوجهون نحو العبادة (حيث يتلئ الدعاء بعطر التوحيد ومعرفة الله) <sup>(١)</sup>.  
ورُويَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ حينما كان يستيقظ لصلاة الليل يبتدىء بالمسواك ثم يلقي نظرةً على السماء ، ويردد هذه الآيات <sup>(٢)</sup>.

وورد في صفات أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَّالَةُ أيضاً عن أحد أصحابه ويدعى «حبة العربي» حيث قال : «بينا أنا ونوف (أحد أصحاب الإمام علي عَلَيْهِ الْكَلَّالَةُ ) نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَّالَةُ في بقية من الليل ، واضعاً يديه على الحائط شبيه الواله ، وهو يقول : **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** إلى آخر الآية ، قال : ثم جعل يقرأ هذه الآيات وينبر شبه الطائر عقله ، فقال لي : أرأقد أنت يا حبة أم رامق؟ قال : قلت : رامق هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟ فأرخي عينيه فبكى ، ثم قال لي : يا حبة ، إِنَّ اللَّهَ مُوقِفًا ولنا بين يديه موقف لا يخفى عليه شيء من أعمالنا ، يا حبة إِنَّ اللَّهَ أَقْرَبُ إِلَيْهِ وَإِلَيْكَ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ، يا حبة إِنَّهُ لَنْ يَحْجُبَنِي وَلَا إِيَّاكَ عَنِ اللَّهِ شَيْءٌ....» <sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٢ ، ص ٥٥٤ الآيات الأخيرة من سورة آل عمران.

(٢) المصدر السابق.

(٣) بخار الأنوار ، ج ٤١ ، ص ٢٢.

## ٨ . آياته في خلق الشمس والقمر والنجوم

تمهيد :

مع أَنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ثُعَدَانِ مِنْ كَوَاكِبَ وَكَرَاتِ السَّمَاءِ ، وَقَدْ تَمَّ الْحَدِيثُ بِشَكْلٍ مِنْفَصِلٍ عَنْ عَظَمَةِ السَّمَاوَاتِ ، وَلَكِنَّ لِقَرِبِهِمَا مِنَ كَرَتِنَا الْأَرْضِيَّةِ فَإِنَّهُمَا تَأْثِيرَاتٍ جَمِيعَةٍ عَلَى حَيَاتِنَا ، وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ إِلَيْهِمَا بِشَكْلٍ خَاصٍ ، وَوَصَّفَ كَلَّاً مِنْهُمَا بِأَيَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَإِشَارَ إِلَى الْفَوَائِدِ الْخَاصَّةِ لِلنَّجُومِ إِذَا اعْتَبَرْهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَأَنَّ التَّفَخُصَّ فِي كُلِّ مِنْهَا لَا سِيمَا فِي ظُلُّ اكْتِشافَاتِ الْعَصْرِ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يُوَضِّحَ لَنَا عَظِيمَةَ الْبَارِيِّ تَعَالَى مِنْ جَهَّةٍ وَعَظِيمَةَ تَعَالَيْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مِنْ جَهَّةِ أُخْرَى .

وَبَعْدَ التَّمَهِيدِ الْمُخْتَصِرِ نَتَأْمِلُ حَاسِعِينَ فِي الْآيَاتِ الْشَّرِيفَةِ الْآتِيَّةِ :

- ١ . ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ . (يُونُس / ٥)
- ٢ . ﴿أَلَمْ تَرَوْ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ . (نُوح / ١٥ و ١٦)
- ٣ . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِيَّيْنِ﴾ . (ابْرَاهِيم / ٣٣)
- ٤ . ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّنِ يَجْرِي لِأَجْلٍ مُسَمَّى﴾ . (فَاطِر / ١٣)
- ٥ . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ . (فُصَّلَت / ٣٧)
- ٦ . ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقْرٍ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْغَيْرِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَرَنَاهُ مَنَازِلَ

حَتَّىٰ عَادَ كَالْعَرْجُونِ الْقَدِيمِ \* لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٨ - ٤٠﴾. (يس / ٣٨ - ٤٠)

٧ . ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

(الأنبياء / ٣٣)

٨ . ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾. (المعارج / ٤٠)

٩ . ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ \* وَاللَّيْلِ إِذْ أَذْبَرَ \* وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ \* إِنَّهَا لِإِخْدَى الْكُبُرِ﴾.

(المدثر / ٣٥ - ٣٦)

١٠ . ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لِكُمُ الْجُوُمَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا

الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. (الانعام / ٩٧)

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### القسم بالشمس والقمر والنجوم :

بالرغم من أنّ زمان نزول الآيات المتعلقة بالشمس والقمر كان في وقت لا يملك فيه الإنسان إلّا القليل من المعلومات عن هذين الكوكبين العظيمين ، وتقارن نزول هذه الآيات مع شيوخ الخرافات الكثيرة «وبالاخص في مهد نزول هذه الآيات» بالرغم من كل ذلك فإنّ القرآن أشار إلى القمر والشمس والنجوم بعظمة ملفتة للنظر ، وذكر الكثير من خصوصياتها وبشكل عام فإنّ القرآن اعتبرها من آيات الحق الإلهية والبراهين على إثبات الذات المقدّسة. فيقول تعالى في الآية الأولى التي نبحثها : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾.

يقول بعض أرباب اللغة (ومنهم الطريحي في مجمع البحرين) وعدد من المفسّرين : إنَّ الفرقَ بين «الضياء» و «النور» هو أنَّ «الضياء» يُطلقُ على النور الذي ينبعث من ذات

الشيء ، ويُطلُقُ النُّورُ عَلَى الضُّوءِ الَّذِي يُكَسِّبُ مِنَ الْغَيْرِ ، وَعَلَيْهِ فَإِنَّ الْآيَةَ أَعْلَاهُ إِشَارَةً لطيفةً إِلَى هَذِهِ الْمُسَأَلَةِ حِيثُ إِنَّ نُورَ الشَّمْسِ يُنَطَّلِقُ مِنْهَا ، فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَحْصُلُ نُورُ الْقَمَرِ عَنْ طَرِيقِ ضُوءِ الشَّمْسِ الَّذِي يَشْعُرُ عَلَيْهِ ، وَيَتَحَدَّثُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِهَذَا فِي زَمَانٍ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ اطْلَاعٌ عَلَيْهِ.

وَمِمَّا لَا شَكَ فِيهِ أَنَّهُ لَا يَمْكُرُ اِنْكَارُ أَنَّ كُلَّاً مِنْ هَذِينَ الْمَفْهُومَيْنِ قَدْ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى أَعْمَ مِنَ النُّورِ «الذَّاتِي» أَوْ «الْأَكْتَسَابِيِّ» ، وَمَشَاهِدَةُ حَالَاتِ اسْتِعْمَالِ هَذِينَ الْمَفْهُومَيْنِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَفِي كَلَامِ الْعَرَبِ يَشْهُدُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ يَكُونُ لَهُمَا مَعْنَيَانٌ مُخْتَلِفَانِ فِيمَا إِذَا تَرَاهُمَا مَعًا ، كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ أَعْلَاهُ.

\* \* \*

وَوَرَدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ بِتَعْبِيرٍ آخَرِ ، فَبَعْدِ الإِشَارَةِ إِلَى خَلْقِ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ يَضِيفُ قَائِلاً : **﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾** وَقَدْ عَبَرَ عَنِ الشَّمْسِ بِ«السِّرَاجِ» فِي آيَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَيْضًا (الْفَرْقَانُ / ٦١ ، الْبَأْ / ١٣) ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ نُورَ الْمَصْبَاحِ يَنْبَعُثُ مِنْ دَاخِلِهِ وَلَيْسَ مُمْكِنًا مِنَ الْخَارِجِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ نَصْوُصِ الْلُّغَةِ أَنَّ الْضِيَاءَ أَكْثَرُ شَدَّةً مِنَ النُّورِ <sup>(١)</sup> ، وَلَعَلَّ هَذَا الْخَتْلَافُ مُسْتَمَدٌ مِنَ الْخَتْلَافِ الْأُولَى وَيَعُودُ إِلَيْهِ <sup>(٢)</sup>.

عَلَى آيَةِ حَالٍ ، فَقَدْ اشِيرَ هُنَا وَقَبْلِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى نُورِ «الشَّمْسِ» وَ«الْقَمَرِ» كَآيَاتٍ حَقٍّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَبِرَاهِينٍ عَلَى قَدْرِهِ وَآلَائِهِ جَلَّ وَعَلَا .

فَالشَّمْسُ بِضُوئِهِ الْمَشْرِقِ عَلَى الْكَوْنِ لَا تَقْوِمُ بِتَدْفُقَةِ وَانْتَرَاهُ مَهْدُ الْكَائِنَاتِ فِي الْعَالَمِ فَحَسْبٌ ، بَلْ لَهَا نَصِيبٌ اسْاسِيٌّ فِي نُورِ النَّبَاتَاتِ وَحَيَاةِ الْحَيَوانَاتِ.

(١) تَفْسِيرُ الْكَشَافِ ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ ؛ وَتَفْسِيرُ رُوحِ الْبَيَانِ ، ج ٤ ، ص ١٢ .

(٢) يَنْبَغِي الْإِنْتِبَاهُ إِلَى أَنَّ «الضِيَاءَ» يَأْتِي بِصِيغَةِ «الْمَفْرَدِ» وَ«الْجَمْعِ» أَيْضًا ، وَيَعْتَقِدُ بَعْضُ الْمُفْسِرِينَ أَنَّ لَهُ صِيغَةِ الْجَمْعِ فِي الْآيَةِ أَعْلَاهُ ، وَأَنَّهُ إِشَارَةٌ لطِيفَةٌ إِلَى تَرْكِيبِ ضُوءِ الشَّمْسِ مِنْ سَبْعَةِ أَلْوَانِ .

واليوم قد ثبتت هذه الحقيقة ، إذ إنَّ كُلَّ حَرَكَةٍ تُشَاهِدُ في الأرض هي من بركاتِ ضوء الشمس ، فلو فَكَرْنَا بامعانٍ في حركة الرياح ، والغيوم وأمواج البحار وجريان الأنهار ، والشلالات ، والحيوانات والناس لوجدناها تنبُعُ من ضوء الشمس بدون استثناء.

ولو انطفأت الشمس وانقطعت هذه الاشعة التي تُهْبِطُ الحياة عن الأرض فسيَعُمُ الموتُ والسكوتُ والظلمٌ كُلَّ مَكَانٍ حلال فترَةٌ قصيرةٌ جدًا.

كما أنَّ نور القمر الجميل لا يُعتبر مصباحاً في ليالينا الحالكة ودليلًا ؛ لقاطعي الصحراء ليلاً فقط ، بل إنَّ نوره اللطيف والمناسب يبعثُ الطمأنينة والنشاط لدى البشر بأسرهم.

ويرى بعضُ المزارعين أنَّ «نور القمر» له دور حساس في نمو الفواكه والنباتات أيضًا. وطبعاً أنَّ كلَّ ما ذكرناه يختصُّ بنور الشمس والقمر فقط ، وسنقوم ببحث ما يخص بقية بركاتهما بشكلٍ مستقلٍ.

ثم يشيرُ القرآن الكريم في نهاية هذه الآية إلى أحدى البركات والفوائد المهمة لهاتين الكرتين السماويتين حيث يضيف : **﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَذَادَ السَّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾**.

فالقمرُ بسيِّرِه المُنَظَّم ، وحركته الدقيقة يُعتبر تقويمًا واضحًا وحياتًّا وطبيعيًا للغاية ، تُسْهِلُ قراءَتُه على العالم والجاهل ، وينَظِّمُ برامج حياته على اسسه ، ولو أمعنا التفكير لوجدنا مسألة تنظيم حياة الإنسان ترتبط بقوَّة بحساب السنين والشهور ووجود تقويم طبيعي ، حيث يتَكَفَّلُ القمرُ والشمسُ ودوران الأرض المُنَظَّم حول نفسها وحول الشمس بانجاز هذا الدور ، وأنَّ التقويمات الحالية التي نُظِّمت استناداً إلى حسابات المُنجمين لا تُنفع إلَّا الذين لديهم إمكانية فهمها ، والتقويم الوحيد المفهوم والمعلوم والمفید للجميع هو التقويم الطبيعي الذي يتوفر لدينا من حركة القمر ، منذ مرحلة «اللال» وحتى وصوله إلى مرحلة «البدر الكامل» ، ومن ثمَّ إلى «الماه» ، ولو تفَحَّصَ الإنسان قليلاً لاستطاع أنْ يُحدِّدَ ليالي الشهر من خلال ملاحظة حجم القمر ، لأنَّ القمر لا يستقر على حالي واحدة في السماء على مدى ليتين أبداً ، ولعلَّ تنظيم العبادات الإسلامية وفقاً للأشهر القمرية نابعٌ من هذا الأمر.

وكل هذه الدوافع ادّت إلى أن يقول القرآن الكريم في نهاية هذه الآية : ﴿يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

والحديث في الآية الثالثة والرابعة عن تسخير الشمس والقمر للإنسان : ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾.

بِيَدِ اللَّهِ عَبَرَ فِي الْآيَةِ بِكَلْمَةِ **دَائِيْنِ** أَيْ (الْحَرْكَةُ وَفَقَاءُ لِسْنَتِ ثَابِتَةٍ) <sup>(١)</sup> وَفِي الْأُخْرَى  
وَرَدَ تَعْبِيرٌ **كُلُّ يَحْرِي لِأَجْلِ مُسْمَىٰ** أَيْ «إِنَّ كُلًا مِنْهُمَا يَسْتَمِرُ فِي حَرْكَتِهِ إِلَى حِدٍ مُعِينٍ». وَهَذِهِ  
الْجَمْلَةُ تَشِيرُ إِلَى أَنَّ حَرْكَةَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ سَتْتَهِي عَلَى الْمَدِيْ بَعِيدٍ، وَيَتَغَيَّرُ  
نَظَامُ الْمَنْظُومَةِ الشَّمْسِيَّةِ بَعْدِ مَلَائِينِ السَّنَيْنِ، وَهَذَا بَحْدِ ذَاتِهِ أَحَدُ الْمَعْجَزَاتِ الْعِلْمِيَّةِ لِلْقُرْآنِ  
الْكَرِيمِ.

وفي الحقيقة أن المقصود بحركة الشمس هو دوران الأرض حول الشمس طبعاً ، لأنّ ما يظهر للعيان أنّ الشمس هي التي تتحرك ، حيث إنّ الأرض في الواقع هي التي تُوجّدُ هذا الشعور لدى الإنسان ، إذ إنّ الشمس تتحرك باستمرار مع المنظومة الشمسيّة داخل المجرّات ، وسوف نشير إلى ذلك لاحقاً.

والمقصود بتسخير الشمس والقمر وبقية الكائنات التي يعتبرها القرآن الكريم مسحرة للإنسان ، هو أهًّا تتحرك في مجال مصالح الإنسان وخدمته ، فكما قلنا سابقاً أنّ لضوء الشمس والقمر دوراً مهماً في حياة الإنسان وكافة الكائنات الحية ، لا سيما ضياء الشمس إذ تستحيل الحياة على سطح الأرض بدونه لحظةً واحدةً ، وحتى في الليالي المظلمة فاننا نستفيدُ من الحرارة المتبقية عن ضوء الشمس في الأرض والجو ولو لاها لانجحمنت الكائنات الحية بأسها ، إضافةً إلى الفوائد الأخرى كالماء والجزر في المحيطات ، فهو مصدرٌ للكثير من الخدمات ، وسنشير إلى ذلك في بحث آياته في البحار . إن شاء الله . ، وكذلك وضع تقويمٍ طبيعيٍ وخدماتٍ أخرى.

(١) «دَائِبِينَ» من مادة «دَوْبَ» وتعني استمرار العمل وفقاً لعادةٍ وسُنَّةٍ دائمٍ وهو تعبيرٌ للحركة المنظمة والمتسعة للشمس والقمر ، ولا يعتقد بوجودٍ تعبيرٌ أفضلٌ من هذا التعبير.

وبلا شك فإنّ ما نعرفه اليوم من بركاتِ الشمس والقمر أكثر مما كان يعرفه السالفون والمخاطبون بهذه الآيات عند نزولها ، ولهذا فإنّ دروس التوحيد التي نقرأها على صفحاتها أكثر مما كان يقرأها السابقون ، لهذا يقول في نهاية هذه الآية : إنّ ربّكم هو الذي سخر لكم كلّ هذه الموجودات ، أمّا الذين تدعونَ من دونه فهم لا يملكون الحكم والملك في هذا العالم بقدّر قشرة نواة التمر : ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُوْهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وقد عبرت الآية الخامسة بصرامةً عن خلقِ الليل والنهار والشمس والقمر ووصفت هذه الظاهرة بأنّها من آياته ، إلّا أنّه يأمرُ في نفس الوقت بضرورة عدم الاعتقاد بأنّ هذه هي الإله كما يتصور عبده الشمس والقمر .. كلا .. : ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقُوكُمْ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وهنا نرى الدقة التي يتحدث بها القرآن الكريم ، إذ إنّ ذكر القوائد المختلفة للشمس والقمر والليل والنهار وكافة الموجودات في هذا العالم من شأنه أن يترك أثراً في أذهان ذوي العقول الضيقة وينصورون بأنّهم مدینون للنعم التي اسبغتها عليهم هذه الموجودات فيسجدون لها ويخضعون ويعظموها ، وهذا ما ابتنى به الوثنيون على مر التاريخ ، لكن القرآن يقول لهؤلاء : افتحوا أعينكم جيداً وانظروا بدقة وتبصر ، وعندما سترون من وراء الحجب العلل ، وسترون الذات القدسية لعلة العلل وعندما سوف تعرفون جباهكم بالسجود إليه وسوف لن تخدعكم أو تضلّكم هذه المظاهر.

\* \* \*

ويتحدث في الآيتين السادسة والسابعة عن حركة الشمس والقمر ومنازلهم ، ويصرّح

(١) «القطمير» ، بتعبير بعض المفسّرين هو القشر الخفيف الذي يغطي نواة التمر ، ويقول البعض إنّه التوء الصغير الموجود خلف نواة التمر ، وعلى آية حالٍ فهو كنایةٌ عن موجودات متصاغةٍ ودنيةٍ.

في نهاية هاتين الآيتين بأن كلاً من هذين الجرمين يسبح في فلكه ومداره وخطه : ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾<sup>(١)</sup> ، وهذه التعبير من عجائب القرآن من ناحية ، ومن عجائب عالم الخلق وعلم وقدرة الباري تعالى من ناحية أخرى .

وتوجد هنا عدّة تفاسير لما تعنيه جملة ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ ومفهوم ﴿الْمُسْتَقِرُ لَهَا﴾ . أولها : إن المقصود هي الحركة الظاهرة للشمس التي تبدأ منذ شروق الشمس وحتى استقرارها عند الغروب ، حيث يظهر للعيان أنها تختفي (ونعلم جيداً إن حركة الأرض حول نفسها هي التي تُحسّدُ لنا مثل هذه الظاهرة في الواقع) .

الثاني : إن المقصود هي حركات الشمس المحوية ، حيث تنحرف نحو الجزء الشمالي للكرة الأرضية مع بداية فصل الربيع ، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الصيف حيث تستقر (في النصف الشمالي للكرة الأرضية) محاذية لمدار السرطان ٢٣ شمالاً وهو ما يصطلاح عليه بالميل الأعظم الشمالي ، ثم تبدأ حركتها نحو الجنوب وتصل إلى محاذاة خط الاستواء أوائل فصل الخريف ، ثم تنحرف نحو جنوب الكرة الأرضية ، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الشتاء حيث تصل إلى محاذاة مدار رأس الجدي ٢٣ جنوباً ويعبرون عن هذا الانحراف بالميل الأعظم الجنوبي ، ثم تبدأ حركتها نحو الشمال وتكون بمحاذاة خط الاستواء في فصل الربيع .

بناءً على ذلك فإن المقصود من جريان الشمس هو هذا الانحراف نحو الشمال والجنوب ، والمقصود من المستقر هو آخر نقطة لانحراف الجنوبي والشمالي أي (مدار رأس السرطان ومدار رأس الجدي) .

والمعروف (طبعاً) أن هذه الحركة ناتجة عن دوران الأرض حول الشمس ومع الأخذ بنظر الاعتبار انحراف محور الأرض بقدر ٢٣ ، ولكن ما يدّو لنا هو أن الشمس لها مثل هذه الحركة .

الثالث : المقصود هو الحركة الموضعية للشمس حول نفسها ، فقد ثبت اليوم أن الشمس

(١) «يسبحون» من مادة «سباحة» وتعني الحركة السريعة في الماء أو الهواء (مفردات الراغب) .

تدور حول مركّزها أيضًا (إذ ذكّرُوا أنّ مدة هذه الحركة في دورةٍ كاملةٍ تعادل ٢٥ يومًاً ونصف اليوم)، وفي هذه الحالة ستكون اللام في **لِمُسْتَقِرٍ لَهَا** (معنی (في)) أي أنّ الشمس تتحرك في مكانها (وطبعاً فقد اشّكَّ بعض المفسّرين على هذا التفسير باعتباره لا يتناسب مع مفهوم الكلمة جريان).

الرابع : المقصود هو حركة الشمس في أبراج السماء على مدى أشهر السنة ، والتي تقابل في كل شهر أحد هذه الصور الفلكية الائنة عشر ومن هنا تظهر السنة باشتيا عشر شهرأً بعده هذه الأبراج <sup>(١)</sup> ، وعليه فإنَّ المقصود من المستقر هو نهاية هذه الدورة.

**الخامس والسادس :** الحركةان اللتان اكتشفهما العلماء مؤخرًا للشمس ، إحداها مع مجموعة المنظومة الشمسية في دورتها حول مجرتنا التي تأخذها باتجاه إحدى الصور الفلكية المعروفة بـ **صورة الحاثي** الواقعة في جهة الشمال بالنسبة للشمس ، إذ تقطع أثناء هذه الحركة أكثر من (٦٠٠ مليون كم سنويًا) وهذا ما يشبه تماماً جلوس مجموعة في طائرة وانشغالهم بالدوران حول مركز واحد بينما تسير الطائرة بسرعة نحو اتجاه ما ، وقد تكون حركة الطائرة هادئة وخفيفة بالقدر الذي لا يحس الإنسان بمحنة الحركة السريعة.

والحركة الأخرى هي دوران المجموعة الشمسية مع بقية المجرات حول المركز الأصلي لهذه المجرات التي نرتبط بها ، ومما يشير العجب فقد ذكروا أن سرعة هذه الحركة المذهلة تقدر بـ ٩٠٠ الف كيلو متر في الساعة (بل أكثر من ذلك قليلاً) <sup>(٢)</sup> .

وطبقاً لهذا التفسير فإنَّ المقصود من المستقر هو المستقر الذي تبلغه الشمس عند نهاية العالم وحلول القيامة ، حينها تصبح الشمس بلا ضياءٍ وينزول نظامها.

الستة

(١) المقصود من «البرج» هنا مجموعة النجوم المتجمعة والتي تكون شكلًا خاصًا، والابراج الاثنا عشر كما يلي : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسرطان ، والمسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدي ، والدلو ، والحوت.

(٢) راجعوا كتاب العوالم البعيدة ، ص ٢٩٣ ؟ وتسخير التحوم ، ص ٣٩٢ .

في مفهوم هذه الآية ، لأنّ حركة كلّ من الأرض والشمس ليست نوعاً واحداً .  
وتعبير «يُسَبِّحُونَ» تعبيرٌ لطيفٌ حيث يعبر عن حركة الشمس والقمر السريعة والرقيقة  
والمتوازنة في نفس الوقت .

وذكر في الآيات أعلاه منازل معينة للقمر حيث قال : ﴿وَالْقَمَرُ قَدَرَنَاهُ مَنَازِلَ﴾ .  
والمقصود تلك المنازل الثمانية والعشرون التي يطويها القمر كل شهر منذ بداية مرحلة  
الهلال وحتى الماحق (الظلام المطلق) ، وفي الليلة الثامنة والعشرين يظهر ثانيةً على هيئة هلالٍ  
أصفر رفيع جداً وقليل الاشعاع والنور ويسمى ليالين حيث يقال له ﴿مَحَاق﴾ إذ تتعذر  
رؤيته .

ويشّبه القرآن الكريم هلال آخر الشهر بـ ﴿الْعَرْجُونَ الْقَدِيم﴾<sup>(١)</sup> ، وهذا التعبير لطيفٌ  
وحذّاب للغاية من عدة وجوه .

ونختّم هذا البحث الذي قد طال بعض الشيء بذكر هاتين المسألتين :  
أولاً : إنّ المقصود من الفلك في الآيات المذكورة هو المعنى اللغوي وليس المعنى الذي  
يقصده علماء الفلك في قسم الزمان ، لأنّ الفلك في اللغة يعني مدار النجوم ، وأحياناً يقال  
لكل موجود يشبه الدائرة ويكون عالياً من أطرافه .  
ويعتقد «الراغب» أئمّاً في الأصل من مادة «فُلْك» (على وزن قُفل) والتي تعني  
«السفن» ، لأنّ السفن لها حركات دائيرية أثناء مسيرها في البحار .  
ولكنّ المنجمين القدماء سلّكوا نجح بطليموس إذ كانوا يعتقدون أنّ السماء تتّألف  
من تسع طبقاتٍ مركبة بعضها فوق بعض كقشرة البصل ، ولأنّ هذه الطبقات تتكون من  
مادةٍ شفافٍ كالبِلُور فقد التصّقت النجوم والكواكب في وسطها وتدور مع دوران الأفلاك  
فيظهر دوران النجوم فقط ، ولا يظهر شيءٌ من دوران الأفلاك ، وقد بَطَّلَ هذا الاعتقاد  
بنحوٍ كاملٍ اليوم ، وأصبح من المسلم به أنّ النجوم معلقةٌ في فضاءٍ غير محدودٍ وتتحرّك تحت  
تأثير

(١) «العرجون» من مادة «انعراج» أي الاعوجاج والانحناء ، ويصفه البعض بذلك القسم من القرن المقوس الذي  
يتبقى على النحل بعد قطف التمر ، و «القديم» تعني العتيق .

قانون الجذب والدفع في مسيرة معينة ، والجدير بالذكر أن القرآن الكريم نزل في زمانٍ كانت تحكم فيه نظرية بطليموس على جميع المخالف العلمية بكل قوّة ، إلّا أنّ تعايير القرآن (كالتعبير بـ «الجريان» و «السباحة» التي وردت في الآيات أعلاه) لا تلتائم مع النظرية القديمة بايّ نحوٍ وتنطبق مع آخر الاكتشافات العلمية في هذا العصر.

\* \* \*

وورد في الآيتين الثامنة والتاسعة (أيّمانٌ) بَعْثٌ على التأمل فيقول في إحداها : ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ ، فيمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى المشارق والمغارب و «المكانية» المختلفة ، لأنّ كروية الأرض تؤدي إلى وجود مشرقٍ ومغربٍ بعدد نقاط سطح الأرض ، أو أن يكون إشارة إلى المشارق والمغارب «الزمانية» ، لأنّا نعلم أنّ حركة الأرض حول الشمس تؤدي إلى استحالة شروق الشمس وغروبها من نقطةٍ واحدةٍ خلال يومين متتاليين.

هذا الاختلافُ في المشارق والمغارب الذي يتمّ من خلال نظامٍ دقيقٍ ومنهجي سبب في حدوث «الفصول الاربعة» بما فيها من بركات من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرى فهو يؤدّي موازنة الحرارة والبرودة والرطوبة على سطح الأرض ، وينبع حياة الإنسان والحيوانات والنباتات نظاماً وترتيباً ، وكلٌ منها آية من آيات الله وبرهان من براهينه.

وفي مكانٍ آخر يقسم بالقمر ﴿كَلَّا وَالْقَمَرُ﴾ واللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ \* وَالصُّبْحِ إِذَا اسْفَرَ﴾ ثم يضيف : أنّ هذه الأيمانُ تُبَيِّنُ عن تحذيرٍ في أمر المعاد فيقول : إِنَّ أَحْدَاثَ الْقِيَامَةِ وَجَهَنَّمَ من عظيمات الامور ﴿إِنَّهَا لِأَحْدَى الْكُبُرِ﴾ (١).

وأقسمَ في بداية سورة الشمس بالشمس أيضاً ، واعتنّها التي تُحيي الأرواح ، والقمر الذي ييزعُ بعد غروب الشمس.

(١) يقول الفخر الرازي : «إِنَّ جَهَنَّمَ لَهَا سَبْعَ مَقَامَاتٍ وَدَرَكَاتٍ وَهِيَ كَمَا يُلَيِّ ، جَهَنَّمُ ، وَلَظَى ، وَالْحَطْمَةُ ، وَالسَّعِيرُ ، وَسَقَرُ ، وَالْجَحِيمُ ، وَالْمَاوِيَةُ» (تفسير الكبير ، ج ٣٠ ص ٢٠٩).

وهذا ما نفهمه أيضاً بأنَّ القَسْمَ بشيءٍ ما يدلُّ على أهميَّته الخاصة ، وإذا صدر هذا القَسْمُ عن شخصٍ عظيمٍ ستتضاعفُ أهميَّته ، وإذا اقُسِّمَ به منْ أَجْلِ مَوْضِعِهِ ستردُّهُ أهميَّةُ هذا المَوْضِعِ أيضاً.

والآن تأمِّلوا جيداً عندما يُقسِّمُ الباري جلَّ وعلا بالشمس والقمر من أَجْلِ مَسَأَلَةِ المَعَادِ المَهِمَّةِ ، فهذا دليلٌ على العظيمةِ الفائقةِ لَهُذِينِ الْكَوْكَبِيْنِ ، ويُشَهِّدُ على هذهِ الْحَقِيقَةِ كونَ أَنَّ كَلَّاً مِنْ هَذِينِ الْكَوْكَبِيْنِ ذُوَّاً أَهْمَيَّةً فِي نَظَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.

فَلِمَادِيْأُ يُقسِّمُ الباري تعالي بِكَوَاكِبِ السَّمَاءِ وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ أَجْلِ اثْبَاتِ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ؟ وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّظَامَ الْحَاكِمَ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يَرْهُنُ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ ذَرَاتِ الْعَالَمِ حَسَاباً خَاصاً ، بَنَاءً عَلَى ذَلِكَ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُ إِنْسَانٍ الَّذِي هُوَ زَهْرَةُ عَالَمٍ الْوَحْيُ بِلَا حِسَابٍ وَلَا كِتَابٍ ، وَلَا وُجُودٍ لِلْمَعَادِ وَالْمَحْكَمَةِ الْعَادِلَةِ؟.

\* \* \*

وَجَاءَتِ الْآيَةُ الْعَاشِرَةُ الْآخِيَّةُ فِي بَحْثِنَا هَذِهِ عَنْ نِعْمَةِ وَجُودِ النَّجُومِ وَالنِّظَامِ الدَّفِيقِ الَّذِي يَحْكُمُهَا فَيَقُولُ : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْجُجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ثُمَّ يَضِيفُ : ﴿قُدْ فَصَّلَنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

لقد كانت النجوم دائماً وعلى مدى مراحل التاريخ من أهم وسائل ارشاد الإنسان في الليالي المظلمة ، حيث كان يهتدي بمساعدتها في أسفاره البحريّة والبرّية ، حتى أنَّ بعض العلماء يظنون أنَّ الطيور المهاجرة ، أي الطيور التي تقطع آلاف الكيلو مترات في السنة أحياناً ، وبعضُها يستمرُّ في طيرانه ليلاً ونهاراً بلا توقفٍ ، تحدد طرقها نهاراً عن طريق الشمس ، وليلاً عن طريق نجوم السماء ، ولهذا فانّها تتوقف عن مواصلة الطيران مؤقتاً إذا كان الجو غائماً تماماً حتى تنكشَفَ الغيم وتنظَّر السماء والنجوم!

والعجب إنَّ إِمْكَانِيَّةَ تَحْدِيدِ فَصُولِ السَّنَةِ أَيْضًاً مِنْ خَلَالِ الْإِسْتِفَادَةِ مِنَ النَّجُومِ. على أَيَّةِ حَالٍ ، فَانَّ هَذِهِ الْآيَةَ تُلْفِتُ نَظَرَ كُلِّ الْمُفَكِّرِيْنَ إِلَى هَذِهِ الْمَسَأَلَةِ وَهِيَ أَنَّ

حَرْكَة

النجوم في السماء واستقرارها في هذا الميدان العظيم تتمتع بنظامٍ وحسابٍ خاصٍ ، وإلا لما استطاعَ أيُّ أحدٍ العثور على طريقه في ظلمة الليل من دونها .

وهذا النظام يدل على أنَّ الخالق المدبر قد خطَّ له بكل حكمةٍ ، ولهذا فإنَّ النظام السائد على نجوم السماء هو الذي يُحرِّكنا من ظلماتِ الشرك والكفر أيضًا !

ومع تطور علم الفلك ، فقد نجح العلماء في تقدير سرعة الكثير من كواكب السماء ، وحجمها ومسافاتها وبقية خصائصها ، وتوصلوا عن هذا الطريق إلى حقائق جديدة عن هذا النظام العظيم .

صحيحٌ قد تم اختراعُ آلاتٍ ووسائلٍ دقيقةٍ يستطيعُ الإنسان بمساعدتها أن يعثر على طريقه في البر والبحر ، ولكن لا ينبغي نسيانُ عدم إمكانية استخدام جميع المسافرين لهذه الوسائل العلمية المتنوعة ، إضافة إلى حدوث الخلل في هذه المعدات والآلات الدقيقة أحياناً مما يسبب الانحراف عن الطريق ، فإذا كان الإنسان مطلعًا على موقع ومواضع النجوم يستطيعُ من خلال ذلك إصلاحِ اخطاء هذه المعدات .

ورد في بعض الروايات تفسيرٌ آخرٌ لهذه الآية عن أهل البيت (عليهم السلام) يمكنُ أن يُعدُّ جزءًا من المعاني الباطنية والثانوية لهذه الآية ، وذلك أنَّ المقصود من «النجوم» هم القادةُ الربانيون والأئمَّة المعصومون الذين ينجو الناسُ بهم من ظلمات الحياة كما ورد في تفسير علي بن إبراهيم في بيان معنى الآية : ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ حيث قال : «النجوم هم آل محمد» <sup>(١)</sup> ، وطبعاً . من المستطاع الجمُع بين هذين المعنين ، أي النجوم المادية والنجوم المعنوية والمدبرة الظاهرة والباطنية .

\* \* \*

### توضيحات

#### ١ . هوية الشمس

لقد اتَّضح لنا اليوم تقرِّباً أنَّ الشمسَ عبارة عن كُرةٍ ، وأَكْبَرُ من الأرضِ بمليون

(١) تفسير نور الثقلين ، ج ١ ، ص ٧٥٠ ح ٢٠٣ .

وثلاثمائة الف مرة ، أي لو كانت الشمس مقعرة الوسط لكان من الممكن أن تستوعب مليوناً وثلاثمائة الف كثرة أرضية! وتتضح هذه العظمة المذهلة من خلال التأمل في قطر الشمس عند الوسط الذي يقرب من (مليون وأربعين ألف كيلو متر).

وتبلغ الفاصلة بيننا وبينها ١٥٠ مليون كيلومترًا تقريبًا ، وأن نورها الذي يقطع طريقه بسرعةٍ ٣٠٠ الف كيلومتر في الثانية يصل إلينا خلال ٨ دقائق تقريبًا.

إن جرم الشمس العظيم يؤدي إلى زيادة وزن الأشياء فيها ، فمثلاً إن الإنسان الذي يبلغ وزنه ٦٠ كيلوغراماً على سطح الأرض سيكون وزنه ١٥٠٠ كغم فيما إذا كان على سطح الشمس! .

لقد قدر العلماء وزن الشمس بما يعادل :

٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ ، ٠٠٠ طن.

وأخيراً فهم يقدرون عمر الشمس منذ تكونها بشكلها الحالي بما يقارب ٥ مليارات سنة.

إن للشمس ثلاثة أنواع من الحركة تقريباً ، حركةٌ حول نفسها (كل ٢٥ يوماً مرة واحدة تقريباً ، وحركةٌ مع المنظومة الشمسية في قلب المجرات نحو الصورة الفلكية «الجاثي») حيث تبتعد عن مكانها أكثر من ٦٠٠ كم كل ساعة ، وحركةٌ حول مركز المجرات ، وتدور حول هذا المركز خلال هذه الحركة مرتين واحدة كل ٢٥٠ مليون سنة.

أما حرارة سطح مركز الشمس فهي عجيبةٌ للغاية ، وتبين حسابات العلماء أن حرارة سطح الشمس تعادل ٦٠٠٠ سانتigrad تقريباً ، ولا تحصل هذه الحرارة على الأرض في أيٍ مختبرٍ أو فرنٍ أبداً ، ودليل ذلك واضحٌ جداً لأنَّ جميع المواد بطيئة الذوبان التي نعرفها والتي يمكن بناء فرنٍ منها لا تذوب في مثل هذه الحرارة فقط ، بل تصبح بخاراً ، ولهذا فإنَّ جميع المواد الموجودة على سطح الشمس ذاتها على هيئة بخار.

والأعجب من ذلك حرارة عمقها التي تبلغ ٢ مليون درجة سانتigrad! وتندلع من سطح الشمس ألسنة نيران يبلغ ارتفاعها أحياناً ١٦٠ الف كم ، ومن السهولة أن تضيع الكره

الأرضية فيها (لأن قطر الأرض ليس أكثر من ١٢ ألف كيلو متر).

إن هذه الحرارة لا تحصل بسبب الاحتراق ، وإلا لو كان جرم الشمس قد صُنِعَ من الفحم الحجري الخالص لانتهت تماماً على مدى عدةآلاف من السنين كما يقول «جورج غاموف» في كتاب «تَكُونُ وموت الشمس» ، ولا يبقى شيء سوى الرماد. فالحقيقة أن مفهوم الاحتراق لا يصدق بخصوص الشمس وما يصدق هو الطاقة الناتجة عن الانشطار النووي ، ولكن بهذا الحال وطبقاً للحسابات العلمية فإن كل ثانية تمر على الشمس ينقصُ من وزنها ٤ ملايين طن ، أي إن هذا المقدار من ذراها يتحول إلى طاقة ، وبالرغم من أن هذا الأمر ليس له تأثير على المدى القريب ، إلا أنه من المسلم به سيساعد في فناء الشمس على المدى البعيد ، وهذا ما صرّح به القرآن الكريم في آياته ، حيث سيأتي اليوم الذي ينطفئُ هذا المصباح السماوي العظيم المثير<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

## ٢ . البركات العظيمة للشمس

مهما تحدثنا حول فوائد وجود هذا النجم السماوي وتأثيره البالغ في حياة الإنسان وبقية موجودات الأرض ، فإننا لا نستطيع أن نفينا بالغرض ، وفي الحقيقة يمكن تأليف كتابٍ كبيرٍ في هذا المجال بالترتيب التالي :

- ١ . إن جاذبية الشمس تؤدي إلى دوام استمرار الأرض في دورانها في مدارها الثابت وإلا لسقطت في إحدى زوايا هذا الفضاء اللا متناهي ككرة مضطربة.
- ٢ . إن الحرارة التي تصلنا من الشمس بصورة مباشرة نهاراً والتي تخزن في الأجسام وتنعكس علينا ليلاً ، لها تأثير في نمو النباتات وديمومة الحركة والحياة لدى الحيوانات.
- ٣ . إن الشمس تَضُعُ في خدمة الإنسان نوراً سليماً ومجانياً وغير حارٍ أو مُحرق ولا

(١) اقتباس من كتب ١ . تركيبات الشمس ، ٢ . نجوم بلا منظار ، ٣ . تَكُونُ وموت الشمس ، ٤ . تاريخ العلوم ، ٥ . من العوالم بعيدة ، ٦ . الإسلام والمسيحية.

بارِد وحالٍ من الأثر ، بشكل دائم ، وإذا قارنا قيمة الطاقة التي نحصل عليها من الشمس مع قيمة مصادر الطاقة الأخرى فلابد أن تدفع البشرية اموالاً عوضاً عن النور والحرارة التي تستلمها من الشمس مقارنةً مع ثمن «الكهرباء» بمقدار (ملياراً و ٧٠٠ ألف دولار كل ساعة) .

عندئذ يجب أن نفكّر كم ستكون هذه الميزانية على مدى سنة كاملة؟  
وبتعبير آخر ، لو أراد أهل الأرض تأمين الحرارة التي تمنحها إياهم الشمس ، عن طريق شراء الفحم الحجري فيجب عليهم توفير ٦١ الف مليار طن منه سنوياً ، أو بعبارة أخرى توفير ٢٠ ألف طن لكل شخص ، أي تأمين ميزانية باهضة.

٣ . نحن نعلم أن ضوء الشمس يتكون من ٧ ألوان مُزجت مع بعضها وظهرت على هيئة هذا النور الأبيض والشعاع الحالي ، وهذا النور يُعتبر عاملاً مساعداً للنباتات حيث يمتص غاز ثاني أوكسيد الكاربون من الجو ويطرد في المقابل غاز الأوكسجين الذي هو عِماد حياتنا ، فهو يساعد النباتات في نموها بسحب ثاني أوكسيد الكاربون.

ونحن نعير الأشياء حسب العادة عن طريق ألوانها ، وهذه الألوان تحصل في شعاع الشمس ، لأن كل موجود يقوم وحسب تكوينه بامتصاص جانب من ألوان الشمس فنطلق على اللون الذي لم يُسحب لون الشيء ، أي أن الورق الأخضر للنباتات يمتص جميع ألوان الشمس عدا اللون الأخضر ، إذن فنور الشمس هو الذي يُظهر جميع الألوان.

٤ . إنَّ الأشعة فوق البنفسجية والتي هي من اشعاعات الشمس تُفيد في القضاء على ٩٠ خ من الجراثيم ، وتقوم بدور منع التعفن بنجوىٍّ تام ، ولو لاها لتبدل الأرض إلى مستشفى كبير ، ولعلَّ أشعة الشمس اعتبرت لهذا السبب من المطهّرات في الإسلام «مع شروط خاصةٍ طبعاً».

٥ . لقد استطاع العلماء من خلال استخدامهم للعدسات المدببة الفخمة من توليد حرارة هائلةٍ بامكانها تشغيل المصنع المهمة ، ولعلَّ الكثير من المؤسسات الصناعية الحساسة سيتم تشغيلها في المستقبل القريب بالاستفادة من نور الشمس ، وتحلُّ الطاقة

الشمسية عندئذ محلَّ الكهرباء في البيوت.

٦ . إنَّ تكُونَ الغيوم نتِيجةً لسقوط أشعة الشمس على سطح المحيطات وهبوب الرياح نتِيجةً لاختلاف درجات الحرارة على الأرض بسبب أشعة الشمس ، ثم حركة الغيوم نحو اليابسة وهطول الأمطار التي تبعث الحياة ، هي أحدى الفوائد المهمة للغاية لنور وحرارة الشمس.

٧ . إنَّ حركة الشمس المنظمة في أبراج السماء (الصور الفلكية) وشروقها وغروبها المنهجي الذي يجري بنظامٍ وتعاقب دقيقٍ ومحسوبٍ على مدى أيام السنة ، إضافة إلى مساعدتها في تكوين الفصول المتعددة ، فهي تساعد في إيجاد تقويمٍ وحسابٍ منظمٍ للزمان الضروري جدًا للحياة الاجتماعية للبشر <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### ٣ . القمر وبركاته

إنَّ القمر كوكبٌ صغيرٌ نسبياً فهو أصغر من الأرض بـ (٤٩ مرَّة) وفقاً لحسابات العلماء ، لهذا فإنَّ قوَّة جاذبيته تعادل ٦١ قوَّة جاذبية الأرض ، ومتوسط بُعده عن الأرض أكثر من ٣٨٤ ألف كيلومتر ، لذلك فإنَّ نور القمر يصل إلينا حلال أكثر من ثانيةٍ واحدةٍ بقليل.

وتَبلغ سرعةُ حركته في دورته حول الأرض كيلو متراً واحداً في الثانية ، ويدور حول الأرض مرَّة واحدة على مدى شهرٍ قمريٍ واحد أي «أكثَر من ٢٩ يوماً بقليل» ، ويدور حول نفسه أيضاً مرَّة واحدةً خلال نفس هذه الفترة ، وبما أنَّ هاتين الحركتين متناسقتان فإنَّ جانب القمر الذي يقابل الأرض يكون ثابتاً على الدوام ، ولا عجب إذا قُلنا إنَّ نور القمر حين اكتماله ليلة البدر أقلُّ من ضوء الشمس بـ (٤٦٠) ألف مرَّة ، إلَّا أنَّ هذا النور الضئيل

(١) فكما قلنا إنَّ السبب الرئيسي لحصول هذه الامور هو في الواقع دوران الأرض حول الشمس ، ولكن بما أنَّ حركة الشمس هي التي تُرى كسبٍ لهذا حسب الظاهر ، فإنَّ القرآن الكريم يعتبر كلاً من الشمس والقمر (حسبان) أي (وسيلةً للنظام والحساب) . الأنعام ، ٩٦ .

يضيء الليالي المقرمة ، ويظهر كمصابحٍ جميلٍ كثيف الشعاع ومرجح للفؤاد ومتمنظرٍ شاعريٌ محبٌّ .

ولم تكن الإشارة إلى القمر في الآيات السابقة فقط ، فقد تمت الإشارة إلى القمر وبركاته وفوائده في آياتٍ كثيرةٍ من القرآن الكريم ، وورداً للقسم به في آياتٍ أخرى أيضاً ، وجاء الحديث عن «القمر» في ما جموعه ٢٧ آية من القرآن الكريم ، واشير إلى تسخير القمر في سبع آياتٍ من هذه الآيات التي تبيّن أهمية فوائده في حياة البشر<sup>(١)</sup> .

إنَّ فوائد وبركات القمر كثيرةٌ للغاية ، حيث نشير هنا إلى عددٍ منها :

١ . إنَّ دوران القمر حول الأرض يُشكّلُ تقويمًا طبيعياًً طيفاً ، وقد مرَّ شرحةٌ في الأبحاث السابقة .

٢ . إنَّ الضياء المناسب الذي ينحنه القمر بالرغم من أنَّه لا يزيل ظلمة الليل كلياً (ولا ينبغي أن يزيلها لأنَّ نفس الظلمة لها فلسفة مهمة) ، ولكنُ يمكن أن يساعد الإنسان إلى حدٍ ما في الكثير من الليالي على اكتشاف طريقه في المدن والصحاري والبحار ، لا سيما أنَّ نور القمر مناسبٌ وملائم بحيث لا يزعج الإنسان وال موجودات الأخرى أثناء النوم والراحة ليلاً ، بل يشعر الإنسان باطمئنان خاصٍ من خلال نور القمر .

٣ . إنَّ مسألة المد والجزر في البحار إحدى الآثار البارزة لوجود القمر ، فالذين ذهبوا إلى البحار كان بإمكانهم ملاحظة هذا الأمر في الليل والنهار حيث يرتفع وينخفض منسوب المياه مررتين كل يوم ، ويعُبَّرُ عن ذلك بالمد والجزر ، ويستمر كلٌّ منهما لمدة ٦ ساعات تقريباً .

فأثناء المد يرتفع منسوبُ المياه ويعطي معظم سواحل البحر ، وخلال الجزر تنكشف سواحل البحار .

ولهذا المد والجزر فوائد مهمة في حياة البشر منها : تراجع مياه الأنهار التي تصب المياه العذبة في البحار مما يؤدي إلى رى الأرضي الواسعة عن طريق ذلك كما يشاهد في بساتين

(١) الاعراف ، ٥٤ ؛ الرعد ، ٢ ؛ ابراهيم ، ٣٣ ؛ النحل ، ١٢ ؛ لقمان ، ٢٩ ؛ فاطر ، ١٣ ؛ الزمر ، ٥ .

النخيل الساحلية الواسعة في خوزستان.

ومن الفوائد الأخرى للمد والجزر هي حركة المكائن في المصانع ونشاط المولدات الكهربائية ، وكذلك الإبحار ، حيث إن السفن الكبيرة تستطيع خلال المد أن ترسو في معظم السواحل حيث يتم تحميل وتفرغ حمولتها ، وتنظيف الموانيء ، وصيد الأسماك ، وتحريك مياه البحر وموازنة حرارته ومركباته أيضاً وامور أخرى <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

#### ٤ . الشمس والقمر في كلام الأئمة المعصومين عليهم السلام

عندما تقع عين الإمام السجّاد عليه السلام على القمر فهو يخاطبه ، وهذه الكلمات درسٌ في التوحيد ومعرفة الله حيث يقول :

«أيها الخلق المطيع! الدائب السريع المتردد في منازل التقدير المتصرف في فلك التدبير ، آمنت بمن نور بك الظلم ، وأوضح بك البهم ، وجعلك آية من آيات ملكه ، وعلامة من علامات سلطانه ... سبحانه ما أعجب ما دبر في أمرك ، وألطف ما صنع في شأنك جعلك مفتاح شهر حادث لامرٍ حادث ...» <sup>(٢)</sup>.

وفي توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام :

«فَكَرْ يَا مُفْضِلٍ فِي طُلُوعِ الشَّمْسِ وَغُرُوبِهَا لِاقْتَامَةِ دُولَتِ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ ، فَلَوْلَا طُلُوعُهَا لَبَطَلَ أَمْرُ الْعَالَمِ كُلَّهُ فَلَمْ يَكُنْ النَّاسُ يَسْعُونَ فِي مَعَايِشِهِمْ ، وَيَتَصَرَّفُونَ فِي أَمْوَالِهِمْ ، وَالدُّنْيَا مُظْلَمَةٌ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَكُونُوا يَتَهَنَّأُونَ بِالْعِيشِ مَعَ فَقْدِهِمْ لِذَرَةِ النُّورِ وَرُوحِهِ ، وَالْإِرْبُ فِي طُلُوعِهَا ظَاهِرٌ مُسْتَغْنٌ بِظُهُورِهِ عَنِ الإِطْنَابِ فِي ذَكْرِهِ ، وَالْزِيَادَةُ فِي شَرْحِهِ ، بَلْ تَأْمَلُ الْمُنْفَعَةَ فِي غُرُوبِهَا ، فَلَوْلَا غُرُوبِهَا لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ هَدْوَهُ وَلَا قَرَارٌ مَعَ عَظِيمِ حَاجَتِهِمْ إِلَى الْمَدْوَهِ وَالرَّاحَةِ ...

(١) اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة ، ودائرة المعارف للمصاحف وكتب أخرى.

(٢) بخار الأنوار ، ج ٥٨ ، ص ١٧٨ ، ح ٣٦.

ثم فكر بعد هذا في ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعية من السنة  
وما في ذلك من التدبير والمصلحة ...

فَكَرَّ الْآنَ فِي تَنْقِلِ الشَّمْسِ فِي الْبَرْوَجِ الْأَثْنَيْ عَشْرَ لِإِقَامَةِ دُورِ السَّنَةِ ... وَفِي هَذَا  
الْمَقْدَارِ مِنْ دُورَانِ الشَّمْسِ تَدْرِكُ الْغَلَاتُ وَالشَّمَارُ ، وَتَنْتَهِي إِلَى غَيَّا تَحْمَلُ ، ثُمَّ تَعُودُ فَيُسْتَأْنِفُ  
النَّشُوءَ وَالنَّمْوَ ...

انظر إلى شروقها على العالم كيف دَبَرَ أَنْ يَكُونُ ، فَإِنَّمَا لَوْ كَانَتْ تَبْنَىُ فِي مَوْضِعٍ مِنْ  
السَّمَاءِ فَتَقْفَى لَا تَعْدُو مَا وَصَلَ شَعَاعُهَا وَمَنْفَعَتُهَا إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْجَهَاتِ .

أَفَلَا يَرِي النَّاسُ كَيْفَ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالَ الْجَلِيلَةَ؟ الَّتِي لَمْ تَكُنْ عِنْدَهُمْ فِيهَا حِيلَةٌ صَارَتْ  
تَجْرِي عَلَى مَجَارِيهَا ، لَا تَعْتَلُ وَلَا تَتَخَلَّفُ عَنْ مَوَاقِيْتِهَا لِصَلَاحِ الْعَالَمِ وَمَا فِيهِ بِقَوْدٍ؟  
اسْتَدَلَّ بِالْقَمَرِ ، فَفِيهِ دَلَالَةٌ جَلِيلَةٌ تَسْتَعْمِلُهَا الْعَامَةُ فِي مَعْرِفَةِ الشَّهُورِ ، وَلَا يَقُولُ عَلَيْهِ  
حَسَابَ السَّنَةِ ... فَكَرَّ فِي اِنْارَتِهِ فِي ظَلْمَةِ الْلَّيْلِ وَالْإِرْبِ فِي ذَلِكَ ، فَإِنَّمَا مَعَ الْحَاجَةِ إِلَى  
الظَّلْمَةِ لِهَدْوَهُ الْحَيْوَانِ وَبَرْدِ الْمَوَاءِ عَلَى النَّبَاتِ لَمْ يَكُنْ صَلَاحٌ فِي أَنْ يَكُونَ الْلَّيْلُ ظَلْمَةً دَاجِيَةً  
لَا ضِيَاءً فِيهَا فَلَا يَمْكُنُ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَمَلِ ، لَأَنَّهُ رَهْبَانِيَّاً احْتَاجَ النَّاسُ إِلَى الْعَمَلِ بِالْلَّيْلِ لِضَيقِ  
الْوَقْتِ عَلَيْهِمْ فِي تَقْصِيِّ الْأَعْمَالِ بِالنَّهَارِ ، أَوْ لِشَدَّةِ الْحَرَّ وَفَرَاطِهِ ... وَجَعْلِ طَلَوعِهِ فِي بَعْضِ  
اللَّيْلِ دُونَ بَعْضٍ ، وَنَقْصٌ مَعَ ذَلِكَ مِنْ نُورِ الشَّمْسِ وَضَيَائِهَا لِكَيْلَا يَنْبَسِطُ النَّاسُ فِي الْعَمَلِ  
أَنْبَاسِطُهُمْ بِالنَّهَارِ ، وَيَمْتَنِعُو مِنْ الْهَدْوَهُ وَالْقَرَارِ ... <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

---

(١) بِحَارُ الْأَنْوَارِ ، ج ٥٥ ، ص ١٧٥ ، ح ٣٦ «مَعَ الْاحْتِصَارِ».



## ٩ . آياته في خلق الليل والنهار

تمهيد :

بالرغم من أنّ الليل والنهار من الظواهر التي تحصل نتيجة لضوء الشمس وحركة الأرض ، ويعتبران من بركتهما ، لكن نظراً لاهتمام القرآن بهما في آيات التوحيد بشكلٍ خاص ، واستناده إلى هاتين الظاهرتين في الكثير من الآيات ، لذلك من الواجب الاهتمام بهما بشكل مستقل ، كي نرى فيما آيات تلك الذات غير المعلومة ، ونتعرف أكثر على خالق وإله عالم الوجود ، ونندرج حباً له ، ونترى بالنظر إلى حضرته المقدّسة .

بعد هذا التمهيد نقرأ خاسعين الآيات الائتي عشرة الآية :

- ١ . ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَر﴾ . (الأنبياء / ٣٣)
- ٢ . ﴿يَنْقُلُّ اللَّهُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْبَرَةً لَأُولَى الْأَبْصَار﴾ . (النور / ٤٤)
- ٣ . ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُون﴾ . (يونس / ٦٧)
- ٤ . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَر﴾ . (فصلت / ٣٧)
- ٥ . ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبَتَّعُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَتَعَلَّمُوا عَدَدَ السَّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ . (الاسراء / ١٢)
- ٦ . ﴿وَجَعَلْنَا الَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ . (النَّبَأ / ١١ و ١٠)
- ٧ . ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ . (الفرقان / ٦٢)

٨ . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ . (النحل / ١٢)

٩ . ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُّنُونَ﴾ . (يونس / ٦)

١٠ . ﴿فَلْ إِرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ \* ﴿فَلْ إِرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ \* وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ الْلَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . (القصص / ٧٣ . ٧١)

١١ . ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى \* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّ﴾ . (اللليل / ٢ . ١)

١٢ . ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي الْلَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ . (الحج / ٦١)

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### النظام العجيب للليل والنهر :

لقد تكررت كلمة «الليل» في القرآن الكريم أكثر من «٧٠» مرتة ، وكلمة «النهار» أكثر من «٥٠» مرتة ، والآيات السابقة تُعتبر نماذج مختلفة لهذه الآيات ، حيث تمت الإشارة فيها إلى بعد التوحيدى لخلق الليل والنهر على وجه الخصوص.

ففي الآية الأولى ذكر أصل خلق الليل والنهر ، والشمس والقمر ، اللذين يرتبطان ببعضهما بصلة قريبة كبرهان لسالكى خط التوحيد ومعرفة الله ، حيث يقول : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ .

وجاء هذا المعنى بنحو آخر في الآية الرابعة ، إذ يقول : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْلَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ﴾ .

في الوقت الذي يقول في الآية الثانية : **﴿يُقْلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعْبَرَةً لِأُولَى الْأَبْصَارِ﴾**.

وقد يكون هذا التغيير في التعبير إشارة إلى حصول الليل والنهار ، أو زيادة ونقصان مقداريهما ، أو اختلافهما من حيث البرودة والحرارة الذي يحدث خاللهمـا <sup>(١)</sup> ، ولكن لا مانع من شمول هذا التغيير كل هذه المعاني أبداً.

\* \* \*

وأشار في الآية الثالثة إلى أحدى فوائد «اللـيل» و «النـهـار» المهمـة ، حيث يقول :

**﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾**.

والواضح أنـ الاطمئنان في ظلمـة اللـيل أحـد أـهم النـعـم الإلهـيـة ، كما أنـ نـور النـهـار الـضروري لـ مختلف النـشـاطـات يـعـتـبر نـعـمـة مـهمـة أـخـرى .

والملاحظ في هذه الآية أنـ النـهـار اـعـتـبر «مـبـصـرـاً» ، والمـبـصـرـ في الأـصـل تعـني البـصـير ، ونـحـنـ نـعـلـمـ أنـ النـهـار لـيـس بـصـيرـاً في نـفـسـهـ ، وـلـكـ بـمـا أـنـهـ يـؤـدـي إـلـيـ أنـ يـبـصـرـ الآـخـرـونـ ، فـلـعـلـ

هـذـا التـعبـير اـطـلـقـ عـلـيـهـ لـلـتـأـكـيدـ وـالـمـبـالـغـةـ .

وـ فيـ الـحـقـيقـةـ لـوـلـا بـرـيقـ النـورـ فـلـا فـائـدـةـ لـأـلـفـ عـيـنـ مـبـصـرـ ، لـهـذـا فـهـوـ يـضـيـفـ فيـ خـتـامـ

الـآـيـةـ : **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾** ، أـيـ اـولـكـ الـذـيـنـ يـسـتـمـعـونـ هـذـهـ الـآـيـاتـ

وـ يـتـفـكـرـونـ فـيـهـاـ .

\* \* \*

فيـ حـينـ أـنـهـ يـعـتـبرـ كـلـاًـ مـنـ الـلـيـلـ وـالـنـهـارـ فيـ الـآـيـةـ الـخـامـسـةـ آـيـةـ مـنـ آـيـاتـ اللهـ تـعـالـىـ

وـيـقـولـ : **﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارَ مُبْصِرَةً﴾** ، ثـمـ يـشـيرـ إـلـيـ فـائـدـيـ ذـلـكـ حـيـثـ

يـقـولـ :

(١) وـرـدـتـ هـذـهـ الـاحـتمـالـاتـ الـثـلـاثـةـ فيـ تـفـسـيرـ رـوـحـ الـمعـانـيـ ، جـ ١٨ـ ، صـ ١٧٣ـ ، وـتـفـسـيرـ الـكـبـيرـ جـ ٢٤ـ صـ ١٥ـ ، وـلـكـ ذـكـرـ التـفـسـيرـ الـأـوـلـ وـالـثـانـيـ فـقـطـ فيـ تـفـسـيرـ مـجـمـعـ الـبـيـانـ جـ ٧ـ صـ ١٤٨ـ .

﴿إِنَّبَتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾.

فهل أنّ فوائد النهار تقتصر على ابتغاء فضل الله ومعرفة حساب السنة والشهر من آثار الليل والنهار معاً؟ أم أنّ كلا المنفعتين لهما علاقة وثيقة بالليل والنهار معاً؟ لأنّ الراحة في الليل لها أثُرٌ واضحٌ في إمكانية العمل والابتعاد من فضل الله نهاراً، والظاهر أنّ المعنى الثاني أكثر تناسباً من حيث تناصه مع الآية ، بالرغم من أنّ العديد من المفسرين ذكر المعنى الأول.

\* \* \*

وفي الآية السادسة إشارة إلى هذا المعنى وبنحو آخر حيث يقول : ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًاً . وَالنَّهَارَ مَعَاشًاً﴾.

وقد يكون «المعاش» اسم زمانٍ أو مكانٍ أو مصدرًا ميمياً ، وهو يلائم المعنى المصدرى <sup>(١)</sup>.

ووصف الليل بـ «اللباس» يعتبر من التعبيرات اللطيفة جدّاً ، حيث إنّ الليل كاللباس بالنسبة لنصف الكرة الأرضية ، وهو كذلك بالنسبة للإنسان ، فكما أنّ اللباس يحفظ جسم الإنسان من بعض الأضرار وينحه جمالاً ورونقًا ، فإنّ ظلمة الليل والنوم العميق أثناء الليل يمنح روح الإنسان وجسمه طرافةً ونشاطاً ويصونه من مختلف الأمراض.

\* \* \*

والحديث في الآية السابعة عن استخلاف الليل والنهار لبعضهما البعض ، فيقول :

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾.

(١) قال بعض المفسرين : إنّ التعبير بـ «المعاش» أي «الحياة» بخصوص النهار هو لأجل أنّ النوم في الليل يشبه الموت كما يقول العرب في أمثالهم «النوم أَخْ الموت» ، وعليه فإنّ النقطة المقابلة له أي النهار هو أساس الصحة والحياة ، (الحياة بكل أبعادها).

و «خِلْفَة» : على وزن «فِتْنَة» ، وكما يقول الراغب في «المفردات» فائماً تُطلق على شيئاً يخالف أحدهما الآخر باستمرار ، لكن «خِلْفَة» تعني «مُخْتَلِف» وفقاً لرأي الفيروز آبادي في «قاموس اللغة» ، ففي الحالة الأولى ينصب الاهتمام على تناوب الليل والنهار ، فلو لم يكن هذا التناوب دقيقاً ومحسوباً ، فإما أن تختنق موجودات الأرض من شدة حرارة ضوء الشمس أو تنجمد من شدة البرودة ، وفي الحالة الثانية إشارة إلى اختلاف الليل والنهار وحصول فصول السنة الأربع التي لها آثار خاصة في حياة الإنسان.

واختار بعض المفسرين المعنى الأول ، بينما ذهب البعض الآخر إلى المعنى الثاني ، ولكن ليس هنالك من مانع في الجمع بين هذين المعنين . وورد في الروايات أنَّ الإنسان يستطيع أن يقضي في النَّهار ما فاته من عبادات الليل وبالعكس ، واعتبر أنَّ الآية تشير إلى هذا المعنى <sup>(١)</sup> .

ولا يتعارض هذا التفسير مع التفاسير السابقة أيضاً ، وعلى أية حال ، فإنَّ الآية تشير إلى نظامٍ خاصٍ ومتناوبٍ لظاهرة الليل والنهار حيث تدلل على العلم والقدرة اللامتناهية للخالق جلَّ وعلا ، بشكلٍ لو كانت دورة الأرض حول نفسها أسرع بقليلٍ أو أكثر بطيءً مما عليه الآن لطال اللَّيل والنهار وتعرضت حياة الناس بل كافية الموجودات على الأرض إلى الخطر .

\* \* \*

والحديث في الآية الثامنة عن تسخير الليل والنهار وخدمتهما للإنسان إذ يقول

**﴿وَسَحَرَ لَكُمُ الْلَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾**.

وبما أنَّ شرح معنى التسخير قد مرَّ سابقاً في موارد مشابهة فلا نرى حاجةً للإعادة .

\* \* \*

(١) ورد هذا التفسير في حديث عن النبي ﷺ «طبقاً» لما ثُقل في تفسير الفخر الرازي ، وفي حديث عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَام «طبقاً» لما ثُقل في تفسير نور الثقلين ، ج ٣ ، الآية المورد البحث .

وأشار في الآية التاسعة ، أولاً إلى مسألة اختلاف الليل والنهار ، ثم إلى كافة مخلوقات الأرض والسماء التي خلقها الله تعالى كبرها على عظمته وعلمه وقدره فيقول : **﴿إِنَّ فِي اختِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَوَّنُونَ﴾**.  
وهذا التعبير دليل على مدى أهمية خلقهما.

\* \* \*

وفي القسم العاشر أشار في ثلاثة آيات بتعابير جميلة إلى الفوائد المهمة للليل والنهار فقال تعالى : **﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيُكُمْ بِضَيَّاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾** قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيُكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبَصِّرُونَ وَمَنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

والحدير بالذكر انه يقول في نهاية احدى الآيات : **﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾** ، وفي نهاية آية اخرى : **﴿أَفَلَا تُبَصِّرُونَ﴾**.

ولعل هذه التعبير إشارة إلى أن هناك دلائل حسية في هذا النظام الدقيق للليل والنهار يجب أن تُنظر بالعين ، وكذلك هناك دلائل نقلية يجب أن تُسمع ، وهذا حدير بالتأمل أيضاً ، يقول في مورد خلود الليل : **﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾** ، وفي مورد خلود النهار : **﴿أَفَلَا تُبَصِّرُونَ﴾** ، لأن الأذن تستخدم غالباً في الليل والعين في النهار.

\* \* \*

إن أهمية موضوع الليل والنهار بلغت إلى الحد الذي يُقسم الله تعالى في القرآن بهما في آيات عديدة من بينها ما يقوله في القسم الحادي عشر من هذه الآيات : **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى \* وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّ﴾**.

وورد هذا المعنى في مكان ثانٍ وبتعبير آخر فيقول : **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا أَدَبَرَ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾**. (المدثر / ٣٣)

ويقول في مكان آخر : ﴿وَاللَّيلُ إِذَا عَسَعَنَ \* وَالصُّبْحُ إِذَا تَسْقَسَ﴾ . (النکر / ١٧) ويضيف في مكان آخر : ﴿وَالضُّحَىٰ وَاللَّيلُ إِذَا سَجَىٰ﴾ . (الضحى / ٢٠) وأيمانٌ أخرى من هذا القبيل حيث تحكي كلها عن الأهمية الفائقة التي يوليها القرآن الكريم للليل والنهار كي يتمتع الإنسان بهما ويرى آيات الله في كل موضعٍ منهم ، لأنَّ القسم دليلٌ على أهمية وقيمة وحقيقة التأمل دائمًا .

\* \* \*

وفي الآية الثانية عشرة والأخيرة نواجهه تعبيرًا حديثًا في هذا المجال إذ يقول : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ .

«يُولِجُ» : من مادة «ايلاج» وتعني الادخال ، وبما أنها جاءت بصيغة «ال فعل المضارع» وحيث اننا نعلم أنَّ الفعل المضارع يفيد الاستمرار ، فقد تكون إشارة إلى طول وقصر الليل والنهار التدريجي والمنظم على مدى فصول السنة المختلفة حيث ينقصُ أحدهما ويضاف إلى الآخر ، فهذا النظام التدريجي عاملٌ مؤثرٌ في نمو النباتات وتكامل الكائنات الحية ، فلو حدث فجأةً سيختل تواؤنُ هذه الموجودات فيكون مضرًا ، لهذا فقد جعلَهُ الباري تعالى أمراً تدريجياً .

ومن الممكن أن تكون إشارة إلى مسألة شروق وغروب الشمس ، لأنَّ الشمس حينما تقترب من الشروق يشعُّ نورها نحو الطرف الأعلى من الجو ، ويضيء الجو قليلاً ، وكلما ارتفعت الشمس من وراء الأفق يزداد هذا الضياء ، وعلى العكس أثناء الغروب ، فلا يحلُّ الليل دفعةً واحدةً ، بل تختفي أشعةُ الشمس رويداً رويداً في الطبقات السفلية من الجو ، ويحلُّ الظلام محلها ، فهذا الانتقال التدريجي من النور إلى الظلام وبالعكس يؤدي إلى أنَّ يتأقلمَ الإنسان معه من الناحية الجسمية والروحية ، ولو حلَّ الليل أو النهار بشكلٍ مفاجيء لترك آثاراً سيئةً .

والجدير بالذكر أنَّ ظاهر الآية هو أنَّ دخول الليل في النهار والنهار في الليل يحدث

في

آن واحدٍ ، الواقع هو كذلك ، لأنَّ اللَّيلَ يقلُّ تدريجياً أثناء فصل الصيف في المناطق الواقعة شمال خط الاستواء ويصبح جزءاً من النهار أي إنه مصداق لـ **﴿يُولَيْ اللَّيلَ فِي النَّهَارِ﴾** ، وفي ذات الوقت يقلُّ النَّهار في جنوب خط الاستواء ويصبح جزءاً من اللَّيل حيث يكون مصداقاً لـ **﴿يُولَيْ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ﴾**<sup>(١)</sup>.

وجاء في الحديث المشهور عن المفضل ، أنَّ الإمام الصادق **ع** قال

:

«فَكَرْ في دخول أحدهما . اللَّيلَ والنَّهارِ . على الآخر بهذا التدرج والترسل ، فانك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء ، والآخر يزيد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان ، ولو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجأة ، لأضر ذلك بالأبدان وأسقمهها ، كما أنَّ أحدكم لو خرج من حمَّامٍ حار إلى موضع البرودة لصَّره ذلك واسقمه بدنَه ، فلم يجعل الله عزوجل هذا الترسل في الحر والبرد إلَّا لسلامة من ضرر المفاجأة؟»<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

### توضيحان

#### ١ . أهمية النور والظلام وفوائد اللَّيل والنَّهار

لاحظنا في الآيات الآنفة كيف أنَّ الله تبارك وتعالى يدعو الناس إلى دراسة هاتين الظاهرتين اللتين تبدوان عاديتين للعيان ، ويُعِدُّهما من آياته ، والحقيقة أننا كلَّما امعنا النظر في هذا المجال نتوصل إلى أمورٍ جديدة :

أ) فنحنُ نعلمُ أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ في جميع أنحاء العالم يختلفان تماماً ، فطول اللَّيلِ عند خط الاستواء ١٢ ساعة ، وطول النَّهار ١٢ ساعة أيضاً في كافة الفصول ، إلَّا أنَّ السنة كلَّها في المنطقة الجنوبيَّة وعلى خط ٩٠ ليست أكثر من يوم واحدٍ وليلةٍ واحدةٍ حيث تكون مدة كلٍّ منهما ستة أشهر تقريباً «ومثل هذه المناطق غير مأهولة طبعاً» ، وهنالك مراحل وسط

(١) لقد ذكر «الطريحي» في «مجمع البحرين» هذه النكتة في مادة (ولج).

(٢) بخار الأنوار ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

بين هذين الوضعين في باقي بقاع العالم.

إلا أنَّ ما يشير العجب هو بالرغم من هذا الاختلاف فإنَّ جميع بقاع الأرض تستفيد من أشعة الشمس بنفس النسبة على مدار السنة وهذا نظامٌ عادلٌ للغاية! .

ب) إنَّ النهار أكثر طولاً أثناء الصيف والليل أكثر طولاً في الشتاء ، أي أنَّ هذين الأمرين يسيران بشكلٍ متزامنٍ ، زيادة طول النهار ، والاشعاع العمودي «أو شبه العمودي» للشمس ، فيكمل أحدهما أثر الآخر ، ويؤديان إلى زيادة حرارة الجو فتشمل الفواكه والمحاصيل الزراعية ، وفي الشتاء يؤدي إلى زيادة البرودة وتساقط أوراق الأشجار والنباتات ، واللطيف أنه في المناطق الاستوائية حيث يشع ضوء الشمس عمودياً لا يطول النهار أبداً ، وإنَّ لداهما خطر الحرارة الشديدة واحتراق النباتات.

ج) إنَّ ضوء الشمس يسبب اليقظة والجذب والسعي والحركة باستمرار ، على العكس من الليل الذي يبعث على السكون والاستقرار والنوم ، ويلاحظ هذا الأمر على وجه المخصوص في عالم الحيوانات ، حيث تستيقظ الطيور مع سفور الصبح وتتجه نحو الصحراء ، وتعود وتستريح في أوكارها عند غياب الشمس ، وفي الارياف حيث إنَّ معظم الناس حياةً طبيعية ، ويكون برنامج حياتهم كذلك أيضاً ، ولكن نظراً لتطور الآلة ، وصناعة النور الصناعي ، فإنَّ الكثير من الأشخاص يسهرون جزءاً من الليل وينامون بعض النهار ، وهذا أحد الأسباب لبعض أنواع الأمراض ، وفي الحقيقة أنَّ القرآن يحذِّر مثل هؤلاء الأفراد بانَّ ترك النوم ليلاً يؤدي إلى فقدان الاطمئنان الروحي وذلك من خلال عبارة : **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾** . (يونس / ٦٧)

\* \* \*

## ٢ . ظاهرة الليل والنهار في القرآن الكريم

لقد ذُكِرَتْ ظاهرة الليل والنهار أكثر من ثلاثين مرَّةً في القرآن الكريم كبرهانٍ على وجود الله ودليلٍ على عظمته وقدرته ، حيث يقول أحياناً : **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولَى**

### الأَبْصَارَ . (النور / ٤٤)

ويقول كذلك : ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ . (يونس / ٦)

ويقول : ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . (النمل / ٨٦)

وفي الواقع ، أنَّ العلاقة بين هذه الامور الثلاثة تتضح هنا حيث إنَّ التفكُّر والتأمُّل الناضجين والعميقين كما ورد في حق «أولوا الألباب» يؤدّيان إلى ظهور الإيمان ورسوخه ، والإيمانُ بدوره يؤدّي إلى ظهور التقوى في القلب والروح أيضًا.

ولهذا فإنَّ التمعُّن في آيات عظمة الله وعلمه وقدرته في عرض عالم الوجود ، يُرسّخ العقيدة ويرُبّي الإنسان من الناحية العملية أيضًا.

\* \* \*

## ١٠ . آياته في خلق الجبال

تمهيد :

الكلُّ يعرُفُ بشكل عام أنَّ الْقُرْيَ وَالْجَبَالُ الْمَهْمَةُ تقعُ في سفوح الجبال الشاهقة وَتَقُوَّ في مَا بَيْنِهَا ، وَأَنَّ الْأَنْهَارُ الْكَبِيرَةُ الَّتِي هِي عِمَادُ ازدهارِ الْمَدِنِ تَبَعُّ منَ الجبال الشاهقة ، إِنَّ دُورَ الجبالِ في حِيَاةِ الْإِنْسَانِ لَا يَنْحَصِرُ بِذَلِكَ فَقَطْ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنْوَاهِهَا هَذَا الدُورُ . فَالْجَبَالُ لَهَا دُورٌ مُهِمٌ جَدًا في حِيَاةِ الْإِنْسَانِ بَلْ جَمِيعَ الْمُوْجَوَدَاتِ الَّتِي تَعِيشُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَفَوَائِدُهَا وَبِرَكَاتُهَا عَدِيدَةٌ جَدًا ، وَلَا يُبَالِغُ إِذَا قَلَّنَا بِاسْتِحَالَةِ الْحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ بِدُونِ وِجْدَانِ الْجَبَالِ .

وَهَذَا فَانَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ أَشَارَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ إِلَى مَسَأَلَةِ خَلْقِ الْجَبَالِ كَاحْدَى آيَاتِ التَّوْحِيدِ وَبِرَاهِينِهِ عَلَى عِلْمِ وَقْدَرَةِ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَلَا .

بَعْدَ هَذِهِ الْمُقْدَمَةِ نَقْرَأُ خَاتِمَيْنِ الْآيَاتِ الْآتِيَةِ :

١ . ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ \* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ \* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ . (الغاشية / ١٧ - ١٩)

٢ . ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا \* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ . (النَّبِيُّ / ٦ - ٧)

٣ . ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ . (الرَّعْدُ / ٣)

٤ . ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ . (النَّحْلُ / ١٥)

٥ . ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ . (الْأَنْبِيَاءُ / ٣١)

٦ . ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءَ لِلْسَّائِلِينَ﴾ . (فصلت / ١٠)

٧ . ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا﴾ . (المرسلات / ٢٧)

٨ . ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلِلَّهِ مَعَ الْهَبَّ بَلْ أَكْثُرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . (النمل / ٦١)

٩ . ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ طِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ . (النحل / ٨١)

١٠ . ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُدٌ بِيَضْ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفُ الْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ . (فاطر / ٢٧)

\* \* \*

### شرح المفردات :

«جبل» : على وزن (عَسَلٌ) ، بالرغم من أنّ بعض أرباب اللغة فسّرها بأنّها المفردة التي تقابل الأرضي البسيطة ، وفسّرها بعضهم بالأجزاء المرتفعة من الأرض حيث تكون عالية وشاحنة ، فالظاهر أنّ جميع هذه التعبيرات تشير إلى معنى واحد.

وطبعاً قد يُستعمل هذا اللفظ في المعاني الكئيبة أيضاً ، فقد يُقال «جبل» للأشخاص الصامدين والظماء ، و «جِلْيٰ» للصفات الثابتة في طبيعة الإنسان والتي لا تتبدل ولا تتغير «كاجبل» ، وكذلك يقال «جِيلٰ» بكسر الجيم والباء وتشديد اللام ، للرهط والجماعة في لغة العرب من باب التشبيه بالجبل في العظمة <sup>(١)</sup>.

و «الرواسي» : جمع «راسية» أي الجبال الثابتة الراسخة ، وهي في الأصل من «الرسو» (على وزن رَسْمٌ وَغَلُوٌ) وهي مأحوذة من الثبات والرسوخ ، ويُطلق على الراوي الضخمة الراسخة والثابتة في مكان العمل بـ «الراسية» أيضاً ، (كالقدور الراسية) التي وردت في قصة سليمان عليه السلام في القرآن الكريم ، ويُطلق لفظ «رسيّ» على الأعمدة الثابتة في وسط الخيمة أيضاً ، ويقال لمكان رسو السفن بـ «المرساة» حيث تثبت وتستقر السفينة في مكانها.

(١) المفردات للراغب ؛ وجمع البحرین ؛ ولسان العرب.

وقد يُستخدم هذا اللفظ بمعنى ارساء السّلّم في المجتمع أيضاً لأنَّ السّلّم أساس ثبات كلّ بلِدٍ.

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### البركات والأسرار العجيبة للجبال :

في القسم الأول من هذه الآيات يدعو الباري تعالى الناسَ إلى البحث والتأمل في آيات الله في السماء والأرض ، ثم يشير إلى كيفية خلق الأبل وكذلك ارتفاع السموات حيث ارتفعت بدون عَمَدٍ مع مالها من عظمة ، وأشار إلى نصب الجبال فقال : ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِّبُ﴾ .

ولعلَّ هذا التعبير إشارة إلى ثبات واستقرار الجبال في أمكنتها ومنع حدوث الزلزال التي سيشار إليها في الآيات القادمة أو اشير إليه آنفاً ، أو الوقوف أمام الأعاصير والعواصف ، وتوفير الملاجئ الآمنة للبشر ، ومستودعات حفظ المياه على هيئة ينابيع وقنوات وأنهار . ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارة ظريفة إلى مسألة طبيعة تكوين الجبال ووجودها حيث كشفَ العلم المعاصر الستار عنها ، إذ يقول : إنَّ الجبال تكونت نتيجة لعوامل معينة فقد يكون بسبب تعرُّج الأرض ، وأحياناً بسبب البراكين ، أو نتيجة الترببات الناتجة عن الأمطار التي تغمر الأرض وتحرف بعضها معها ويقى الجزع القوي والصلب ثابتاً في مكانه . وفي أعماق البحار تكون الكثير من الجبال نتيجة الترببات الحيوانية كالمرجان حيث يطلق عليها الجبال أو الجُرُر المرجانية .

ومن الممكن جمع كل هذه المعاني في عبارة ﴿كَيْفَ نُصِّبُ﴾ .

\* \* \*

ويقول في القسم الثاني من الآيات كبيانٍ للنعم الإلهية : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا \* وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ؟

«الآوتاد» : جمع (وَتَدْ) (على وزن حَسَدْ) ، وَتُنْطَلِقُ عَلَى الْمَسَامِيرِ الْضَّخْمَةِ الْقَوِيَّةِ جَدَّاً ، وقد فسَّرَهَا البعض بالمسامير التي تغور في الأرض وترتبط إليها جبال الخيمة<sup>(١)</sup>. وهنا كيف تكون الجبال بمثابة آوتاد الأرض؟ هناك تفاسير متعددة : أولها وهو ما ثبت اليوم بانَّ الجبال لها جذورٌ عظيمة في أعماق الأرض ، وهذه الجذور متشابكة معاً وتنسُّك بقشرة الأرض كالدرع وتحفظها في مواجهة الضغوط الناشئة عن الحرارة الداخلية ، ولو لاها لما كان لسطح الأرض من قرار.

وفضلاً عن ذلك فكما أنَّ حاذبية القمر والشمس تترك تأثيراتها على المحيطات ، وتسبب المد والجزر ، فإنَّ اليابسة لها تأثيرها أيضاً ، فيمنع درُّ الجبال قشرة الأرض قدرة المقاومة أمام هذا الضغط الهائل.

ومن ناحية ثالثة فإنَّ الجبال تصونُ بقاعَ الأرض المختلفة من العواصف والسيول وتقف أمامها كالسور العالي ، بحيث لو كان وجه الأرض كُلُّه على هيئة صحراء لتعسرت حياة الإنسان على سطحها أمام هذه السيول العارمة.

وأهم من كل ما مضى فإنَّ الجبال تعتبر بمنزلة الآوتاد القوية لنظام حياة البشر لكونها مركزاً لذخائر المياه.

وجاء في تفسير الميزان أنَّ الآوتاد جمع وتد وهو المسamar إلَّا نَهَى أَغْلَظُهُ مِنْهُ<sup>(٢)</sup> كما في المجمع ولعل عدَّ الجبال آوتاداً مبني على أنَّ أكثر جبال الأرض ناتجة من البراكين التي تنطلق من أعماق الأرض فتخرج مواد ارضية مذابة تستقر على فم الشق متراكمة كهيئة الود المنصوب على الأرض تسكن به فورة البركان التي تحته فيرتفع به ما في الأرض من الاضطراب والتزلزل.

\* \* \*

(١) تفسير المراغي ، ج ٣٠ ، ص ٤.

(٢) تفسير الميزان ، ج ٢٠ ، ص ٢٥٩.

وفي الآيات الثالثة والرابعة والخامسة **عُبَّر** عن الجبال بـ «الرواسي» حيث يقول :

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾ .

ويقول في مكان آخر : **﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُّلًا لَعَلَّكُمْ**

تَهُتَّدُونَ﴾ .

ويشاهد هذا المعنى في الآية الخامسة أيضاً.

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أن أحد أهم فوائد الجبال هو منع الحركات غير الطبيعية والزلزال الأرضية.

و «تميد» : من مادة (مَيْد) (على وزن صَيْد) أي إهتزاز الأشياء الضخمة ، وقال البعض إنّها الحركة المتزامنة مع التمایل يميناً وشمالاً ، كحركة السفن الخالية بسبب أمواج البحر ، ولهذا يقال «مَيْدان» أثناء المسابقات أو الحروب.

وقد تحدثنا في شرح الآيات السابقة عن تأثير الجبال في منع حركات قشرة الأرض أثر الضغط الداخلي ، وجاذبية المد والجزر للشمس والقمر ، والاضطرابات الناتجة عن السيول المستمرة ، ولا حاجة إلى التكرار.

ويفهم من هذه الآيات بصورة عامة أيضاً ، أنّ لتكوين الأنهار علاقة بوجود الجبال ، وهو الصحيح ، فالأنهار الكبيرة التي تجري على مدى السنة وتسقي الأرضي اليابسة هي من بركة المياه التي تجمعت في أعماق الجبال أو قممها على هيئة جليد أو ثلج ، ولهذا تُعتبر الجبال العملاقة في العالم ينابيع لأنهار العالم العظيمة. وربما يحدث لدى البعض شبهة في كون وجود الجبال يكون حائلاً في عزل الأرضي عن بعضها وسبباً في غلق طرق العبور والمرور ، لكن الآيات الواردة أعلاه صرحت بأنّ الله سبحانه وتعالى جعل طرقاً واودية يسلكها الناس ليهتدوا إلى بلوغ مقاصدهم ونيل مآربهم.

وهذه نقطة ظريفة جدّاً حيث توجد على الدوام في أعماق الجبال العظيمة الشاهقة مرات وطرق يستطيع الناس من خلالها المرور والعبور ، أي إنّها في ذات الوقت الذي تشكل سداً قوياً أمام العواصف والأعاصير ، فهي لا تمنع عبور ومرور الناس ، ونادراً ما تقوم هذه الجبال بعزل أجزاء من الأرض بشكل كامل.

وهناك نقطة باللغة الاممية وهي لو كان سطح الأرض مستوياً، فسوف تكون درجة الحرارة على الأرض عالية جداً ومحرقه وذلك بسبب حركة الأرض السريعة حول نفسها وحركة الهواء على سطح الأرض وبذلك تتعذر الحياة على سطح الأرض.

لكن الباري تعالى الذي جعل الأرض مهداً لراحة الإنسان ، أمر الجبال أن تكون مرتفعة في طبقات الجو ، وتدور حول نفسها تبعاً لدوران الأرض ، كي تمنع اهتزاز الجو وحصول الحرارة.

بناءً على ذلك نلاحظ جيداً أهمية الدور الذي يلعبه وجود هذه القطع الصخرية الصماء في حياة الموجودات.

بالاضافة إلى ذلك فإنَّ الجبال تُوجَدُ مساحات مسطحة شاسعة بسبب التعرجات والانكسارات وتدُي إلى مضاعفة الجزء الذي يمكن استغلاله من الأرض لعدة مرات ، وفي نفس الوقت فإنَّ أعلىها يعتبر مكاناً لنمو أشجار الغابات الكثيفة وأنواع النباتات الطيبة والغذائية والمتراع.

\* \* \*

ولعلَّ لهذا السبب جاء الحديث في الآية السادسة عن بركات الأرض واقواها بعد نصب الجبال في الأرض إذ يقول : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَنَارَكَ فِيهَا وَقَدَرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾.

لأنَّ ممّا لا شك فيه أنَّ الجبال نفسها وكذلك المياه التي تسيل من بطونها لها دور حساسي للغاية في انتاج المواد الغذائية.

وممّا يلفت الانتباه قوله في نهاية الآية : ﴿سَوَاءٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ ، فلعله إشارة إلى هذا المعنى ، وهو أنَّ المواد الغذائية تعادل ما يحتاجه السائلون والمحاجون تماماً ، ويمكن أن يكون تعبير ﴿السَّائِلِينَ﴾ إشارة إلى كافة الحيوانات والناس والنباتات (وإذا جاء بصيغة جمع المذكر للعاقل فهو من باب التغليب) نعم فالكل يسأل عن ﴿الآقوات﴾ بحسب حاله.

و «آقوات» : جمع (قوت) وتعني الغذاء ، وقد فسرها بعض المفسرين بـ الأمطار فقط ، والبعض الآخر فسرها بـ المواد الغذائية المدَّخَرة في باطن الأرض ، إلا أنَّ الظاهر هو أَحَدَا

إشارة إلى كافة المواد الغذائية التي تخرج من الأرض أو التي تنمو عليها ، ولعلَّ التعبير بـ «قَدَرٌ» وهي من «التقدير» ، إشارة إلى أنه قد تم تقدير وتحطيم كافة احتياجات الإنسان وبقية الموجودات قبل خلقها.

وقد ورد مضمون الآية السابعة في الآيات الآتية.

\* \* \*

وأشار في الآية الثامنة إلى أربع نِعَمٍ هم : فالأرضُ مستقرةٌ بِنَحْوِي يستطيع الإنسان والموجودات الأخرى من العيش عليها بِرَاحَةٍ واطمئنان ، وتكوين الأنهر التي تشق سطح الأرض ، وخلق الجبال العظيمة الراسخة ، وتكوين البرزخ بين البحرين (من الماء العذب والماء) كي لا يختلط أحدهما بالآخر.

وهذه النعم الأربع ترتبط مع بعضها بِنَحْوِي مدهش ، فالجبال أساسُ استقرار الأرض ، ومصدر مياه الأنهر ، وهذه الأنهر عندما تصب مياهها في البحر فهي تبقى منفصلة بواسطة حاجزٍ غير منظورٍ لفترة طويلة لا تختلط مع المياه المالحة ، وهذا الحاجز ليس سوى اختلاف كثافة الماء «الماء» و «العذب» ، وبتعبير آخر أنَّ اختلاف كثافتهما يؤدي إلى عدم امتناع مياه الأنهر العذبة بالمياه المالحة مدةً طويلة ، ولهذا فائدة ضرورية للزراعة في المناطق الساحلية ، لأنَّ هذه المياه العذبة تتراجع إلى الخلف عن طريق المد والجزر وتنعطي معظم الأراضي الزراعية فتغمر البساتين النَّظرة والمزارع المزدهرة.

فليس جزافاً أن يقول في نهاية هذه الآية : ﴿إِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾؟ ﴿بَلْ أَكْثُرُهُمْ

لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أَجَلٌ ... فهؤلاء يجهلون أسرار هذه النِّعَم والبركات ، النِّعَمُ الموجودة في كل زوايا وبقاء العالم ، وكلٌّ منها برهانٌ على تلك الذات المقدسة ، إلَّا أنَّ هؤلاء الجهلة محظوظون عنها.

\* \* \*

وفي الآيتين التاسعة والعشرة أشار إلى مجموعةٍ أخرى من خصائص ومنافع الجبال ، فبعد أن ذكر خلق الجبال التي تقي الإنسان حرارة الشمس المحرقة ، يشير إلى الملابس

الموجودة فيها حيث يقول : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾.

و «الاكنان» : جمع «كِنَّ» على وزن «جِنَّ» وكما قال صاحب مجمع البيان هو المكان الذي يضم الإنسان بداخله ، إلا أن البعض ذكر ذلك بمعنى كلّ نوع من اللباس ، حتى أكّنهم اعتبروا «الرداء» «كَنَّاً» للإنسان ، والمقصود بـ «أكنان الجبال» المغارات والكهوف التي يستطيع الإنسان أن يستخدمها كملجأ له ، قد تكون أهمية الملاجيء الجبلية والمغارات مجهلة بالنسبة لسكنة المدن ، غير أنها ذات أهمية حساسة جدًا للمسافرين العزل ، وقاطعي الصحراء ، والرعاة ، والسائلين ليلاً ، وغالباً ما تنقذهم من الموت المحتوم ، لا سيما وإنّ هذه الملاجيء دافئة في الشتاء وباردة في الصيف.

فضلاً عن ذلك فإنّ بعض الناس منذ غابر الأزمان وحتى يومنا هذا ينحثرون بيوتهم في وسط الجبال ، وهي محكمةً جدًا وآمنة تماماً في مواجهة الحوادث الطبيعية ، كما ورد في القرآن الكريم حول «أصحاب الحجر» (قوم ثمود) : ﴿وَكَانُوا يَنْحَثُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾. (الحجر / ٨٢)

وهذه فائدة أخرى للجبال.

وفي قسم آخر من هذه الآيات إشارة إلى الطرق التي صنعتها الباري تعالى باللون المختلفة بيضاء وحمراء وأحياناً سوداء بكمالها : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيَضٌ وَحُمُرٌ مُخْتَلِفُ الْوَانُهَا وَغَرَابِيَّتُ سُودٌ﴾.

و «جُدَدٌ» : جمع (جُدَدَة) (كُعْدَدٌ وْعُدَدَة) بمعنى الطريق والجادّة ، و «بِيَضٌ» جمع «أَبِيَضٌ» ، و «حُمُرٌ» جمع «أَحْمَرٌ» ، و «غَرَابِيَّتُ» جمع «غَرَابِيَّة» وتعني شديد السوداد ، ولهذا يقال «غَرَاب» ، و «سُودٌ» جمع «أَسْوَدٌ» ووردت هنا بعد كلمة «غَرَابِيَّة» للتأكيد. فطرق الجبال المختلفة ، بألوانها المتباينة تماماً ، لها أهمية كبيرة حيث تساعد المسافرين في العثور على مقاصدهم ، وتنقذهم من التيه ، إضافة إلى أن تعدد الألوان يدلّ على اختلاف مركبات الصخور ، وقد تكون دليلاً على وجود المعادن المختلفة التي تختفي فيها.

\* \* \*

يستفاد جيداً من تسلسل هذه الآيات أن خلق الجبال بفوائدها الحياتية والضرورية جدّاً والمصيرية ، من البراهين المهمة على علم وقدرة الباري تعالى وآيات حكمته ورأفته بالإنسان ، ويوضح جيداً أن خلق هذا العالم وذرات موجوداته ، مليءٌ بالمعنى والمحظى إلى حدٍ كمّا تم التمّن به تكشف للإنسان أسرارٌ جديدة ويتولد على أثرها حبٌ وارتباطٌ بالخالق جلَّ وعلا.

\* \* \*

### توضيحات

#### ١ . الجبال والاعجاز العلمي للقرآن

١ . لعلَّ إلى ما قبل قرنٍ من الزمان كانت نظرية العلماء تنصُّ على سطحية الجبال ، وكان الاعتقاد السائد هو أنَّ كلَّ الجبال عبارة عن قطعٍ صخرية كبيرة تستقر على سطح الأرض ، ولكن مع مرور الزمان ازيل الحجابت عن سرِّ مهمٍ ، وتوصل العلماء إلى هذه الحقيقة ، وهي أنَّ الجزء الأعظم من كلِّ جبل يقع تحت الأرض !

وكما يقول «جورج غاموف» في كتاب «قصة الأرض» : «طبقاً للنظريات المعاصرة فإنَّ جبال الأرض لها أوضاع تشبه الجبال الجليدية التي تكون تحت تأثير ضغط الثلوج في المناطق القطبية ، فكلُّ من زار المناطق القطبية يعرف جيداً أنَّ القطع الثلوجية الضخمة حينما تتكسر تحت تأثير الضغط تتراكم على بعضها ، وتندفع نحو البحار . وأنباء ذلك . تنهار أغلب كميات الثلوج في المياه ، (ولعلَّ عُشرُها فقط خارج المياه وتسعةُ اعشارها تحت الماء) ، ولهذا ففي مقابل كلِّ جبلٍ يرتفع على سطح الأرض هنالك جبلٌ تحت سطح الأرض ، متكون من مادة حجر الغرانيت يغوص في ثنايا طبقة من الصخور التحتية الناعمة»<sup>(١)</sup> .

وهنا نصل إلى هذه المسألة الاعجازية في القرآن حيث يطلق على الجبال «أوتاد» ومسامير الأرض ، وذلك لأننا نعلم أنَّ القسم الأعظم من المسamar يغور في الجدار أو الأشياء الأخرى دائمًا.

(١) قصة الأرض ، تأليف جورج غاموف ، ص ١٢٦ مع شيء من الاختصار.

وهنا حيث تستخدم المسامير في تثبيت شيءٍ ما ، أو ربط القطع المختلفة مع بعضها أيضاً ، فهذا التعبير يعتبر إشارة لطيفة إلى التأثير المهم للجبال في منع تبعثر قطع الأرض أثر الضغط الداخلي للكرة الأرضية والضغط الناتج عن حالات المد والجزر.

٢ . لا يقتصر دور الجبال على حفظ استقرار وثبات الأرض فحسب ، بل تساعد في استقرار المناخ المحيط بالأرض أيضاً ، والكل يعلم مدى صعوبة العيش في الصحراء الشاسعة لأنّ الهواء دائمًا في حالة من السرعة المقرونة بالغبار والرمال ، فيصبح الاستقرار في هذه المناطق عسيراً والتنفس صعباً مقرضاً بعدم الراحة.

نعم .. فهذه القمم الشاهقة للجبال هي التي تقف أمام هذه العواصف الهوجاء ، وتصدُّها ، أو تُرسلها إلى طبقات الجو العليا.

٣ . إضافة إلى ذلك فإنّ للجبال تأثيراً بالغاً في نزول الثلوج وهطول الأمطار ، لأنّها تقف في طريق الغيوم والرطوبة الصاعدة من البحر ، فتوقفها وتدفعها إلى المطول فينحدر بعض هذه الأمطار من سفوحها ، وتحتفظ بالقسم الآخر في هذه السفوح ، أو تحفظ بها على هيئة ثلج وجليد في قممها.

٤ . وكذلك فإنّ للجبال دوراً مهماً في تعديل حرارة الجو لا سيما في المناطق الاستوائية ، لأنّ ارتفاع الجبال يؤدي إلى ابتعاد المناطق المجاورة لها عن سطح الأرض ونحن نعلم أننا كلّما ابتعدنا عن سطح الأرض تزداد برودة الجو.

٥ . إنّ الجبال مصدر مهم لانواع المعادن والثروات المهايلة التي تختفي في أعماقها ، ومن أجمل أن يظفر الناس بهذه الثروات فهم يتوجهون إلى الجبال دائمًا للبحث عنها.

٦ . للجبال دور مهم آخر في ايقاف حركة الكثبان الرملية ، فنحن نعلم أنّ الكثبان الرملية تتحرك أثناء هبوب الرياح في الصحراء القاحلة ، وقد تدفع تحتها الأشجار والناس والقوافل وحتى القرى ، وتصبح سبباً في هلاك النباتات والحيوانات ، فإذا لم تتم السيطرة عليها فسوف تأتي على جميع أنحاء الأرض ، فائي عامل أفضل من الجبال يُمكّنه السيطرة عليها !؟

إنّ هذه الفوائد العظيمة إضافةً إلى فوائد أخرى كثيرة ذكرناها في تفسير الآيات

توضح لنا الدور المهم للجبال من جهةٍ ، وعظمة آيات القرآن الكريم في هذا المجال من جهةٍ أخرى.

\* \* \*

## ٢ . حديث للإمام الصادق عليه السلام حول الجبال

وفي حديث توحيد المفضل وهو حديث مليء بالمعاني ، وكاشفٌ لأسرار الخلق في مختلف الجوانب لمعرفة الله ، جاء ما يلي :

«انظر يا مفضل إلى هذه الجبال المركومة من الطين والحجارة التي يحسبها الغافلون فضلاً لا حاجة إليها ، والمنافع فيها كثيرة : فمن ذلك أن تسقط عليها الثلوج فيبقى في قلائمها من يحتاج إليها ، ويندوب ما ذاب منه فتجري منه العيون الغزيرة التي تجتمع منها الأنهار العظام ، وينبت فيها ضروب من النبات والعقاقير التي لا ينبت مثلها في السهل ، ويكون فيها كهوف ومقاييس للوحوش من السباع العادية . ويتخذ منها الحصون والقلاع المنيعة للتحرر من الأعداء ، وينحت منها الحجارة للبناء والأرحا ، ويوجد فيها معادن لضروب من الجواهر ، وفيها خلال آخر لا يعرفها إلا المقدر لها في سابق علمه»<sup>(١)</sup>.

وقد تكون العبارة التي جاءت في ختام حديث الإمام عليه السلام إشارة إلى الفوائد المهمة الأخرى التي اكتُشفت تدريجياً مع تطور العلوم وتمت الإشارة إليها في البحوث الماضية ، المنافع التي لا زالت خافيةً عن أنظار العلم البشري.

\* \* \*

## ٣ . كلام لعالم كبير

عندما يتعرض العلّامة المرحوم المجلسي رحمه الله إلى البحث حول الجبال في كتابه بحار الأنوار ، يذكر في تفسير الآية : **﴿والجَبَالُ أَوْتَادٌ﴾** سبعة آراء ، نذكر ثالثها : «ما يخطر بالبال وهو أن يكون مدخلاً للجبال لعدم اضطراب الأرض بسبب اشتباكها

(١) بحار الأنوار ، ج ٣ ، ص ١٢٧ .

واتصال بعضها ببعض في أعماق الأرض بحيث تمنعها عن تفّتت أجزائها وتفرقها ، فهي منزلة الأوتاد المغروزة المثبتة في الأبواب المركبة من قطع الخشب الكثيرة بحيث تصير سبباً لالتصاق بعضها ببعض وعدم تفرقها وهذا معلوم ظاهر لمن حفر الآبار في الأرض فائها تنتهي عند المبالغة في حفرها إلى الأحجار الصلبة ، وأنت ترى أكثر قطع الأرض واقعةً بين جبال محيطة بها ، فكأنّها مع ما يتصل بها من القطعة الحجرية المتصلة بها من تحت تلك القطعات كالظرف لها تمنعها عن التفّتت والتفرق والاضطراب عن عروض الأسباب الداعية إلى ذلك» <sup>(١)</sup>.

إنَّ هذا الحديث واستناداً إلى التصريح الذي أوردناه آنفًا لأحد العلماء المتأخرين ، والذي هو من اكتشافات القرن الأخير ، يعتبر أمراً مثيراً جدّاً حيث يشير هذا العالم الإسلامي الكبير إلى ذلك قبل أكثر من ٣٠٠ سنة.

\* \* \*

#### ٤ . حديثٌ اعجاريٌّ حول تكوين الجبال

وهذه نقطة جديرة بالاهتمام أيضاً حيث ورد في روايةٍ أنَّ شخصاً سأله أمير المؤمنين عليه السلام قائلاً : مِمَّ خلقتِ الجبال؟ فقال الإمام عليه السلام في جوابه : «من الأمواج» <sup>(٢)</sup>. وهذا الحديث يتطابق تماماً مع النظريّة المشهورة للعلماء المعاصرين إذ يعتقدون بأنَّ أغلب الجبال تكونت نتيجةً لتعرج قشرة الأرض بسبب انحدارها كالتجعدات التي تظهر على قشرة التفاح عند جفافها وهذه التعرّجات تشبه الأمواج التي تحدث على سطح الماء ، وقد يكون تعبير : **﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي﴾** (النحل / ١٥) إشارة إلى خلق الجبال بعد خلق الأرض أيضاً.

\* \* \*

(١) بخار الانوار ، ج ٣ ، ص ١٢٧.

(٢) بخار الانوار ، ج ٥٧ ، ص ٧٣ و ٦٠ ، ص ١٢٠.

## ١١ . آياته في

### تكوين الغيوم والرياح والأمطار

تمهيد :

إنَّ دورَ الغيوم ، والرياح والأمطار ، في حياة الإنسان وكافة الكائنات الحية واضحٌ إلى حدٍ لا يحتاج معه إلى شرح أو تفصيل ، صحيحٌ أنَّ الماء يغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، ولكنَّ أولاً : أنَّ المياه المالحة لا تصلح للري ، ولا لشرب الإنسان والحيوانات ، وثانياً : لو فرضنا أنَّ كلَّ مياه البحار كانت عذبةً فبأي طريقةٍ يمكن نقلها إلى المناطق والأراضي التي قد ترتفع عن مستوى سطح البحر عدَّة آلاف من الأمتار؟

هنا نرى بخلاف القدرة العظيمة لمبدئ الخلق ، حيث القى هذا التكليف المهم على عاتق أشعة الشمس لتشرق على الحبيطات وتقوم بتبيخير وتصفية مياهها ، فيظهر على هيئة قطعٍ من الغيوم ، ثم تتجه به نحو المناطق الجافة بمساعدة الرياح ، وتنزله عليها بصورة قطرات مطرٍ لطيفةٍ وصغيرةٍ ومحدوة ، حيث تدبُّ الحياة في جميع أرجاء المعمورة ، فينتشر الإزدهار والإعمار والحضرة في كُلِّ مكان ، وهذا يأتي من خلال نظامٍ دقيقٍ ومحسوب مقرون بظرافه بالغة.

وبعد هذا التمهيد القصير نتجه نحو آيات القرآن الكريم بهذا الخصوص فنقرأ خاسعين الآيات الآتية :

١ . ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُشَرِّقُ سَحَابًا فَيَسْتُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَسْفًا﴾

فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴿. (الروم

٤٨ /

٢ . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرِسِّلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِي الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعِلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿. (الروم / ٤٦)

٣ . ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرِسِّلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لَبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلَنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ﴿. (الاعراف / ٥٧)

٤ . ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُشِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴿. (فاطر / ٩)

٥ . ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفُ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴿. (البقرة / ١٦٤)

٦ . ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَسْرِبُونَ \* أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَرْءَةِ أَمْ نَحْنُ الْمَنْزِلُونَ \* لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ اجْجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴿. (الواقعة / ٦٨ - ٦٩)

٧ . ﴿أَمْنِ يَهْدِيْكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرِسِّلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴿. (النمل / ٦٣)

٨ . ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴿. (الحجر / ٢٢)

٩ . ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْابِعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴿. (الزمر / ٢١)

١٠ . ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا لَتُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَبَيَانًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴿.

(النبا / ١٤ - ١٦)

١١ . ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

طهوراً ﴿٤٨﴾. (الفرقان / ٤٨)

١٢ . ﴿أَوَلَمْ يَرَوَا أَنَّا نَسُوقُ النَّاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبَصِّرُونَ﴾ . <sup>(١)</sup> (السجدة / ٢٧)

\* \* \*

### شرح المفردات :

«الرياح» : تكرر هذا اللفظ عشر مرات في القرآن الكريم ، تسع منها إشارة إلى الرياح التي تُحرِّك الغيوم وتعُدُّها لتنزيل الأمطار.

و «الرياح» : في الأصل جمع (ريح) وتعني الهواء المتحرك ، وأصلها «رُوح» ، وغالباً ما تعتبر مؤنثاً لفظياً ، والجدير بالذكر أنها تستخدم بصيغة الجمع دائماً في الآيات التي تتعلق بحركة الغيوم ونزول الأمطار في القرآن الكريم ، وذكر البعض دليلاً على ذلك بأنَّ الرياح إذا تحركت بشكلٍ جماعي فاكَّها تنشر الغيوم وثُكُونُ أمطاراً غزيرة وملية بالبركة ، وإذا تحركت على هيئة أجزاءٍ متفرقة فاكَّها تكون عقيمة وغير مفيدة ، بل مضرةً عندئذ ، لذلك ورد في الدعاء : «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحًا» <sup>(٢)</sup>.

ويقول «الراغب في المفردات» : في جميع الموارد التي ذكر الله تعالى لفظة «الريح» بصورةٍ مفردة (في القرآن) فهي تحكي عن «العذاب» ، وأينما ذكرت بصيغة الجمع فهي تحكي عن الرحمة.

وقول الراغب صائبٌ في ما يَنْصُ «الرياح» في صيغة الجمع ، ولكن ليس هناك تعميم في مورد «الريح» بصيغة المفرد ، لأنَّ «الريح» استخدمت في القرآن بصيغة المفرد في مورد

(١) توجد في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ في هذا المجال ، وما ورد أعلاه مقتطفات من هذه الآيات بامكانها تبيان ابعاد هذه الامور الثلاثة المهمة وهي كما يلي : الانعام ، ٩٩ ؛ ابراهيم ، ٣٢ ؛ النحل ، ٦٥ ؛ طه ، ٥٣ ؛ الحج ، ٦٣ ، ٦٠ ؛ النمل ، ٦٠ ؛ العنكبوت ، ٦٣ ؛ لقمان ، ١٠ و ١١ ؛ فاطر ، ٢٧ ؛ فصلت ، ٣٩ ؛ الرعد ، ١٧ ؛ الأعراف ، ٥٧ ؛ الحجر ، ٢٢ ؛ النمل ، ٦٣ .

(٢) مجمع البحرين . مادة (ريح).

النعمة أيضاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا ﴾ . (يونس / ٢٢)

ونقرأ أيضاً بخصوص سليمان عليه السلام : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوْهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ﴾ . (سباء / ١٢)

و «تَصْرِيفِ الرِّيَاحِ» تعني نقل الرياح من حال إلى حال (من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال) ، وهي من مادة «صرف» (على وزن حرف) أي تحويل الشيء من حالة إلى حالة أخرى أو إبداله بشيء آخر<sup>(١)</sup>.

وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى أن الرياح لو سارت باتجاه واحد باستمرار فمن الممكن أن تدفع بالرطوبة والغيوم المتصاعدة من البحار نحو جهة واحدة فقط أما تغير الرياح فأنه يؤدي إلى أن تتحرك الغيوم من مكان إلى مكان آخر ، وتستفيد أغلب المناطق الجافة من الأمطار إلى أقصى حد.

فضلاً عن ذلك وكما سيأتي فإن فائدة الرياح لا تنحصر بحركة الغيوم ، بل لها منافع كثيرة أخرى سنشير إليها في تفسير الآيات . إن شاء الله .<sup>(٢)</sup>

و «السَّحَابُ» : من مادة «سَحْبٌ» (على وزن مَحْوٌ) ، وتعني في الأصل الجرّ ، حيث تُسحب الغيوم بواسطة الرياح ، أو أن الغيوم تسحب الماء نحو أي اتجاه ، فيُطلق اسم «السحاب» عليها ، وقد يستخدم هذا المفهوم بمعنى الظل أو الظلام من باب التشبيه. وللطيف إنَّه قد تمَّ التعبير في الآيات أعلاه بـ «سُقْنَاه» من مادة «سوق» أي «الدفع» وقد استعملَ هذا التعبير لأنَّ الله تبارك وتعالى يدفعها نحو اتجاه معين (بالرغم من أنَّ السحاب يتحرك طبيعياً).

و «مُزْنٌ» : على وزن «خَزَنٌ» وتعني «الغيوم الواضحة» ، وفسرَها البعض بـ «الغيوم الممطرة»<sup>(٣)</sup>.

(١) مجمع البحرين ، ومفردات الراغب.

(٢) يقسِّمُ العربُ الرياحَ إلى أربعة أقسام : «الشمالية» التي تهب من الشمال ، و «الجنوبية» التي تهبُ من الجنوب ، و «الصبا» التي تهبُ من الشرق ، و «الدبور» التي تهبُ من الغرب.

(٣) مفردات الراغب ولسان العرب ، مادة (مُزْن).

ولهذا يُطلقُ على المُلَال الذي يُبرز من بين الغِيَوم بـ «ابن مُزنة» ، و «مازن» تعبيرٌ يطلق على بيض النمل .

و «بُشْر» : (على وزن عُشْر) ، وحسب ما جاء في «مُصْبَاحُ اللُّغَةِ» فهي مأخوذة من «بَشَرْ» (على وزن سَهْرٍ) أي السرور والفرح <sup>(١)</sup> .

والسبب في تسمية القرآن الكريم للغيوم بـ «بُشْر» و «مُبَشِّرات» لأنَّها غالباً ما تكون مُبَشِّرات بِهطول المطر الذي يَهْبُطُ الحياة .

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### ظاهرة الريح والأمطار الكامنة فيها :

أشارت الآية الأولى من البحث وتعريفِ بالذات الإلهية المقدّسة إلى مسألة هبوب الريح وحركة الغِيَوم بواسطتها حيث يقول : ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُشْرِقُ سَحَابَةً﴾ .

ثمَّ تعرّضت إلى بسط الغِيَوم في كبد السماء ، وترَكُّمها فوق بعضها ، وفي الختام أشارت إلى خروج قطرات الأمطار من وسطها ، فيقول : ﴿فَيَسْطُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ﴾ .

و «الكِسْفُ» : على وزن «قَمَمٌ» تعني هنا تراكم قطع الغِيَوم حيث تستعد لنزول المطر ، و «الوَدْقُ» (على وزن خَلْقٌ) يُطلقُ على الرذاذ الذي يشبه الماء ، وفسّرها البعض بأنَّها قطرات المطر .

وفي نهاية الآية أُشير إلى استبشار عباد الله أثر نزول المطر فيقول : ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ .

وعليه فإنَّ الريح لا تُحرِّك الغِيَوم فقط ، بل تُبسطُها في السماء ثم تضعُها على بعضها وتقوم بتربيط أطراف الغِيَوم وإعدادها لإنزال المطر .

(١) «بُشْر» اسم مصدر وتأني يعني اسم فاعل (مُبَشِّر) أيضاً .

فالرياح شأنها شأن الرعاة ذوي الخبرة والتجربة حين يقومون بجمع قطيع الماشية في وقتٍ محدَّدٍ من أطراف الصحراء ويسوّقونها في طريقٍ معينٍ ، ثم يحضرُونها للحلب .  
فلا سُكُنُ الغيوم يكون بحدٍّ بحيث يمنع حروج قطرات المطر ، ولا شدَّةُ الرياح بالقدر الذي تمنع نزول هذه قطرات إلى الأرض . ولا تكون قطرات الأمطار صغيرة بالقدر الذي يجعلها تبقى معلقةً في السماء ، ولا كبيرةٌ حيث تؤدي إلى تدمير المزارع والبيوت ، ولا يقتصر نزول المطر على بشارة الناس بالإعمار والازدهار فقط ، بل إِنَّهُ يُصَفِّي وَيُلْطِفُ الجو وَيَعْثُرُ على النشاط .

والملفت للنظر أنَّ الآيات التي تلي هذه الآية من سورة الروم تذَكَّر بالرحمة الإلهية في إحياء الأرض بعد موتها : **﴿فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾** . (الروم / ٥٠)

ومن أجل إدراك مفهوم هذه الآية يكفينا مشاهدة صورٍ من بعض الصحراء ، والمزارع في بعض المناطق في أفريقيا كيف خَيَّم عليها شبح الموت أثر الجفاف المستمر ، ورحلت عنها ملائكة الرحمة والحياة .

وفي المقابل فإنَّ هذه الأمواج اللطيفة للرياح التي تُخترقها قطرات الأمطار بسهولة ، تقوم أحياناً باقتلاع الأشجار الضخمة ، وَتُدْمِرُ المَبَانِي ، وَتَخْطُفُ الإِنْسَانَ مَعَهَا إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ تَقْذِفُهُ إِلَى مَكَانٍ آخَرْ إِذَا مَا أَمْرَتَ بِذَلِكَ .

\* \* \*

وتتعقبُ الآية الثانية هذا الموضوع أيضاً بشيءٍ من الاختلاف ، فهي تصفُ الرياح بالمبشرات ، وبالإضافة إلى مسألة نزول الأمطار فهي تشير إلى حركة السفن بواسطة المبوب المنظم للرياح أيضاً ، فجاء في النهاية : **﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** .  
ومن الممكن أن تكون عبارة **﴿وَلَيَذِيقُكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾** إشارة إلى بقية فوائد الرياح ، كتلقيح الأشجار ، ودفع العفونات وتصفية الأجواء وغيرها كما تم توضيحه في تفسير الميزان<sup>(١)</sup> .

(١) تفسير الميزان ، ج ١٦ ، ص ٢٠٩ .

والحقيقة أنَّ الإنسان لا يعرف قدر النعمة إلا إذا سُلِّبَ منه ، فلو توقفت هذه الرياح والنسمات يوماً واحداً لأصبح العيش في أحلك اليسانين والمزارع أسوأ من العيش في مطامير السجون المظلمة ، ولو هبَّت نسمةٌ على طامورةٍ انفراديَّةٍ فهي تضفي عليها صبغة الفضاء الطلق. ولو توقفت الرياح فوق سطح المحيطات ، وتوقفت الامواج ، فإنَّ حياة الكثير من الاحياء المائية تتعرض إلى الخطر بسبب نقص الاوكسجين ، وتبدل البحار إلى مستنقعات متعفنة رهيبة.

\* \* \*

واهتمَّ في الآية الثالثة بهذا الأمر أيضاً مع هذا التفاوت وهو اعتبار الرياح مقدمة لرحمته ، ووصف الغيوم بـ «النَّفَال» أي (الأحمال الثقيلة ، جمع تقيل) لأنَّ الغيوم الممطرة اثقل من بقية الغيوم ، وتكون قريبة من الأرض ، لذلك عَبَرَ عنها القرآن الكريم بـ «النَّفَال» . و «اقْلَلْت» : من مادة «إِقْلَالُ» وتعني حمل شيء يكون خفيفاً بالنسبة لقدرة الحامل ، فهو يعتبره قليلاً ولا قيمة له ، إنَّ وجود هذا التعبير في الآية أعلاه يبرهنُ على أنَّ الغيوم الثقيلة التي قد تحمل معها ملايين الاطنان من المياه لا تُحْمِلُ الرياح ثقلاً كبيراً ، وهذا عرضٌ لقدرة الله تعالى.

\* \* \*

وقد أشارت الآية الرابعة إلى أنَّ ارسال الرياح لأداء هذا الدور العظيم هو أحد آثار عظمة الذات الإلهية المقدسة ، إذ يُحيي الأرضي الميتة بواسطة هذه الرياح. والحدير بالذكر هنا هو أنَّ الآية استعملت كلمة «تُشَير» أي أنَّ الرياح تُشَير السُّحُبَ ، وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى تكوُّن الغيوم بسبب هبوب رياح المناطق الحارة على سطح المحيطات حيث تؤدي إلى تكاثف الغيوم ، لأنَّ مسألة حركة الغيوم أخذَت بالاعتبار في

عبارة «فسقناه» ، وعليه فإنَّ الرياح لها أثُرٌ مهمٌّ في حصول الغيوم ، وكذلك في تحريكها نحو المناطق الجافة ، ورفعها إلى أعلى الجو وتحيئه الظروف لمطرول الأمطار.

وذكر هذه العبارة بصيغة الفعل المضارع «تشير» إشارة إلى عمل السحب الدائم والمستمر أيضاً.

على آية حال فإنَّ هذه المسألة تُعتبر برهاناً على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا وكذلك دليلٌ على قدرته في المعاد ، ولهذا تمت الإشارة إلى مسألة المعاد في ختام بعض هذه الآيات.

\* \* \*

واستند في الآية الخامسة من بحثنا إلى خلق سبعة أشياء مختلفةٍ كآياتٍ ودلائل على علم وقدرة الله تعالى لاستيفاد منها المفكرون والعقلاة وهي : خلق السماء ، والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والقُلُكُ التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، والأمطار ، وهبوب الرياح واختلافها ، والسحب المعلقة بين الأرض والسماء.

واستند في هذه الآية على مسألة الحركات المختلفة للرياح : **﴿وَتَصْرِيفِ الْرِّيَاحِ﴾** ، وكذلك الغيوم المعلقة بين الأرض والسماء : **﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾** ، السحب التي تحمل ماء البحار في أوساطها ، وهي في ذات الوقت معلقة بين الأرض والسماء ، فهي تمثل في الواقع أعظم آيات الله ، «فتحيي الأرض بنزول المطر وتُبَثُ أنواعاً مختلفةً من الدواب على وجه الأرض» : **﴿فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتَهَا وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾**.

وعندما نشاهد أنَّ الرياح والغيوم قد ذكرت في هذه الآية بعد نزول الأمطار فلعلها من أجل الإشارة إلى هذه النقطة ، وهي أنَّ فائدة الرياح لا تتحصر بتحريك الغيوم وانزال المطر فحسب ، بل لها فوائد جمةً أخرى تمت الإشارة إليها سابقاً ، وسيشار إليها في نهاية الموضوع أيضاً.

وبغض النظر عن كون الغيوم هي السبب في هطول الأمطار ، فإنّ الغيوم لوحدها تعتبر ظاهرة عجيبة أيضاً ، لأنّها تحفظ ببحارٍ من المياه وهي معلقةٌ بين الأرض والسماء <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

وتحتَّمِس الآية السادسة إلى مسألة مياه شرب الإنسان ، وتذكر موضوعاً جديداً حيث تقول : **﴿أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ \* أَنَّسُمْ أَنْرَلْتُمُوهُ مِنَ الْمَرْأَةِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزَلُونَ﴾**؟ ثم يضيف تعالى : **﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًاً فَلَوْلَا شَكَرُونَ﴾** فلو أنّ ماء البحر يصطحب أثاء تبخره إلى السماء ذرات الأملاح الصغيرة ، وتنزل المياه المالحة والمرة من الغيوم لتحولت الأرض إلى ملحّة ، فلا ينمو نباتٌ ، أو شجر ، وإذا أراد الإنسان أن يدفع الموت عنه أثر العطش لم يستطع أن يتجرع شربة من هذا الماء أبداً.

إنّ القدرة التي جعلت الماء يتبخر والأملاح الموجودة في مياه البحار تبقى في مكانتها ، هذه العملية التي أثرت على حياة الإنسان وغيرت مجراها بل أثرت على أوضاع كل المخلوقات على وجه الكوكبة الأرضية ، هل يستطيع الإنسان أن يشكر هذه النعمة طيلة بقائه حياً في هذه الدنيا؟

وكما قلنا فإنّ «المرأة» تعني الغيوم الممطرة و «الأجاج» تعني الماء الشديد الملحة أو المراوة.

\* \* \*

وأشار في الآية السابعة إلى هبَّتين عظيمتين اخريين من هبات الله إلى عباده وهما : هبة المداية في ظلمات البر والبحر «بواسطة النجوم» ، وهبة ارسال الرياح كمبشراتٍ قبل نزول أمطار رحمته ، فحيثما تنزل الأمطار تصبح الحياة بعماتها وتكون أساساً لأنواع الخير والبركة.

---

(١) يجب الانتباه إلى أنّ السحاب : البحار المترافق وتسميته العرب (ضباباً) . بالفتح . مالم ينفصل من الأرض فإذا انفصل وعلا سُمّي (سحاباً وغماماً) ، (تفسير الميزان ج ١ ، ص ٤١١).

ويستند في نهاية الآية على هذين الموضوعين كوثيقة لإثبات وحدانية الله تعالى ، ويخاطب المشركين : ﴿إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ، ولعل ذكر هاتين المحيتين معاً إشارة إلى هذا المعنى وهو عندما يكون الجو صافياً يمكن الاستفادة من النجوم ليلاً في الإهتداء إلى الطريق للوصول إلى الهدف ، وإذا كان الجو غائماً فشدة رحمة أخرى وهي المطر ينالها الإنسان ، إذن ففي كلا الحالتين هناك موهبة ورحمة ، وهو برهان معرفة الذات الإلهية المقدّسة.

\* \* \*

وفي الآية الثامنة إشارة إلى مسألة الرياح ونزول الأمطار بتعبيرٍ جديد ، فيقول : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحًا﴾.

هل أن المقصود من الآية الكريمة هو حمل حبوب اللقاح بواسطة الرياح لتلقيح النباتات التي ستحمل الفواكه والشمار من بعد ذلك ، أم المقصود هو تلقيح السحاب لكي يحمل المطر؟

وبالنظر لقوله في تكملة الآية : ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ ، فيظهر أن المعنى الثاني أكثر تناسباً ، بالرغم من إمكانية الاستفادة من المعنيين معاً. على أية حال ، فإنَّ التعبير أعلىه تعبيرٌ لطيفٌ جداً حيث شَبَهَ قطعَ الغيوم بالامهات والآباء ، فتتلاعَّح هذه الغيوم عن طريق الرياح ثم تحملُ ، وتَضُعُ جنينها أي قطرات الأمطار على الأرض!

ويشير في ختام الآية إلى المياه الجوفية المخزونة تحت الأرض ، والتي هي من الذخائر الإلهية للناس ، فيقول : ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾.

فنحن الذين أمرنا طبقات الأرض أن تحفظ بآمال الأمطار الصافية في داخلها ، وقد تكون الآبار والقنوات التي تستخدمونها اليوم هي من احتياطي المياه التي دُنِّحت لكم منذ ملايين السنين في باطن الأرض ، من غير أن تَتَلَوَّثَ أو تَتَعْفَنَ.

وقد نقوم بخزتها عن طريق تجميدها في قمم الجبال على هيئة جليد وثلج كي تصبح ماءً بشكلٍ تدريجيٍّ ، ونسقيكم أنتم وحيواناتكم ومزارعكم ، ورئما تكون المياه التي تنحدر من القمة الفلانية اليوم مخزوناً من ملايين السنين.

\* \* \*

وفي الآية التاسعة ، فبالاضافة إلى إشارته إلى نزول الأمطار من السماء ، فهو يشير إلى مسألة تكون الينابيع ، فيقول : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَّكَهُ يَنَابِيعُ﴾ . و «ينابيع» : جمع «ينبع» وتعني العين ، وهي في الأصل مأخوذة من مادة (نبع) وتعني انباث الماء من الأرض ، ومن الطبيعي إن تكون الينابيع في الأرض الذي يجعل الإنسان يستفيد من الماء الجاري بدون الحاجة إلى قوة أخرى ، يتبع ظروفًا خاصةً أو لها : أن تكون طبقة الأرض قابلة للاختراق كي يتغلغل الماء خاللها ، ثم يجب أن يكون ما تحت هذه الطبقة صلداً كي يتوقف الماء ويخزن هناك ، وأن يكون هناك فارق في المستوى بين خزانات المياه والمناطق الأخرى حتى ينساب الماء من هناك إلى بقية النقاط ، ومن المسلم به استحالة تناسق هذه الأمور لو لا تخطيط مبديء العلم والقدرة.

ويضيف في سياق الآية : ﴿لَمْ يُخْرِجْ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ .

فييمكن أن يكون اختلاف الألوان هذا إشارة إلى ألوان النباتات المختلفة تماماً ، أو إشارة إلى أنواع النباتات وأزهار الزينة والاعشاب الطبية والصناعية والخضروات التي يأكلها الإنسان والتي لها أنواع لا تختص في الواقع.

أجل .. إن الله تعالى يستخرج من هذا الماء الذي لا لون له مئات الآلاف من ألوان الورود والنباتات المنتشرة في هذه الرياض الكثيرة ، وكما يقول الشاعر نقاً عن اللغة الفارسية :

فإذا توصلت إلى أسرارها سترى  
حيث هناك واحده ولا يوجد غيره «وحده لا إله إلا هو»  
لهذا فهو يقول في نهاية الآية : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَاب﴾ .

\* \* \*

وقد أشير في الآية العاشرة إلى نكتةٍ جديدةٍ أخرى ، فيقول : **﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا﴾**.

و «مُعْصِرات» : جمع «مُعْصِر» من مادة «عَصَر» وتعني الضغط ، والمعصرات تعني الضاغطات ، وما هو المقصود هنا بهذا التعبير؟ لقد ذكروا تفاسير متعددة : فالبعض اتخذها صفةً للغيوم ، إذ اعتبرها إشارة إلى نظامٍ خاصٍ يتحكم بها عندما تراكم على بعضها ، فكأنما تعصِّر نفسها كي تجري الأمطار منها ، واعتبر هذا التعبير من المعاجز العلمية للقرآن الكريم <sup>(١)</sup>.

إلا أنَّ البعض الآخر اتخذها صفةً للرياح ، واعتبرها إشارة إلى العواصف الرملية والأعاصير الشديدة والرابع الترابية ، حيث لها تأثيرٌ عميق في تكوين الأمطار والرعد والبرق (علمًا أنَّ «الإعصار» يعني ريح ترتفع بالتراب أو مياه البحار).

فيقول هؤلاء .. أثناء هبوب العواصف الرملية الشديدة على سطح البحار والمحيطات فانكما تحمل معها البحار من على سطح المحيط ، وحينما تصل به إلى نقاط الجو العليا الباردة جدًا ، وحيث تكون قدرة إشباع البحار هناك ضعيفة ، يحصل الرعد والبرق الشديد ، وبما أنَّ «ثَجَاجًا» صيغة للمبالغة ، وهي من مادة «ثَجَّ» على وزن «حَجَّ» وتعني سكب الماء تتابعاً وبكثرة فهي تتناسب كثيرةً مع مثل هذا الرعد والبرق <sup>(٢)</sup>.

واعتبرها البعض إشارة إلى الغيوم التي تزامن مع العواصف الرملية والأعاصير <sup>(٣)</sup> ، فهذه العواصف تسوق الغيوم نحو الأعلى ، وتأخذها نحو مناطق الجو الباردة حيث تتبدل هناك إلى قطرات من الماء ، وبما أنَّ هذا العمل يتم سريعاً فهو يولد زوابع رعدية شديدة و«الماء الثَّجَاج» ، ونلاحظ كثرة مثل هذه الرابع الرعدية في فصل الربيع ولعله بسبب كثرة حالات الزوابع الرعدية والعواصف في هذا الفصل.

(١) راجع كتاب الريح والمطر ، ص ١٢٦.

(٢) اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة ، ص ٦٧.

(٣) التفسير الكبير ، ج ٣١ ، ص ٨ إذ ذكر هذا المعنى كأحد التفاسير لهذه الآية.

ويضيف في سياق هذه الآيات : ﴿لَنُخْرِجَ بِهِ حَبَّاً وَبَنَاتٍ وَجَنَّاتٍ الْفَافَا﴾ ، ويشمل هذا التعبير جميع أنواع النباتات والحبوب وأشجار الفاكهة.

\* \* \*

وفي الآية الحادية عشرة ، وبعد بيان ما جاء في الآيات السابقة : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ ، يرد ما يلي : ﴿وَأَنْزَلَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾.

وهذا موضوع جديدٍ حيث يستند إليه في هذه الآية.

و «الطهور» : صيغة مبالغة من «الطهارة» والنقاوة حيث تفيد طهارة الماء وكذلك كونه مطهراً ، ولو لم تكن للماء صفة التطهير لتلوثت كلُّ مقومات حياتنا واجسامنا وأرواحنا خلال يوم واحد ، ويمكن أن نلمس حقيقة هذا الكلام إذا ما ابْتُلِيَنا تارة بفقدان ماء للتنظيف ، حينها يصعب توفير الغذاء ، وستنعد نظافة الجسم والنشاط والطراوة والصحة والسلامة. صحيح أنَّ الماء لا يقتل الجراثيم ولكنَّه «مُذِيب» جيد فهو يقوم بتحليل أنواع الجراثيم وإزالتها ، ولهذا فهو عاملٌ مؤثرٌ في تأمين السلامة ، ويطهُر روح الإنسان من الأدران عن طريق الوضوء والغسل أيضاً.

وليس عيناً أن يأتي في الآية : ﴿لَنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتَةً﴾.

\* \* \*

ثم نواجه في الآية الثانية عشرة والأخيرة مسألةً جديدةً وهي أنَّ الله تعالى يسوق المياه إلى الأرض «الجُرْز» أي الجافة اليابسة الخالية من الكلا ، فيقول : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرْزِ﴾؟! ﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ﴾ ، فيأكلون الحبوب وتأكل بهائمهم السوق والأوراد والجذور.

ويستفاد من كلام أرباب اللغة أنَّ «الجُرْز» ماخوذة في الأصل من مادة «حرز» على وزن «مَرَضٌ» وتعني «الانقطاع» أي انقطاع الماء ، والنبات ، والإعمار والطراوة ، ولذا يقال

للناقة التي تأكل وتقطع كل شيء بـ «ناقة حروز» ، ولمن يأكل كل ما موجود على خوان الطعام ويفرغها تماماً بـ «رجل حروز» <sup>(١)</sup>.

ويقول في نهاية الآية داعياً إلى التفحص في هذه النعمة الإلهية العظيمة وآيات التوحيد

: **﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾**.

ولكن لماذا تقدمت «الانعام» على الإنسان في الآية المذكورة؟ يقول بعض المفسّرين : لأنّ الزرع أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان بالإضافة إلى أنّ الزرع غذاء الدّواب وهو لابدّ منه ، في حين أنّ للإنسان أغذية أخرى <sup>(٢)</sup>.

#### النتيجة :

يستفادُ جيداً من الآيات الآنفة وبالانتباه إلى المسائل الدقيقة والظرفية التي انعكست فيها ، أنّ هناك نظاماً دقيقاً جدّاً ومضبوطاً يسود وجود الرياح والغيوم والأمطار ، حيث كلّما أطّال الإنسان التمّعلن فيها تزداد معرفته بالظراوة والمنافع والبركات الكامنة فيها. فقد اعتُبر الماء في بعض هذه الآيات أساساً للحياة ، وفي بعضها وسيلةً للنظافة ، وفي بعضها كموجودٍ مباركٍ (سورة ق ، ٩) ، وفي البعض الآخر كمشروبٍ سائع **﴿مَاءً فُرَاتًا﴾**. (المرسلات / ٢٧)

ومن مجموع ذلك فاننا أينما وجهنا النظر وحدقنا نعثر على آثار حكمة الله البالغة ، وأينما يقع بصرنا تجلى لنا صورة من العظمة الإلهية.

\* \* \*

#### توضيحات

##### ١ . تكوين الرياح وفوائدها

إنّ مصدر حصول الرياح هو الاختلاف في درجة الحرارة بين منطقتين مختلفتين من

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ، ومصباح اللغة.

(٢) تفسير الكبير ، ج ٢٥ ، ص ١٨٧.

الأرض ، ويمكن تجربة هذا أثناء فصل الشتاء حيث يكون هواء الغرفة حاراً وفي خارجها بارداً ، فلو وضعنا شمعتي إضاءة عند طرف الباب العلوي والسفلي وفتحنا الباب قليلاً سيتضح هذا الأمر جيداً إذ إنَّ الهواء البارد وبسبب ثقله يدخل من الأسفل والهواء الحار يخرج من الأعلى لخفقته فيحرك شعلة الشمعة باتجاهه (إنَّ الهواء الحار يكون ممداً وخفيفاً والهواء البارد مضغوطاً ثقيلاً ، ولو لم تكن هذه الصفة وتتوقف الرياح عن الحركة فايُّ بلاً عظيم سينزل على الإنسان؟!).

كما نعرف أيضاً أنَّ للكرة الأرضية ثلات مناطق ، فالم منطقة الباردة «الأطراف القطبية» ، والحرارة جدأً «الممناطق الاستوائية» ، والمعتدلة (الممناطق التي تتوسط هاتين المنطقتين).

وهذا الاختلاف في درجات الحرارة على الأرض يكون سبباً في انتقال الهواء من جهةٍ إلى أخرى وأهله الرياح التي تُسمى «الرياح القطبية» (وهي الرياح التي تهبُّ من القطب نحو المنطقة الاستوائية ولأنَّها تكون باردةً فهي تسير بالقرب من سطح الأرض) ، والرياح «الاستوائية» (وهي الرياح التي تهبُّ من المنطقة الاستوائية نحو القطب وبما أنَّها تكون حارَّةً فهي تتحرك في طبقات الجو العليا) <sup>(١)</sup>.

فضلاً عن أنَّ ماء المحيطات لا يكون حاراً كحرارة السواحل أثناء شروق الشمس ، إضافة إلى أنَّ ماء البحر يفقد حرارته ليلاً أسرع ممَّا يفقده الساحل ، فهذا الاختلاف في درجات الحرارة بين ماء البحر والساحل يتسبب أيضاً في هبوب الرياح باستمرار من البر إلى البحر ومن البحر إلى البر أيضاً.

إضافة إلى كل هذا فإنَّ كروية الأرض تؤدي إلى أن تقع بعض المناطق في مواجهة الشمس مباشرةً (أثناء الظهر) ، وأنَّ تَسْعَ الشمسُ على المناطق الأخرى بشكلٍ مائلٍ (أثناء الشروق والغروب) ، فهذا الاختلاف في درجات الحرارة أحد أسباب حصول الرياح في مختلف المناطق أيضاً (وكذلك هناك عوامل معقّدة أخرى).

وتنطأف هذه الأسباب في تحريك الرياح فيسائر أنحاء الكورة الأرضية وتتزامن معها

---

(١) اعجاز القرآن في نظر العلوم المعاصرة ، ص ٦٥

الفوائد الجمّة التالية التي تمت الإشارة إليها في الآيات السابقة :

- ١ . للرياح نصيبٌ مهمٌ في تكوين الغيوم بسبب هبوبها على المحيطات.
- ٢ . إنّ الرياح تصطحبُ معها الغيوم إلى المناطق الحافة واليابسة ولو لاها لاحتراق جانبٌ كبير من الكرة الأرضية بسبب الجفاف.
- ٣ . إنّ الرياح تلطفُ الجوَّ وتخلبُ الاوكسجين الضروري من المناطق البعيدة.
- ٤ . إنّ الرياح تأخذ معها التلوث حيث تساعد في تنقية الجو عن هذا الطريق.
- ٥ . إنّ الرياح تقللُ من شدّة حرارة الشمس على أوراق النباتات ، وتنع احتراقها بهذه الأشعة ، وبصورة عامة فانّها وسيلة مهمّة لاعتدال الجو في بقاع الأرض.
- ٦ . إنّ الرياح . وكما قلنا في تفسير الآيات . تعصرُ الغيوم وتعُدّها لإنزال المطر.
- ٧ . إنّ الرياح تسوقُ الغيوم نحو طبقات الجو العليا ، وبسبب البرودة وفقدان قدرة تحمل الشباع تحول إلى قطرات مطرٍ تهبُّ الحياة.
- ٨ . إنّ الرياح تحرّك السفن الشراعية في المحيطات ، كما أنّها تُعتبر أحد المصادر المهمّة للطاقة.
- ٩ . تُستخدم الرياح لتشغيل الطاحونات الهوائية.
- ١٠ . إنّ الرياح تُعتبرُ وسيلة مهمة جدًا للمزارعين في تصفية الحنطة وغيرها وعزلها عن التبن.
- ١١ . إنّ الرياح تعملُ على تحريك مياه البحر فتحصل الأمواج وهذه الأمواج تؤدي بدورها إلى اختلاط الهواء مع الماء ، فيكون أساساً لحياة الموجودات في البحر ، ولو لا الرياح والأمواج لتبدل البحر إلى مستنقعٍ آسن لا حياة فيه.
- ١٢ . وختاماً فإنّ الرياح تساهم في تلقيح النباتات ، إذ تحمل حبوب اللقاح إلى الأجزاء الانثوية ، ولو تقاعست عاماً واحداً لتناقصت كمية الفاكهة المنتجة لدينا ! هذا جانبٌ من بركات هبوب الرياح الذي توصلَ إليه العلم البشري حتى الآن ومن المسلم به أنّ بركاتها لا تتحصر بما قلناه ، وينبغي الانتظار حتى يرفع العلم الحجابَ عن

أسرار جديدة ، ولكن كلاً من الامور المذكورة أعلاه يكفي لوحده أن يبرهن لنا على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا ، ناهيك عن مجموعها ، فكم هو رحيم ورؤوف ذلك الإله الذي يُكُنْ لعباده كلَّ هذا العطف والمحبة ، وكم مليئة بـ «البركة» تلك «الحركة» التي ترك كل هذه الآثار الإيجابية المهمة أثاء هبوب ذرات الهواء؟.

\* \* \*

## ٢ . أسرار تكوين الغيوم وهطول الأمطار

لا يخفى أنَّ الغيوم هي ذرَّات بخار الماء ، أو بتعبير أكثر دقة هي ذرات الماء التي انفصلت جزئياً عن بعضها وتحولت إلى بخار.

إنَّ التمعن في ما يخص تكوُّن الرياح والأمطار يكشف لنا أسراراً لطيفةً عن هاتين الظاهرتين العجبيتين ، منها :

١ . إنَّ أغلب السوائل لا تبخر إذا لم تصل إلى درجة الغليان ، إلَّا أنَّ الماء من السوائل المستثنية حيث يتبخر في أي درجة من الحرارة ، ولولا هذه الميزة في الماء لما تبخرت قطرة واحدة من ماء البحر ، ولما تكونت الغيوم ، ولما نزلت المطر ولاحتقت اليابسة من الجفاف.

٢ . وهذا ما يجدر بالاهتمام أيضاً ، فأنباء عملية التبخر يتبع الماء الصافي فقط ، وتبقى الأملاح والذرات الأخرى التي فيه في مكانها ، أي أنَّ هناك عملية تصفية طبيعيةٌ كي ينال البشر الماء الصالحة.

٣ . لو لم تكن الطبقات العليا من الجو أكثر برودة من الطبقات السفلية لما امطرت الغيوم المضطربة في الجو أبداً ، ولكن هذا الاختلاف في درجات الحرارة هو الذي يؤدي إلى نزول الأمطار ، وكذلك لو كانت قدرة إشباع ذرات البخار متساوية في الهواء البارد والحار لما نزلت الأمطار ، ولكن بما أنَّ الهواء البارد له قدرة إشباع ضعيفة فانه يُنزل البخار الذي تحول إلى ماء.

- ٤ . إنّ الأمطار إضافة إلى توفيرها للماء الضروري لنمو النباتات ، تقوم بغسل الأرض وتحمل الأوساخ معها نحو البحر.
- ٥ . إنّ الأمطار تُنظفُ الجوًّ أيضًا ، وتقوم بإنزال التراب والغبار والذرات المعلقة في الجو التي تذوب فيها إلى الأرض ، ولو لا هطول الأمطار لتلوّث الجو بعد مدةٍ قصيرة واستحالَ التنفس على الإنسان.
- ٦ . إنّ الأمطار تغسل صخور الجبال شيئاً فشيئاً ، ليخرج منها التراب الذي يمكن استثماره ، فتمتد السهول الواسعة على سطح الأرض.
- ٧ . إنّ الأمطار تحمل معها الاتربة الغنية من المناطق البعيدة وتنشرها في المزارع لتقويتها ، كما يجلب جريان الماء معه أفضل الأسمدة الطبيعية للنباتات إلى بعض المناطق «كسواحل النيل».
- ٨ . إنّ الأمطار لا تُحبُّ الحياة في المناطق الجافة فحسب ، بل إنّ هطول الأمطار على البحر يُعتبر مؤثراً للغاية أيضًا ، وليس أقل من تأثيره في المناطق اليابسة كما يقول بعض العلماء ، لأنّ سقوط الأمطار في البحر يساعد على نمو النباتات الصغيرة في وسط أمواج المياه ، حيث تكون طعاماً مناسباً جدًا للأسماك والاحياء البحرية ، وفي السنة التي يقلُّ فيها نزول الأمطار يسوء فيها وضع الصيد.
- ٩ . إنّ ارتفاع الغيوم عن سطح الأرض أكثر من ارتفاع أعلى نقاط الأرض وهذا فلا يُحرم أية بقعةٍ من الاستفادة من ماء المطر.
- ١٠ . إنّ العديد من أشجار الغابات والأعشاب الطيبة والغذائية تنمو على سفوح الجبال الشاهقة ، وهذا يدل على أنّ الأمطار تقوم بإيصال الكمية الالزمة من الماء إليها ، ولو لا الأمطار لاصبحت هشيمًا يابسًا.
- ١١ . لو تأملنا جيداً بالسدوذ الضخمة التي أنشئت في عصرنا هذا والتي تُؤمنُ جانباً مهماً من الطاقة الكهربائية في العالم ، وتقوم بتشغيل المعامل العملاقة لوجدنها من بركات هطول الأمطار على المناطق الجبلية.

١٢ . إنّ بعض ترشحات الغيوم تنزل إلى الأرض على هيئة جليدٍ فتتراكم على قمم الجبال كمصادر للمياه ، وتقوم بتغذية خزانات المياه الموجودة تحت الأرض أيضاً لأنّها تذوب تدريجياً وتندُّ داخل الأرض ، ولكن لو تساقط الجليد باستمرار بدلاً من المطر تندُّع عندئذٍ الكثير من المنافع التي ذُكرت.

١٣ . الغيوم بحار معلقة في السماء ، وما أعظم إله الذي يُرسل كلّ هذا الماء إلى السماء خلافاً لقانون الجاذبية ، ويقوم بنقله بسهولةٍ من نقطةٍ إلى أخرى.

١٤ . بالإضافة إلى كلّ هذا فإنّ للغيوم تأثيراً ملمساً في خفض درجة الحرارة شتاءً وخفض درجة الحرارة صيفاً.

١٥ . إنّ الغيوم تحمل الشحنات الكهربائية المختلفة حيث تؤدي إلى وقوع الرعد والبرق ، وسوف نتحدث عن هاتين الظاهرتين في البحث الذي يتعلّق بالرعد والبرق إن شاء الله.

وعلى العموم فإنّ هاتين الظاهرتين اللتين نعتبرهما من الأمور العادية جداً نتيجة لأنّنا بحثاً ، مدهشتان ومليئتان بالأسرار ، ويمكن مشاهدة آيات التوحيد العظيمة في أعماق أسرارهما ، والوصول إلى عظمة تلك الذات المقدّسة من خلال هذه الآيات العظيمة.

\* \* \*

### ٣ . الرياح والأمطار في الروايات

نقرأ في الحديث المعروف بتوحيد المفضل عن الإمام الصادق عَلَيْهِ الْأَكْثَرُ أَنَّهُ قال : «وانبهك يا مفضل على الريح وما فيها ، ألسنت ترى ركودها إذا ركدت كيف يحدث الكرب الذي يكاد أن يأتي على النفوس ، ويعرض الأصحاء وينهك المرضى ، ويفسد الثمار ، ويعقّب الوباء في الأبدان ، والآفة في الغلات ففي هذا بيان أنّ هبوب الريح من تدبير الحكيم في صلاح الخلق . ولو أنّ ملكاً من الملوك قسم في أهل مملكته قناطير من ذهب وفضة لم يكن سيعظم

عندهم ويذهب له به الصوت؟ فأين هذا من مطرة رواء؟ إذ يعمر به البلاد ويزيد في الغلات أكثر من قناطير الذهب والفضة في أقاليم الأرض كلها.

تأمل نزوله على الأرض والتدبّر في ذلك فاته جعل ينحدر عليها من علوٍ ليتفشّى ما غلظ وارتفاع منها فيروّيه ولو كان إنما يأتيها من بعض نواحيها لما علا على الموضع المشرفة منها ويقل ما يزرع في الأرض وبما يسقط عن الناس في كثير من البلدان مؤونة سياق الماء من موضع إلى موضع ، وما يجري في ذلك بينهم من التشاجر والتظام حتى يستأثر بالماء ذو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء. ثم إنّه حين قدّر أن ينحدر على الأرض اندثاراً جعل ذلك قطرأً شبيهاً بالرش ليغور في قطْر الأرض فيرويها ولو كان يسكنه انسكاباً كان ينزل على وجه الأرض فلا يغور فيها ثمّ كان يحطم الزرع القائمة إذا اندفع عليها فصار ينزل نزولاً ربيعاً فينبت الحب المزروع وفي نزوله أيضاً مصالح أخرى فاته يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء».

**ويقول في جانب آخر من الرواية :**

فَكَرْ يا مفضل في الصحو والمطر كيف يعتقban على هذا العالم لما فيه صلاحه ، ولو دام واحد منهمما عليه كان في ذلك فساده ، لا ترى أَنَّ الأَمْطَار إِذَا تَوَالَتْ عَفَنتَ الْبَقْولَ والْخَضْرَ وَاسْتَرْخَتَ أَبْدَانَ الْحَيَّوَانِ وَخَصَرَ الْهَوَاءَ فَأَحْدَثَ ضَرْبَوْيَاً مِنَ الْأَمْرَاءِ وَفَسَدَتِ الْطَرَقَ وَالْمَسَالِكَ وَأَنَّ الصَّحْوَ إِذَا دَامَ جَفَّتِ الْأَرْضَ وَاحْتَرَقَ النَّبَاتُ وَغَيَضَ مَاءُ الْعَيْوَنِ وَالْأَوْدِيَةِ فَأَضَرَّ ذَلِكَ بِالنَّاسِ وَغَلَبَ الْيَبْسَ عَلَى الْهَوَاءِ فَأَحْدَثَ ضَرْبَوْيَاً أُخْرِيَّ مِنَ الْأَمْرَاءِ فَإِذَا تَعَاقَبَ عَلَى الْعَالَمِ هَذَا التَّعَاقِبُ اعْتَدَلَ الْهَوَاءُ وَدَفَعَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَادِيَةَ الْآخِرِ فَصَلَحَتِ الْأَشْيَاءُ وَاسْتَقَامَتِ<sup>(١)</sup>.

**ونقرأ في حديث آخر عن الإمام السجاد عليه السلام :**

«أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُعْنِي الْمَطَرَ يَنْزَلُهُ مِنْ أَعْلَى لَيْلَةَ قَلْلَ جَبَالَكُمْ وَتَلَالَكُمْ وَهَضَابَكُمْ

(١) بخار الأنوار ، ج ٣ ، ص ١٢٦ - ١١٩ (مع الاختصار).

واوهادكم ثم فرقه رذاذاً ووابلاً وهطلاً لتنشفه ارضوكم ، ولم يجعل ذلك المطر نازلاً عليكم قطعة واحدة فيفسد أرضيكم وأشجاركم وزروعكم وثماركم»<sup>(١)</sup>.

٤ . لقد كشفت البحوث الحديثة للعلماء النقاب عن أسرار جديدة وبيَّنتُ التأثيرات المهمة للرياح في نزول الأمطار بكيفية جديدة حيث يُعتبر التوضيح الآتي نموذجاً منه (يجب توفر شرطين لتكوين الغيوم وهطول الأمطار) وهما :

١ . وجود بخار الماء في الهواء.

٢ . تشَبُّع الهواء بالبخار وتنقظيره.

أمّا فيما يتعلق بالشرط الأول فالرغم من أنّ الهواء لا يخلو على الاطلاق من بخار الماء وتبلغ ادنى نسبة له نحو ٥٠ غراماً في المتر المكعب ، إلّا أنّ هذا المقدار من الرطوبة لا يكفي لتكوين الغيوم ونزول الأمطار ، بل يجب امدادها باستمرار ، أي يجب أن يصل هواءً جديداً محَمَّلاً ببخار الماء بعد تكوين الغيوم ونزول الأمطار تباعاً ، ويستمر هبوب الرياح ، ويكون انطلاقها أو مسیرتها من البحر أو الغابات الكثيفة كي تنزود من الرطوبة بالمقدار اللازم.

وأمّا الشرط الثاني أي الوصول إلى حالة الاشباع وحصول ظاهرة التقطير (تعُرُّق الهواء وتحول البخار إلى سائل) فهذا يستلزم بروادة الهواء ، كما يحدث في الشتاء إذ يتعرّق زجاج شبابيك الغرف التي تحتوي على ما يكون البخار كالسماور والقدر ....

والعامل الوحيد المؤثر في بروادة الهواء الذي يوصله إلى مرحلة تكوين الغيوم والتنقظير هو ارتفاع الهواء وعلوّه ، ويحدث ارتفاع الهواء على ثلاثة أشكال أو في ثلات حالات ، وينزل في كل حالة منها مطرًّا خاصًّا وهي :

أ) اصطدام الهواء بالأجزاء البارزة من الأرض والصعود من وسط الجبال حيث تنتج عنه الأمطار الجبلية.

ب) حرارة وخفقَّةُ الهواء وصعوده السريع اثر اشعة الشمس وملامسة المناطق الحارة وتنتج عنه (أمطار العواصف).

---

(١) تفسير نور الثقلين ، ج ١ ، ص ٤١ ؛ بخار الأنوار ، ج ٥٦ ، ص ٣٤٤ . ٣٧٤ . أيضاً وردت روايةً أشارت إلى أسرار تكوين الغيوم والمطر.

ج) اصطدام جناحي الهواء الحار والبارد وتقلبهما وتنتج عنه (الأمطار الغزيرة) ، وأنَّ الغيوم والأمطار كافية تنشأ عن أحد هذه الحالات الثلاث واهمها النوع الأخير.

اذن فالهواء يرتبط بالغيوم والأمطار في كل المراحل فهو يتدخل ابتداءً من حمل البخار وايصاله إلى المناطق الجافة ، مروراً وانتهاءً بجزء الغيوم وانزال المطر ، وليس من الممكن حصول الغيوم والأمطار بدون الهواء ، ولالمعروف أنَّ الغيوم ليست سوى الهواء (أي الهواء المحمل بالملاء).

وورد في قسمٍ آخر من هذا البحث : «إنَّ قطرات الأمطار تحطل من الغيوم المتكونة من عدّة طبقات والتي ترتفع أكثر من عشرة كيلو مترات ، وهذه الغيوم العارية الصاحبة تظهر على هيئة جبالٍ حيث يُعطى القسم الأعلى منها بقضبان الثلوج وقطع الجليد وقد تكون متلقة بالبرد».

وحتى قبل الحرب العالمية الأولى حيث تكنت الطائرات حينذاك من الارتفاع فوق الغيوم وشاهد الطيارون الستاير المتكونة من الجليد والناشرة من الغيوم المتتصاعدة ، لم يكن لأي شخصٍ علمٌ بوجود الجليد والبرد في غيوم السماء.

«فالصعود المتقلب الاطبقي للرياح الرطبة والحرارة يؤدي إلى تكوين جبالٍ عاليةٍ من الغيوم المتجمدة التي تترافق مع الزوابع الشديدة وسط الرعد والبرق المتتابعين»<sup>(١)</sup>.

ويمكن أن يعطي هذا التوضيح تفسيراً جديداً للآية ٤٣ من سورة النور ويرفع الحجاب عن معجزة علمية لطيفة للقرآن الكريم ، حيث يقول : ﴿وَيُنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيُصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ فأيُّ جبلٍ في السماء توجُّد فيه قطع البرد؟ هذا السؤال الذي كان صعباً ومعقداً بالنسبة للكثيرين ، ولهذا فقد ذكروا له عدة تفاسير.

ولكن من خلال الاكتشافات أعلاه يتضح عدم الحاجة إلى التبرير والتقدير والمحاجز وامثال ذلك لتفسير الآية المذكورة ، ويتبيَّن معنى الآية في ظل هذا الأمر<sup>(٢)</sup>.

(١) الهواء والمطر ، ص ٥٧ . ٦٥ (مع الاختصار).

(٢) من أجل المزيد من الإيضاح يراجع التفسير الأمثل ، ذيل الآية ٤٣ من سورة النور.

## ١٢ . آياته في حدوث الرعد والبرق

### التمهيد :

هناك القليل من يولي ادنى اهتمامٍ لهاتين الظاهرتين السماويتين قبل دراسة أسرار الرعد والبرق ، وعادةً ما يُرِجعُ الجميعُ عليها مرورَ الكرام ، ولعلَّ بعضهم ينظرُ إليها وكأنَّها مزاجٌ الطبيعة ، كما يتحدثُ بعضُ آخرٍ حولها بقصصٍ خرافية ، إلَّا أنَّ الحقيقة هي أنَّ هاتين الظاهرتين تحدثان من خلال نظامٍ خاصٍ ، ولهمَا آثارٌ وبركاتٌ جديرةٌ باهتمامِ الإنسان حيث سيأتي شرحها في تفسير الآيات الآتية.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاسعين بعض آيات القرآن الكريم في هذا المجال :

- ١ . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْبِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا اَنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . (الروم / ٢٤)
- ٢ . ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَشِّئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ﴾ . (الرعد / ١٢)
- ٣ . ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ . (الرعد / ١٣)

\* \* \*

### شرح المفردات :

«البرق» : كما يقولُ الراغبُ في المفردات تعني في الأصل النورُ الذي يظهرُ من الغيوم ، ثم استعملت للتعبير عن كل شيءٍ ساطعٍ ، فمثلاً يقالُ للسيفِ اللامعِ : «السيفُ البارق».

إضافة إلى ذلك ، يستفاد من «مقاييس اللغة» أن «البرق» له معنى آخر ، وهو اجتماع السود والبياض في شيءٍ واحدٍ ، ولكنَّ الظاهر أنَّ المعنى الثاني يعود إلى المعنى الأول ، السود عندما يكون إلى جانب البياض يُبدي بريقاً أكثر ، كما اعتبر بعضُ مفهومَ الشدة والضغط جزءاً من معنى البرق أيضاً فيقولون : إنَّ البرق واللمعان يحدثان بشكلٍ خاصٍ من خلال الشدة والضغط <sup>(١)</sup>.

ويقول «الراغب» إنَّ «الرعد» هو صوت الغيوم ، ويستعمل كنایة أيضاً عن تحطمِ وسقوطِ الشيءِ الثقيل المترافق مع الصوت ، إلا أنَّ صاحب «مقاييس اللغة» ذكرَ أنَّ معناه الحقيقي هو الحركة والاضطراب ، ولكنَّ بصورةٍ عامة ، يستفاد جيداً من كتب اللغة أنَّ المعنى الحقيقي هو الصوت الذي ينطلق من الغيوم ، وبقية المعاني لها صبغةٌ كنائية. و «الصواعق» : جمع «صاعقة» ، وتعني في الأصل الصوت الشديد المهيب الذي ينطلقُ من الجو مصحوباً ببريقٍ ناريٍّ عظيم ، وجاءت هذه المادة أيضاً بمعنى الذهول بسبب سماعِ الأصوات القوية ، وقد تستعمل بمعنى الملائكة أيضاً.

وقال بعضُ أربابِ اللغة : إنَّ مواردَ استعمالِ الصاعقة ثلاثة وهي : «الموت» و «العذاب» و «النار» <sup>(٢)</sup> إلا أنَّ الظاهر أنَّ جميعها من لوازِمِ المعنى الحقيقي.

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### أسرار خلق الرعد والبرق :

تعتبرُ الآية الأولى من البحث بشكلٍ صريح ، أنَّ برقَ السماءِ من آياتِ الله فتقول :

**﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمْعًا﴾**. هذه الآية تارة تذكر الخوف وأحياناً الأمل والرجاء.

الخوف الناتج عن الصوت المهيب الذي يرافق الرعد ، واحتمال تزامنه مع صاعقةٍ

(١) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ، مادة (برق).

(٢) مفردات الراغب ، ولسان العرب ؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

ميتة ، والأمل والطمع بسبب احتمال نزول المطر ، لأنّه في كثير من الحالات يعقب الرعد والبرق زوابع مليئة بالبركة.

ولعلّه لهذا السبب يضيف في سياق هذه الآية : **﴿وَيَنَزَّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ**

**الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾**.

فالأرضُ اليابسة والمحترقة تحيى بقليلٍ من المطر والغيث الذي يهب الحياة ، بحيث تنتعش الأزهار والنباتات فيها وكأنّها ليست تلك الأرض السابقة.

ولهذا يضيف في نهاية الآية للتأكيد فيقول : **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقُلُونَ﴾**.

فهُمْ يفهمون أنّ هذه الظواهر ليست ظواهر عادّة تحدث صدفةً ، فيتفكرُون فيها ويعرفون على أسرارها.

\* \* \*

وورد هذا المعنى في الآية الثانية من بحثنا بتعيير آخر تعريفاً بالذات الإلهية المقدّسة عن طريق آثاره فيقول تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرَقَ حَوْفًا وَطَمَعًا﴾**.

الحوفُ من الصواعق والتفاؤل بنزول المطر ، أو خوف المسافرين ، وتفاؤل المقيمين في المدن والارياف.

واللطيف أَنَّه يقول بعد ذلك مباشرةً : **﴿وَيُنَشِّئُ السَّحَابَ التَّقَال﴾**.

وقيل في بيان هذه الجملة (تزامن مع العواصف القوية كُتلٌ من الغيوم ، فتغطى أعلى الجو القريبة من الأرض ، فيصبح الجو مظلماً ، وتتولد شحنات كهربائية نتيجة تلاطم الرياح ، وتحترز الأرض والجو بسبب صوت الرعد المتتابع ، وأخيراً فإنَّ الغيوم المتراكمة في طبقات الجو السفلي كثيفة ومحملة بكثير من قطرات الماء الكبيرة لذلك تكون ثقيلة للغاية على الرياح المحركة <sup>(١)</sup>).

\* \* \*

---

(١) الريح والمطر ، ص ١٣٨ .

ويشير في الآية الثالثة والأخيرة من بحثنا إلى ظاهرة «الرعد» فيقول : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ

بِحَمْدِهِ﴾ .

ويُبَيِّنُ هذا التعبير أنَّ هذه الظاهرة السماوية ليست مسألة عادية ، بل تُبَيِّنُ عن علم وقدرة الله تعالى ، لأنَّ «التسبيح» يعني التنزيه عن كل عيبٍ ونقص ، و «الحمد» تعني شكره مقابل الكمالات ، وعليه فانَّ صوت الرعد يتحدث عن الأوصاف الجمالية والجلالية لله تعالى !

ويمكن أن يكون هذا الكلام بلسان الحال ، كما يتحدثُ اختراعُ مهْمٌ عن علم ووعي المخترع ، أو لوحةٌ جميلةٌ جدًا عن الذوق الحاد للرسام ، أو قطعة شعرية عن الذوق الأدبي للشاعر ، فتمدحه وتشكره ، ف تكون لسان حالٍ ، كما قالَ بعض المفسرين بأنَّ لدى ذرات هذا العالم كافية عقلاً وشعوراً ، كل حسب حظه ، وتسبيحها وحمدها ينبع من العقل والشعور والإدراك .

يقول الفخر الرازي في تفسيره :

«فلا يبعد من الله تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق في أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع من الأفعال الاختيارية لله سبحانه وتعالى .

وكما هو تسبيح الجبال في زمن داود عليه السلام وتسبيح الحصى في زمان محمد عليه السلام » (١) .

فليكن أيُّ الاحتمالين ، فليس هنالك اختلافٌ في بحثنا ، وعلى كل حال فإنَّ هناك أسراراً حفيَّةً في هذه الظاهرة السماوية حيث تكشفُ عن عظمة الخالق وتمثل آيةً من آياته .

والمعروف أنَّ الماء والبخار ، والغيوم الناتجة منهما عناصر لا تنسجم مع النار ، ولكن بقدرة الخالق تنطلقُ منها نارٌ هائلة أكثر احرقاً من أنواع النيران الموجودة على الأرض كافة ، وكذلك البخار ، الجسم اللطيف جداً ، ولكن ينطلقُ منه صوتٌ لا ينطلقُ من سقوط أثقل وأقوى الأجسام .

(١) التفسير الكبير ، ج ١٩ ، ص ٢٥ .

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أنَّ كلاًً من «الرعد» و «البرق» من ظواهر عالم الوجود الجديرة بالاهتمام ويجب دراستها بجدية ، للتوصل إلى أسرارها ، والتعرف على عظمة الخالق عن طريقها ، وسيأتي هذا الأمر في قسم التوضيحات إن شاء الله تعالى.

\* \* \*

### توضيحان

#### ١ . الرعد والبرق في نظر العلم المعاصر

يعتقد العلماء المعاصرون أنَّ بريق السماء يحدث من خلال تقارب كتلتين من الغيوم المحملاة بالشحنات الكهربائية المختلفة واحدة موجبة والآخر سالبة ، فتُحدثان بريقاً كما يحصل من اقتراب قطبي الموصل الكهربائي تماماً.

وحيث تتحمَّل قطع الغيوم بالشحنات الكهربائية العظيمة يكون بريقها عظيماً أيضاً ، ونحن نعلم أنَّ لكلَّ بريق صوتاً ، وكلَّما اشتد البرق كلَّما تعاظم صوته ، ولهذا قد يكون الصوت المهيب لهذا البرق من الشدَّة بحيث يهُزُّ جميع المباني ويُحدث صوتاً كالقنابل الشديدة الانفجار.

ولكن البرق لا ينبع نتيجة اقتراب كتلتين من الغيوم دائمًا لتكون بعيدة عن متناول الإنسان ولا تُسبِّب أيَّ خطر ، بل قد تقترب الغيوم الحاوية على الشحنات الموجبة من الأرض ، وبما أنَّ الأرض تحتوي على الشحنات السالبة لذلك يحدث البرق بين «الأرض» و «الغيوم» ، وهذا البرق العظيم الذي يسمى بالصاعقة خطير للغاية ، فهو يُحدث هزة شديدة في المنطقة التي يقع فيها ، وكذلك يولد حرارة عالية جدًا بحيث إذا أصابت أيَّ شيء بتعلُّه رماداً <sup>(١)</sup>.

(١) مع أنَّ مدة الصاعقة لا تتجاوز عشرَ الثانية وقد تكون ١٠٠ من الثانية ، ولكن الحرارة التي تنتج منها تصل إلى ١٥٠٠٠ (سانتيغراد) بامكانها التسبب في حدوث اخطارٍ بالغة الشدَّة (حرارة سطح الشمس ٨٠٠٠ فقط) (اعجاذ القرآن ، ص ٧٨).

ونظراً لتجمع الشحنات على الأجزاء المدببة للأجسام ففي الصحراء التي تحدث فيها الصواعق ، يظهر البرق في النقاط المرتفعة كرؤوس الأشجار ، وحتى رأس الإنسان المار عبرها ، لذلك يعتبر التوقف في الصحراء أثناء الجو العاصف المليء بالرعد والبرق خطيراً للغاية ، وفي مثل هذه الحالات يمكن أن يزيل اللحوء إلى الوديان أو الاقتراب من الأشجار واسفل الجبال والتلال الخطر إلى حدٍ ما (إن الاتكاء على الأشجار والشبايب الحديدية لا يخلو من خطورة أيضاً).

ويتضح جيداً من خلال الإشارة أعلاه اخطار البرق وعامل الخوف الذي اشير إليه في الآيات الآتية.

## ٢ . فوائد وبركات الرعد والبرق

بالرغم من الاخطار التي تصحب الرعد والبرق أحياناً إلا أن هذه الظاهرة فوائد جمة سنشير إلى بعضها هنا :

أ) الري . من المعروف أن البرق يولد حرارة عالية جداً ، قد تبلغ ١٥ ألف درجة سانتيغراد ، وهذه الحرارة كافية لاحراق مقدار كبير من الهواء المحيط مما يؤدي إلى هبوط الضغط الجوي مباشرة ، ونحن نعلم أن الغيوم تُطرد أثناء هبوط الضغط ، ولهذا غالباً ما يبدأ نزول المطر عقب حدوث البرق وتنزل قطرات الأمطار الكبيرة ، وفي الواقع يعتبر الري من هذا الجانب أحد بركات البرق .

ب) رش السموم . عندما يظهر البرق بتلك الحرارة ، تتزود قطرات المطر بكميات إضافية من الاوكسجين ، فيحصل الماء الشغيل أي الماء المؤكسد (H<sub>2</sub>O<sub>2</sub>) ، ونحن نعلم أن من آثار هذا الماء هو القضاء على الجراثيم ، ولهذا يستعمل طبياً في تنظيف الجروح ، فهذه قطرات تقضي على بيوض الآفات المسببة لأمراض النباتات عندما تنزل إلى الأرض ، وتقوم برش السموم على أحسن وجه ، لذلك فقد قالوا : في كل سنة يقل فيها الرعد والبرق تزداد الآفات النباتية.

ج) التغذية والتسميد . إن قطرات المطر وأثر حدوث البرق وحصول الحرارة الشديدة الناتجة عنه وتركيبها الخاص ، تحصل على حالة من حامض الكاربونيك ، فتقوم بتكوين سمادٍ نباتيٍ مؤثِّر أثناء تناشرها على الأرض وتحللها فيها ، فستغذى النباتات عن هذا الطريق .  
ويقول بعض العلماء : إن كمية السماد الحاصل من حالات البرق في السماء خلال سنةٍ واحدة يبلغ عشرات الملايين من الأطنان ، وهذا رقم مرتفعٌ للغاية .

بناءً على ذلك نرى أن هذه الظاهرة الطبيعية العادلة وغير المهمة إلى أيٍّ حدٍّ مفيدةٌ وملائِقةٌ بالبركة؟ فهي تسقي ، وترش السموم أيضًا ، وتقوم بالتغذية ، وهذا نموذج صغيرٌ من الأسرار العجيبة لعالم الوجود حيث يصلح أن يكون دليلاً في الطريق لمعرفة الله .

كل هذا من بركات البرق ، ولكن الحرائق التي تنتج عن نوعٍ منه وهي الصواعق من جانبٍ آخر قد تحرق الإنسان أو الحيوان والمزارع والأشجار ، بالرغم من أن هذا الأمر قليلٌ ونادر الوجود ويمكن احتسابه ، إلا أنه بإمكانه أن يصبح عامل خوفٍ وهلَعٍ ، وعليه فإنَّ ما قرأناه في الآية السالفة بآنَّ البرق أساسٌ للخوف وأساسٌ للأمل أيضًا قد يكون إشارة إلى محمل هذه الأمور .

ومن الممكن أن تكون عبارة «**وَيُنْشِيُّ السَّحَابَ الشَّقَالَ**» الواردة في نهاية الآية لها ارتباط بميزة البرق هذه التي تؤدي إلى تحمُّل الغيوم بقطرات الأمطار .

\* \* \*



### ١٣ . آياته في خلق البحار والفلك

تمهيد :

نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الْمَاءَ يَغْطِي ثَلَاثَةَ أَرْبَاعَ سَطْحَ الْكُرْبَةِ الْأَرْضِيَّةِ ، وَأَنَّ الْمَحِيطَاتِ وَالْبَحَارِ تَرْتَبِطُ مَعَ بَعْضِهَا ، كَمَا نَعْلَمُ أَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ اسْتَهْمَرَ الْبَحَارَ لِلْحَمْلِ وَالنَّقْلِ مِنْذِ غَابِرِ الْأَيَّامِ عَلَى افْضَلِ وَجْهٍ ، بِالْإِضَافَةِ إِلَى اسْتِغْلَالِهِ بِجَانِبِهِ مِنْ الْمَوَادِ الْغَذَائِيَّةِ الْكَامِنَةِ فِي الْبَحْرِ ، وَكَذَلِكَ فَإِنَّ الْقَسْمَ الْأَعْظَمَ مِنْ مُخْنَلِفِ الْمَوَادِ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي الصَّنْعَاتِ تُسْتَخْرُجُ مِنْ الْبَحَارِ.

وَالْأَهْمَمُ مِنْ كُلِّ ذَلِكِ ، أَنَّهُ لَا يَخْفَى عَلَى أَيِّ شَخْصٍ دُورُ الْبَحَارِ فِي تَكْوُنِ الْعِيُومِ وَسُقْيِ الْأَرْضِيِّ الْيَابِسَةِ كَافَةً ، وَوَاضْعَفَ لِلْجَمِيعِ تَقْرِيبًا وَضُعُّ حَيَوانَاتِ الْبَحَارِ وَتَنْوِعُهَا وَعَجَابُهَا.

لِهَذِهِ الْأَسْبَابِ اعْتَبَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ الْبَحَارَ وَالْفَلَكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى التَّمَنُّ فِي أَسْرَارِهَا.

بَعْدَ هَذَا التَّمَهِيدِ نَيْمَمُ وَجْهُنَا صُوبَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَنَقْرَأُ خَاشِعِينَ الْآيَاتِ الْآتِيَّةَ :

١ . ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًاً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَارِخَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعِلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . (النَّحْل / ١٤)

٢ . ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرُانِ هَذَا عَذْبُ فُرَاتٍ سَاعِيْ شَرَابَةً وَهَذَا مِلْحٌ احْجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًاً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَارِخَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعِلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . (فاطر / ١٢)

٣ . ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعِلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . (الْجَاثِيَّةُ / ١٢)

- ٤ . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ إِنْ يَشَاءُ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلُنَّ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَارٍ شَكُورٍ﴾ . (الشوري / ٣٣ . ٣٢)
- ٥ . ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَارٍ شَكُورٍ﴾ . (لقمان / ٣١)
- ٦ . ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ... لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . (البقرة / ١٦٤)
- ٧ . ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَتَبَقَّعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ . (الاسراء / ٦٦)

\* \* \*

### شرح المفردات :

«البَحْر» : حسب قول الراغب في «المفردات» ، هو المكان الواسع الذي يتجمع فيه ماءً كثير ، كما يطلق على كل شيءٍ واسعٍ ، و «متبحر» أو «مستبحر» : يقال للشخص الذي يمتلك علماً واسعاً ، ويقال للتغيير الذي يحدث للعليل فجأة بـ «بُحران» (ثم اطلق لفظ «بُحران» على الحوادث الحادة) واعتبر بعضً أن الملوحة تدخل في مفهوم «البحر» علماً أن البحر يطلق على الماء العذب أيضاً<sup>(١)</sup> ، و «الْفُلْك» (على وزن قُفل) وتعني السُفن ، ويستوي فيها المفرد والجمع والمذكر والمؤنث ، ولفظ «فَلَكْ» (على وزن فَدَكْ) يعني مسیر ومدار النجوم تفرع من هذا الأصل.

و «الجَوَارِ» : جمع «جارية» وهي مأحوذة في الأصل من «الجري» أي العبور السريع ، ويقال «جارية» للسفن التي تجري وتحرك في البحر ، ويقال للشاشة في لغة العرب «جارية» أيضاً وذلك لنشاط الشباب الذي يملأ كل وجودها ، وجاء في «المصباح المنير» أن اطلاق لفظ «الجارية» على الخادمة لكونها مسحرةً لأوامر مولاهَا وتحري لانجذاب الأعمال باستمرار.

(١) صالح اللغة ، والمقاييس ؛ ومفردات الراغب ؛ وجمع البحرین ؛ ولسان العرب.

و «مواخر» : جمع «ماحرة» وتعني السفينة وهي من مادة «محْرٌ» (على وزن فَحْرٌ) كما تطلق على جريان الماء في الأرض وانفصالها ، وكذلك تطوير الماء من على جانبي السفينة ، كما تستعمل هذه المفردة لأصوات هبوب الرياح ، والظاهر أَهْنَا من لوازム المعنى الأول <sup>(١)</sup>.

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### عجائب البحار!

تقول الآية الأولى معرفة بالذات الإلهية المقدسة : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْجَنَّرَ﴾ .  
ويدلّ هذا التعبير على أنّ البحر بكل وجوده في خدمة الإنسان ، والحق كذلك ، فاول براعم الحياة تنتفتح في البحار ، وقد كان البحر فيما مضى وحاضراً مصدراً مهماً لانواع حاجات الإنسان وديمومة حياته.

ونلاحظ من سياق هذه الآية أَهْنَا أكدت على ثلاثة مواضع :

أولها : يستطيع الإنسان أن يستخرج من البحر حمّاً طریاً إذ يقول : ﴿لَتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ .

لحمٌ كثيرٌ لم يتحمل الإنسان عناء تربية مصدره أبداً ، ويكون طریاً بشكلٍ كامل وفي متناول يده في أغلب نقاط الأرض.

إنّ التأكيد على طراوة وطراحة هذا اللحم ، إضافة إلى إشارته إلى لذة لحم الأسماك ، فهو تذكيرٌ بهذه النكتة ، وهي أنّ الناس في تلك العصور والازمان كانوا يستفيدون من اللحوم المحققة بسبب المشكلات التي تواجههم في الحصول على اللحوم الطرية ، وهذه النعمة ذات أهمية خاصة ، وفي عصرنا وزماننا حيث تتوفر اللحوم القديمة والمحمّدة لأسباب مختلفة تتضح أهمية هذا التعبير.

ويقول بعض المفسرين : هذا التعبير إشارة إلى عظمة الله عَزَّوجَلَّ وقدرته في خلق اللحوم الطرية اللذيدة في المياه المالحة <sup>(٢)</sup>.

(١) مفردات الراغب ، والمصباح المنير ، التحقيق في كلمات القرآن ، ولسان العرب.

(٢) تفسير روح المعانى ، ج ١٤ ، ص ١٠٢ .

ويمكن أن يكون التعبير بـ «اللحم» إشارة إلى أنّ القسم الأعظم من جسم السمك يتكون من اللحم وفيه قليلٌ من العظام ، على العكس من بقية الحيوانات. وتتضخّح أهميّة هذه النعمة الإلهيّة أكثر من خلال الالتفات إلى أنّ استغلال لحوم الأسماك لتغذية البشر أصبحت تحظى باهتمامٍ بالغٍ بسبب ندرة المواد الغذائيّة. وثانيها : يذكر فائدة البحر في استخراج وسائل الزينة لا سيما الجوادر **﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾**.

فكأنّه يقول : يخرجُ من البحر المواد الغذائيّة الضروريّة جدًا و حتى الحاجات غير الضروريّة والكماليّة ، «وَكُلُّهَا مُسْخَرَةٌ لَكُمْ».

وثالثهما : يخاطب النبي ﷺ قائلاً : **﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾**. «إِنَّ اللَّهَ قَدْ مَنَحْكُمْ هَذِهِ النِّعَمَ كَيْ تَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ، لَعَلَّكُمْ تَؤْدُونَ شَكْرَ نِعَمَهُ﴾ **﴿وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**.

ومن أجل أن تتمكن السُّفُنُ من الإبحار في المحيطات والبحار واستخدامها كأفضل وسيلة لحمل ونقل السلع التجاريّة وتنقل البشر لابد من تظافر عدّة عوامل : نوعية القوانين التي تسودُ المواد الثقيلة والخفيفة التي تصونها على سطح الماء ، وتموج الماء ، وهبوب الرياح المنظم على سطح المحيطات ، والعمق اللازم للبحار ، فتتضافر كلها كي تتحرك السفن العملاقة على سطح المحيطات ، أمّا السُّفُنُ التي تعملُ بقوة البحار فهي أعظم ما صنَّعَهُ الإنسان ، وقد يكون حجم أحدّها بقدر مدينةٍ وتستطيع انجاز ما يعادل عمل عشرات الآلاف من السيارات لوحدها (إِنَّ السُّفُنَ الَّتِي تَسْتَوِعُ خَمْسَمِائَةَ الْفَ طنَ تَحْمِلُ ما يعادل حمولة ١٥٠ ألف سيارة ذات حمولة ١٠ أطنان!).

إِنَّ هذه المسألة بالإضافة إلى مسألة استخراج أنواع المواد الغذائيّة وغير الغذائيّة ومواد الزينة ، تعتبر دليلاً على علم وقدرة خالق الكون الذي وضع كل هذه النعيم في متناول يد الإنسان بمحاباً.

وفي الآية الثانية تكررت ذات التّعم الثالث التي اشير إليها في الآية السابقة (اللّحم الطري ، واللّحلي ، وحركة السفن في عرض البحار) أيضاً ، واستند إليها ، مع هذا الاختلاف حيث يشير في مطلع الآية إلى بحار الماء العذب والماء المالح فيقول : **﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبُحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابٌ وَهَذَا مِلْعُونٌ اجَاجٌ﴾**.

ومع أنّ أكثر مياه البحار على سطح الأرض مالحة إلّا أنّ بحار وبحيرات المياه العذبة ليست قليلة أيضاً ، حيث تشاهد نماذج عديدة منها في الولايات المتحدة ، وكثيراً ما يستفاد منها ، اضافة إلى الأنهار الكبيرة التي تصب في البحار المالحة وتتوغل فيها ، فتدفع المياه المالحة إلى الخلف ولا تختلط معها لفترة طويلة فتشكل بحراً من الماء العذب حيث يسقي كثيراً من السواحل أبناء المد والجزر ، مما يؤدي إلى ازدهار البساتين والمزارع الواسعة. ويعتبر الفخر الرازي في تفسيره هذين البحرين إشارة إلى المؤمنين والكافرين ، إلّا أنّ التمعّن في لحن الآيات يدلّ على أنّه لا يقصد هذا المعنى ، بل إنّ المدف هو بيان آيات وآلاء الله في عرض الخلق.

\* \* \*

وجاء الحديث في الآية الثالثة عن تسخير البحار للإنسان : **﴿اللّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ﴾**.

ولكن استند إلى مسألة الإباحار فقط من بين مختلف برّكات البحر ، والتي تمت الإشارة إليها في الآيات السابقة.

\* \* \*

وفي الآية الرابعة اعتبر السفن العملاقة التي تشبه الجبال المتحركة والتي تظهر على سطح البحر من آيات وآلاء الله ، فيقول : **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾**. حقاً .. مَنْ خلق المحيطات بهذه السعة والعمق والخصائص؟ ومن الذي منّح الخشب

والحديد هذه الميزة بحيث يطفو على وجه الماء؟ ومن الذي أمر الرياح أن تهب بشكل منظم على سطح البحار وتنعى الإنسان فرصة الانتقال من نقطة إلى أخرى ، ويستخرج ملايين الشروات عن طريق البحر؟

أليس هذا نظام مُتقن ومحكم ، وكذلك النظام السائد على قوة البحار والبرق دليل جلي على علم وحكمة الخالق جل وعلا؟

هنا يشبه القرآن الكريم السفن الضخمة بـ «الأعلام» و «الأعلام» جمع «علم» (على وزن قَلْمٌ) وتعني في الأصل (كما يقول الراغب في المفردات) الأثر الذي يحصل منه علم بوجود شيء ، كالعلامات التي توضع على الطرق ، وعلم العسكر ، ولهذا اطلق على الجبل اسم «علم» حيث يعتبر دليلاً واضحاً يبرر من بعيد ، ولهذا السبب شُبّهت السفن العملاقة بالجبل حيث تتضح من بعيد كالجبل.

واللطيف أن القرآن يقول عقب هذه الآية : ﴿إِن يَشَاءُ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيُظْلِلُنَّ رَوَادِهِ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ .

ولو شاء جعل الرياح مضطربةً وغير منتظمة بحيث لا تستطيع أي سفينة بلوغ هدفها ، بل يغرقها في البحر ، لذلك يكرر التأكيد في نهاية الآية : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ .

أولئك الذين استوعبوا آيات الآفاق من خلال الصبر والتحمل ، و يؤدون شكر هذه النعمة بعد إدراك الحقيقة ، ويرکعون على اعتاب ساحة القدس الإلهية العظيمة.

\* \* \*

وأشار في الآية الخامسة إلى هذا الموضوع أي حركة السفن في البحار كأحد النعم الإلهية العظيمة أيضاً ، مع هذا الفارق حيث يقول : ﴿لَيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ .

\* \* \*

وفي الآية السادسة أيضاً حيث يأتي البحث عن سبع آياتٍ من آيات الله ، فهو يذكر الفلك كآية ثالثة حيث تجري في البحر بما ينفع الناس : ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ ، ويؤكد في ختام هذه الآية أنَّ في هذه الامور آياتٍ من الذات الإلهية المقدسة وأياتٍ عن وحدانية الله لقوم يعقلون : ﴿لَا يَعْقُلُونَ﴾.

\* \* \*

وفي الآية السابعة يستند إلى رويته تعالى فيقول : ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُرْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ﴾ فلا تتبعوا الأوثان لأنَّها ليست بريكم.

وهنا نواجهه تعبيراً جديداً «يرجى» وهو من مادة «إرجاء» التي تعني «تسير الشيء بمداراة ورقة» بالنحو الذي ورد في ﴿مِصَابَحُ الْلُّغَةِ﴾ ، ويُستفاد من «مقاييس اللغة» بأنَّها تعني «التسير الدائم والمستمر» ، وهاتان المسألتان في حركة السفن على سطح المحيطات جديرتان بالاهتمام ، لا سيما في السفن الشراعية ، فالمعروف أنَّ الرياح تسوق السفن برفق واستمرارٍ.

فلو كان للرياح هبوبٌ شديدٌ ، أو تكون متقطعةً فانَّها تجعل السفن تواجه حركات واضطرابات قوية ، وقد تتوقف وتضيع في وسط البحر أيضاً ، إنَّ هذا التعبير يبيِّن أسراراً جديدة عن هذه الآية الإلهية.

ولهذا يستفاد من جموع الآيات السالفة أنَّ خلق البحار فوائد مختلفة حيث تعتبر كل منها آيةً من آياته تعالى ، لا سيما حركة السفن الدقيقة على سطح المحيطات.

وتعُرف النعمة دائماً بعد فقدانها ، فلولا البحار لم يتكلَّس القسم الأعظم من السلع التجارية التي تُنقل عبر المياه فحسب ، بل تختفي كميات كبيرة من المواد الغذائية واللحلي أيضاً ، وأهم من ذلك ، تندَم الغيوم ولا تُحطل الأمطار ، ويُحرِّر الهواء الجاف والحار جميع الكائنات الحية إلى القناء.

\* \* \*

## توضیحات

## ١. البحرُ مركز لأنواع النَّعْم

لم يكن هنالك أحدًّا عندما تكونت البحار ، كي يرى طريقة تكوينها ، إلأنَّ العلماء يعتقدون أنَّ كُرْتَنَا الأرضية بعد انفصالها عن الشمس كانت حارًّا وساخنة ، وبَرَدَت رويداً رويداً ، كالنفاحة الناضجة تعرج قشرُها وتَجَعَّد وحصل الانخفاض والارتفاع ، بُرِزَت الجبال والوديان والبحار.

على أية حال فإن البحر له تاريخ قسم جدًا وملئ بالأسرار ، ولكن الأهم من ذلك هي البركات والمنافع التي ينالها الإنسان اليوم من البحر حيث بإمكاننا أن ندرج قسمًا منها ، ولا يتسع هذا البحث المختصر لبيانها كلها :

١. إنَّ الْبَحْرَ لَهُ اِهْمَيَّةٌ بِالْعَلِيَّةِ فِي الْإِبْحَارِ وَحْمَلِ وَنَقْلِ النَّاسِ وَالسَّلَعِ التِّجَارِيَّةِ ، وَكَمَا أَشْرَنَا فَانَّ الْبَحَارَ تَعْتَبِرُ أَهْمَّ وَسَائِلَ الْبَشَرِ لِلْحَمْلِ وَالنَّقْلِ . لَا سِيمَى الْخَطُوطِ الْبَحْرِيَّةِ الَّتِي تَمْتدُ بِشَكْلٍ طَبِيعِيٍّ إِلَى بَقَاعِ الْأَرْضِ كَافَةً ، وَيَكْفِيْنَا الْالْتِفَاتُ إِلَى هَذِهِ الْحَقْيِقَةِ وَهِيَ صَنَاعَةُ الْبَوَارِخِ الْعَلْمَاقَةِ الَّتِي تَسْتَطِعُ أَنْ تَسْتَوِعَ (خَمْسِيَّةَ الْفَ طَنْ) مِنَ النَّفْطِ وَتَنْقِلُهُ إِلَى أَيِّ نَقْطَةٍ فِي الْعَالَمِ .

وهذا يلزم توفر (خمس وعشرين ألف سيارة ذات حمولة ٢٠ طناً) لحمل هذه البضاعة.

٢ . المواد الغذائية . ومن أهم الفوائد الأخرى للبحار هي المواد الغذائية التي يحصل عليها الإنسان منها .

فمن أجل معرفة أهمية هذا الأمر يكفيينا العلم بأنَّه يتم صيد ست وعشرين مليون طن من الأسماك سنوياً ، علمًاً أنَّ هذا الاحصاء يتعلق بثلاثين عاماً مضت ، ومن المسلم به أنَّ هذا الرقم قد تضاعف كثيراً في الوقت الحاضر .

وليس الإنسان وحده بل إنَّ الكثير من الطيور تحصل على طعامها من البحار أيضاً ، وهذا بحد ذاته اقتصاد في استهلاك المواد الغذائية الجافة .

فيقول بعض العلماء من خلال الاحصاءات التي قاموا بها : إنَّ الطيور البحرية التي تعيش على الجبال الساحلية والجزر الصخرية تستهلك لوحدها مليونين وخمسمائة الف طن من الأسماك سنوياً ! .

ونعلم أيضًا أنَّ جانباً مهماً من علف الدواجن يتم تأمينه من عظام أسماك البحر ، (نفس هذه الأسماك المصطادة) ، أي أنَّها تتدخل بصورة غير مباشرة في تغذية الإنسان .

٣ . الاعشاب والادوية . يحصل من كل هكتار من البحر خمسمائة طن من العلف الاخضر ، في حين أنَّ أفضل مزارعنا لا تنتج أكثر من أربعة أطنان وفي بعض البلدان يُستغل هذا العلف لتغذية المواشي ، ويُستعمل رماده سداداً للمزارع أيضًا .

ويستخرجون من الاعلاف البحرية مختلف المواد ، كالكحول الجامد والسلولوز والنشاء والمواد الجلاتينية ، حيث تُستثمر في الصناعات الكيميائية واعداد الطعام (وبعض الادوية) .

٤ . المعادن والنفط . إنَّ البحار غنيةً بالمعادن ، ويكمُّنُ جانباً من هذه المعادن في أعماقها ، ويعوم الجزء الاعظم منها على سطحها ، ومنها الفلزات التي يمكن استخلاصها من ماء البحر «المغسيسيوم» الذي يُستعمل في الصناعات ، وكذلك «البوتاسيوم» و«البروم» و«سلفات الصوديوم» وغيرها .

يقول العلماء إنَّ أكثر من أربعين عنصراً (عدا ما ذُكر) موجود في ماء البحر ، لها

قيمة

صناعية جديرة بالاهتمام ، كما ويعثر على الذهب في ماء البحر أيضاً ، غير أنَّ استخراج الكثير من الغازات ما زال يحتاج إلى ميزانية هائلة لا يمكن مقارنتها بالاستهلاك ، وقد يأتي اليوم الذي يتمكن فيه الإنسان من أن ينالها من خلال طريق أكثر يُسراً.

وتقوم بعض الشركات العملاقة بتصنيع أكثر من خمسين مادةً مختلفةً من معادن البحر ، حيث هنالك مليارات الأطنان من المعادن.

ويعتبر النفط . وهو من أثمن المستخلصات . من هدايا البحر ، لأنَّ المليارات من الموجودات البحرية توجد في أعماق البحار العظيمة ، وبما أنَّ القارات ارتفعت فيما بعد فقد دُفِتَ هذه الموجودات تحت الرمال التي تحولت إلى صخورٍ بعد ذلك ، وبقي النفط الناتج عنها في أعماق الأرض .

والملح هو أحد أهم المواد المعدنية التي تُستخرج من البحر ، له دورٌ مهمٌ في حياة الإنسان ، وقد ذكروا في السابق أنَّ الملح بلغ من الأهمية بحيث إنَّ جنود الروم كانوا يتقاضون رواتبهم على هيئة ملح ، وحتى في روسيا فقد اندلعت «ثورة الملح»! بسبب ارتفاع سعره . إنَّ أهم مصادر استخراج الملح هو البحر ، وحتى أنَّ بعض المناطق الملحيَّة الموجودة على اليابسة والتي يبلغ قطرها ٨٠٠ م هي من آثار البحار عندما كانت تغمر جميع بقاع الأرض .

لقد قدرُوا الاستهلاك العالمي للملح ب ٢٢ مليون طن سنويًا ، بحيث لو أراد الإنسان استهلاك مخزون الملح الموجود على اليابسة لنفاده عاجلاً أو آجلاً في حين أنَّ البحر مصدرٌ لا ينفد للملح ، فيمكن أن تؤمنَ أملاكُ البحر ما يحتاجه البشر لمدة مليون وسبعمائة الف سنة.

٥ . أفضل منتج للطاقة . لقد انتبه الإنسان منذ القِدَم إلى هذا الأمر ، وهو إمكانية انتاج الطاقة من خلال السيطرة على المياه المتراكمة بسبب المد ، وتنسحب أثناء حدوث الجزر ، فتستغل لتحريك المطاحن وغيرها.

وتفيد بحوث العلماء المعاصرین أنَّهُ يُمْكِنُ انتاج الكهرباء بكمية كبيرة من هذه البحار ، وأنْ يستعانَ بها بصفتها أهم مصدرٍ لانتاج الطاقة ، فالجزر والمد اللذان يحدثان مرتين ليلًا ونهاراً بتأثير جاذبية القمر يقومان برفع وخفض ماء البحار بقدارٍ كبيرٍ ، وهذا الأمر إضافة إلى مسألة الطاقة التي اشير إليها فهو يؤثر في سقي المناطق الساحلية ، لأنَّ مصبات الأنهار التي تصب في البحار تمثل بحراً من الماء العذب ، فيندفع ماء الساحل العذب إلى الخلف ويعطى كثيراً من الأراضي ، لذلك سخر البشرُ منذ القديم أراضيًّا واسعةً للزراعة من خلال شق الأنهار في مثل هذه المناطق.

ولعلَ هنالك الملايين من أشجار النخيل في سواحل الخليج الفارسي حيث تُسقى بنفس هذه الطريقة فقط ، لأنَّ الماء يتراجع إلى مسافات بعيدة عن الساحل ، فهذا الماء العذب الفرات الذي يجاور الماء المالح الاجاج ولا يختلط معه يعتبر ثروةً عظيمةً لسكان السواحل.

٦ . وسائل الزينة المختلفة . من المنافع الأخرى للبحار التي دُرِّجت بشكل خاص في الآيات المذكورة هي وسائل الزينة التي تُستخرج من البحر ، كاللؤلؤ الذي ينمو في نوعٍ خاصٍ من الصدف ، والمرجان الذي هو نوع من الاحياء البحرية ، ولكن على هيئة اغصان أشجار لها منظر جميل ومرغوب ، اضافة إلى صفةِ الزينة فهو يُستعمل في الطب أيضاً.

٧ . تلطيف الجو عن طريق البحار . ليست الرياح التي تهبُ من البحار نحو اليابسة هي التي تُرْطِبُ وتُلَطِّفُ الجو فقط ، بل هنالك أنهاراً عظيمةً متحركة في قلب محيطات العالم تتحرك من المناطق الحارة إلى المناطق الباردة وبالعكس ، وبصورة عامة لها أثرٌ بالغٌ في تلطيف الهواء على الكره الأرضية.

وواحدٌ من أعظمها هو «غولف استريم» ، هذا النهر العظيم الذي يتحرك من سواحل أمريكا الوسطى ويطوي المحيط الأطلسي ، ثم يصل إلى سواحل شمال اوربا ، وهذه المياه تكون حارةً حينما تتحرك من المناطق القريبة من خط الاستواء ، حتى أنَّ لوتها يختلف أحياناً عن لون المياه المجاورة لها ، واللطيف أنَّ عرضَ هذا النهر البحري العظيم أي «غولف

استريم» نحو مائة وخمسين كيلو متراً ، وعمقه عدة مئات من الأمتار<sup>(١)</sup> ، وتبعد سرعته في بعض المناطق حداً بحيث يقطع مائة وستين كيلو متراً في اليوم ، وتحتفل درجة حرارته عن حرارة المياه المجاورة ب ١٥ . ١٠ درجة.

إن «غولف استريم» يتسبب في حصول رياح حارة ، ويعطي نسبة كبيرة من حرارته إلى البلدان الواقعة شمال أوروبا ، فيعمل على تحسين جوّها ، ولولا هذا الجريان لتعسرت الحياة كثيراً في هذه البلدان واستحالت في بعضها.

والعجب أن هذه الأنهار البحرية العظيمة والتي يكمن السبب الرئيس وراء ظهورها في التفاوت في درجة حرارة المناطق الاستوائية والمناطق القطبية قليل ما تمتزج بالمياه المحيطة بها ، وتطوي آلاف الكيلو مترات بهذا الشكل ، فهي مصداق لطيف ل﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ \* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾<sup>(٢)</sup> . (الرحمن / ٢٠ و ١٩)

٨ . استثمار ماء البحر طيباً . لا حاجة لتوضيح أن ماء البحر له آثار مفيدة لجسم واعصاب الإنسان ، ولهذا ينتشر اليوم وفي معظم مناطق العالم استثمار ماء البحر لعلاج بعض الأمراض الجلدية والعصبية ، أو لحفظ الصحة والسلامة ، ولو تم القضاء على التلوث الأخلاقي في هذا المجال لأصبح استثمار ماء البحر مصدراً لسلامة ونشاط الناس.

٩ . المصدر الرئيس للمياه الجوفية . إن أهم وأعظم وأكثر فوائد البحر هي الابخرة التي تتصاعد منه ، ثم تولف الغيوم ، وتساق هذه الغيوم نحو المناطق اليابسة والجافة ، فتحببها ، حيث ذكر ذلك في فصل الريح والأمطار بشكل مفصّل.

١٠ . توفير الماء العذب . يتنبأ في الكثير من المناطق التي يصعب الحصول على الماء العذب ، تأمين هذه المادة الحياتية من خلال تقطير ماء البحر فتصبح المناطق المهجورة مسكونة بسبب ذلك.

هذا جانب من منافع وبركات البحار التي وقف عليها الإنسان حتى هذا اليوم ، وليس

(١) وقد ذكر في بعض الكتب أن عمقة يصل في بعض المناطق إلى (٨٠٠) م (البحر والمعجزات ، ص ٤٦).

(٢) لمزيد من التوضيح في هذا المجال يراجع التفسير الامثل ، ذيل الآية ١٩ و ٢٠ من سورة الرحمن.

معلوماً ما حجم المنافع التي سينالها الإنسان في المستقبل ، وهنا نقف على عظمة هذا التعبير القرآني : ﴿وَسَخَرَ لَكُمُ الْبَحْر﴾<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

## ٢ . البحر عالم العجائب

لو فكرنا جيداً فانَّ جميع الموجودات في العالم تبعث على الدهشة ، ولكن لا يشبة أيٌ منها الاحياء التي في أعماق البحار ، وقد ذكر بعض العلماء أنَّ عدد أنواع الاحياء البحرية التي تمت معرفتها مائة وأربعون الف نوع ، علمًا أنَّ عدد هذه الأنواع كثيرٌ للغاية على سطح المحيطات ، ولكن كُلُّما نفذنا في الأعماق فاَنَّا تقلُّ ، أو على الأقل تقلُّ معلوماتنا عنها.

والمسألة المهمة التي تخص البحار هي أنَّ التصور كان ينصب على عدم وجود أيٌ كائن حيٌ في أعماق البحار ، لأنَّ أشعة الشمس تنفذ إلى عمق ١٠٠٠ متر في الماء فقط ، وتخفي نهاية الأشعة في مثل هذا العمق ، فيُعطِي كُلُّ شيء في «ظلام دامس». بالإضافة إلى أنَّ ماء البحر يكون بارداً جدًا في هذه المنطقة ، والأهم من ذلك الضغطُ الذي يولده الماء على موجودات تلك المنطقة ، لأنَّ ضغط الماء في عمق كيلو متر واحد يكون في نحو من مائة كيلو غرام لكل سنتيمتر مربع واحدٍ ، ومن المسلم به لو كان الإنسان هناك مجرّدًا من ملابس الوقاية لتحطم وسُحقت عظامه<sup>(٢)</sup> ، وهذا لا يمكن النزول في البحار بعمق عشرة أمتار فأكثر بدون ملابس واقية ، ولا بدَّ من استخدام الواقيات الفولاذية السميكة أثناء الغوص في الاعماق ، وإلا لدَمَرَ ضغط البحر كُلَّ شيء ، ولا يمكن الذهاب بكل وسيلة إلى الأعماق في بعض المراحل بسبب عدم وجود شيء يقاوم الضغط.

(١) ثُرَاجُع كتب : البحر دار العجائب ؛ وأسرار البحر ؛ وعجائب البحر ؛ ونشرة المباني والبحر ؛ رسالة الثقافة ، ج ١٢ ؛ وأفضل الطرق لمعرفة الله.

(٢) إنَّ الغواصين يغوصون إلى عمق ٣٠ متراً فقط بدون ملابس الغوص وإلى عمق ١٥٠ متراً بملابس الغوص ، في حين أنَّ ضغط الماء يبلغ ٧ أطنان لكل انج مربع في أعمق نقاط البحر (البحر دار العجائب ، ص ٨٩).

على أية حال فقد اثبتت بحوث العلماء فيما بعد أن هناك في أعماق البحر موجوداتٍ حيةً كثيرةً وعجيبةً ، حيث تقوم بإبطال مفعول الضغط العجيب للماء من خلال الضغط الداخلي الموجود فيها.

ولا تنمو الحشائش هناك كي تستفيد منها الاحياء الموجودة في قاع البحر ، لكن يد القدرة الإلهية تقوم بتهيئة الغذاء اللازم لها والذي هو عبارة عن المواد النباتية المختلفة على سطح المحيط وتحت ضوء الشمس ، وبعد إعداده ينزل إلى سكان أعماق البحر على هيئة مائدةٍ سماوية ، وتترسب هناك ، بالإضافة إلى الاحياء الموجودة على سطح الماء التي تموت حيث تُعد جثثها طعاماً لذيذًا للموجودات الحية في قاع البحر.

ولكن لنرَ كيف تُحل مشكلة الظلام الدامس؟ فقد وفرَت القدرة التي خلقت هذه الموجودات للعيش في هذه المنطقة والنور اللازم لها ، لأنَّ اغلب هذه الاحياء تقوم باشعاع النور منها ، نورٌ كنور ليلة مقمرة من ليالي الصيف فتضيء ذلك المحيط.

وينطلق نورٌ احمر من رأس نوع من الأسماك ، ومن ذيل اخرٍ نورٌ ازرق ، وينشر بعضُ الأسماك نوراً باللون الاحمر والابيض والازرق.

يقول أحد العلماء : إنَّ أكثر المناطق عجباً في البحر ليست قرب سطح الماء ولا قاع المحيط ، بل هي المنطقة التي تتوسطهما ، فليس لها سماءً فوقها ولا أرضٌ تحتها ، وإنما يحيط الماء بكل شيء ، ولا مأوى للموجودات التي تحبّ هناك ، فهي في حركةٍ مستمرة ، وهناك الأسماك التي تُحير العقول ، فاسنانُ بعضها طويلٌ بالقدر الذي لا تتمكن من أن تغلق فمها أبداً نوعٌ من الأسماك يتسع بطنُه بحيث يتمكن من ابتلاع سمكةٍ تعادل حجمه ثلاث مرات ، وقد اطلق على هذه الأسماك أسماءً عجيبةً وغريبةً مثل «البائع الأسود» و «الأفعى البحرية» و «ثعبان السمك»!

لترك قعر المحيط ونأت إلى سطح الماء فهناك عجائب أيضاً ، وهناك أسماك كلٌ منها اعجب من الآخر ، منها الأسماك ذوات الشحنة الكهربائية حيث تستطيع انتاج كميات كبيرة من الكهرباء بایعاز من الدماغ ، إذ تصيب العدو أو الفريسة بالشلل ، تلك الشحنات الخطيرة حتى على الإنسان أيضاً.

و «الأسماك الطائرة» التي تخرج من الماء وتطير إلى مسافة ستين متراً ، وتقفز أحياناً أعلى من الأشجار.

و «السمك ذو الدواة» الذي يفرز مادةً سوداء اللون في ماء البحر للاختفاء عن العدو والافلات منه ، كما يُصنع اليوم في الحروب التقليدية ، حيث يُملاً ميدان المعركة بالدخان كي يتوارى الأشخاص عن العدو.

و «السمك المائدة» أحد الأنواع العجيبة للسمك ، حيث تكون عريضةً وكبيرة جدّاً ، إذ تبسط نفسها على سطح المحيط فتشكل مائدة ، وبمجرد وقوع الفريسة على هذه المائدة تجتمع أطرافها المنسوجة عليها وتنشغل بأكلها.

يعيش في البحر أصغر الاحياء ، وأكبرها أيضاً ، إذ يبلغ طول الحيتان الموجودة في البحر ثلاثين متراً ، وقطرها أكثر من أربعة عشر متراً ، ويبلغ طول فكّها أكثر من سبعة أمتار ، وزنُ لسانها ثلاثة أطنان ، وزن قلبيها نصف طن ، وزن كبدتها طناً واحداً ، ويبلغ طول وليدتها سبعة أمتار أحياناً<sup>(١)</sup>.

وكان طول احدى الحيتان التي تم اصطيادها في جزائر «نيو جورجيا» ثلاثة وثلاثين متراً ، وزنها مائة وخمسة وعشرين الف كيلو غرام<sup>(٢)</sup>.

وكذلك هناك نباتات مجهرية ، ونباتات يبلغ طولها خمسين متراً تعيش في البحار أيضاً.

\* \* \*

### ٣ . البحر في كلام المعصومين عليهم السلام

وهنا نترئّم بهذه الجملة المشهورة في دعاء الجوشن من خلال عالم من الخشوع والإخلاص ولنُقل : «يا مَنْ في البحار عجائبُه»<sup>(٣)</sup>.

(١) عجائب البحر ، ورسالة الثقافة.

(٢) البحر دار العجائب ، ص ١٢١ .

(٣) دعاء الجوشن الكبير ، الفقرة ٥٨.

في ذلك اليوم حيث رُويت هذه العبارة في دعاء الجوشن عن النبي ﷺ لم تزل أسرار البحار غير مكشوفة لأحد ، واليوم تتحلى لنا عظمة هذه العبارة أكثر من أي وقت.

وورد في دعاءٍ ومناجاةٍ أخرى لأمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَفَافُ حيث يقول :

«أَنْتَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ عَظِيمُكَ ، وَفِي الْأَرْضِ قُدْرَتُكَ ، وَفِي الْبَحَارِ عَجَابُكَ» <sup>(١)</sup>.

ونواصل هذا البحث بحديثٍ آخر عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَفَافُ حيث يقول :

«سَحَرَ لِكُمُ الْمَاءَ يَغْدُو عَلَيْكُمْ وَيَرُوحُ صَلَاحًا لِمَا يَعِيشُكُمْ وَالْبَحْرُ سَبَبًا لِكَثْرَةِ أَمْوَالِكُمْ» <sup>(٢)</sup>.

ونختم هذا البحث بمقطعٍ من الحديث المشهور بـ «توحيد المفضل» عن الصادق عَلَيْهِ الْكَفَافُ ، إذ يقول عَلَيْهِ الْكَفَافُ :

«فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْرِفَ سُعَةَ حِكْمَةِ الْخَالِقِ وَقُصْرَ عِلْمِ الْمَخْلُوقِينَ ، فَانظُرْ إِلَى مَا فِي الْبَحَارِ مِنْ ضَرُوبِ السَّمْكِ وَدَوَابِ الْمَاءِ ، وَالاِصْدَافِ وَالاِصْنَافِ الَّتِي لَا تَحْصِي وَلَا تَعْرِفُ مَنَافِعَهَا إِلَّا الشَّيْءُ بَعْدَ الشَّيْءِ يَدْرِكُهُ النَّاسُ بِأَسْبَابِ تَحْدِثُ ؛ مِثْلُ الْقَرْمَزِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا عَرَفَ النَّاسُ صِبَغَهُ بِأَنَّ كَلْبَةَ تَحُولُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَوُجِدَتْ شَيْئًا مِنَ الصَّدَفِ الَّذِي يُسَمَّى «الْحَلَزُونَ» فَأَكَلَتْهُ فَاخْتَضَبَ خَطْمَهَا بِدَمِهِ فَنَظَرَ النَّاسُ إِلَى حَسْنِهِ فَاتَّخَذُوهُ صَبِيعًا ...» <sup>(٣)</sup>.

نعم .. ففي البحر موجوداته ونباته وغيرها منافع وبركاتٌ تتكتشفُ عنها المزيد من الأسرار في كل يومٍ يُمرُّ من حياة البشر ، وتظهر لهُ فوائدٌ جديدةٌ بحيث تجبر الإنسان على الخضوع إلى خالق هذه الْعِزَمِ.

\* \* \*

(١) بخار الأنوار ، ج ٩٧ ، ص ٢٠٢.

(٢) المصدر السابق ، ج ٦٠ ، ص ٣٩ ، ح ٣ (باب الماء وانواعه والبحار).

(٣) المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٠٩ (حديث المفضل).

## ١٤ . آياته في خلق الظلال

تمهيد :

هل أنَّ الظُّلُمَ شَيْءٌ يُمْكِنُ مِنْ خَلَالِهِ أَنْ تَسْتَدِلَّ عَلَى خَالِقِ الْعَالَمِ؟ نَعَمْ .. فَقَدْ تَمَّتْ الإِشَارَةُ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى هَذِهِ الْمُسَأَلَةِ الَّتِي تَبَدُّو عَادِيَّةً أَشَاءَ وَصَفَ نِعَمَ الْخَالِقِ جَلَّ وَعَالَهُ وَالْتَّعْرِيفُ بِالْذَّاتِ الْإِلهِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ ، فَهُوَ تَعَالَى يَرِيدُ بَيَانَ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، وَهِيَ أَيْنَمَا يَقْعُدُ بِصُرُّوكَ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْمُلْيَّ بِالْعَجَابِ وَالْأَسْرَارِ فَإِنَّ عَظَمَتْهُ تَنَجُّلِي فِيهِ ، وَبِرَاهِيْنُ حَكْمَتِهِ وَقَدْرَتِهِ مَكْتُوبَةٌ فِي جَبَنِ كُلِّ الْمُوْجَودَاتِ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا.

بَعْدَ هَذَا التَّمَهِيدِ نَتَأْمِلُ خَاطِئَيِنِ فِي الْآيَاتِ الْآتِيَّةِ :

١ . ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَ الظُّلُمَ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ . (الفرقان / ٤٥ . ٤٦)

٢ . ﴿اللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيُّكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيُّكُمْ بِأَسْكُنْ كَذَلِكَ يُتْمِ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ . (النحل / ٨١)

٣ . ﴿أُولَئِنَّمَنْ يَرَوُا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ . (النحل / ٤٨)

٤ . ﴿وَلَلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَابِ﴾ . (الرعد / ١٥)

\* \* \*

## شرح المفردات :

«ظلل» : جمع «ظل» إلَّاَنَ العَالَمُ وَالْمُفَسَّرُ الْمُعْرُوفُ «الراغب» يقول في كتاب «المفردات» : أيٌّ مَكَانٌ لا تشرق فيه الشمس يُعتبر ظلًا سواء أشرقت عليه سابقاً أم لا ، ولكن «الفيء» على وزن «شيء» ، يقال للمكان الذي أشرقت عليه الشمس سابقاً ثم غطاه الظل.

في حين أن بعض أرباب اللغة اخْدَلَ الْأَثْنَيْنِ بِمَعْنَى وَاحِدٍ ، وقال البعض إن «الظل» هي الظلال التي تنزل أثناء الصباح ، و «الفيء» يُطلق على الظلال التي تنزل عصراً ، إلَّاَنَ المعنى الأول يتناصف كثيراً مع حالات استعمال هذين اللفظين. ويطلق لفظ «الظل» كنائِيَّةً في مورد العَرَةِ والمنعَةِ والرِفَاهِ والرَاحَةِ لِأَنَّ مِنَ الْمُعْرُوفِ أَنَّ هذه الأحوال تحصل في الظل<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

## جمع الآيات وتفسيرها

## هل إلَّاَ الظَّلَّ نَعْمَةٌ عَظِيمَةٌ؟

إِنَّ الْحَدِيثَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ عَنِ الظَّلَالِ ، وَالْمُسَأَلَةُ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا عَادِيَةً لِكَنَّ التَّفْحُصَ فِيهَا يَمْكُنُ أَنْ يُقْرَبَنَا وَيُعْرَفَنَا أَكْثَرَ بِخَالِقِ هَذَا الْعَالَمِ.

فِي الْآيَةِ الْأُولَى يَخَاطِبُ النَّبِيَّ ﷺ قَائِلًا : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَيْكَ كَيْفَ مَدَ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾.

ويضيف في نهاية الآية قائلاً : ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ ذِلْلًا﴾ ، ويضيف في الآية التي تليها : ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

وهنا ما المقصود بهذا الظل الذي يُمْدُدُ الباري تعالى ثم يجمعه تدريجياً؟ قال بعض المفسرين : المقصود هو ظل الليل حيث ينبعض على جميع سطح الأرض وينقبض بنحو متناوب ، ويعتبر وجود الشمس دليلاً وإشارة عليه ، إذ ﴿تَعْرُفُ الْأَشْيَاءُ بِاِضْدَادِهَا﴾.

ويعتبر البعض إشارةً إلى الظل الذي يمتد بين الظواعن (بين طلوع الصبح وطلوع

(1) لسان العرب ؛ ومفردات الراغب.

الشمس) ، فيغطي وجه الأرض وهو أفضل الظلال والساعات.  
واعتبره البعض بمعنى الظلال التي تحصل أثناء النهار بسبب اصطدام ضوء الشمس  
بالمجال والأشجار وبقية الأجسام ، ثم ينتقل تدريجياً.

من هنا حيث لا تعارض هذه التفاسير الثلاثة ، وما أن تعبير الآية مطلق وجامع ،  
فيتمكن أن يكون إشارة إليها كلها إذ إن كلاً منها نعمةٌ ثمينة.

إننا نعلم أن الليل في الواقع هو ظل نصف الكرة الأرضية الذي يقع أجزاء الشمس ،  
الظل المخروطي الشكل الذي يمتد في الفضاء في الجهة المقابلة ويتحرك باستمرار ، ولو ظل  
الليل لاحترقت كافة الكائنات الحية بفعل ضوء الشمس والحرارة الناتجة عنه ، وهل ذلك النسل  
البشري بسرعة.

وكذلك لو لا وجود سائر أنواع الظلال ، ولو كان الإنسان مجبراً على قضاء النهار  
تحت الشمس لوقع في حرجٍ بالغٍ ، وأصبحت الحياة شاقةً بالنسبة له لاسيما في فصل  
الصيف ، إن الله تعالى فتح الظل للإنسان كي ينال الراحة والاستقرار هو ومن يتعلق به.

وبتعبير آخر فإن بعض الأشياء خلقت «معتمة» ، والبعض خلق «شفافاً» بحيث  
يعبر النور من خلاله ، فلو كانت كل الأشياء شفافةً فلا وجود للظل أطلاقاً وستبدل حياة  
الإنسان مقابل ضوء الشمس المستمر إلى جهنم محرقة ، وإذا تفكّر الإنسان قليلاً في هذا  
المجال فسيتعرف على عظمة وأهمية هذه النعمة ويتمنى من خلال ذلك الوصول إلى الخالق  
الحكيم.

ولعل التصريح بـ «النظام التدريجي للظل» في الآية أعلاه إشارة إلى هذه الحقيقة وهي  
لو أن الظل تحصل أو تزول فجأة لأدّت إلى اضرار جسيمة ، إذ لا يخفى على أحد الاضرار  
الناتجة عن الانتقال المفاجيء من النور إلى الظلام وبالعكس ، أو من الحر إلى البرد  
وبالعكس.

ولكن «الظل» بما له من بركاتٍ ولطفٍ ، مضرٌ أيضاً فيما إذا دام وحُلّد لأنّه يحرّم  
الإنسان من نعمة النور ، لهذا يقول في الآية أعلاه : **﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾** ، (ولكنه  
للطفه وكرمه لم يفعل ذلك كي ينبع نعم العباد بنعمة النور والظل على السواء).

ويقول في الآية الثانية التي تم بيانها ضمن آيات التوحيد في سورة النحل ، بعد تعداد بعض آيات الآفاق ونعم الخالق جل وعلا : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ طَلَالًا﴾.

قال بعض المفسّري : إن المقصود هنا الأشياء التي تتسبّب في إيجاد الظلال ، كالجبال والأشجار ، والغيمون ، والسقوف والجدران <sup>(١)</sup>.

وممّا لا شكّ فيه لو كانت جميع الأشياء كما الحنا سابقاً . شفافةً ومضيئة كالبلور ، ولا وجود للظل في العالم لكانـت الحياة غير ممكنة بالنسبة للإنسان.

ويشير سياق الآية إلى سائر النعم التي هي في الواقع مكملةً لوجود الظل ، كالملائكة المستحدثة في الجبال على هيئة مغاراتٍ وكهوف ، والتي تقي الإنسان من حرارة الشمس المحرقة ، كالدرع حين يصدُّ طعنات العدو في ساحة الحرب : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلٍ تَقِيمُكُمْ بِأَسْكُنْ﴾ <sup>(٢)</sup>.

وهنا لماذا أشار في الآية الآنفة إلى اللباس كوقاءً لحفظ من الحرّ فقط ، من دون الإشارة إلى البرد؟ يقول بعض المفسّرين : لأنَّ المناطق التي نزلت فيها هذه الآيات ، المتداول فيها مسألة الحر بکثرة ، أو لکثرة وزياده اخطرار الحرارة والاحتراق عند مواجهة الشمس ، في حين تزايد طرق وقاية الإنسان لمواجهة البرد.

ولكن لا يجب نسيان أنَّ في آداب العرب حينما يريدون التلميع إلى ضديـن فهم يحذفون أحـدـهـما في أغلب الموارد ويدـكـرون واحدـاً فقط ، وهذا الأثر له قرائـن كثـيرـة.

والجدير بالاهتمام أنَّه يقول في نهاية هذه الآية بعد ذكر هذه النعم الثلاث (الظلال ، والمساكن ، والملابس) : ﴿كَذَلِكَ يُتَمِّمُ بِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾.

نعم .. فالتأمل بهذه النعم وأسرارها المختلفة يعرّفُ الإنسان بعلم وقدرة الله تعالى من ناحيـةـ ، ومن ناحيـةـ أخرى يدفعـ إلى التسلـيمـ إلى أوامرـ الخالقـ جـلـ وـعلاـ ذـيـ اللطفـ والرحـمةـ ، من خـالـلـ تحـريكـ الشـعـورـ بالـشـكـرـ لـهـ.

(١) تفسير روح المعاني ، ج ١٤ ، ص ١٨٦ ؛ وتفسير القرطبي ، ج ٦ ، ص ٣٧٧٥ .

(٢) «سرابيل» جمع «سراب» (على وزن مقتال) وقد فسّرها البعض بكل أنواع الملابس ، واعتبرها البعض بمعنى الرداء (حيث يرتدون الدرع كالرداء) لأنَّ المعنى الأول أكثر تناسـباًـ هنا.

وفي الآية الثالثة يوجه اللوم والتوبخ للمشركين في آيات التوحيد فيقول :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَقَّهُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

أيٌّ تعبيرٌ لطيفٌ هذا؟ فقد خضعت الظلالُ بأسرها وسجدت أمام ذاته المقدّسة ، لأنّها مُسلّمةٌ لأمّه وهذا التسليم والخضوع أمام قوانين الخالق هو سجودها لحضرته تعالى . فكيف يتضاءل الإنسان أمام الظلال ، ويسجدُ للأصنام ، ولا يسجدُ للخالق جلَّ وعلا؟!

إنَّ سجودَ الظَّلَالِ جزءٌ من سجودِ كافَةِ الكائناتِ في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ولهذا فقد أشار في سياق هذه الآية إلى هذا السجود العام ، فقال : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَائِنٍ﴾.

وهنا سُتطرُحُ بحوثٌ مفصلةٌ خلال بحث السجود العام لموجودات العالم أمام الباري عَزُّوجَلَّ ، على أية حالٍ ففي هذه الآية إشارةٌ لطيفةٌ إلى أهميَّةِ الظلال وآثارها حيث تصلح كمصدرٍ لإلهام التوحيد .

\* \* \*

وفي الآية الرابعة يضع الظلال في جملة موجودات السماوات والأرض التي تخضع وتسجدُ لله تعالى ، فيقول : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾.

وربما يكون التعبير بـ «طَوْعًا وَكَرْهًا» إشارة إلى تسليم الموجودات العاقلة وذات الاحساس رغبةً وطوعاً ، وإلى تسليم الموجودات غير العاقلة كالظلال للأوامر الإلهية فتسجد قوانين الخلق الاجبارية .

(١) «يَتَفَقَّهُ» من مادة «يَفِي» وتعني العودة والرجوع ، وبخصرها بعض أرباب اللغة بمعنى ظلال الأشياء حين عودة الشمس عصراً ، واطلاقها على غنائم الحرب يعود إما بسبب رجوع المسلمين بها ، أو زوالها أو فنائها النهائي كالظلال ، و «داخِر» تعني المتواضع .

أو إلى أن المؤمنين يسجدون رغبةً وطوعاً ، وغير المؤمنين الذين ليس لديهم الاستعداد للسجود طوعاً فإن جميع ذرات وجودهم مسلمة لله تعالى بحكم قوانين الخلق الاجبارية ، وقد جبلوا على السجود التكويني أمام ذاته المقدسة.

أو أن المؤمنين يُرْغبون جبارتهم بالزاب أزاءه في كل الأحوال (في الراحة وعند حلول المشكلات ، مطمئنون كانوا أم مضطربين) ، إلا أن الكافرين لا يتوجهون نحوه إلا حينما تباغتهم المشاكل.

وممّا لا شك فيه أنّه ليس هناك تعارضٌ بين هذه التفاسير الثلاثة ، يمكن جمعها في مفهوم واحدٍ.

والتعبير بـ «من» في الآية أعلاه مع أنّه يختص باصحاب العقول حسب الظاهر ، إلا أنَّ من المحتمل أن يكون له مفهومٌ عامٌ فيشمل كافة الموجودات العاقلة وغير العاقلة ، فيصبح التعبير بـ «من» من باب التغليب.

وأمّا تعبير «الغدو» و «الآصال» (الصباح والمساء) فلعله كان بسبب إمكانية زوال الظلال وسط النهار ، أو كونها ضئيلة جداً ومحوددة ، في حين أنّها ليست كذلك في الصباح والمساء ، وفضلاً عن ذلك ، فإنّ هذا التعبير جاء في الكثير من الحالات لبيان الديمومة والتعيم ، فمثلاً تقول : إنّ الشخص الغلاني يدرس صباحاً ومساءً ، أو إنّه يؤذى شخصاً آخر ، أي إنّه كذلك على الدوام.

يُستفاد من مجموع هذه الآيات أنَّ القرآن الكريم يولي اهتماماً خاصاً حتى للظلال ، ويعتبرها من آيات عظمة الله ، والتعبير بـ «السجود» الذي هو غايةُ الخضوع إشارة إلى هذا المعنى.

\* \* \*

### توضيح

لو لم تكن هناك الظلال !؟...

من أجل ادراك أهمية أي موجودٍ لابد من احتمال زواله تماماً في لحظةٍ أو يوم أو شهرٍ

ما ، ثم الالتفات إلى آثاره.

والامر كذلك في مسألة الظل التي تبدو موضوعاً عادياً وغير مهم للوهلة الاولى ، ولكن افروضوا أن كل أنواع الظل والمظلات رُفعت عن الكره الأرضية لمدة اسبوع ، فلا جبال ، ولا أشجار ، ولا حائط بيت ولا سقف ، ولا حتى ظل نصف الكره الأرضية الذي يُعطي النصف الآخر وهو الليل ، واختفت كلها بصورة مفاجئة ، وتبدل جميع الأجسام في هذا العالم إلى حالة كالبلور ونفاذ ضوء الشمس من خلاتها ، فكم ستصبح الحياة صعبة وغير قابلة للتحمل؟ إذ يشع ضوء الشمس باستمرار ، ويعرض له كل شيء ، ويسلب كل أشكال الاستقرار والاطمئنان والراحة من الإنسان وسائر الموجودات ، ولو حدثت مثل هذه الفرضية في فصل الصيف فسوف تهلك جميع الكائنات الحية خلال فترة قصيرة. بناءً على ذلك يمكن القول أن لوجود الظل دوراً مؤثراً جداً في حياة الإنسان

للأسباب الآتية :

١ . إن وجود الظل ضروريٌ للغاية من أجل تخفيف ضوء وحرارة الشمس ، لأن الأشعة الحياتية للشمس لو لم تخفف بالظهور المتناسب للظل ستُنفي كل شيء وتحرقه خلال فترة قصيرة.

يقول الفخر الرازي في تفسيره : «إن الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الحالص وبين الظلمة الحالصة ، وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس ، وكذا الكيفيات الحالصة داخل السقف وأفية الجدران ، وهذه الحالة أطيب الأحوال ، لأن الظلمة الحالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس ، وأمّا الضوء الحالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيض السخونة القوية وهي مؤذية ، فاذن أطيب الأحوال هو الظل ، ولذلك وصف تعالى الحلة به فقال : ﴿وَظَلٌّ مَمْدُودٌ﴾ <sup>(١)</sup> .

٢ . يبدو أن دور الظل لا سيما الظل المتحرّكة حيوياً جداً بالنسبة للمسافرين وقاطعي الصحراء ، فهؤلاء يستطيعون الاستعانة بالخيام ووسائل النقل المسقّفة من وقاية

(١) تفسير الكبير ، ج ٢٤ ، ص ٨٨.

انفسهم أزاء أخطار أشعة الشمس المباشرة.

٣ . والمسألة الأخرى الجديرة بالاهتمام ، هي أنه خلافاً للتصور العام فإنَّ النور لا يكفي لوحده لرؤية الأشياء ، بل يجب أن يكون متزامناً مع «الظلال» كي تتوفر إمكانية رؤية الأشياء ، وبعبارة أكثر جلاءً :

لو أنَّ النور يشعُّ على موجودٍ ما من أربعة جهات بحيث لا يوجد أيُّ شكلٌ للظل أو بعضه ، فلا يمكن رؤية ذلك الشيء الذي يغرقُ في النور المتساوي من جميع الجهات ، اذن فكما لا يستطيع الإنسان رؤية الأشياء في الظلام المطلق فهو غير قادرٍ على رؤية الأشياء في النور المطلق أيضاً ، بل يجب أن يتظافرا معاً كي تتيسر رؤية الأشياء (فتأمل جيداً). فالخالقُ الذي أناطَ هذه الأدوار المهمة والحيوية لموجودٍ عاديٍّ بهذا المستوى ، جديرٌ بالعبودية والخضوع والسجود.

نختتم هذا الحديث بعبارة لأحد المفسّرين ، إذ يقول من عَقَلَ عن السجود لله تعالى : «أَمّا ظلك فسجد لربك وأمّا أنت فلا تسجد له بئسما صنعت»<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

---

(١) التفسير الكبير ، ج ٢٠ ، ص ٤٣ .

## ١٥ . آياته في عالم النباتات والشمار

تمهيد :

إن النباتات هي أكثر الكائنات الحية الموجودة على الأرض ، وتحتل المرتبة الأولى من حيث التنوع والكثرة ، والعجائب والزينة ، وكذلك من حيث الآثار المفيدة والشمية أيضاً. لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية مراراً على مسألة خلق النباتات ، ومزايها المختلفة ، ودعا الإنسان إلى التفحص في أسرار هذه الموجودات الرائعة في عالم الحلق ، الموجودات التي يمكن أن تقدم ورقة واحدة منها كتاباً عن معرفة الله تعالى.

بعد هذا التمهيد نتعمق خاطعين في الآيات الآتية ومواضيعها اللطيفة :

١ . ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ \* اَنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. (الشعراء / ٨٠ . ٧)

٢ . ﴿أَمَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾. (النمل / ٦٠)

٣ . ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَّ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَآبَةٍ وَأَنْزَلَنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ \* هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونَى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بِالظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. (القمان / ١١ . ١٠)

٤ . ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبَّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ \* وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ \* لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ \* سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُبْتِ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ . (يس / ٣٦)

٥ . ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ حَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّاً مُسَرَّا كِبَّا وَمِنَ النَّحْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَّةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالرَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًَا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ أَنْظُرُوا إِلَيَّ ثَمَرَهُ إِذَا أَثْمَرَ وَيَسِّعُهُ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

(الانعام / ٩٩)

٦ . ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاهِرٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَرَزْغٌ وَنَحِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضَّلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ . (الرعد / ٤)

٧ . ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً كُلُّمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ \* يُنْبِتُ كُلُّمْ بِهِ الرَّزْغَ وَالرَّيْتُونَ وَالنَّحِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الْثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . (النحل / ١٠ - ١١)

٨ . ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّحْلَ وَالرَّزْغَ مُخْتَلِفًا كُلُّهُ وَالرَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًَا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُّوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ . (الانعام / ١٤١)

٩ . ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْرُونِ \* وَجَعَلْنَا كُلُّمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمِنْ لِسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ . (الحجر / ١٩ - ٢٠)

١٠ . ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبْ وَالنَّوْى ... ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ . (١) (الانعام / ٩٥)

### شرح المفردات :

«النَّبَات» : يعني في الأصل كُلَّ نوعٍ من الزَّرع الذي يخرج من الأرض سواءً كان له ساق كالشَّجَر ، أو بدون ساقٍ والذي يُسَمِّيهُ الْعَرَبُ بـ «النَّجَم» ، إِلَّا أنَّ هذا اللفظ غالباً ما يُطلق على

(١) هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى كالأيات التالية : البأ ، ١٥ ؛ طه ، ٥٣ ؛ عبس ، ٢٧ ؛ ق ، ٧ ؛ البقرة ، ٢٦١ ؛ البقرة ، ٢٢ ؛ إبراهيم ، ٣٢ ؛ الانعام ، ١٤١ ؛ الاعراف ، ٥٧ ؛ النحل ،

الزرع الذي ليس له ساق ، وفي التعابير الأكثر شمولاً يطلق «النبات» على كل موجودٍ نامٍ سواءً كان نباتاً أم حيواناً أم إنساناً<sup>(١)</sup> .

و «الشَّجَرُ» : تعني النباتات ذات الساقان ، ولهذا جاء في القرآن الكريم أزاء «النَّجْمِ» الذي يعني النبات الذي لا ساق له : «وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدُان» . (الرَّحْمَن / ٦) وورد في «مقاييس اللغة» أن «الشَّجَرَ» له معنيان في الأصل : هما الارتفاع والعلو ، وتدخل أجزاء الشيء مع بعضها ، وحيث إن الأشجار ترتفع عن الأرض ، كذلك فإنَّ أغصانها تتدخل فيما بينها ، لذلك اطلق عليها «شَجَرَ» ، و «مشاجرة» : تعني النزاع والاختلاف والمحادثة لأنَّ حديث الجانبيين يتداخل مع بعضه.

إلا أنَّ البعض يعتقد أنَّ أصلَ هذه المادة يعني الشيء الذي ينمو ويرتفع وتتفرع منه أوراقُ وأغصان ، وقد يطلق على الامور المعنوية أيضاً كما في : **﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآن﴾** . (الاسراء / ٦٠)

(التي تمَّ تفسيرها بمعنى «شجرة الرقوم» أو «اليهود» أو «بني اميه»<sup>(٢)</sup> .

وكما يفهم من كتب اللغة المختلفة فإنَّ «الزرع» تعني في الأصل نشر البذور والحبوب في الأرض ، ومن هنا حيث سيتبع نشر البذور نمو النبات وحصاده ، فيُطلق على كل واحد من هذه العمليات «زرعاً» .

ويقول بعض اللغويين : إنَّ الزرع تعني الإنماء ، وهذا في الحقيقة هو فعل الله تعالى ، وإذا اطلق لفظ الزارع على العباد فهو بسبب توفيرهم لأسباب ومقومات ذلك ، وقد يقال لـ «المزروع» زرعاً أيضاً.

وغالباً ما يُطلق لفظ «زرع» على الحنطة والشعير ، إلا أنَّ مفهومه أكثر شمولاً ، حيث يشملهما وغيرهما<sup>(٣)</sup> .

(١) «النبات» لها معنى مصدرى ، واسم مصدرى أيضاً.

(٢) مفردات الراغب ؛ مقاييس اللغة ؛ مصباح اللغة ؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٣) مفردات الراغب ؛ لسان العرب ؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم ؛ وصحاح اللغة.

وأَمَّا الْ**ثَمَرُ** فَقَدْ جَاءَ فِي «مِقَايِيسِ الْلُّغَةِ» أَنَّ هَذَا الْلَّفْظَ يُعْنِي فِي الْأَصْلِ كُلَّ شَيْءٍ يَتَوَلَّ مِنْ شَيْءٍ آخَرَ ، وَقَالَ بَعْضُ الْلُّغَوِيْنَ ، أَنَّهُ يَعْنِي مَا يَحْصُلُ مِنْ الشَّجَرَةِ فَقَطْ .

وَصَرَّحَ قَسْمٌ آخَرُ مِنْ ارْبَابِ الْلُّغَةِ ، بَأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ يَحْصُلُ وَيَتَوَلَّ عَنْ مَوْجُودٍ آخَرَ مَا كُلَّاً كَانَ أَمْ غَيْرَ مَا كُلَّاً ، مَرْغُوبًا كَانَ أَمْ غَيْرَ مَرْغُوبٍ ، حَلْوًا كَانَ أَمْ مُرًّا ، يُسَمَّى «**ثَمَرًا**» .

لَكِنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ الشَّمَرَ كَانَ لَهُ فِي الْأَصْلِ مَفْهُومٌ مُحَدُّودٌ وَهُوَ الْفَاكِهَةُ الْحَالِصَةُ مِنَ الشَّجَرِ ، لَكِنَّ هَذَا الْمَفْهُومَ اَتَّسَعَ فِيمَا بَعْدَ وَاطْلَقَ مَجَازًا عَلَى مُحَصَّلٍ وَمَنْتَوْجٍ أَيِّ شَيْءٍ ، حَتَّى أَصْبَحَ يُقَالُ إِنَّ **ثَمَرَة** هَذَا الْمَذْهَبِ وَهَذِهِ الْتَّعَالِيمُ كَانَتْ كَذَا وَكَذَا ، وَجَاءَ فِي الْرَوَايَةِ : «أَمْكَنْتُكَ مِنْ **ثَمَرَةَ قَلْبِهَا**» ، إِشَارَةٌ إِلَى حَلِيبِ الْأَمِّ أَوْ مُبْتَهَا ، وَفِي الْرَوَايَاتِ أَيْضًا اَطْلَقَ عَلَى الْوَلَدِ بَانَهُ **ثَمَرَةُ الْفَؤَادِ** .

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### الورق الأخضر للأشجار :

أَشَارَ فِي الْآيَةِ الْأَوَّلِ إِلَى الْمُشَرِّكِينَ أَوِ الْجَاهِدِينَ ، فَقَالَ : **﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾** .

ثُمَّ صَرَحَ قَائِلًا : **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** .

أَجَلَنَ ... فَلَوْ تَمَّعَنَ هُؤُلَاءِ فِي هَذِهِ النَّبَاتَاتِ الْمَلَوْنَةِ ، وَالْأَرْهَارِ ، وَالثَّمَارِ ، وَالْأَشْجَارِ ، وَالْخَضَارِ ، وَالسَّنَابِلِ ، وَأَنْوَاعِ الزَّرْوَعِ الْأَخْرَى ، سَيَرْوَنَ آيَاتُ اللَّهِ فِيهَا بِكُلِّ جَلَاءٍ ، فَهُؤُلَاءِ لَا يَرِيدُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَنْظُرُوا إِلَى صُورَةِ ذَاتِهِ الْمَقْدَسَةِ بِبَصِيرَةِ الْقُلُوبِ ، وَإِلَّا فَإِنَّ جَمَالَهُ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ ، نَعَمْ فَهُؤُلَاءِ لَيْسُوا لِدِيْهِمْ آذَانَ لِلْاِسْتِمَاعِ إِلَى آيَاتِ اللَّهِ التَّشْرِيعِيَّةِ وَلَا أَبْصَارٌ لِمَشَاهِدَةِ آيَاتِهِ التَّكَوِينِيَّةِ .

وَهُنَا مَا الْمَقْصُودُ مِنْ «زَوْج»؟ فَالكَثِيرُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَسَرَّ ذَلِكَ بِعْنَى النَّوْعِ وَالصِّنْفِ ، وَاعْتَبِرُوهُ إِشَارَةً إِلَى تَنْوِيْعِ وَتَشْعُبِ النَّبَاتَاتِ ، حِيثُ إِنَّ عَدْدَهَا غَيْرُ مُحَدُّودٍ وَلَا يَمْكُنُ حَصْرُهُ ،

وأيًّا منها يُعتبر آيةً من آيات الباري عَزِيزٌ .

في حين احتملها البعض إشارة إلى «الزوجية» (أي الذكر والأنثى) الموجودة في عالم النباتات ، وهذه الحقيقة اكتشفت لأول مرة على نطاقٍ واسعٍ على يد عالم النبات السويدي المعروف «لينه» أواسط القرن الشامن عشر الميلادي ، حيث إن النباتات . على الأغلب . تحمل وتشمر كالحيوانات عن طريق تلاقي الذكر والأنثى ، في الوقت الذي وردت هذه الحقيقة في القرآن الكريم قبل قرون عديدة.

ومن هنا حيث لا تعارض بين هذين المعينين فيمكن أن تكون إشارة اليهما معاً.

إنَّ وصف «الرَّوْح» بـ «الْكَرِيم» علماً بـ أنَّ لفظ «كَرِيم» يعني الموجود الشَّمِين ، إشارة إلى أهمية أنواع النباتات وقيمتها الفائقة.

إنَّ تنوع النباتات كثيُّرٌ إلى الحد الذي يقول بعض العلماء : إنَّ «النخل» أكثر من ثلاثة آلاف نوع ، و «الكاكطي» أو «التين المندلي» ألف وسبعمائة نوع ، و «ورد الشلب» الف ومائتا نوع ، ونسبوا لـ «الكماء» مائة الف نوع ، ولـ «الطحالب» أربعة آلاف نوع ، ولـ «التفاح» سبعة آلاف نوع ، وذكروا لـ «الحنطة» خمساً وثلاثين ألف نوع ! (١) .

حقاً ... كم هو عجيب عالم النباتات الفسيح بكل هذا التنوع؟ وكم هو عظيم

خالقه ومدبره!

\* \* \*

وفي الآية الثانية ومن أجمل إثباتات «وحданية المعبد» يدعو الناس إلى تَفَحُّصِ أسرار خلق السموات والأرض ثم نزول المطر ، ثم يقول : «فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقٍ» (٢) ذاتَ بَهْجَةٍ ، وليس في إمكانكم أبداً أن تُنْبِتُوا أشجارَ هذا البستان الجميلة : «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَكُمَا» ،

(١) عالم الزهور ، ص ٩٩ إلى ١١٨ .

(٢) «الحدائق» جمع «حديقة» وتعني «البستان» ، وهي تعني في الأصل قطعة الأرض التي تجتمع فيها الماء ، وقد فسّرها الكثير من المفسرين بأنَّما البستان الذي ضُربَ حوله سورٌ وفيه ما يكفي من الماء .

ومع هذا تقولون هناك إلهٌ مع الله : «إِلَهٌ مَعَ اللهِ».

إِلَّا أَنَّ هُؤُلَاءِ أَفْرَادٌ يَجْهَلُونَ حِيثُ يَعْدِلُونَ عَنِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَبْدَعَ كُلَّ هَذِهِ الْعَجَائِبِ وَالْعَرَائِبِ وَيَجْعَلُونَ الْمَوْجُودَاتِ الَّتِي لَا حُوْلَّ لَهَا وَلَا قُوَّةَ نَدَّاً لِلَّهِ : ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

ومن الممكن أن يكون التعبير بـ «يعدلون» بمعنى عدولهم عن الله الواحد المنفرد ، أو اختلاق مثيلٍ ونظيرٍ له.

أَجَلٌ ... فَعَمَلَ الْإِنْسَانُ نُثُرَ الْبَذُورَ وَالرَّسَيِّ وَأَمْثَالَ ذَلِكَ ، وَاللَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي خَلَقَ الرُّوحَ فِي جَنِينِ هَذِهِ الْبَذْرَةِ الصَّغِيرَةِ ، وَاعْطَاهَا الْقَدْرَةَ عَلَى أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى شَجَرَةٍ عَمَلَاقَةٍ مَشْمَرَةٍ مَزْدَهَرَةٍ نَظَرَةٍ حِيثُ يَبْعُثُ مِنْظُرُهَا فِي الْبَسَاتِينِ الْفَرَحِ وَالسُّرُورِ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ ، وَلَوْ وَضَعَ الْإِنْسَانُ قَدْمَهُ وَسَطَ أَحَدَ هَذِهِ الْبَسَاتِينِ الْمَزْدَهَرَةِ النَّظَرَةَ فِي أَحَدِ أَيَّامِ الرَّبِيعِ ، وَفَتَحَ بَصِيرَتَهُ إِلَى جَانِبِ بَصِيرَةِ الظَّاهِرِيِّ ، لَيَرِي كُلَّ هَذَا التَّنْوِعِ وَالْعَجَائِبِ وَالْمَنَاظِرِ الْخَلَابَةِ وَالْأَزْهَارِ الْمَلَوَّنَةِ وَالْأَوْرَاقِ وَالثَّمَارِ الْمُخْتَلِفَةِ ، لَاستَنْشَقَ عَطَرُ التَّوْحِيدِ وَارْتَوَى مِنْ كَأْسِ الْعَبُودِيَّةِ وَاصْبَحَ مَسْحُورًا مَفْتُونًا ، بَنْحُو يَجْعَلُهُ يَتَرَّقُ بِلِحْنِ التَّوْحِيدِ وَيَعْتَرِفُ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ.

وهذا الشعر المنقول من اللغة الفارسية يقول :

هَنَالِكَ وَاحِدٌ لَا أَحَدٌ سَوَاهُ وَحَدَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

وهنا يشمر هذا الأمر :

كُلُّ نَبَاتٍ يَنْمَوْ مِنْ الْأَرْضِ يَقُولُ وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

\* \* \*

وفي القسم الثالث من الآيات أعلاه وضمن تعرّضه لخمسة أقسامٍ من براهين توحيد الخالق جلَّ وعلا وأيات الآفاق (خلق السموات بغيرِ عِدْمٍ ترونها ، وخلق الجبال ، وخلق الدّواب والحيوانات ، وخلق المطر ، وخلق النباتات) ، خاطب المشركين قائلاً : ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

وأضاف في ختام الآية : ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

فكيف يمكن لمن يملُك بصرًا ويرى آثار قدرة وحكمة وعظمة الخالق في عَرْض عالم الوجود ، ثم يخضع تعظيمًا لغيره؟!  
ونواجه في هذه الآيات مرتَّةً أخرى التعبير بـ ﴿كُلَّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ بخصوص النباتات ، حيث يتحدث عن التنوع الضروري جدًا للنباتات ، وعن الروحية في عالمها ، ويشعر سالكي طريق التوحيد بأهمية هذا الموضوع.

لفظة «ظلم» لها معنى واسع حيث يشمل وضع اي شيء في غير محله ، وحيث كان المشركون يعتبرون تدبير الكون بيد الأصنام ، أو يتصورونها واسطةً بين المخلوق والخالق ويسجدون لها ، فقد ضلُّوا وارتکبوا ظلماً عظيماً ، ولهذا جاءت هذه الكلمة في الآية أعلاه بمعنى الشرك ، أو بمعنى واسع حيث إنَّ الشرك مصداقٌ واضح له.

لا يخفى أنَّ عبارة «فَأَرَوْنِي» . في الواقع . جاءت على لسان النبي ﷺ ، وبتعبير آخر : إنَّه مكْلُفٌ بانَّ يقول هذه الجملة للمشركين ، لأنَّ الآراء لله لا يمكن أن يكون لها مفهوم.

\* \* \*

ويقول بصرامةً في الجزء الرابع من هذه الآيات التي وردت في سورة يس : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاها﴾.

وفي الحقيقة أنَّ مسألة الحياة من أهم أدلة التوحيد ، سواء كانت في عالم النباتات ، أم الحيوانات والبشر ، أكَّا المسألة الغنية بالأسرار والمدهشة التي حيرت عقول كبار العلماء ، ومع كل النجاحات التي حققها الإنسان في مختلف الحقول العلمية ، لم يفلح أي شخصٍ من حل لغز الحياة حتى الآن ، ولا علَّم لأي أحدٍ كيف وتحت تأثير أية عوامل تبدلت الجمادات إلى كائناتٍ حَيَّةٍ؟!

ثمَّ أشارَ خلال بيان مسألة احياء الأرض الميّة ، إلى إنباء المحاصيل الغذائية (كالحنطة والشعير والذرة و ...) ، وبساتين العنب والتخييل النكرة ، وتكوين ينابيع الماء الصافي ، وقال في الختام : ﴿لَيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلْنَاهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

إنَّ عبارة ﴿مَا عَمِلْتُهُ أَيْدِيهِم﴾ إشارة لطيفةٌ إلى أنَّ هذه الشمار الطازجة ، غذاءً كاملًّا مهياً للأكل دون الحاجة إلى طبخه وإضافة المواد الأخرى إليه ، فليس للإنسان تدخلٌ في أصل وجودها ، ولا في اعدادها للأكل ، فعملُ الإنسان لا يتعدي نشرُ البذور وسقي الأشجار فحسب<sup>(١)</sup>.

على أية حالٍ ، لم يكن المدف من خلق كل هذه النعم المختلفة انحصاراً للإنسان بالأكل كالحيوانات ، وأنْ يقضي عمره على هذه الحال ، ثم يموت ويصبح تراباً ، كلا ، فالهدف ليس هذا ، بل إنَّ الهدف هو أن يرى ذلك ويعيش في ذاته الشعور بالشكر ، ومن خلال «شكر النعم» يصل إلى معرفة واهب النعم حيث ينالُ اسمى المواهب وأرفع مراحل تكامل الإنسان.

والمسألة الجديرة بالاهتمام في الآيات أعلاه هي أَنَّها تضع الزوجية في عالم النباتات إلى جانب الزوجية في عالم الإنسان فنقول : ﴿سَبِّحُوا الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلُّهَا مِمَّا ثُبِّثَ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فهذا التعبير دليلٌ على أنَّ الزوجية هنا تعني جنس الذكر والأنثى ، ووجودها على نطاقٍ واسعٍ في عالم النباتات ، وهذا من المعاجز العلمية للقرآن الكريم ، لأنَّ هذا المعنى لم يكن آنذاك واضحاً لدى الإنسان بأنَّ هنالك وجودٌ لقوام الذكر والاجزاء الانثوية في عالم النباتات ، وتنطلقُ الخلايا التي هي نُطفُ الذكور ل تستقر في الأجزاء الانثوية وتتلاقي معها وتنعقد نطفةُ النبات.

ويكُنْ أن تكون عبارة ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ إشارة إلى أنَّ مسألة الزوجية لها نطاقٌ واسع ، وما أكثر الموجودات التي تجهلون وجود الزوجية فيها ، وسيزيل تطورُ العلم النقاب عنها (كما ثبتت هذه المسألة في الدرات حيث تتركب من قسمين مختلفين يكملُ أحدهما الآخر

(١) وهذا في حالة كون «ما» في عبارة (وما عملته) نافيةً (وهذا هو الظاهر) ، إلا أنَّهم احتملوا أن تكون موصولةً ، تلميحاً إلى الشمار التي تنتج عن طريق التطعيم والتي للإنسان دخُلٌ فيها ، أو إلى المشتقات التي يأخذونها من الفاكهة كالعصير والخل التي تُؤخذ من العنب والتمر ، وممَّا لا شك فيه أنَّ المعنى الأول أكثر تجانساً.

كالزوجين : فـ «الالكترونات» تحمل الشحنات السالبة ، و «البروتونات» تحمل الشحنات الموجبة ) ، ومواضيع اخرى لم يتوصل إليها العلم البشري حتى الآن.

\* \* \*

وفي الآية الخامسة حيث تبدأ بالتعريف بالله من خلال الآيات المختلفة ، أشارت أولاً إلى نزول المطر من السماء ، ثم قالت : **﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلٌّ شَيْءٌ﴾**.

وربما يكون التعبير بـ «نبات كُلٌّ شَيْءٌ» إشارة إلى أنواع النباتات المختلفة ، حيث تُسقى بماء واحدٍ ، وتنمو على أرضٍ واحدةٍ ، ومع هذا فهي تختلف في الشكل والطعم والخواص وأحياناً تتعارض في ذلك ، وهذا من عجائب خلق الله.

أو أنَّ المقصود هو النباتات التي تحتاجها الطيور والبهائم البرية والبحرية وكذا الإنسان <sup>(١)</sup> ، (ويمكن الجمع بين هذين المعنين أيضاً).

ثم يتطرق إلى ذكر مسألة اخرى ، فيضيف : **﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ حَضِيرًا﴾** ، وبهذا يشير إلى مادة «الكلوروفيل» الخضراء التي هي من أهم وانفع اجزاء النبات ، هذه الحضرة التي تبعث الحيوية ، واللطافة ، والجمال ، وتسلب القلوب والتي تخرج من التراب الغامق اللون والماء الرائق الشفاف.

إنَّ التعبير بـ «حَضِيرًا» بالرغم من اطلاقه ، إلا أنَّه استناداً إلى الجملة التالية التي تقول : **﴿نُخْرِجُ مِنْهُ حَبَّاً مُتَرَاكِبًا﴾** ، يشير بالأساس إلى سيقان وسنابل الحنطة والشعير والذرة وما شابه ذلك <sup>(٢)</sup>.

ثم يُلْفِتُ النَّظَرَ إِلَى أَشْجَارِ النَّخْلِ ، فيقول : **﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾** .  
«قِنْوَانٌ» : جمع «قِنْوَةٌ» على وزن «حَزَبٌ» ، وتعني الفروع الرفيعة التي تخرج من الطلع

بعد

(١) في هذه الحالة يكون مفهوم الجملة «فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ».

(٢) «مُتَرَاكِبٌ» مأخوذه من مادة «ركوب» وتعني الصعود ، وهي إشارة إلى الحبوب التي تتراكب على بعضها على هيئة سنبلة ذات منظرٍ جميلٍ وممِّيٍ للغاية.

تَفْسِحِه ، وهي التي تُكَوِّن عنوق التمر فيما بعد .  
وقد يكون التعبير بـ «دانية» إشارة إلى قرب هذه العذوق من بعضها أو اخنائها نحو الأسفل بسبب ثقل ثمار الرطب .

ويقول بعض المفسرين بما أنَّ عنوق التمر مختلف أيضاً ، فالبعض يكون في الجزء الأسفل من النخل ويمكن استئماره بيسير ، والبعض الآخر بعيداً عن متناول اليد فتكون الاستفادة منه صعبةً بعض الشيء ، فقد أشار الباري تعالى إلى الصنف الأول باعتباره أكثر فائدة <sup>(١)</sup> .

وأشار في سياق هذه الآية إلى بساتين العنب والزيتون والرمان : **﴿وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالْزَيْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾** ، التي تتشابه في نفس الوقت الذي مختلف فيه ، وتختلف فيما بينهما في حين أَنَّهَا متشابهة **﴿مُتَشَابِهًَا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾** .

يقول بعض المفسرين إنَّ هذه الشمار تتشابه في المنظر ، إلَّا أَنَّها مختلف في الطعم (كأنواع العنب والرمان الحامض والحلو) .

وقال البعض الآخر إنَّ أوراق أشجارها تتشابه أحياناً (كأوراق الزيتون والرمان) ، في حين أَنَّ ثمارها مختلفة .

ولكن المناسب اعطاء أوسع مفهوم لتوضيح الآية وهو الإشارة إلى أنواع التشابه والتفاوت .

واللطيف أَنَّه يدعو الجميع للتمعن في الثمار فيقول : **﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَبَنَعِهِ﴾** .

«لأنَّ في هذا ، آياتٌ وبراهين عن عظمةٍ وقدرةٍ وحكمة الباري تعالى لأهل الإيمان» **﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** .

وليس آية واحدة بل فيها آيات جمة لله تعالى ، لأنَّ تكون الثمار كولادة الصغار في عالم الحيوانات ، حيث تنتقل حبوب لقاح الذكور إلى الأقسام الانثوية عن طريق الرياح أو الحشرات ، وبعد انحصار عملية التلقيح والاختلاط فيما بينهما يتم تشكيل البويضة والطفة

(١) تفسير القرطبي ، ج ٤ ، ص ٢٤٨٤ .

أولاً ، ثم تظهر في جوانبها خلايا الشمار والالياف واللب والفروع الحذابة التي تغذيها . وفي داخل هذه الشمار تكمن هناك أعظم المختبرات الخفية التي تعمل باستمرار في صناعة المركبات الحديثة بزايا جديدة ، وقد يكون التمر بلا طعم في بداية الأمر ، ثم حامضي الطعم تماماً ، ثم يصبح حلواً ، وفي كل وقت يحدث فيها انشطار وتفاعلٌ جديد ، كما تغير ألوانها باستمرار وهذه من عجائب خلق الله التي يدعو القرآن الكريم . لاسيما في الآية الآنفة . الإنسان إلى التمعن فيها .

\* \* \*

وأشار في الآية السادسة من البحث في باديء الأمر إلى قطع الأرض المختلفة التي تملك قابلية متفاوتة ل التربية أنواع الأشجار والنباتات وغيرها ، إذ يقول : **﴿وَفِي الْأَرْضِ قَطْعٌ مُّنْجَاهِرٌ﴾** مع أنَّ هذه القطع يتصف بعضها بالبعض الآخر ، فبعضها خصبٌ ومستعدٌ لأي شكلٍ من الزراعة ، وبعضها مالحٌ لا تنبتُ فيه سبلةً أبداً ، وقد يناسب بعض هذه القطع زراعة الأشجار أو نوعٍ خاصٍ منها فقط ، ويناسب البعض الآخر نوعاً خاصاً من الزراعة ، وهذا عجيبٌ حيث تتفاوت الأراضي المترابطة بشكلٍ تستعد للقيام بواجباتٍ مختلفة .

وبعد ذكر هذه المقدمة أشار إلى أنواع الأشجار والزراعات ، فاضاف قائلاً :

**﴿وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَرَزْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾**.

«أعناب» : جمع عنب وتعني الكرم و «نخيل» جمع «نخل» و «نخيلة» وتعني شجرة التمر ، وذكرهما بصيغة الجمع يحتمل أن يكون إشارة إلى الأنواع المختلفة للعنب والتمر ، لأنَّ لهاتين الفاكهتين مئات أوآلاف الأنواع المختلفة .

والتعبير بـ **﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾** بالالتفات إلى أنَّ «صنوان» جمع «صنو» «وتعني الفرع الذي يخرج من البدن الأصل للشجرة» ، من الممكن أن يكون إشارة إلى قابلية الشجرة على تغذية الشمار المختلفة عن طريق التطعيم ، لهذا تظهر على أغصان شجرة واحدة لها ساق واحد وجذر واحد وتتغذى من ماءٍ وأرضٍ واحدةٍ وأنواعٍ مختلفةٍ من الشمار ، وهذا من عجائب الخلة .

ومن الممكن أن يكون هذا التفاوت إشارة إلى تفاوت الأغصان التي تنمو على أصل واحد ، وتفاوت من حيث الشمار الطبيعية.

ثم يصرّح بأنَّ هذه الأشجار مع هذا الاختلاف فانَّها تُسقى بِمَاءٍ واحدٍ : ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ ، وفي نفس الوقت فانَّنا نُفَضِّل بعضها على البعض الآخر من حيث الشمار ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾.

ومن المسلم به أنَّ في هذا الأمر آيات وبراهين للمفكرين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقُومٍ يَعْقِلُونَ﴾.

حقاً إنَّه مدهش ، فالماء واحد ، والتراب واحد أيضاً ، أمَّا الاختلاف بين الشمار فكثير بحيث إنَّ أحدها حلوٌ والأخر حامض تماماً (ففي الكثير من المناطق تنمو أشجار الليمون الحامض إلى جانب أشجار النخيل) أو تنمو المحاصيل الزيتية والمحاصيل النشوية وغيرها في مزرعة واحدة ، وتفاوت تماماً ، حتى أنَّ لهذه الفواكه والمحاصيل أنواعاً مختلفة بالكامل.

ما هذا الجهاز العجيب المكون في أغصان الأشجار وجذورها الذي لديه القدرة على صنع المواد الكيميائية مختلفة الخواص من خلال استغلال نوع واحد من المواد (نوع واحد من الماء والتراب)؟! فلو لم يكن هنالك دليل على علم وحكمة خالق الكون سوى هذه المسألة ل كانت كافية لمعرفة هذا الخالق العظيم ، وكما يقول أحد شعراء العرب<sup>(١)</sup> :

والأرضُ فيه ساءٌ عَيْرٌ لِلْمُعَتَّبِ  
تُخَبِّرُ عَنْ صُنْعٍ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ  
تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ أَشْجَارُهَا  
وَيَقْعُدُّ وَاحِدَةٌ قَرَاهَا  
وَالشَّمْسُ وَالْمَوَاءُ لَسِيسٌ يَخْتَلِفُ  
وَأَكْلُهُ سَاءٌ مَخْتَلِفٌ لَا يَأْتِلُفُ  
فَمَا الَّذِي أَوْجَبَ ذَا التَّفَاضُلَ  
إِلَّا حَكْمِيْمٌ لَمْ يَرْدُهُ بِسَاطِلَا

\* \* \*

(١) تفسير روح المعاني ، ج ١٣ ، ص ٩٣.

وفي الآية السابعة يتطرق إلى شرح أدلة التوحيد ومعرفة الله بقرينة بدايتها ونهايتها ، فيقول : **﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسَيِّمُونَ﴾**.

فليس كل ماء صالح لشرب الإنسان ، ولا كل ماء صالح لنمو النبات والشجر ، إلّا أنَّ هذا الماء السماوي مفيد للكل وأساس حيّة كل شيء.

«شَجَر» : كما قلنا له معنى شامل في اللغة ، حيث يشمل أنواع النباتات سواء كانت ذات سيقان أم لا ، و (تُسيِّمون) من «اسامة» وهي من مادة «سَوْم» وتعني رعي الحيوانات <sup>(١)</sup> ، وحيث إنَّ الحيوانات تتناول كلاً من الأعشاب وأوراق الأشجار عند رعيها فالتعبير بـ «شجر» يبدو مناسباً جدًا لاشتماله على كلِّيهما.

ثم يضيف : **﴿يَنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعُ وَالزَّيْتُونُ وَالنَّخْيَلُ وَالْأَعْنَابُ وَمِنْ كُلِّ الْثَّمَرَاتِ﴾**. واللطيف أنَّ الآية أعلاه مع ائمَّا تتحدث عن كافة الثمار وجميع أنواع المحاصيل الزراعية بما فيها الحبوب ، فهي تستند خاصة إلى ثلاثة ثمار هي : الزيتون ، والتمر ، والعنب. وهذا يعود للأهمية الفائقة لهذه الثمار من حيث المواد الغذائية ، وأنواع الفيتامينات والمميزات الدوائية التي قمت معرفتها مع تطور العلوم الغذائية في هذا العصر <sup>(٢)</sup>.

لهذا يعود ويؤكّد في نهاية الآية بانَّ في هذه الامور برهاناً واضحاً عن حكمة وقدرة عظمة الله لا ولئك الذين يتفكرُون : **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْقَوْمِ يَتَفَكَّرُونَ﴾**. والذين لا يتفكرُون في هذه الآيات الجلية لا يستحقون أن تُطلق عليهم كلمة الإنسانية ، كما يقول الشاعر نقاً عن الفارسية :

عجب لهذا الرسم على باب وجدار الوجود فكلما فعل فكركَ كانَ رمأً على الحائط

(١) وطبعاً أنَّ المعنى اللغوي لـ «السَّوْم» هو وضع العلامة ، وبما أنَّ الحيوانات حين العلف تترك أثراً على الأرض اطلق عليه هذا الاصطلاح.

(٢) طالعوا شرح هذا الكلام في التفسير الأمثل ، ذيل الآية ١١ من سورة التمل.

هل يمكن أن يعطي فاكهةً ملونةً من الخشب؟ أم يقدر أن يستخرج من الشوك ورداً بحائةً لون؟  
لقد تناول الأرجوان على عتبة المرج الخضراء عيوناً تبقى الابصار حيرى فيه!

\* \* \*

وفي الآية الثامنة نواجه تنوعاً آخر في عالم النباتات والأشجار الذي يُطرح كأحد أدلة التوحيد ومعرفة عظمة الله ، إذ يقول : **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾**.

«معروش» : من مادة «عَرْش» وتعني السرير المرتفع أو السقف ، وفي ما يعنيه هذا المفهوم في هذه الآية ، هنالك خلاف بين المفسّرين :

فقال بعضهم : إن «المعروشات» تعني النباتات التي تناسب على الأرض أو تتسلق على الأبنية أو على هيكل من حديد أو خشب يصنع لها ، مثل الأعناب والخيار والبطيخ. و «غَيْرَ مَعْرُوشَات» ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار : وقال البعض الآخر : المعروشات ما ارتفعت أشجارها وأصل التعریش الرفع ، عن ابن عباس ، وقالوا أيضاً : المعروشات ما أثبتته ورفعه الناس . واحيط بسور . ، وغير المعروشات ما خرج في البراري والجبال من الشمار <sup>(١)</sup>.

ولكن يظهر أن التفسير الأول أكثر ملائمةً.

على آية حال ، فالعجب أن بعض الأشجار كالسلرو والصنوبر ترتفع في السماء برتبة ولا تستطيع الرياح العاتية والعواصف من التأثير على قائمتها ، في حين أن البعض الآخر كأشجار الكروم لا تملك غصناً مستقيماً واحداً ، وتحتاز وتحنّي باستمرار ، وكل منها له عامله الخاص .

فأشجار العنب بعنقدها الثقيلة لو كانت لها قامة كأشجار الصنوبر لانكسرت ولم

(١) وردت هذه التفاسير الثلاثة في تفسير القرطبي ، ج ٤ ، ص ٢٥٣٤ .

تستمر يوماً واحداً ، فضلاً عن ابعادها عن متناول يد الإنسان ، في حين أنَّ طفلاً صغيراً  
باستطاعته اقتطاف جميع الشمار في بساتين العنبر.

ثم يضيف مستنداً إلى أربعة أنواع من الشمار والزرع : **﴿وَالنَّخْلُ وَالرَّزْعُ مُخْتَلِفٌ أَكُلُهُ وَالرَّيْتُونَ وَالرُّمَانُ مُتَشَابِهَا﴾** ، لابد من الانتباه إلى أنَّ «جفات» جمع «جنة» تطلق على  
البساتن ، وعلى الأراضي التي يغطيها الزرع ، و «أكل» على وزن «دُهْل» من مادة «أكل»  
على وزن «مَكْر» و تطلق على جميع المأكولات.

على أية حال ، فالأشجار والزروع والنباتات لا تختلف كثيراً من ناحية الظاهر فقط ،  
بل إنَّ ثمارها ومحاصيلها تتفاوت للغاية أيضاً ، من حيث اللون والطعم والشكل الظاهري ،  
وكذلك من حيث ما فيها من مواد غذائية وخصائص متنوعة ، اضافة إلى أنَّ منها المرغوب  
والمتوسط ، وهذا بيان لقدرة الخالق جلَّ وعلا الذي أوجَد مثل هذا التنوع العظيم الواسع في  
عالم النباتات ، وكل نوع يُسَبِّح بحمده وثنائه.

وفي نهاية الآية يُصرُّ أَوْامِرَهُ : **﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرٍ إِذَا أَتَمْرَ وَأَتْوَا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَآيَةٌ لَّا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾**.

وعليه فإنَّ الأمر بـ «كُلُوا» دليل على حليتها الكاملة ولكن بشرطين : الایفاء بحقوق  
المحتاجين ، وعدم الاسراف.

وبالرغم من أنَّ بعض المفسرين قالوا إنَّ المقصود بـ «حق» هنا هو الزكاة ، إلَّا أنَّ  
أغلب المفسرين واستلهماماً من الروايات الواردة عن طريق أهل البيت عليهم السلام وأهل السنة ،  
صرَّحوا بأنَّ المقصود بهذا الحق ليس الزكاة <sup>(١)</sup>.

بناءً على ذلك لابد أن يُخْصَص أصحاب المزارع والبساتين نصيباً للمحتاجين أثناء  
قطف الشمار ، وحصاد المحاصيل كحِكْمٍ إلهيٍّ ، وهذا النصيب ليس له حدٌ معينٌ في الشرع ،  
بل يتعلق بحِمْمَةِ المالكين. وعليه فإنَّ ذيل الآية تتحدث عن حِكْمٍ أخلاقي وصدرها يشتمل  
على دوْرِهِ توحيدية.

(١) يُراجع سنن البهقي ، ج ٤ ، ص ١٣٢ ؛ ووسائل الشيعة ، ج ٦ كتاب الزكاة «أبواب زكاة الغلات» ؛  
وتفسير الميزان ؛ وتفسير القرطبي فيما يخص الآية.

ويشير في الآية التاسعة إلى موضوع آخر من عجائب عالم النباتات والأشجار ، فيقول بعد ذكر مسألة بسط الأرض وتكون الجبال : ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ . بالرغم من أن «موزون» من مادة «وزن» ، إلأّا أنها هنا إشارة إلى النظام الدقيق والمحدد ، والتقديرات المتناسبة التي تحكم جميع ذرات النباتات ، إضافة إلى أن «وزن» كما أوردها الراغب في المفردات تعني في الأصل معرفة قدر الشيء .

وقال بعض المفسّرين أيضاً إنّ الميراد من هذا التعبير هو أنّ الله خلق من كُلِّ نباتٍ بقدر حاجة الإنسان <sup>(١)</sup> .

كما قالوا إنّ المراد من «موزون» هو وجوب تظافر كميات محددة من الماء والهواء والتراب وضوء الشمس كي تنمو النباتات .

واحتمل بعض المفسّرين أنّ التعبير بـ «كُلِّ شيء» يشتمل على المعادن أيضاً ، ولكن من خلال الفهم بأنّ عبارة «أنبتنا» لا تتناسب كثيراً مع المعادن ، فإنّ هذا التفسير يبدو بعيداً ، وأنّ الجمع بين التفسيرين ممكن ، وورد في بعض الروايات إشارة إلى التفسير الثاني أيضاً <sup>(٢)</sup> . ويردفها الإشارة إلى توفير الوسائل المعيشية والحياتية للناس ولحيواناتهم ولأولئك الذين يرتزقون على مائدة الخالق الواسعة فيقول : ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقٌ﴾ .

«معايش» : جمع «معيشة» ولها معنى واسع جداً ، فتشمل كُلِّ شيء يعده من وسائل حياة الناس ، وجملة ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقٌ﴾ إشارة إلى الحيوانات والكائنات الحية التي ليس بقدور الإنسان أن يطعمها ، فوضع الباري تعالى الطعام المناسب لكل منها في اختيارها على أساس النظام الخاص الذي يسود العالم ، ولو فتحنا أعيننا وتأملنا طريقة تغذية أنواع الحيوانات من النباتات ، لوجدنا فيه عالماً من أدلة معرفة الله .

(١) ذكر الفخر الرازي هذا في تفسيره كاحتمال أول ، والتفسير الثاني كثالث احتمال ، (التفسير الكبير ، ج ١٩ ، ص ١٧١) .

(٢) تفسير نور الثقلين ، ج ٣ ، ص ٦ ، أشار الإمام علي عليه السلام في هذه الرواية إلى المعادن المختلفة التي أُوحِدَتْ الله في الجبال وتبلغ وتشترى بالوزن .

بعضها يستفيد من الشمار ، وبعضاً من الحبوب ، وجموعةً من أوراق الأشجار ، وطائفةً من السiqان ، وآخر من القشور ، والبعض من رحيق الأزهار ، وقسم آخر يأكل الجذر فقط.

\* \* \*

وفي الآية العاشرة والأخيرة من البحث أشير إلى ميزة أخرى لعلم النباتات ، وهي مسألة انفلاق حبوب نوى النباتات تحت الأرض.

وقد وصفَ الباري تعالى في هذه الآية كما يلي : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبَّ وَالنَّوْيِ﴾ ، ويقول في نهاية الآية : ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

«فالق» : من مادة ﴿فَلْق﴾ ، وكما يقول الراغب في المفردات فهي تعني انفطر الشيء ، وانفصال جزءٍ عن جزءٍ آخر <sup>(١)</sup> ، و «الحب» تعني حبوب الطعام والغذاء أو كل أشكال الحبوب النباتية ، و «النوى» تعني نوى الشمار ، وإذا حصرها البعض بمعنى نوى التمر فذلك بسبب تكاثره في ذلك المحيط.

على أيّة حالٍ ، فإنَّ أهمَّ والطف مراحل حياة النباتات هي مرحلة انفلاق الحب والنوى ، وفي الحقيقة فإنَّ هذه الحالة تشبه حالة ولادة الطفل ، والعجيب أنَّ هذا البرعم النباتي بما فيه من رقةٍ وظرفيةٍ يشقُّ هذا الجدار القوي الذي يحيط به ، وينخر إلى العالم الخارجي ، فيولد هذا الكائن الحي الذي كان محبوساً إلى ما قبل لحظات في القشرة والنوى ، ولم تكن له علاقة بالعالم الخارجي ، ويقيم علاقاته مع الخارج فوراً ، فيتغذى من المواد الغذائية الموجودة في الأرض ، ويرتوي من الماء والرطوبة التي تحيط به ، ويدأ بالحركة بسرعة في اتجاهين متعاكسين فمن جهةٍ ينفذ في الأرض على هيئة جذرٍ ، ومن جهةٍ أخرى يستقيم فوق الأرض على هيئة ساقٍ.

فالقوانين الدقيقة التي تسود هذه المرحلة من حياة النبات مدهشةٌ حقاً ، وتعتبر دليلاً

(١) قد يستعمل هذا اللفظ بمعنى «الخلقة» كأنَّ حبَّ ظلمة العدم تتمزق وينكشف نور الوجود عنها (تفسير روح المعاني ، ج ٧ ، ص ١٩٦) ، ولنفس هذا الشيء يسمى بياض الصبح «فلق» على وزن «شفق» أيضاً.

حِيَا عَلَى عِلْمٍ وَقَدْرَةِ الْخَالقِ جَلَّ وَعَلَا.

يستفاد من مجموع ما ورد في هذه الآيات القرآنية حول خلق النباتات وخصائصها المختلفة ابتداءً من رشد النباتات إلى تنوعها ومسألة اللقاح والزوجية ، وأنواع المواد الغذائية للإنسان والحيوانات ، حتى كيفية نمو طلع التمر ، والحبوب المرتبة بعضها فوق بعض كالحنطة والشعير ، وتكاثر الشمار والزروع المتباينة تماماً الناتجة عن ماء واحد وأرض واحدة وسيادة القوانين الموزونة على جميع المراحل وانفلاق الحبوب والنوى ، أئنها جميعاً آيات لتلك الذات المقدّسة ، ودليل حي على وحدانية رب ونفي كل أشكال الشرك.

\* \* \*

### توضيحات

#### ١ . التركيب المذهل للنباتات

من الطبيعي أن ننسى عجائب وأسرار كل شيء إذا بدا لنا واضحًا فيكون مصداقاً للآية الشريفة : ﴿وَكَائِنٌ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ .

(يوسف / ١٠٥)

فتمر عليها مرور الكرام في الوقت الذي يكمن فيها عالم من عجائب وقدرة وعظمة الخالق جلَّ وعَلَا.

لنبأ من جذور النباتات ، فالجذر بطافته ورقته له قدرة مذهلة ، فهو ينفذ في طبقات الصخور والأراضي الصلدة ، وأحياناً يغور تحت قطع صخرية تزن عدة اطنان ويرفعها عن مكانها وتحرك العمارات والأحواض التي أُنشئت من القوالب والطبقات المسلحة نتيجة نمو الأشجار حولها.

فعمل الجذر هو امتصاص المواد الغذائية والرطوبة من كل ناحية ، وكأنها تعرف مراكز الرطوبة والمواد الغذائية من خلال شعورها العجيب فتسعى نحوها.

ولكل جذر جهاز عظيم له قدرة خاصة في انتخاب نوع الغذاء وتغييره وتبدلاته ، ثم

يدفعه إلى داخل الأغصان بعد التغييرات التي يُحدثها فيه ، ومنها إلى الشمار ، وتحري عليها تفاعلات كيميائية جديدة في كل مرحلة ، كي يصنع من التراب فاكهةً طيبةً كالعسل ، أو يصنع دواءً شافياً وصحيّاً.

ومن أهم واجبات الجذر امتصاص . التروجين المذاب . الضروري لبناء النبات الذي لا تتمكن بقية أجزاء النبات من جذبه.

وببناء الأوراق أكثر عجباً منه ، فلو وضعنا ورقةً أمام أشعة الشمس ستلتف نظرنا الفروع الدقيقة جداً المتداة فيها والتي يكون واجبها إيصال الماء والغذاء إلى كافة خلايا الورقة . وفي الواقع أن كل ورقةٍ تعتبر بحد ذاتها مدينةً كاملةً ، وهذه الفروع هي الأنابيب المنّظمة لهذه المدينة ابتداءً من الانبوب الرئيسي ، وحتى أصغر التفرعات .

والورقة مع رقتها لها سبع طبقات ، وكل طبقةٍ لها بناءً وبرنامجً خاصٍ يبعث على الدهشة ، والغلاف الذي يغطي الورقة كجلد الإنسان ذو مساماتٍ دقيقة جداً ، وكل من هذه المسامات لها خلايا للصيانة تقوم بتنظيم افتتاح وانغلاق المسامات .

وتتنفس الورقة من خلال هذه المسامات ، فتستنشق الهواء وتفصل عنه غاز ثاني أوكسيد الكاربون ، لتصنع به «الكلوروفيل» النباتي ، وفي المقابل تطرح الاوكسجين وكميةً من الرطوبة لتلطيف وتطهير الجو كموهبتين عظيمتين لدنيا الإنسانية .

والأرقام التي يقدمها العلماء هنا تبعث على الحيرة إذ يقولون : من أجل أن يتمكن النبات من صناعة رطل واحد من السُّكَّر يجب أن تستنشق الأوراق ما يعادل ثلاثة الف لتر من الهواء وتحلله .

وببناء الأزهار ومن ثم الشمار أعجب من ذلك أيضاً ، فهناك الأقسام الذكرية والأنثوية ، وتفاعل الدرّارات الذكرية الدقيقة جداً مع الأجزاء الأنثوية ، ثم تكوين البويضة في رحم النبات بعد هذا الزواج الصامت ، وكيفية نموه ، أنه عامٌ عجيبٌ يسلب معه روح وعقل الإنسان ، ويجعله غارقاً في محيطٍ من العجائب .

إنَّ تفصيل بناء هيكل النباتات والأزهار والشمار لا يفي بالغرض المطلوب في هذا

البحث المختصر ، فقد تم تأليف العديد من الكتب من قبل العلماء حول هذا الموضوع ، وظهر علمٌ واسعٌ بإسم «علم النبات» ، فمن الأولى أن نكتفي هنا بكلام لأحد خبراء الزراعة ونغلق هذا الملف الضخم على عجل ، يقول عالم النبات «تشرالدت» : «إنَّ الله يظهرُ من خلالِ القوانين الثابتة والرمزية التي يدير بها عالم النبات إنَّه يظهر ويتجلّى من خلال هذه الطرق :

١ . **النظام والترتيب** : ويشمل التكاثر والانقسامات الخلوية وبناء الأجزاء المختلفة من النبات حيث يتم بشكل منظم ومرتب.

٢ . **التعقيد** : فلا تقامُ أيُّ مَاكِنَةٍ من صنعِ الإنسان مع الترتيب المعقد والمذهل لنباتٍ عاديٍّ.

٣ . **الجمال** : إنَّ جمالَ الساق ، والورق والزهر أمرٌ الهيُّ ، إذ لا يقدرُ أيُّ نحاتٍ ماهرٍ ورسامٍ مجربٍ من تقديم تمثيلٍ أو لوحٍ بهذا الجمال.

٤ . **الوراثة** : فكلُّ نباتٍ يولدُ مثله وهذا هو انتاج المثل ، وهو يجري وفقاً لارادةٍ وخطيطٍ ، فبأيِّ مكان زرعوا وكيفما زرعوا فانَّ «الخنطة تنبُّث من الخنطة والشعير من الشعير».

ثم يضيف : باعتقادِي ، أنَّ هذه المظاهر دليلٌ على وجودِ الخالقِ ذي الحكمة البالغةِ والقدرةِ اللامتناهية»<sup>(١)</sup>.

يقول «تايلر» استاذُ علم البيئة السابق في جامعة مانشستر : «تأملوا النباتات والهشائش التي نبتت على جانبي الطريق ، فهل تستطيع الآلات الحديثة التي صنعها البشر حتى الآن أن تضاهي صنع هذا النبات الطبيعي؟!

فهذه الهشائش الطبيعية بكل معنى الكلمة مدهشة ومذهلة حيث تنمو باستمرار وتقوم يومياً بآلاف الأفعال والتفاعلات الفيزيائية والكيميائية ، وكلُّ ذلك يجري بإشراف المادة البروتوبلازمية التي تكونت فيها كل حياة الطبيعة ، وهذه الآلة الحية العجيبة من صنع أيِّ قدرة؟!».

\* \* \*

---

(١) عالم الأزهار (اقتباسٍ وتلخيص).

## ٢ . فوائد وبركات النباتات

إنَّ النباتات تُمثِّلُ الركن الأساس للحياة على الكِرة الأرضية ، وكافَةُ الكائنات الحيَّةِ الأخرى بحاجةٍ إلى النباتات ، ففوائد النباتات كثيرةٌ ووفيرةٌ للغاية حيث يمكن الإشارة إلى اثنتي عشرةً فائدةً متسلسلةً :

١ . أفضل مادةٌ غذائيةٌ : يتم تحضير أفضل اطعمةِنا نحن البشر من النباتات والحبوب والفاكهة ، فطاقتنا وقدرتنا وسلامتنا تُؤمِّنُ عن طريق الغذاء النباتي ، والكثير من الطيور والدواب واللبائن والأسماك في البحر تستفيد من النباتات ، لهذا فكُلُّ بلدٍ يتمكَّن من تأمين منتجاته الغذائية عن طريق النباتات فانه يبلغ الاكتفاء الذاتي في الواقع.

٢ . التهويةٌ : نحن نعلمُ أنَّ الإنسان وأغلب الموجودات الحية تستخدمُ اوكسجين الهواء بِنَحْوِ دائمٍ وتقوم بإحراقه ، ولو لا وجود مصدرٍ يعُوضُ ذلك فسيُستهلك هذا الاوكسجين الموجود في الجو والأرض خلال مدة قصيرة ، ويَهلكُ هذا الصنف من الموجودات أثر الاختناق ، إلَّا أنَّ إِلَهَ الحكيم اناطَ مسؤولية تعويض هذه الخسارة بالنباتات ، فهي تتنفس على العكس من الإنسان ، إذ تأخذ غاز ثاني اوكسيد الكاربون وتحلله وتطرح غاز الاوكسجين ، لهذا فإنَّ هواء البساتين والمزارع منعشٌ ومنتَهٍ ، كما يوصون لنفس هذا السبب بِأنَّ تقام في كلِّ مدينةٍ متنزهاتٍ مُشَجَّرةٍ ، وتحصَّصُ لكلِّ شخصٍ مساحةً من هذه المتنزهات ، ويطلقون على هذه المتنزهات «رَئَةُ المدينة».

٣ . الملابسٌ : إنَّ الجانب الأعظم من ملابسنا يتمَّ تصنيعه من ألياف بعض النباتات ، وفي الواقع فإنَّ المصدر الذي لا ينفد ملابس الإنسان في الدرجة الأولى هو النبات.

٤ . البيت وأثاثهٌ : لو ألقينا نظرةً على ما حولنا في البيت لوجدنا أنَّ أغلب الأبواب والشبابيك واللوازم الأخرى هي من أخشاب الأشجار ، بِنَحْوِ لو أردنا الغاءَها من حياتنا فستصبح الحياة صعبَةً بالنسبة لنا ، وفي الكثير من المناطق يصنعون بيوتهم من الخشب بشكلٍ كامل ، ولهذه البيوت مزاياً كثيرة ، وأحد اللوازم المهمَّة للحياة المعاصرة هو النايلون ، ونحن نعلمُ إنَّ مادته الأصلية تُستخرج من عصير شجر المطاط.

**٥ . الأعشاب الطبية :** كانت أغلب الأدوية في السابق تُستخلص من النباتات ، واليوم فانَّ القسم الكبير منها يستخرج من النباتات أيضًا ، ونظرًا للآثار السلبية للأدوية الكيميائية فقد بدأت الآن حملةً للعودة إلى الأدوية النباتية ، وهنالك صيدليات جميع أدويتها من النباتات .

**٦ . السيطرة على الكثبان الرملية :** إنَّ أحد الأخطار الجديَّة التي تهدِّد المدن لا سيما القريبة من الصحاري الرملية هي الكثبان الرملية حيث تدفن تحتها أحياناً قريةً كاملة ، وأفضل سبييل لتشييٍت هذه الرمال هو استخدام النباتات المختلفة التي توقف حركتها وتقدُّمها .

**٧ . تحضير الورق :** نحن نعلم أنَّ احتراز الورق كان له نصيب مهمٍ للغاية في تطور الحضارة والعلم البشري ، والنباتات هي المصدر الأساس لصناعة الورق .

**٨ . معادلة الحرارة والبرودة :** إنَّ النباتات وبسبب الرطوبة المناسبة والمعتدلة التي تلقِّيها في الفضاء تقوم بالحدِّ من شدَّة البرد ، وكذلك الحدِّ من شدَّة الحرارة ، ولهذا فانَّ الجو في المناطق كثيفة الأشجار يكون معتدلاً دائمًا .

**٩ . وسائل النقل :** إنَّ الكثير من البوارِّ والقوارب كانت تصنع سابقاً وتصنع حالياً من الخشب ، وهي تعتبر من أفضل وسائل النقل التي يستخدمها الإنسان سابقاً وفي الوقت الحاضر .

**١٠ . الجمال والطراوة :** لا يخفى هذا الأثر اللطيف للأشجار والنباتات والزهور على أحد حيث تبهُّر روح الإنسان بجمالها المدهش ، وثيرُّ القلب وتزرع الطمأنينة في نفس الإنسان لمواجهة الضغوط الشديدة للحياة ، لهذا يقومون بتزيين المستشفيات بأنواع النباتات والأشجار من أجل تحسين أحوال وأوضاع المرضى ، ويلجأ الإنسان باستمرار إلى أحضان الطبيعة في وسط الأشجار والبساتين ومزارع الحنطة من أجل إزالة المتابع وتجديد النشاط .

**١١ . المصدر المهم للطاقة :** إنَّ الخشب والورق وجذور النباتات كانت ولا زالت

أحدى

المصادر المهمة للطاقة وتأمين الحرارة ، وحتى الفحم الحجري الذي هو أحد مصادر الطاقة المهمة فهو من منتجات الأشجار والنباتات أيضاً ، والحرارة التي تحصل من الخشب وأوراق الأشجار ملائمة ، وتلوينها للبيئة ضئيل جداً ، وحتى الرماد المتبقى منها يصلح كسماد للأشجار يستفاد منه مجدداً.

١٢ . أصناف العطور والمواد الكيميائية : نحن نعلم أنَّ أفضلَ العطور الملطفة لروح الإنسان كانت ولا زالت تُستخلص من رحيق الأزهار ، والأشجار والنباتات ذات الورق والخشب المعطرُ ذا الرائحة الطيبة ، ليست بالقليلة .  
ناهيك عن كثيِّرٍ من الوادِ الكيميائية المستخلصة من النباتات التي تستخدم في مختلف الصناعات .

عظيمٌ ذلكُ الأله الذي أودعَ كُلَّ هذه الآثار والفوائد والبركات في هذا المخلوق ، وجعلَة آيَةً عظيمة من آياتِ علمه وقدرته .  
إنَّ التعابير الشاملة التي تَلُوناها في الآيات المذكورة ، يمكن أن تجمعَ كُلَّ هذه الفوائد في عبارة «معايش» جمع «معيشة» وتعني وسيلة الحياة .

\* \* \*

### ٣ . الأنواع غير المحدودة للنباتات

كما أشرنا سابقاً فانَّ أنواع النباتات كثيرةٌ بالقدر الذي لا يمكن حصرُها ، وقد تم حتى الآن احصاء ثلاثة آلاف نوع من النخيل ، والف وسبعمائة نوع من التين الهندي ، والف ومائتي نوع من ورد الشلub .

يدَرُك مؤلف كتاب «عالم الأزهار» (فرديناندلين) أنَّ عدد النباتات ذات الحبِّ المعطَّى يبلغ مائة وخمسين الف نوع وقد تم بيان صفات أكثر من ثمانية عشر الف نوع من النباتات في بعض كتب علم النباتات <sup>(١)</sup> .

(١) تاريخ العلوم ، ص ٣٥٢ .

وقد تم بحث الف نوع من الكمية من التي تم احصاؤها ، وأكثر من أربعين الف نوعٍ من الطحالب ، وسعة آلاف نوع من التفاح ، وخمسة وثلاثين الف صنف من الخنطة<sup>(١)</sup> . ومن بين النباتات ، هنالك نباتات لا تُرى بالعين المجردة ، وهنالك نباتات يصل طولها إلى خمسين متراً ، وبعضها ينمو في وسط الصخور ، وبعضها يعوم وسط الماء ، وجذور بعضها يتفرع تحت الماء وأزهاره فوق سطح الماء ، ولكل منها منظرةً البديع واللطيف في عالمه حيث يصبح بلحن التوحيد.

\* \* \*

#### ٤ . عجائب عالم النباتات

لو تركنا كلَّ ما قيل بخصوص النباتات بشكل عام ، سنلاحظ أنَّ هناك عجائب جَمِّعَةً في عالم النباتات ، حيثُ صار بعضها طي النسيان لاعتيادنا عليها. فأوراق وسيقان النباتات الضخمة ترفع يومياً ميلارات الأطنان من الماء من الأرض خلافاً لقانون الجاذبية ، ثم تُنشره بخاراً في الفضاء المحيط بها ، أيُّ قانون يسمح للنباتات أن تستعرض قوَّتها هكذا خلافاً لقانون الجاذبية التي تجذب كلَّ شيءٍ نحو الأسفل . لا سيما الماء؟ . هنالك الكثير من النباتات كورد عباد الشمس تدور مع حركة الشمس فتشحرك أزهارها الكبيرة نحو الشرق في أول الصباح و نحو الغرب أثناء الغروب . والنباتات آكلة اللحوم من أكثر ظواهر عالم النباتات إثارةً.

وقد اجرى البروفسور «ليون برتن» مدير «متحف التاريخ الوطني الطبيعي الفرنسي» تحقيقاتٍ بخصوص هذه النباتات آكلة اللحوم حيث يوجد منها عشرة أنواعٍ فقط في فرنسا ، وأشهرها النباتات الآتية :

أ) «آلدروفوند» : ويكثر في ولاية «جيروفوند» الواقعة غرب فرنسا على سواحل المحيط الأطلسي ، فهذا النبات ذو ورقةٍ تتكون من قطعتين حاصلتين متقابلتين كصفحتي كتابٍ

(١) معرفة الله ، ص ٢٩١ و ٢٩٢ .

مفتوحٍ ، تتصالن من الأسفل بواسطة مفصلٍ خاصٍ ، وتغطي سطح الأوراق طبقةٌ حساسةٌ. وعندما تقترب ذبابةٌ منه وتمسُّ أرجلُها أو جسمُها هذه الطبقة ، تنطبق الصفحات المذكورتان بسرعة ، فيقع الحيوان في وسط ذلك السجن ، وفي النهاية يهضمُ تدريجياً ويصبح جزءاً من جسم النبات أثر افراز مادة لاصقة خاصة حيث تفرز من الورق.

ب) «دروزرا» : وهذا النبات له أوراقٌ حمراء اللون تشاهد عليها نتوءات رفيعة تشبه الشعر ، وحينما تضلّ الذبابة طريقها ، تقف على أوراق هذا النبات ظناً منها بأنّها قد عثرت على المكان الآمن الخالي ، وفجأةً تنطبق المخالب من ناحية رأسها ، فتجرها مخفورةً إلى داخل الورقة فتهضمُ ويتتصها النبات وسط الافرازات اللزجة للورقة.

ج) «نيانتس» : وهو أكثر النباتات الأكلة للحوم عجباً ، حيث يوجد في نهاية الفرع الدقيق ما يشبه الوعاء الصغير ، تكون فوهته نحو الأعلى ، وله بابٌ خاصٌ مفتوحٌ خالٌ الأوضاع العادمة.

ويُعتبر هذا الوعاء فخاً خطيراً للحشرات الغافلة والهائمية في الجو ، فهو يحتوي باستمرار على العسل اللزج الحلو حيث يدعو الحشرات «عايدة البطن» نحوه ، وكذلك فإنّ جمال وشفافية لون الوعاء ذو جذبٍ خاصٍ للحشرات «ذات الذوق الجيد». فإذا وقعت حشرةٌ ما أسيّرةً لهاها ودخلت الوعاء فانّ فوهته ستتغلق على الفور وستبتلى بسجينٍ لا خلاص منه أبداً.

على أية حالٍ ، هذا الوعاء يعتبر كالمعدة بالنسبة لهذا النبات ، والافراز الداخلي كافرازاتها ، ويجعل الحشرة قابلةً لامتصاص.

يقول العلماء : إنَّ قيام هذه النباتات باصطياد الحشرات يعود لعدم قدرة جذورها لامتصاص «النتروجين» ، لهذا فهي تعوّضُ هذا النقص عن هذا الطريق. ويأمل العلماء بأنْ يأتي اليوم الذي يستطيعون فيه تربية كميةٌ كبيرةٌ من هذه النباتات في حدائق البيوت أو إلى جانب الأحواض ، ويقضون بهذه الطريقة الصحية والطبيعية على الذباب والمحشرات الضارة الموجودة في بيئة الإنسان.

وورد في مذَكرات السَّيَاح والرَّحَالَة قصصٌ عجيبةٌ حول النباتات التي تأكل البشر ، فيقول بعض العلماء من الممكن أن تكون هذه النباتات من النباتات أكلة الحشرات إلَّا أنها أكبر حجماً لنموها في أرضٍ غنيةٍ ، وتستطيع أن تقتضي حياءً أكبر في بطن فروعها واوراقها وقتصها تدريجياً (ولكن لا يمكن تأكيد وقبول ذلك بسهولة) <sup>(١)</sup>. ومن أعجب وألطف جوانب وجود النباتات هو انتاج الشمار.

وواحد من مئات الامور الظرفية فيها وجود سائلٍ حلو ولذيدٍ في الكثير منها مخزون في أوعيةٍ صغيرةٍ خاصةٍ مربوطةٍ بإحكامٍ ، حيث ييدو أفضل طرق الربط في عصرنا الحاضر ، بدائيةً جدّاً أزاءها.

افتَّحُوا بِرِتَقالَةً وَاحِدَةً ، سَتَجِدُونَ كَأَنَّ شَقَّاً مِنْهَا يَتَكَوَّنُ مِنْ مَئَاتِ الْقَطْعِ الزَّجَاجِيَّةِ الصَّغِيرَةِ الظَّرِيفَةِ الَّتِي تَفِيضُ بِسَائِلٍ لَذِيدٍ وَمَعْطَرٍ ، الزَّجَاجَاتِ الَّتِي تَجْمَعُ مَعًا دُونَ أَيِّ فَاصِلَةٍ (ولو كان هنالك فاصلةٌ وهواءٌ فيما بينها لفسدت بسرعة). لكن هذه الزجاجات لا تتكسر أبداً ، وتحتمل صعوبات الحمل والنقل ، واللطيف هو إمكانية أكلها مع محتوياتها.

وَكُلُّ مُجْمُوعَةٍ مِنْ هَذِهِ الزَّجَاجَاتِ الصَّغِيرَةِ وَالظَّرِيفَةِ مَغْلَفَةٌ بِقُشْرَةٍ سَمِيَّةٍ وَهِيَ بِمَثَابَةِ الغلاف ، وَتَظَهُرُ عَلَى هَيَّةِ شَقٍّ (وهذا الوعاء قابلٌ للأكل مع محتوياته أيضاً ، بل هو مفیدٌ للجهاز الهضمي).

وَهَذِهِ الْأَغْلَفَةِ الصَّغِيرَةِ تَجْمَعُتْ بِدُونِ اقْلٍ فَاصِلَةٍ مَعَ تَفْرِيغٍ كَامِلٍ مِنَ الْهَوَاءِ ، وَالتَّوْثُ وَسْطٌ عَدَّةٌ لِفَافَاتٍ مِنْ أَجْلِ السَّلَامَةِ وَالْأَمَانِ ، وَفِي النِّهَايَةِ أَصْبَحَتْ مَعْدَةً عَلَى هَيَّةِ حَلٍ صَالِحٌ جَاهِزٌ لِلشَّحْنِ لِمَسَافَاتِ نَائِيَّةٍ.

وَيُلَاحِظُ هَذَا الْأَمْرُ عَلَى نَحْوِ أَكْثَرِ طَرَافَةٍ دَاخِلِ ثَمَارِ الرَّمَانِ وَالْعَنْبِ وَالْتَّينِ أَيْضًا. تَأْمِلُوا جَيْدًا لَوْ أَنَّ عَصَارَةً أَيِّيًّا مِنْ هَذِهِ الشَّمَارِ وُضِعَتْ فِي الْهَوَاءِ الْطَّلْقِ سَتَتَغَيِّرُ بَعْدِ مَرْوَرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَقَدْ تَعْفَنَ خَلَالِ عَدَّةِ سَاعَاتٍ ، إِلَّا أَنَّ تَغْلِيفَهَا دَقِيقٌ وَمَبْرُوكٌ بِنَحْوِ لِيَسْمَح

(١) نَظَرَةٌ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَأَسْرَارِهَا ، تَأْلِيفُ الْبِرُوفُوسُورِ لِيُونِ بُرْتُنْ ، ص ١٣١ - ١٣٤ (مع الاختصار والاقتباس).

بنفوذ الهواء إلى داخلها أبداً ، ولهذا فهي تبقى سالمةً لعدة شهور دون أقل تغيير في طعمها . وهذا يتعلق بمسألة التغليف العادي فقط ، وأمّا المركبات الكيميائية لكل فاكهة وخصوصها الغذائية والطبية وأنواع الفيتامينات وموادها الغذائية فهي بحد ذاتها ذات قصبة مفصلة حيث يختص ببحثها المتخصصون بعلم الغذاء ، وقد تم تأليف كتب كثيرة في هذا المجال ، ولو أردنا أن نطرق كل هذه المسائل فسنخرج عن إطار كتابنا التفسيري ، فضلاً عن أن «وزن كتاب كهذا سيبلغ الأطنان» .

\* \* \*

## ٥ . أسرار خلق النباتات في توحيد المفضل

ونقرأ في حديث توحيد المفضل عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال :

«فَكَرْ يَا مُفْضِلُ فِي هَذِهِ النَّبَاتِ وَمَا فِيهِ مِنْ ضَرْوبِ الْمَأْرَبِ ، فَالشَّمَارُ لِلْغَذَاءِ ، وَالْأَتْبَانُ لِلْعَلْفِ ، وَالْحَطْبُ لِلْوَقْدِ ، وَالْخَشْبُ لِكُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ النَّجَارَةِ وَغَيْرِهَا ، وَاللَّحَاءُ وَالْوَرْقُ وَالْأَصْوَلُ وَالْعَرْوَقُ وَالصَّمْوَغُ لِضَرْبِهِ مِنَ الْمَنَافِعِ ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ بَنْجَدُ الشَّمَارِ الَّتِي نَعْذِنِي بِهَا بِجَمِيعِهَا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَلَمْ تَكُنْ تَنْبُتْ عَلَى هَذِهِ الْأَغْصَانِ الْحَامِلَةِ لِهَا كِمْ كَانْ يَدْخُلُ عَلَيْنَا مِنَ الْخَلْلِ فِي مَعَاشِنَا ، وَإِنْ كَانَ الْغَذَاءُ مَوْجُودًا فَإِنَّ الْمَنَافِعَ بِالْخَشْبِ وَالْحَطْبِ وَالْأَتْبَانِ وَسَائِرِ مَا عَدَنَا كَثِيرَةٌ ، عَظِيمٌ قَدْرُهَا جَلِيلٌ مَوْقِعُهَا هَذَا مَعَ مَا فِي النَّبَاتِ مِنَ التَّلَذُذِ بِجُسْنِ مَنْظُورِهِ وَنَضَارِتِهِ الَّتِي لَا يَعْدُ لَهَا شَيْءٌ مِنْ مَنَاظِرِ الْعَالَمِ وَمَلَاهِيهِ .

فَكَرْ يَا مُفْضِلُ فِي هَذِهِ الرِّبَعِ الَّذِي جَعَلَ فِي الزَّرْعِ فَصَارَتِ الْحَبَّةُ الْوَاحِدَةُ تَخْلُفُ مَائَةَ حَبَّةٍ وَأَكْثَرَ وَأَقْلَى وَكَانَ يَجِوزُ أَنْ يَكُونَ الْحَبَّةُ تَأْتِي بِمَثْلِهَا فَلَمْ صَارَتِ تَرْبِيعُ هَذِهِ الرِّبَعِ إِلَّا لِيَكُونَ فِي الْغَلَّةِ مَتْسَعٌ لِمَا يَرْدُ فِي الْأَرْضِ مِنَ الْبَذْرِ وَمَا يَتَقوَّتُ الزَّرْعُ إِلَى إِدْرَاكِ زَرْعِهَا الْمُسْتَقْبِلِ ... تَأْمَلُ نَبَاتَ هَذِهِ الْحَبَوبِ مِنَ الْعَدْسِ وَالْمَالِشِ وَالْبَاقِلَاءِ وَمَا أَشْبَهُ ذَلِكَ فَإِنَّهَا تَخْرُجُ فِي أَوْعِيَةٍ مِثْلِ الْخَرَائِطِ لِتَصْوِنَهَا وَتَحْجَبُهَا مِنَ الْآفَاتِ إِلَى أَنْ تَشَدَّدَ وَتَسْتَحِكُمْ كَمَا قَدْ تَكُونُ الْمُشَيْمَةُ عَلَى الْجَنِينِ لَهُذَا الْمَعْنَى بَعْيَنِهِ ، فَأَمَّا الْبُرْرُ وَمَا أَشْبَهُهُ فَإِنَّهُ يَخْرُجُ مَدْرَجًا فِي

فشور صلاب على رؤوسها مثال الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفّر على الزراع ...  
تأمل الحكمة في خلق الشجر وأصناف النبات فاّنّا لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة  
الحيوان ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تبعث بها لتناول الغذاء جعلت اصولها  
مرکوزة في الأرض لتنزع منه الغذاء فتؤديه إلى الاغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت  
الأرض كالأم المريّة لها وصارت اصولها التي هي كالأفواه ملتقطة للأرض لتنزع منها الغذاء  
كما يرّضع أصناف الحيوان امهاّها.

تأمل يا مفضل خلق الورق فانك ترى في الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع ، فمنها  
غلاّظ ممتدة في طولها وعرضها ، ومنها دقاد تتحلل الغلاّظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجماً لو  
كان مما يصنع بالأيدي كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة في عالم كامل ولا حتّيج  
إلى آلات وحركة وعلاج وكلام فصار يأتي منه في أيام قلائل من الربيع ما يملاً الجبال والسهول  
وبقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام إلا بالإرادة النافذة في كل شيء والأمر المطاع».

ثم أشار الإمام عليّ<sup>عليه السلام</sup> في سياق هذا الحديث إلى عجائب الثمار والنوى ، وموت  
وحياة النباتات في كل عام ، وتلقيح وحمل الأجزاء الانثوية عن طريق الالتحام مع الأجزاء  
الذكورية ، وكذلك أدوية العلاج التي تستخلص من أصناف النباتات ، والمحبوب والنباتات  
التي يعتبر كلّ منها غذاء لأحد الحيوانات ، وقدّم شرحاً لطيفاً حول كلّ منها ، حيث إنّ  
ذكرها جميعاً لن يكون ممكناً ، وبمقدور الراغبين مراجعة الحديث أعلاه<sup>(١)</sup>.

نضطّر هنا إلى طي هذا البحث الطويل ونختمه ببعض الآيات من الشعر التوحيدية  
الأصيل ، فلو اطلق عنان العلم فيجحب تأليف كتب عديدة ، في هذا المجال يقول الشاعر  
نقلاً عن الفارسية :

إِنَّ جَمِيعَ خَلْقِ اللَّهِ اَنذَارٌ لِّلْقَلْبِ      لِيْسَ لَهُ قَلْبٌ مِّنْ لَا يَقْرُّ بِاللَّهِ  
فَالْجَبَالُ وَالْبَحَارُ وَالْأَشْجَارُ كُلُّهَا تَسْبِحُ      وَلَا يَفْهَمُ كُلُّ مُسْتَمِعٍ هَذِهِ الْأَسْرَارُ!

(١) بحار الأنوار ، ج ٣ ، ص ١٢٩ - ١٣٦ «مع الاختصار».

والذهن يعجز عن حقيقة ياقوتة الرُّمان  
والنخل من صنع قضاء وقدر ماهرٍ  
فقد وضع تحت كل ورقة مصباحاً من نور الرُّمان  
يشبه عرق المحبوب المعطّر!  
يا من لا تصدق أنَّ «في الشجر الأخضر نار»  
الشمس والقمر بتقديرٍ وكذلك الليل والنهار<sup>(١)</sup>

والعقل متحيزٌ من عنقود العنب الذهبي  
وتتدلى عناقيد الرَّطب من النخل  
ولكي لا يصبح ظلاماً ظلُّ الأشجار الكثيف  
وهبط الندى على الزهرة عند حلول السحر  
فافتح بصرك وانظر خلق النارنج  
مقدار منزَّة الله الذي سخرَ

\* \* \*

---

(١) هذه الآيات مترجمة من «كليات سعدي» ، فصل التصائيد ، ص ٤٤٣ .



## ١٦ . آياته في خلق الأرزاق العامة

تمهيد :

إنَّ لـكـلـ كـائـنـ حـيـ اـحـتـيـاجـاتـ منـ أـجـلـ اـسـتـمـارـ حـيـاتـهـ ،ـ أوـ بـتـعـبـيرـ آـخـرـ إـنـ النـشـاطـاتـ الحـيـاتـيـةـ تـنـطـلـبـ موـادـ تـوـلـدـ الطـاـقةـ يـحـبـ أنـ تـصـلـ إـلـىـ الـكـائـنـ الحـيـ دـائـمـاـ ،ـ وـيـطـلـقـ عـلـيـهـاـ بـالـاصـطـلـاحـ «ـالـلـاـفـيـ»ـ ،ـ وـتـعـوـيـضـ ماـ يـتـحـلـلـ .ـ وـيـجـبـ أـنـ تـكـوـنـ هـذـهـ المـوـادـ مـلـائـمـةـ تـامـاـ لـذـلـكـ الـمـخـلـوقـ مـنـ جـمـيـعـ الـجـوـانـبـ كـيـ يـتـمـكـنـ مـنـ الـاستـفـادـةـ مـنـهـاـ بـيـسـرـ .ـ

إنَّ نـظـامـ الرـزـقـ فـيـ عـالـمـ الـخـلـقـ ،ـ وـكـيـفـيـةـ إـعـدـادـهـ ،ـ ثـمـ كـيـفـيـةـ وـضـعـهـ فـيـ مـتـنـاـولـ كـلـ مـوـجـودـ ،ـ وـكـذـلـكـ الـاسـتـفـادـةـ مـنـهـاـ ،ـ نـظـامـ جـمـيـلـ وـدـقـيقـ لـلـغـاـيـةـ ،ـ وـمـلـيـعـ بـالـأـسـرـارـ أـحـيـانـاـ ،ـ حـيـثـ يـخـتـفـيـ فـيـهـ جـمـعـ مـنـ الـآـيـاتـ الـمـهـمـةـ لـتـوـحـيـدـ الـلـهـ وـعـلـمـهـ وـقـدـرـتـهـ ،ـ لـهـذـاـ اـسـتـنـدـ عـلـيـهـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ مـرـارـاـ فـيـ مـخـتـلـفـ الـآـيـاتـ .ـ

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن الكريم ونتأمل خاسعين في الآيات الآتية :

- ١ . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مَنْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنَّى تُوَفَّكُونَ﴾ . (فاطر / ٣)
- ٢ . ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيشُكُمْ ثُمَّ يُحِيِّكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَاءَ لَكُمْ مَنْ ذَلِكُمْ مَنْ شَيْءٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . (الروم / ٤٠)
- ٣ . ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مَنْ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ إِلَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ . (النمل / ٦٤)

٤ . ﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُثُوٍ وَنُفُورٍ﴾. (الملك /

(٢١)

٥ . ﴿أَوَلَمْ يَرَوَا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ أَنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَاتِ لِقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ﴾. (الروم / ٣٧)

٦ . ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمُتَّيْنُ﴾. (الذاريات / ٥٨)

٧ . ﴿وَمَا مِنْ ذَبَابٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَرَهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلُّ فِي

كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. (هود / ٦)

٨ . ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَىٰ أَوْ فِي

ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. (سبأ / ٢٤)

٩ . ﴿وَنَرَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارِكًا فَأَنْبَتَنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالْتَّحْلُلَ بَاسِقَاتٍ

لَهَا طَلْعٌ نَضِيدُّ رِزْقًا لِلْعِيَادِ﴾. (ق الآيات / ٩ . ١١)

١٠ . ﴿فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبَنَا الْمَاءَ صَبَبًا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقَّاً

فَأَنْبَتَنَا فِيهَا حَبَّاً وَعِنْبَاً وَقَضْبَاً وَرَبُوتُنَا وَنَخْلًاً وَحَدَائِقَ غُلْبًاً وَفَاكِهَةً وَأَبَاًً مَتَاعًا لَكُمْ

وَلَا نَعْلَمُكُمْ﴾. (١) (عبس الآيات / ٢٤ . ٢٤)

\* \* \*

### شرح المفردات :

«الرِّزْق» : كما يقول الراغب في كتاب «المفردات» يعني البذل والعطاء المستمر ، دنيوياً كان أو آخر دنيوياً ، كما يقال للحظة النصيب رزقاً ، وكذلك للمواد الغذائية التي تصل إلى جوف الإنسان.

يقول «ابن منظور» في «لسان العرب» أيضاً : «الرِّزْق» نوعان : ظاهر للأبدان كالأقوات ، وباطن للقلوب والنفوس ، كانوع المعرف والعلوم.

(١) هناك آيات كثيرة أخرى وردت في هذا الحال لها شبهة بالآيات أحلاه منها ٣١ ، يونس ؛ ١٧٢ ، البقرة ؛ ٢٨ ، الشورى ؛ ٢٦ ، الرعد ؛ ١٢ ، الشورى ؛ ٢٧ ، الشورى ؛ ٢٢ ، البقرة ؛ ٣٢ ، إبراهيم ؛ ٧٣ ، النحل ؛ ١٧ ، العنكبوت ؛ ١٣ ، غافر.

وورد في كتاب «التحقيق» أيضاً أنَّ الرِّزقَ يعني «العطاء الخاص الذي يناسب متطلبات وضع المقابل ويطابق حاجته لاستمرار حياته».

وفي القرآن الكريم استعمل في كلا المعنين فنقرأ قوله تعالى : **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلِيلًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾** . (الملك / ١٥)

وورد قوله تعالى في خصوص الشهداء : **﴿بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** . (آل عمران / ١٦٩)

إلا أنَّه يستخدم غالباً بخصوص الأرزاق المادية ، بالرغم من أنَّ استعماله بخصوص الأرزاق المعنوية ليس قليلاً أيضاً ، وحيث إنَّ الله تعالى واهب جميع النعم المادية والمعنوية فانَّ لفظ «الرِّزق» من صفاته الخاصة <sup>(١)</sup> .

و «الطعام» : له معنى مصدري واسم مصدري معاً ، أي أنَّه يطلق على «أكل الطعام» ، وكذلك على نفس «الغذاء» ، وقد يستعمل هذا اللفظ بخصوص الحنطة ، كما ورد في الرواية إنَّ النبي ﷺ أمر باعطاء صاع من «الطعام» أو صاع من «الشاعر» (وهنا استُخدم الطعام بمعنى الحنطة في مقابل الشاعر).

وذكر صاحب «لسان العرب» أنَّ الطعام اسم جامع لكلِّ ما يؤكل ، إلا أنَّه هو والراغب في المفردات صرحاً بـأنَّ هذا اللفظ قد يستخدم للمشروبات أيضاً كما في : **﴿فَمَنْ شَرَبَ مِنْهُ فَأَئِسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾** . (البقرة / ٢٤٩)

يقول الخليل بن احمد في كتاب «العين» أيضاً : يقالُ الطعامُ في كلامِ العربِ للبَرِّ خاصة ، (إلا أنَّه يعود على ما ييدو إلى أنَّ الطعام الأساس غالباً ما يكون من الخبر الذي يُصنع بدوره من الحنطة ، وإنَّ الكثير من أرباب اللغة ذكروا أنَّ للطعام مفهوماً عاماً <sup>(٢)</sup> ) ، وقال بعض اللغويين إنَّ الطعام يعني التمر أيضاً ، ويبدو أنَّ هذا الكلام يعود إلى أنَّ التمر كان هو الطعام الأساس في ذلك الزمان وتلك البيئة.

(١) لسان العرب ؛ المفردات ؛ مجمع البحرين ؛ والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٢) لسان العرب ؛ المفردات ؛ كتاب العين ؛ والنهاية لابن أثیر.

## جمع الآيات وتفسيرها

**الكل يتسع بهذه المائدة عدواً كان أم صديقاً :**

لقد قلنا ماراً أنَّ مشركيَّ العرب لم يعتبروا الأصنام كخالقِ لهم أبداً، إلَّا هُمْ كانوا يعتقدون أنَّ الاوثان لها يدٌ في تدبير هذا العالم وحل مشكلات الناس فيبذلون العطاء لها، لهذا يعتبرونها شفيعةً لدى الله، أو بسبب إناطة مسؤولية تدبير العالم في هذه الجوانب لها. لذلك فقد تم التأكيد في الآيات القرآنية المذكورة على هذه المسألة بتعابير مختلفة من أجل رد هذه العقائد الخرافية، والتأكيد بأنَّ الخالق والرازق واحدٌ، وجميع أنواع الأرزاق تأتي من ناحيته.

من البديهي إذا ما دُعِيَ الإنسان إلى مائدةٍ وكان فيها من الأطعمة ما لذٌ وطابٌ، أن يتقدم بالشكر قبل كل شيء إلى صاحب هذه النعم، لذلك فهو يذهب وراء صاحب تلك المائدة لمعرفته، فهل هناك مائدةً أوسع من مائدة الخالق؟ وهل يجب معرفة صاحب هذه المائدة التي يتَّنَعُّم بها العدو والصديق؟ وتقدم الشكر له لعطياته التي عَمِّرْتُنا ظاهراً وباطناً من أعلى رؤوسنا وحتى أخمص أقدامنا؟

بناءً على ذلك فانَّ أهمَ الدوافع «لمعرفة الله» وكذلك أحد الطرق لمعرفته هي هذه الأرزاق.

لذلك خاطبَ القرآن في أول آية من البحث كافةَ الناس قائلاً : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

فهو يُرسِّلُ لكم من السماء نور الشمس الذي يهُبُّ الحياة، و قطرات المطر التي تُحيي الأرض، والنسيم الذي يُنمي الأرواح، ومن الأرض يُنبُتُ لكم أنواع النباتات والغواكه والمواد الغذائية، وفي باطنها أنواع المعادن والشروات.

مع هذا يجب أنْ تعرفوا أنَّ لا معبودَ سواه، وهو وحده الجدير بالعبادة، فكيف تنحرفون عن الصراط المستقيم وتجعلون هذا الخالق العظيم واهب الرزق وراء ظهوركم، وتسجدون

لالأصنام : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفِكُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

ويستند في الآية الثانية على أربعة أمورٍ لإثبات توحيد الربوبية : «وحданية الخالق» ، وكذلك التوحيد في العبادة ، وهي : حلق الإنسان ، ورزقه ، وموته ، وإعادة احيائه ، وقد تم تعريفها من قبل الله تعالى ، لأنّها جميعاً ذات نظامٍ دقيقٍ حيث تبرهنُ لأنّها تصدرُ عن مبدأ العلم والقدرة ، فيقول : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمْتَكِّمُ ثُمَّ يُحْبِّكُمْ﴾.

﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مَنْ شَاءُ﴾ بناءً على ذلك يجب أن تسلّموا لنزاهته وعلوّه عما يُشركون به : ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾.

فحينما نعلم أنّ خلقنا وموتنا وحياتنا بيده ، فلا معنى بأن نلهث وراء غيره ، ونخضع ونسلّم لسواده.

والجدير بالذكر أنّ الخلق يشمل الرزق والموت والحياة ، لأنّ كافة أنواع الرزق تعود إلى خلق الله تعالى ، وكذلك فإنّ الحياة جزءٌ من الخلق وتعقبها الأرزاق والموت ، وعليه فإنّ الاستناد إلى هذه الجوانب الثلاثة ليس لكونها شيئاً منفصلاً عن الخلق ، بل لأنّها في الحقيقة توضح مصاديق مهمّة عن ذلك الموضوع العام.

وهذه النكتة جديدةٌ بالتأمل أيضاً ، إذ بالرغم من أنّ الإحياء بعد الموت لم يكن مقبولاً لدى مشركي العرب ، إلا أنّ هذه الآية تُعتبر إشارة لطيفةً لهذا الاستدلال ، وهو أنّ الخلق الأول ونعمة الحياة في بداية الأمر دليلٌ واضحٌ على إمكانية تكراره يوم القيمة والبعث ، بل لو تأملنا جيداً فإنّ مسألة الموت والحياة مستمرةٌ في هذا العالم ، فوجود الإنسان يعتبر ساحةً للموت والحياة في كلّ عامٍ وشهرٍ بل في كلّ يوم وساعة ، تموت الملايين من الخلايا ، وتخلُّ مكانها ملايينٌ أخرى ، فتتجسدُ مسألةُ المعاد باستمرار في هذه الدنيا ، إذن ما العَجَبُ في أنّ يرجع الامواطُ إلى الحياة من جديد في الآخرة؟

(١) «تُؤْفِكُونَ» من مادة «إِفْلُكُ» ، وتعني تغيير الشيء عن وضعه الحقيقي ، ولهذا يقال للخداع والانحراف عن الحق نحو الباطل «إِفْلُكُ» ، وكذلك يُطلق على الزياح التي تحرف عن مسیرها المنظم (مؤفكة) (مفردات الراغب).

وفي الآية الثالثة حيث جاءت في ترتيب آيات «التوحيد» إذ تُحصي آياته المختلفة في السماء والأرض ، تم الاستناد أيضاً إلى ثلاث مسائل هي : بداية الخلق ، ورجوعه ، والرزق والآيات التي تصل الإنسان من السماء والأرض فيقول : أيهما أفضل ... من تبعدون من دون الله أَمْ مَنْ بَدَا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه؟ ﴿أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه﴾<sup>(١)</sup> «وَمَنْ يَرْثِكُمْ مَنْ يَرْثِكُمْ ﴿السماء والأرض﴾.

ويضيف في النهاية «أَلَّا مَعَ الله».

﴿قُلْ : لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِدَلِيلٍ عَلَى رَبِّيْتِهِ فَهَاتُوا دَلِيلَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.  
﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

وبتعبير آخر : «إنَّ هذه البركات تصدر عن الذات الإلهية المقدسة ، أمَّا هذه الأصنام فهي لا تملك شيئاً كي تستحق العبادة».

والتعبير بـ «خَيْر» أي «أفضل» الذي حُذِفَ من هذه الآية والذي يتجلى بقرينة الآيات السابقة ليس المقصود منه أَنَّ للأصنام خيراً وبركات قليلة قياساً إلى خير الله وبركاته بل إنَّ هذا التعبير يُستعمل أيضاً في الحالات التي لا يكون هنالك خيرٌ في الفعل أبداً ، فمثلاً يقال لك امتنع عن تناول طعام معين كي تحافظ على صحتك أو لَيْسَ الصَّحَّةُ أَفْضَلُ مِنَ الْمَرْضِ؟ مِنَ الْمُسْلِمِ بِهِ أَنْ لَا فضل في المرض بحيث تكون الصَّحَّةُ أَفْضَلُ مِنَهُ ، ونقرأ في القرآن الكريم أيضاً : «وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ» . (البقرة / ٢٢١)

ويقول في مكانٍ آخر : ﴿قُلْ أَذْلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ . (الفرقان / ١٥)

وخلاله الأمر أَنَّ لفظ «خَيْر» بالرغم من أَنَّه من «افعل التفضيل» و يجب أَنْ يستعمل في مورد شيعين أحدهما حَسَنٌ والآخر أَحسن منه إلَّا أَنَّ المَدْفَعَ في أَغلب الحالات هو اغراق المخاطب في التفكير وجعله يشعر بأنَّ ما يختاره ليس منشأً لأي خَيْرٍ ومنفعة.

(١) هنالك جملة محفوظة حيث تتضح بقرينة الآيات الآتية ( الآية ٥٩ من نفس السورة) وتقدير كما يلي «أَمَّنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه... خَيْرٌ أَمْ مَا يَشْرِكُون».

إنَّ الاستناد إلى قضية المعاد بالرغم من عدم إيمان المشركين بها إنما هو لأجل كون  
الخلق أول دليل على المعاد.

\* \* \*

وَطَرَحَ هَذَا الْمَعْنَى فِي الْآيَةِ الرَّابِعَةِ بِنَحْوِ آخَرَ ، إِذْ يَقُولُ : ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾<sup>(١)</sup>.

تلميحاً إلى أنه لو امتنعت السماء عن المطر بأمرِ الله ، ولم ينْمِ نباتٌ ما ، وعَمَّ  
الجدب والقحطُ كُلَّ مكان ، فهل تستطيع هذه الأصنام أو أيٌّ موجودٍ آخر أن يرزقُكُمْ  
وَيُطْعِمُكُمْ؟ ولو انقطعت عنكم الأرزاق المعنوية والروحية بأمرٍ من الله ، فهل مِنْ هَادِ  
يرشدكم؟ ينبغي القول أنَّ الجواب على كل هذه التساؤلات سلبيٌّ ، فكيف إذن يتمادي  
الوثنيون في عملهم القبيح هذا؟ فهل مِنْ سبب هنا سوى العناد والتعصب؟

لَهُذَا يَقُولُ فِي خَاتَمِ الْآيَةِ : ﴿بَلْ لَجُوا فِي عُنُوْنَ وَنُفُورٍ﴾<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

وَفِي الْآيَةِ الْخَامِسَةِ اسْتَنَدَ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ يَتَعَلَّقُ بِمَسَأَلَةِ الْأَرْزَاقِ ، إِذْ يُؤَكِّدُ أَنَّ بَسْطَ وَقْبَضَ  
الرِّزْقِ هُوَ بِمِشِائَةِ الله ، فَيَقُولُ : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾؟!  
صَحِيحٌ أَنَّ سعيًّا وَمِثابَةَ النَّاسِ وَالْمَوْهَلَاتِ وَالْاسْتَحْفَاقَاتِ تَؤْثِرُ فِي تَحْصِيلِ الرِّزْقِ.  
وَصَحِيحٌ أَنَّ الْعَالَمَ ، عَالَمَ الْأَسْبَابِ ، وَغَالِبًاً مَا يَسْتَفِدُ الْمِثَابِرُونَ أَكْثَرَ مِنَ الْكَسَالَى فِي  
تَحْصِيلِ الْأَرْزَاقِ.

إِلَّا أَنَّا نَرَى إِسْتِثنَاءَاتٍ كَثِيرَةٍ قَبْلَةَ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ ، فَقَدْ نَرَى أَنَّاسًا مُّقْعَدِينَ قَدْ فُتِّحَتْ

أَمَاهُمْ

(١) بالرغم من احتمال بعضهم بتقدير مخدوف من الآية إلَّا أَنَّ ظاهر الأمر يشير إلى أن لا مخدوف هناك فيكون  
المعنى كما يلي «إِنْ أَمْسَكَ الله رِزْقُهُ مِنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ» فنكون «أَمْ» هنا بمعنى «بل» (فتأمل جيداً).

(٢) «لَجُوا» من مادة اللجاجة و «عُنُون» تعني الطغيان و «نُفُور» تعني الابتعاد والهروب من الشيء.

أبوابُ الرزق ، وبالعكس فقد نرى مثابرين ومستحقين أينما يولوا وجوههم فانَّ الأبواب مغلقة أمامهم ، كما يقول الشاعر العربي المعروف :

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعْيَتْ مَذَاهِبَهُ وَجَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلَقَّاهُ مَرْزُوقًا  
وهذا من أجل أن لا يضيع الإنسان في عالم الأسباب ولعله أن وراء هذا العالم ، يداً قادرةً تديره وتعلو قدرها فوق جميع القدرات ، وكى لا يصيِّب الغرور المتعتمين والمستفیدين بسبب إمكانياتهم ، فيظلموا ويطغوا ، حتى لا يأس ذوو الإمكانيات المحدودة ، لأنَّه من الممكن أن يتغير الوضع في كل لحظة حسب الإرادة والمشيئة الإلهية.

وبتعبير آخر : من أجل توفر الرزق والقوت لكل إنسان تتضاد عشرات الأسباب أحدها سعي الإنسان ومثابرته ، حتى أنَّ الله قد منح القدرة على السعي والثابرة ودواجهما أيضاً.

وهنا يتمكن الإنسان من فهم نفحات من الذات الإلهية المقدسة من خلال مسألة سعة الرزق وضيقه ، فقد قال في نهاية الآية : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ اولئك الذين لديهم استعدادً لقبول الحق بسبب إيمانهم ، ويعرفون أكثر على الذات المقدسة من خلال مشاهدة هذه الميادين يومياً.

وفي الحقيقة أنَّ الآية أعلاه قد تكرر مضمونها ومحتوها عشر مرات في القرآن الكريم تشبه ما نُقل عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْمَسْكَنَةِ حيث يقول : «عَرَفْتُ اللَّهَ سَبَحَانَهُ بِفَسْخِ الْعَزَائِمِ وَحْلِ الْعَقُودِ وَنَفْضِ الْهَمِّ» <sup>(١)</sup>.

وتشابه ما نُقلَ عن بعض المفسِّرين أنَّ أحدَ العلماء سُئلَ عن الدليل على وحدانية الله؟ فقال : «ثلاثة أدلة : ذُلُّ الْلَّيِّبِ وَفَقْرُ الْأَدِيبِ وَسُقْمُ الطَّيِّبِ» <sup>(٢)</sup>.  
والتعبير بـ ﴿أَوْلَمْ يَرَوَا﴾ إشارة إلى أنَّ لو تمعنَ الإنسان قليلاً في حياة الناس لرأى هذه الاختلافات جيداً.

ولابدَ من ذكر هذه النكتة وهي أنَّ إرتباط سعة وضيق الرزق بالإرادة الإلهية يعني

(١) نُجَاحُ الْبَلَاغَةِ ، الْكَلِمَاتُ الْقَصَارُ ، الْكَلِمَةُ ٢٥٠.

(٢) تفسير روح البيان ، ج ٧ ، ص ٣٩.

الإرادة المترتبة مع الحكمة وإلا ليس لله مشيئة بدون حكمه سواء كان هنا أم في باقي الموارد.

علمًا أنَّ ضيق الرزق في هذه الآية (والآيات العشر) المذكورة لا يعني مطلق الحرمان من الرزق ، حتى يتعارض مع الآيات الآتية التي تقول : **﴿وَمَا مِنْ ذَبَابٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾** . (هود / ٦)

بل المقصود قلة الرزق وفي نفس الوقت وجود الحد الأدنى والكافى منه.

\* \* \*

وفي الآية السادسة بعد أن يؤكد على هذه النكتة وهي : أنَّ الله لا يحتاج عباده وحينما يدعوهم إلى عبادته فليس بحسب حاجته فيقول تعالى : **﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾** . (الذاريات / ٥٦ . ٥٧)

و «الرَّزَاقُ» : صيغة مبالغة تعنى كثير العطاء ، وهذا يصدق بخصوص ذاته المقدسة فقط ، حيث جلست الكائنات الحية في كل زاوية من هذا العالم العريض : على الجبال ، في بطون الصخور ، في أعماق الوديان ، في قاع البحار ، وباختصار في كل زاوية وجانب من هذا العالم العظيم على مائدة احسانه ، متنعمة بامداداته وفيضه.

و بما أنَّ مثل هذا العطاء والبذل الواسع وغير المحدود يحتاج إلى قدرة وقوية تامة ، فقد ذكر بعد هذا وصفين آخرين : «ذُو الْقُوَّةِ» و «الْمَتِينُ» وهي من مادة «متن» وتعنى في الأصل العضليتين اللتين تحيطان بالعمود الفقري ، وتقومان بشد عضلات ظهر الإنسان من أجل انجاز الأعمال الشاقة ، وهنا كناية عن القوة والاقتدار الخارق.

وفي الواقع أنَّ هذه الجملة وصف للذات الإلهية المقدسة في بذل الأرزاق ، لأنَّ هذه الصفة تخصُّ فقط ، وأمَّا الآخرون فكل ما يملكون فهو منه جل وعلا ، وإذا استعمل وصف «الرَّزَاقُ» لبعض الناس أو للأسباب الطبيعية فهو يعني في الحقيقة الواسطة في انتقال فيوضاته وليس الفياض وحالق النعم.

واستند في الآية السابعة إلى موضوع آخر وهو شمول رزق الله لكل الدواب ، هذا العمل الذي لا يمكن حصوله بدون احاطة وعلم كامل بجميع موجودات العالم ، فلابد أن يعرف المضيّف عدد ضيوفه سلفاً ، وكذلك مقدار حاجاتهم وأذواقهم ، كي يتمكّن من تقسيم الطعام الملائم لهم ، لهذا يقول في هذه الآية : **﴿وَمَا مِنْ ذَٰبَٰةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا﴾**.

ويُشير هذا التعبير بجلاء إلى أنَّه قد تكفل برزق عباده ، كي يَحْدَدَ من حرص وطمع بعض الناس واضطراب وقلق بعضهم الآخر من جانب ، ومن جانب آخر يرهنُ على أنَّه لو شوهدت شحة في الأرزاق ، فهي مفتعلة ومن المؤكَد أنَّها حصلت نتيجة لظلم جماعةٍ من الناس وهضم الحقوق ، والاحتياط وافتعال الأزمات الكاذبة أو في النهاية بسبب عدم السعي للاستفادة من هذه المائدة الإلهية الميسورة ، تلك هي الأسباب التي يؤدّي كلُّ منها أو مجتمعة ، إلى حرمان بعض الناس من رزقهم وقوتهم ، وإلا فانَّ الله قد ضمَنَ رزق كل الدواب.

وبما أنَّ اتصال الرزق لهم يُعد متعذراً بدون علمٍ كاملٍ بأماكنهم وخصائصهم فهو يقول في سياق الآية : **﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾**.

وكلُّ ذلك مسحَّلٌ في كتابِ حَلَّيٍ (هو اللوح المحفوظ ، لوح علم الخالق) **﴿كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾**.

و «دَابَّة» : من مادة «دَبَّب» «وتعني المشي البطيء» ويُطلقُ هذا اللفظ (دَابَّة) على البهائم والحيوانات والحشرات ، بالرغم من استعماله بخصوص الخيل في بعض الموارد ، إلا أنَّ المُسَلِّمَ به هنا أنَّه ذو معنىٍ واسعٍ وشاملٍ حيث يشمل جميع البهائم<sup>(١)</sup>.

ولفظ «مُسْتَقْرَّ» يعني المقر ، والمكان الثابت ، وهو مأخوذ في الأصل من مادة «فُرَّ» على وزن «فُرَّ» وتعني البرد القارص الذي يجعل الإنسان جليس الدار.

و «مُسْتَوْدَع» : يعني المكان غير الثابت ، وهي من مادة «وَدِيَة» وتعني في الأصل ترك واطلاق الشيء ، ولهذا يقال للأمور غير المستقرة «مستودع».

(١) إنَّ «النَّاء» في «دَابَّة» لا تدل على التأنيث ، بل تشمل جميع الحيوانات مذكورة ومؤنثها ، وبتعبير آخر أنَّ تأنيثها لفظي وليس حقيقةً (مفردات الراغب وتفسير الكبير ، ج ١٧ ، ص ١٨٥).

وهذه الألفاظ تلمح إلى أنه لا تظنوا أنَّ الله يوفِّر الرزق للموجودات في مستقرها فقط ، بل أينما تكون وفي أيّ نقطةٍ من الأرض والسماء ، فهو يعلمُ ويرى مكانها ويعطيها رزقها هناك !

روى بعض المفسّرين في ذيل هذه الآية حديثاً مفاده : «أنَّ موسى عليه السلام عند نزول الوحي عليه و كان برفقة طفليه وزوجته في ليلة ظلماء في وادٍ بطور سيناء ، حيث أمره الله سبحانه وتعالى أن يذهب إلى فرعون ، فانصرف ذهنه إلى زوجته و طفله ، كيف سيكون مصيرهم بعده .

فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه صخرة فانفلقت وخرجت منها صخرة ثانية ؛ ثم ضربها بعصاه مره أخرى فانفلقت وخرجت صخرة ثالثة ، ثم ضربها بعصاه فانفلقت فخرجت منها دودة كأصغر ما تكون عليه النملة وفي فمها شيء يجري مجرى الغذاء لها ، وعند ذاك رفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول : سبحان من يراني ، ويسمع كلامي ، ويعرف مكاني ، ويدركني ولا ينساني » <sup>(١)</sup> .

كما ورد في حديثِ أَنَّ الْإِمَامَ الْحَسِينَ عليه السلام كأن له سيف كتب عليه : «الرزق مقسومٌ والحرير محرومٌ ، والبخيل مذمومٌ ، والحاصل مغمومٌ» <sup>(٢)</sup> .

ونختتم هذا الحديث بشعرٍ لأحد شعراء العرب ، إذ يقول :

وَكَيْفَ أَخْفَافُ الْفَقَرَ وَالله رازقِي  
وَرَازقُ هَذَا الْخَالِقِ فِي الْعَسْرِ وَالْيَسْرِ  
تَكَفَّلَ بِالْأَرْزَاقِ لِلْخَلْقِ كُلُّهُمْ  
وَلِلضَّرِّ فِي الْبَيْدَاءِ وَالْحَوْتِ فِي الْبَحْرِ

\* \* \*

وفي الآية الثامنة ، ييدو وكأنه يحاكم المشركين ، ويبين بطalan عقائدهم عن طريق مسألة ا يصل الرزق إلى الخائق ، وبوضوح وحدانية رب ، فيقول : ﴿فَلَمَنْ يُرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من ضوء الشمس ، من قطرات المطر الذي يهب الحياة ، ومن هذا الهواء

(١) تفسير الكبير ؛ ج ١٧ ، ص ١٨٦ ؛ تفسير روح البيان ، ج ٤ ، ص ٩٧ ؛ و تفسير روح المعانى ، ج ١٢ ، ص ٢ .

(٢) تفسير روح البيان ، ج ٤ ، ص ٩٧ .

الذي يمد الكائنات بالحياة ، ومن أنواع المواد الغذائية الموجودة في أعماق الأرض وتظهر على هيئة ثمراتٍ وغلاةٍ وخرصواتٍ .

ثم لا يَدْعُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَنْتَظِرُ جَوَابَهُمْ فَيَرِدُ الْجَوَابُ قَائِلًا : ﴿ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

ولأنَّه لا تجتمع عقائدتان متناقضتان ، وبما أنَّكُم لا تملكون دليلاً يثبتُ أنَّ الأصنام هي منشأ البرَّكات ، يتضح أذنَّا نَبْعَثُ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

ولو لاحظنا هنا أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يَنْتَظِرُ جَوَابَهُمْ ، لَأَنَّهُمْ فِي الْوَاقِعِ لَا يَمْلِكُونْ جَوَابًا لِهَذَا التَّسْأُولُ ، سُوَى السُّكُوتِ الْمُمْزُوجِ بِالْخُجُولِ ، وَعَلَيْهِ يَجُبُ عَلَى الْمُتَكَلِّمِ الْفَصِيحُ أَنْ يُمسِكَ بِزَمَامِ الْحَدِيثِ فِي مَثَلِ هَذِهِ الْحَالَاتِ وَيَقْدِمَ الْجَوَابَ بِنَفْسِهِ .

وأَحَدُ فنُونِ الْفَصَاحَةِ هُوَ أَنْ يُلْقِي الْكَلَامُ الْغَامِضُ عَلَى الْخُصُومِ مِنْ خَلَالِ الْحَوَارِ وَيَتَرَكُ الْفَصْلُ لِهِمْ ، لَهُذَا يَقُولُ هُنَّا : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ وَمَنْ مُسْلِمٌ بِهِ أَنَّ الْضَّالَّ وَالْمُهَتَّدِي يَتَضَرَّعُ هُنَّا ، وَمَنْ أَفْضَلُ أَنْ تَبْقَىُ الْعَبَارَةُ غَامِضَةً فِي الظَّاهِرِ كَيْ لَا يَتَمَادِي هُؤُلَاءِ فِي عَنَادِهِمْ ، وَأَنْ يُكَلِّفُوا أَنفُسَهُمْ عَنِ الْإِسْتِنْتَاجِ .

وَالْعَجِيبُ أَنَّ بَعْضَ الْمُفَسِّرِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ هَذِهِ الْعَبَارَةَ مِنْ قَبْلِ «الْتَّقِيَّةِ» فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا يَجَالُ لِلتَّقِيَّةِ هُنَّا ، وَالْأَمْرُ مُشَكُّوْفٌ بِجَلَاءِهِ . وَلَكِنْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْلَّطَافَةِ . وَحِيثُ يَقُولُ فِي الْبَدَائِيَّةِ : «إِنَّا» ثُمَّ يَقُولُ : «أَنْتُمْ» وَيَتَابَعُ قَائِلًا عَلَى «هُدَىٰ» أَوْ عَلَى «ضَلَالٍ» ، وَهَذَا التَّسْلِسُلُ يَوْضُعُ الْأَمْرَ أَكْثَرَ .

\* \* \*

وَفِي الْآيَةِ التَّاسِعَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَشَارَ إِلَى نَزُولِ الْمَطَرِ الْمَبَارَكِ مِنَ السَّمَاءِ ، اسْتَنْدَ إِلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ مِّنَ الْأَرْزَاقِ الَّتِي يَسْتَفِيدُ الْجَمِيعُ مِنْهَا ، فَيَقُولُ : ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ .

**﴿وَالنَّحْلُ بِاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ (١) ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾**

وفي الواقع فقد استند في هذه الآية إلى الشمار والمحاصيل الغذائية لأنّها تمثل أهم وأصلح جانبٍ من المواد الغذائية للناس ، واستند إلى التمر بالخصوص من بين الشمار ، بسبب أهميّته الغذائية الفائقة ، حيث بحثناه بالتفصيل في محله <sup>(٢)</sup> .

والحدير بالذكر : إنَّ بعض المفسّرين يعتقد أنَّ استناد القرآن إلى هذه الأنواع الثلاثة من الأرزاق جاء بسبب خصائص كلٍّ منها على حدة ، لأنَّ بعض النباتات يُثمر سنويًا ، دون الحاجة إلى بذر البذور ، كأنواع أشجار الفاكهة ، وبعضها يحتاج إلى بذر البذور سنويًا كالخنطة والشعير والرز والذرة وبعضها وسطًا بينهما كالنخيل الذي يكون أصله ثابتًا إلا أنه يحتاج في كلّ عام إلى «التلقيح» ، بالحو الذي يرفعون طلع الذكر وينثرون على ثمار النخلة كي تحمل بشكلٍ كامل ، ومن الممكن أن تلقي بطريقة أخرى (عن طريق الرياح والحشرات) إلا أنّها لن تكون غزيرة الشمار.

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام أيضًا حيث إنَّ في تعبير «رِزْقًا لِّلْعِبَادِ» ، <sup>(٣)</sup> إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهي وجوب استثمار النعم الإلهية لسلوك طريق عبودية الله ، وهذه الموجودات مذعنةٌ ومطيعةٌ للإنسان كي ينال الرزق ولا يأكله غافلًا عن الله ، كما قال الحكماء :

أنت تعيش لتأكل وأنا آكل لأعيش وأذكر الله.

\* \* \*

وفي الآية العاشرة وأخر الآيات في بحثنا استند إلى الأنواع المتباعدة من الاطعمة التي

(١) «حصيد» تعني المخصوص (أو الماهم للحصاد) ، و «باسقات» جمع «باسقة» وتعني الطويلة و «طلع» تعني ثمرة النخيل في بداية تكوينها ، و «نضيد» تعني المترافق والكثيف الذي يبعث على التعجب لا سيما في ثمار النخيل أي التمر.

(٢) يُراجع التفسير الأمثل ، ذيل الآية ٢٥ من سورة مرثيم.

(٣) إنَّ نصب «رِزْقًا» جاء لكونه «مفعولاً لاجله» ، ويُستبعد احتمال كونه «مفعولاً مطلقاً» أو «حالاً».

وضعها الباريء ، تعالى في متناول الإنسان والدواب ، ودعا الإنسان إلى التفحص فيها ،  
كي يُعَدَّهُ لمعرفة المنعم ومعرفة الله من خلال تحريضه على الشعور بالشكر .  
فيقول : **﴿فَلَيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾**

ليرى كيف تضافرت مختلف العوامل من الشمس والأرض والهواء والمطركي تضع في  
خدمته هذه النعم . فيجب أن ينظر ويرى كيف : **﴿أَنَا صَبَّبْنَا الْمَاءَ صَبَّاً \* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ  
شَقَّاً \* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبَّاً \* وَعِنَّبَا \* وَقَضَبَا﴾** <sup>(١)</sup> **﴿وَرَزَّيْنَا وَنَخْلَاً \* وَحَدَائِقَ غُلْبَاً \* وَفَاكِهَةً وَأَنَا﴾** <sup>(٢)</sup> .  
مع أن «فاكهة» تشمل جميع أنواع الشمار ، و «حدائق» تتضمن جميع البساتين ،  
إلا أن الاستناد إلى «العنب» و «الزيتون» و «التمر» يأتي بسبب مزاياها المهمة للغاية التي  
ثبتت الآن في علم النبات بالنسبة لكلاً منها .

وبالرغم من أن «طعام» تعني عادةً الغذاء المادي ، لا سيما بخصوص الآية التي  
تعقبها ، فقد ذُكرت موارد عديدة للاطعمة المادية ، الفواكه والحبوب ، إلا أنه وكما ورد في  
بعض الروايات ، يمكن أن يكون للطعام معنى واسع شامل حيث يشمل الغذاء المعنوي  
أيضاً ، ويجب أن ينظر الإنسان جيداً ممّ يكتسب العلم الذي هو غذاؤه الروحي ، فلا  
ينبغي أن يكون مشتملاً على علوم سامة وهدامة .

والكلام الأخير حول هذه الآية الشريفة ، هو من الممكن أن تكون عبارة **«فَلَيَنْظُرِ»**  
هي النظر من أجل إدراك أسرار المبدأ والمعاد ، وكذلك النظر لتمييز الصنف الطيب والطاهر  
، من الخبيث والملوث ، والمشروع من اللامشروع والمفید من الضار .

يستفادُ جيداً من مجموع ما قيل في شرح هذه الآيات أنَّ أنواع الرزق الإلهي آياتٌ

(١) «قضب» على وزن (حذب) وتعني القطع والقطف ، وقد فسّرها المفسّرون بأنّما الحضر التي تقطع عدّة مرات .

(٢) «حدائق» جمع «حديقة» وتعني البساتين المقصورة بين الجدران ، و «غلب» جمع «اغلب» من مادة «غلبة» وتعني الضخم الجسيم ، و «أب» تعني النباتات الطبيعية والمراعي الطبيعية ، أو الشمار التي تُحْفَف وتحفظ .  
(والآية ٣١ من سورة عبس) .

وآثارٌ على عظمته ، وكيفية ظهورها ، والنظام المدهش الذي استعمل في بنائهما ، والصفات المميزة لكل منها ، والمواد المعاشرة الموجودة في كل منها ، وكذلك كيفية اتصال هذه الأرزاق إلى المحتاجين ومطابقتها لحاجتهم ، فكل منها آية ودليل عن حكمة وعظمة الذات الإلهية المقدسة.

\* \* \*

### توضيحات

#### ١ . من عجائب عالم الأرزاق

حقاً لو تأملنا في النظام العجيب الموجود في ارتزاق مختلف الموجودات من المصادر الطبيعية ، لتجلت لنا امورٌ لطيفةٌ ومدهشة عن قدرة الخالق جلٌ وعلا .  
الأمر الأول منها هو لماذا لا تقلص كمية المواد الغذائية الموجودة على الأرض مع قلتها واستفادة الناس والحيوانات على مدىآلاف الآلاف من السنين؟! كيف لا تنتهي هذه المائدة الممتدة في كل مكان؟!

حينما نتأمل جيداً نرى أنَّ المواد الغذائية في هذه الدنيا لها شكلٌ خاص بحيث لو استفید منها ملايين الملايين من السنين ، لم ينقص منها بقدر رأس الإبرة ، وهذا بسبب «حركتها الدائريَّة» فمثلاً أنَّ المياه تتبخر من البحر ثم تظهر على هيئة غيوم وامطار ، فيهطل قسمٌ من ماء المطر إلى البحر ثانيةً ، والقسم الآخر يصبح جزءاً من جسم الإنسان والحيوانات والنباتات ويتبخر ويتنتشر في الجو ، وتستمر هذه الحركة الدائريَّة دائماً .

فالأشجار تمتَّص المواد الغذائية من الأرض وتتَّكون الفروع والأوراق ، ثم تتَّساقط الأوراق وتتفسخ وتتحول فيما بعد إلى سمادٍ وموادٍ غذائيةٍ لنفس الأشجار ، وتستفيد الحيوانات من المواد الغذائية ثم تُصبح تراباً ، وجزءاً من المواد الغذائية في الأرض .

ويتنفس الإنسان والحيوانات غاز «الاوكسجين» ويطرح غاز «ثاني اوكسيد الكاربون» ، ولكن الأشجار على العكس من ذلك فهي تأخذ غاز «ثاني اوكسيد الكاربون» وتطرح

غاز

«الاوكسجين» ، ويذكر هذا التبادل دائمًا ، هنا نشاهد أن هذه المائدة الإلهية السرمدية مبسوطة باستمرار لتجلس كافة المخلوقات إليها للارتقاء منها دون أن يصيبها النقصان . وكيفية إعداد الرزق للحيوانات عجيبة أيضًا ، فالبعض يتغذى على النباتات والرطوبة الموجودة على الأرض ، وبعض يحصل على غذائه من الماء «النباتات العائمة» وبعض من الجو ، وبعض عن طريق الالتحام بنباتاتٍ أخرى «كبعض الطفيلييات» وتعيش حيوانات أعماق البحار في مكانٍ لا ينمو فيه نباتٌ أبداً ، لأنَّ أشعة الشمس تتلاشى تماماً في عمق ٦٠٠ . ٦٠٠ م ثم يسود ماء البحر بعدها ليلٌ حالكٌ وسرمديٌّ ، إلا أنَّ الباري تعالى يهيء ويعُد رزقها على سطح البحر ويرسله إليها في أعماق البحر فالنباتات التي تنمو بكثرة على سطح البحر وسط الأمواج تصبح ثقيلة وتحبط إلى قاعه بعد نضوجها وتخصيص قسم منها للموجودات الحية على سطحه ، وكذلك تنزل بقایا الموجودات التي تعيش على سطح البحر على هيئة مائدةٍ سماوية إلى الموجودات في قاعه.

فقد تُصبح الطيور طعمَةً لأسماك البحر ، وأسماك البحر طعمَةً للطيور ، وقد يجعل النباتات غذاءً للحيوانات ، أو الحيوانات غذاءً للنباتات التي تأكل اللحوم! وقد يصنع من فضلات ولعاب بعض الموجودات غذاءً لذيداً ملحوظاً آخر (كما في بعض حيتان البحر حيث تخرج إلى ساحل البحر بعد تغذيتها على أسماك البحر المختلفة ، فتبقى الفضلات بين أسنانها ، فتفتح فمها الذي يشبه الغار ، فتدخل مجموعَةً من طيور الساحل إلى فمها وتقوم بخارج اللحوم المتبقية من بين أسنانها وتحذنها طعاماً لذيداً لها ، فتقوم بدور المسواك في تنظيف أسنان هذا الحيوان ، الذي لا يسيء رد الجميل ، فلا يُطبق فاهٌ حتى خروج آخر طيرٍ من فمه ، وحينما ينتهي الأمر ويخلص من المواد المزعجة ، ومتلئ بطنون الطيور من الطعام حيث يُطبق فمهُ ويتجه نحو أعماق البحر <sup>(١)</sup> .

وباختصار : كُلُّما دققنا في هذه المسألة أكثر ، سنحصل على نقاطٍ جديدة في مجال

علم

(١) يضيف الفخر الرازي في تفسيره ضمن إشارته المختصرة لهذا الموضوع ، أنه على رأس هذا الطائر شيءٌ يشبه الشوك ، فلو قرر التمساخ ابتلاع هذا الطائر فسيؤله ذلك «تفسير الكبير ، ج ٢٤ ، ص ١١».

وحكمة الخالق جلَّ وعلا ، والتدبّر الذي صُرِفَ في مجال الأرزاق ، بشكٍلٍ لا يُبقي مجالاً لأي نوع من الصدفة .

يُكفينا التأمل في وضع الإنسان خلال المراحل الثلاث : الجنين ، الرضاعة ، والأكل ، كيف أنَّ الله تعالى وضع في متناوله ما يناسب حاله في كلٍّ واحدٍ من هذه المراحل الحساسة بدون نقصٍ ، فيتغيّر طيلة مكوّنه في رحم الأم عن طريق جهاز الحبل السري المعَدُّ والإرتباط المباشر بدم الأم ، وبعده الولادة ، عندما لا تُوجَدُ أسنانٌ لمضغ الطعام ، ومعدنته وامعاوَهُ غير مستعدَّة لاستقبال الطعام ، يهيء له ثدي امه المليء بالحليب ، غذاءً مناسباً ، غنياً بكافة المواد الغذائية ، معتدل الحرارة ، لا تغلب عليه الحلاوة أو الملوحة ، ولا يحتاج إلى مضغٍ ونشاطٍ لمعدته كي تُهضم .

وفي المرحلة الثالثة ، يضع في متناوله أنواعاً من الأطعمة «المناسبة» ، فلو لم تكن أطعمة الإنسان وبقى الحيوانات «ملائمة» ويكون مجبوراً على تناولها كالأدوية المرة ، فائي مأزق سينشأ في حياته ، ألا يفني معظم الناس بسبب عدم توفر الطعام السليم لهم؟ ومن جانبٍ آخر ، فقد أودع في الإنسان الشعور بالجوع والعطش ، كي ينحدب نحوها بشكٍل آلي عندما يحسُّ بالحاجة إلى هاتين المادتين الحيويتين ، فتأملوا ما يحصل لولا هذا الشعور؟!

**وكما يقول الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَامُ في الحديث المعروف عن المفضل :**

«فَكَرْرَ يا مفضل في الأفعال التي جعلت في الإنسان من الطعام والنوم والجماع وما دبر فيها فانه جعل لكل واحد منها في الطياع نفسه محرك يقتضيه ويستحب به فالجوع يقتضي الطعام الذي به حياة البدن وقوامه والكري تقتضي النوم الذي فيه راحة البدن وإجماع قواه والشبع يقتضي الجماع الذي فيه دوام النسل وبقاوته ، ولو كان الإنسان إنما يصير إلى أكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنـه إليه ولم يجد من طباعه شيئاً يضطره إلى ذلك كان خليقاً أن يتواتي عنه أحياناً بالتشقق والكسيل حتى ينحل بدنـه فيهلك ... ، فانظر كيف جعل لكل واحد من هذه الأفعال التي بها قوام الإنسان وصلاحه محرك من نفس الطبع يحركه لذلك ويحدوه عليه»

(١)

(١) بخار الأنوار ، ج ٣ ، ص ٧٨ و ٧٩ ، توحيد المفضل .

لَهُذَا تُعْتَبِرُ الرَّغْبَةُ فِي نَوْعٍ مِّنَ الطَّعَامِ بِالنَّسْبَةِ لِلَّا صَحَاءَ مِنَ النَّاسِ دَلِيلًا عَلَى حَاجَةِ الْجَسْمِ إِلَى ذَلِكَ الْغَذَاءِ عَلَى نَحْوِ الْخَصُوصِ ، وَيَجِبُ عَلَى مُثْلِ هُؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ كَذَلِكَ النَّزْوُ عِنْدَ هَذِهِ الرَّغْبَاتِ الدَّاخِلِيَّةِ ؛ يَقُولُ الْعَالَمُ الرُّوسِيُّ الْمُعْرُوفُ «بَاوْلُفُ» : «إِنَّ الْغَذَاءَ الْطَّبِيعِيِّ وَالْمَفِيدِ ، هُوَ الْغَذَاءُ الَّذِي يُؤْكِلُ بِشَهَيْةٍ وَتَلَذِذِهِ».

وَهُذَا أَيْضًا لَا مَعْنَى لِلِّالْتَزَامِ بِنَظَامٍ خَاصٍ فِي الْامْتِنَاعِ عَنِ الْأَطْعَمَةِ الَّتِي يَرْغُبُ إِنْسَانٌ بِتَنَوُّهِ لِأَنَّ تَلْكَ الرَّغْبَةَ تُعْتَبِرُ بِحَدِّ ذَاتِهَا أَفْضَلَ دَلِيلًا عَلَى حَاجَةِ الْجَسْمِ لَهَا.

مَا هَذِهِ التَّرْكِيَّاتُ الْمُحْبَوَّكَةُ الَّتِي تَحْدُدُ بِنَفْسِهَا نَوْعَ حَاجَتِهَا ، وَوَقُودُهَا ، وَصَنْعُهَا؟ وَمَجْرِدُ أَنْ يَحْصُلْ نَقْصٌ تُوقَظُ شَعْرَوْرُ إِنْسَانٍ وَتَدْفَعُهُ نَحْوَ ذَلِكَ؟ هَلْ يَمْكُنُ حَمْلُ هَذِهِ الْأَمْوَارِ عَلَى سَبِيلِ الصَّدْفَةِ؟ وَهَلْ هَنَالِكَ إِمْكَانِيَّةُ لَوْجُودِ مُثْلِ هَذَا الْبَرْنَامِجِ الْمُنْظَّمِ لَوْلَا وَجُودِ عَقْلٍ وَتَدْبِيرٍ وَاسِعٍ؟

\* \* \*

## ٢ . هَلْ إِنَّ الرَّزْقَ مَقْسُومٌ؟

وَرَدَتْ هَذِهِ النَّكْتَةُ فِي بَعْضِ الْآيَاتِ أَعْلَاهُ وَهِيَ إِنَّ رَزْقَ كُلِّ دَابَّةٍ عَلَى اللَّهِ ، وَقَدْ تَكَفَّلَ اللَّهُ بِهِ : ﴿وَمَا مِنْ ذَابَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ...﴾ . (هُود / ٦) وَوَرَدَ فِي بَعْضٍ آخَرٍ إِنَّ سَعَةَ الرَّزْقِ وَضَيْقَةَ مُشَيَّةِ الْهَمَّةِ . (الرُّوم / ٣٧ وَآيَاتٍ أُخْرَى) . وَاشِيرُ إِلَى هَذِهِ الْمَعْنَى فِي الْرَوَايَاتِ أَيْضًا ، فَيَقُولُ امِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ الْأَكْرَمُ : ﴿وَقَدَرَ الْأَرْزَاقُ فَكَثُرَهَا وَقَلَّهَا وَقَسَّمَهَا عَلَى الْضَّيْقِ وَالسَّعَةِ﴾ .<sup>(١)</sup>

وَفِي حَدِيثٍ آخَرٍ عَنْهُ عَلَيْهِ الْأَكْرَمُ نَقَرُوا فِي حَثَّهُ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ إِذْ يَقُولُ :

إِنَّ طَلَبَ الْعِلْمِ أَوْجَبَ عَلَيْكُمْ مِنْ طَلَبِ الْمَالِ ، إِنَّ الْمَالَ مَقْسُومٌ مَضْمُونٌ لَكُمْ قَدْ قَسَّمَهُ عَادِلٌ بَيْنَكُمْ وَضَمِّنَهُ وَسَيَغْيِي لَكُمْ وَالْعِلْمُ مَخْزُونٌ عِنْدَ أَهْلِهِ قَدْ أَرْتُمُ بِطَلَبِهِ<sup>(٢)</sup> .

(١) نَحْجُ الْبَلَاغَةُ خَطْبَةُ ٩١.

(٢) مَعَالِمُ الدِّينِ ، ص ٩.

والآن يبرز هذا التساؤل وهو : لو كان الأمر كذلك فما هو مفهوم السعي والاجتهد لطلب الرزق والتخطيط لتحسين الوضع الاقتصادي للمجتمع؟ ولكن من خلال التمتعن في الآيات والروايات فيما إذا جمعت مع بعضها يتضح الجواب على هذا السؤال بأنَّ المقصود من ضمان الرزق من قبل الله تعالى وتكلفه والتزامه بتقسيمه هو اعداد الأرضية الالزمه ، ومتى ما تظافرت الأرضية الخارجة عن طاقة الإنسان ، والاستعدادات الموجودة في ذاته ، يستلزم الإنسان نصيبيه من الرزق .

وهذا يشبه تماماً رواتب العاملين في مؤسسة ما والتي يحددها المدير إلاَّ أنه لا يجلب تلك الرواتب إلى بيوقهم بل يجب عليهم أن يعملوا ، ثم يذهب كلُّ منهم ملء بطاقة راتبه ليستلمه .

ولا يجب نسيان هذه الحقيقة بأنَّ الله تعالى ومن أحلَّ أن لا يضيع الناس في «عالم الأسباب» ويعتبروا أنَّ حاصل الرزق يأتي عن طريق السعي والاجتهد فقط ، فهو يوصل الرزق أحياناً لناسٍ لم يبذلوا جهداً جهيداً وقد يسلب الرزق من أشخاصٍ مجتهدين كي يوضح أنَّ وراء هذا العالم قدرةً أخرى (ولكن يجب أن لا ننسى أنَّ هذا مجرد استثناء ، وأمّا القاعدة الأساسية فهي السعي والاجتهد).

ولعله لهذا الأمر ورد في حديثٍ عن الرسول ﷺ أنه قال :

«واعلموا أنَّ الرزقَ رزقان : فرزقٌ تطلبونه ورزقٌ يطلبُكم فاطلبوا أرزاقكم من حلال ، فانكم إن طلبتموها من وجوهها أكلتموها حلالاً وإن طلبتموها من غير وجوهها أكلتموها حراماً» <sup>(١)</sup>.

هذا الفارقُ في الرزق يعتبرُ في الواقع دليلاً على الجمع بين الآيات والروايات التي تعتبرُ الرزق مُقَسَّماً ومضموناً ، والروايات التي تعاكسها ، التي تعتبر الجد والاجتهد والمثابرة شرطاً للاستفادة من الرزق <sup>(٢)</sup>.

(١) وسائل الشيعة ، ج ١٧ ، ص ٤٧ .

(٢) من أجل التعرف على هذه الروايات يراجع ، وسائل الشيعة ج ١٢ ، كتاب التجارة ، ص ٩ و ١٦ و ٢٤ و ٢٦ .

بالإضافة إلى أنَّ التعرف على هذا الاختلاف في الرزق يدفع الحريصين إلى التخلص عن حرصهم ، ولا يتلوث المؤمنون بتحصيل الرزق من الحرام ، ولا يتأس المحسومون أيضاً.

\* \* \*

### ٣ . إذا كان الرزق مضموناً للجميع فلماذا يموت البعض جوعاً؟

في الآيات أعلاه تتجسد هذه الحقيقة جيداً بأنَّ الله تعالى قد تكفلَ برزق جميع الموجودات الحية ، وايصاله إليها أينما كانت ، ولكن يبرز هذا السؤال وهو : لماذا ماتت وتموت مجاميع من الناس جوعاً الآن وعلى طول التاريخ؟ ألم يؤمنُ رزفها؟!.

في الرد على هذا التساؤل يجب أخذ النقاط الآتية بنظر الاعتبار : أولاً : إنَّ تأمين وضمان الرزق لا يعني اعداده للإنسان العاقل والمكلَّف وارساله إلى بيته ، أو وضعه في فمه كالللمحة ، بل قد اعدت الأرضية الالزمة ، وسعي الإنسان واجتهاده يعتبر شرطاً لتحقيق هذه الأرضية وايصالها إلى مرحلة الفعل ، حتى مريم (عليها السلام) عندما كانت في ذلك الوضع الصعب وفي تلك الصحراء القاحلة حيث هيأ لها الله تعالى رزفها رطباً جنباً على جذع النخلة أمرها بأنْ تسعى وخطبها : **«وَهُنَّى إِلَيْكِ بِجِدْعِ النَّخْلَةِ»**.

ثانياً : لو أنَّ الناس . في الماضي والمستقبل . يقومون بضم حقوق الآخرين ويسلبون أرزاقهم ظلماً فهذا ليس دليلاً على عدم تأمين الباريء تعالى للرزق ، وبتعبير آخر : إضافة إلى مسألة السعي والاجتهاد فإنَّ وجود العدالة الاجتماعية يعتبر سراً في التوزيع العادل للأرزاق ، وإذا قيل : لماذا لا يمنع الله ظلمَ الظالمين؟ نقول : إنَّ أساس حياة البشر يقوم على الحرية وليس على الاجبار والاكراه كي يخضع الجميع للامتحان ، وإلا فلا يحصل التكامل **«فتتأمل جيداً»**.

ثالثاً : هناك مصادر كثيرة لتأمين طعام البشر على هذه الكرة الأرضية ولكن يجب أن تكشف وستستخدم بذكائهم ومعرفتهم ، وإذا قصرَ الإنسان في هذا المجال فالذنبُ ذنبه . لا يجب أن ننسى أنَّ بعض مناطق إفريقيا التي يموت شعبها جوعاً تعتبر من أغنى

مناطق العالم ، إلَّا أنَّ العوامل المدمرة التي أشرنا إليها آنفاً جعلتهم يهيمون في ليلٍ مظلمٍ .  
نختتم هذا البحث المختصر بحديثٍ عن الإمام علي عليه السلام ورد في نجح البلاغة ، يقول :

«انظروا إلى النملة في صغرِ جُستها ولطافَةِ هيئتها لا تكادُ تُنَالُ بِلَحْظَ البَصَرِ ولا  
يُسْتَدِرِكُ الفَكَرُ كيْفَ دَبَّتْ على أرْضِهَا ، وَصُبِّتْ على رِزْقِهَا تَنْقُلُ الْحَبَّةَ إِلَى جَهْرِهَا وَتُعِدُّهَا  
فِي مُسْتَقْرِهَا ، تَجْمَعُ فِي حَرْقَهَا لِبِرْدِهَا ، وَفِي وَرِدِهَا ، لِصَدِّرِهَا» <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

#### ٤ . سُعَةُ الرِّزْقِ وَضيقِهِ

ورَدَ في الآيات أعلاه أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسْطِعُ الرِّزْقَ مَنْ يَشَاءُ وَيُضِيقُهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ،  
وَهَذَا التَّعْبِيرُ الَّذِي تَكَرَّرَ فِي آيَاتٍ عَدِيدَةٍ يُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ هَذَا الْخُلُطُ وَهُوَ أَنَّ نَظَامَ الرِّزْقِ  
خَارِجٌ عَنْ إِرَادَةِ الإِنْسَانِ بِشَكْلٍ كَامِلٍ ، طَبِقًا لِذَلِكَ فَلَوْ تَنَعَّمَ قَوْمٌ وَخَرَمَ آخَرُونَ فَهَذَا مُشَيْئَةُ  
اللَّهِ وَلَيْسَ مَا كَسَبُتْ أَيْدِيَنَا وَلَيْسَ لَنَا حَوْلٌ وَلَا قُوَّةٌ! وَمُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مُكْسِبًا جَيْدًا  
لِأُولَئِكَ الَّذِينَ يَشَكَّلُونَ عَلَى أَصْلِ الدِّينِ وَيَعْتَبِرُونَهُ وَلِيَدًا لِلْحَرَكَاتِ وَالْمَشَارِيعِ الْاسْتِعْمَارِيَّةِ .  
وَلَكِنْ لَوْ تَأْمَلُنَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَالرَّوَايَاتِ وَفَكَرْنَا فِي أَسْبَابِ ضيقِ الرِّزْقِ وَسَعَتِهِ لِتَجْلِي  
لَنَا تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَاتِ وَأَسْرَارِهَا وَسِيَّمَ الْقَضَاءَ عَلَى تَلْكَ الأَفْكَارِ الْمَدَّامَةِ ، وَنَتَوَصَّلُ إِلَى امْرَأَةٍ  
مُهِمَّةٍ وَقِيمَةٍ لِلْغَايَةِ .

لَقَدْ قَلَنَا مَرَارًا أَنَّ التَّعْبِيرَ بِ«الْإِرَادَةِ الْإِلَهِيَّةِ» لَا يَعْنِي الْإِرَادَةِ الَّتِي تَخْلُو مِنَ الْحَسَابِ  
وَالْكِتَابِ ، بَلِ الْإِرَادَةِ الْمُمْتَرَجَةِ بِ«الْحَكْمَةِ» .

إِنَّ حَكْمَةَ اللَّهِ تَقْتَضِي أَنَّ مَنْ يَسْعَى وَجْهَهُ وَيُخْلُصُ وَيُضْحِي أَكْثَرَ ، يَكُونُ رِزْقَهُ

أَوْسَعُ : ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ . (النَّجَم / ٣٩)

وَ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ . (الْمَدْثُر / ٣٨)

﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلُ لَهُ مَحْرَجًا\* وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . (الْطَّلاق / ٣٠ . ٢)

(١) نَجَحَ الْبَلَاغَةَ خ . ١٨٥

فالتفوي تؤدي إلى سيادة العدالة الاجتماعية ومن ثم تؤدي إلى سعة الرزق ، كما أنّ السعي والمشاهدة تُعدُّ الأرضية الالزامية للازدهار الاقتصادي وتعتبر سبباً في سعة الرزق ، وبناءً على ذلك فانَّ التعاليم أعلاه ونظراً لجذورها واصولها لا تعتبر سبباً في الخمول وترك السعي ، بل إنّها من العوامل المؤثرة في السعي والاجتهاد.

والشاهد هو هذا الحديث القيم الذي نُقل عن الإمام علي عليه السلام ، حيث يقول :

**﴿إِنَّ الْأَشْيَاءَ لِمَا ارْذَوْجَتْ إِرْذَوْجَ الْكَسْلُ وَالْعَجْزُ فَتَنَجَّا بَيْنَهُمَا الْفَقْرُ﴾** <sup>(١)</sup>.

نعم .. ففقر كلّ قوم ، نتيجة مباشرة لضعفهم وحُمولهم ، وقد اقتضت الحكمة الإلهية أنْ يضيق الرزق على مثل هؤلاء.

إنَّ التَّأْمُلَ في أسباب ضيق وسعة الرزق في الروايات شاهدٌ ناطقٌ آخر على القول

السابق.

ومن جملة الامور التي ذكرتها في الروايات كأسبابٍ لسعة وبسط الرزق ما يلي :

صلة الرحم ، نظافة الدار والأواني والجسم ، موسامة المسلمين ، السعي مبكراً لطلب الرزق ، شكر النعمة ، الاقلاع عن البخل ، اجتناب اليمين الكاذبة ، الاستغفار والتوبة من الذنوب ، حسن النية في الأعمال ، الاحسان إلى الجيران وذكر الله <sup>(٢)</sup>.

نقرأ في حديثٍ عن النبي عليه السلام : «طيبُ الكلام يزيدُ في الارزاق» <sup>(٣)</sup>.

وجاء في حديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام : «في سعةِ الأخلاقِ كنوزُ الأرزاق» <sup>(٤)</sup>.

وورد في حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام : «كثرةُ السُّحْتِ يمْحُقُ الرزق» <sup>(٥)</sup>.

\* \* \*

(١) وسائل الشيعة ، ج ١٧ ، ص ٦٠.

(٢) بحار الأنوار ، ج ٧٣ ، ص ٣١٤ (باب ما يورث الفقر والغنى) ، وسفينة البحار ، ج ١ ، ص ٥١٩ و ٥٢٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) المصدر السابق.

## ١٧ . آياته في خلق الطيور

تمهيد :

لقد أَحْبَبَ الْإِنْسَانُ عَلَى مَرْتَابِ الْتَّارِيخِ الْطَّيُورَ وَمُتَمَّنٌ بِتَرْبِيَتِهَا وَمُشَاهِدَتِهَا تَحْلُقُ فَوْقَ رَأْسِهِ فِي السَّمَاءِ بِشَكْلٍ جَمِيلٍ ، وَكَانَتْ هَذِهِ الظَّاهِرَةُ تَبَعُثُ عَلَى دَهْشَتِهِ دَائِمًا ، وَهِيَ كَيْفِيَةُ امْكَانِ أَنْ يَحْلُقَ جَسْمٌ ثَقِيلٌ فِي السَّمَاءِ وَيَتَحَرَّكَ بِتَلْكَ السَّرْعَةِ خَلَافًا لِقَانُونِ جَاذِبَيِّ الْأَرْضِ؟! .

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الصَّفَةُ فَقْطًا بِلِ صَفَاتٍ أُخْرَى كَالْرِيشِ وَالْجَنَاحَيْنِ ، التَّغْرِيدُ الْلَّطِيفُ لِبَعْضِهَا ، طَرَازُ بَنَاءِ الْبَيْتِ وَالْعَشِ ، تَرْبِيَةِ الْفَرَّاخِ وَاطْعَامِهَا ، الْهَجْرَةُ الطَّوِيلَةُ لِقَسْمٍ مِنْهَا ، وَأَمْوَارُ أُخْرَى مِنْ هَذَا الْقَبِيلَ كَانَتْ مَصْدَرًا لِدَهْشَتِهِ ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ تَكَرَّرَ هَذِهِ الْحَالَاتُ الْمُثِيرَةُ أَدَّى . وَبِالْتَّدْرِجِ . إِلَى أَنْ يَمْرُّ بَعْضُ النَّاسِ عَلَيْهَا مَرْوِرُ الْكَرَامِ .

وَقَدْ أَشَارَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ فِي جَانِبٍ مِنْ آيَاتِ التَّوْحِيدِ إِلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَدَعَا الْجَمِيعَ مُشَاهِدَةً عَالَمَ الطَّيُورِ ، كَيْ يَرَوْا آيَاتِ وَبَرَاهِينَ الْبَارِيِّ تَعَالَى .

بِهَذَا التَّمَهِيدِ نَتَأْمِلُ خَاسِعِينَ فِي الْآيَاتِ الْآتِيَةِ .

- ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوَّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ . (النَّحْل / ٧٩)
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوَا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضُنَّ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ أَنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ . (الْمُلْك / ١٩)
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيْحَهُ وَاللَّهُ عَلِيْمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ . (النُّور / ٤١)

٤ . ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أَمْمَ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ . (الانعام / ٣٨)

\* \* \*

### شرح المفردات :

«طَيْرٌ» : جمع «طَائِرٍ» وَتُقَالُ لِكُلِّ حَيْوَانٍ ذِي جَنَاحٍ وَرِيشٍ ، وَيَحْلُقُ فِي الْهَوَاءِ ، وَمُصْدَرُهَا «الْطَّيْرَانَ» <sup>(١)</sup> وَ«تَطَيَّرٌ» تَقَالُ لِطَالِعِ السَّوْءِ الَّذِي كَانُوا يَسْتَلِهِمُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ حَرْكَةِ الطَّيْرِ ، وَلَكِنْ اطْلَقَ فِيمَا بَعْدِ عَلَى كُلِّ أَشْكَالِ التَّشَاؤمِ وَسَوْءِ الْمَالِعِ . كَمَا جَاءَ لِفَظُ «تَطَائِرٌ» بِمِعْنَى الْحَرْكَةِ بِسَرْعَةٍ أَيْضًا <sup>(٢)</sup> .

«صَافَّاتٍ» : مِنْ مَادَةِ «صَفٌّ» وَتَعْنِي وَضْعُ الْأَشْيَاءِ فِي خَطٍّ مُسْتَقِيمٍ ، كَالنَّاسُ أَوِ الْأَشْجَارُ حِينَمَا يَكُونُونَ فِي خَطٍّ وَاحِدٍ ، فَعِنْدَمَا يُطْلَقُ هَذَا الْلِفْظُ وَصَفًا أَوْ حَالًا لِلْطَّيْرِ : ﴿وَالْطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ ، فَهُوَ إِشَارَةٌ إِلَى بَسْطِ الْأَجْنِحَةِ فِي السَّمَاءِ أَثْنَاءِ الْحَرْكَةِ ، وَيَعَاكِسُهَا : ﴿وَيَقْبِضُ﴾ .

وَلِفَظِ «إِصْطَفَافٌ» كُنَيَّةٌ عَنِ التَّسْلِيمِ وَالطَّاعَةِ الْمُخْضَةِ وَالْخَضُوعِ الْتَّامِ ، وَإِشَارَةٌ لِلْخَدِمِ الَّذِينَ يَقْفَوْنَ فِي صَفٍّ وَاحِدٍ اسْتَعْدَادًا لِتَقْدِيمِ الْخَدِيمَةِ <sup>(٣)</sup> .

وَبِطَبِيعَةِ الْحَالِ أَنَّ احْتِمَالَ : «وَالْطَّيْرُ صَافَّاتٍ» إِشَارَةٌ إِلَى مَجْمُوعَةٍ مِنْ الطَّيْرِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ بِشَكْلٍ جَمَاعِيٍّ فِي صَفٍّ أَوْ عَدَةِ صَفَّوْفٍ حِيثُ تَلْفُتُ الْإِنْتِبَاهُ بِتَنَاسُقِهَا وَارْدًا أَيْضًا ، إِلَّا أَنَّ عَبَارَةَ «وَيَقْبِضُ» تَمْثُلُ هَذَا التَّفْسِيرَ .

\* \* \*

(١) وقد قالوا إنَّ مصدر هذا الفعل «طَيْرٌ» أيضًا ، وطَيْر جمع الجمْع (جمع طَيْر) وذكر بعضهم أنَّ «طَيْر» جمع «طَائِرٌ» .

(٢) مفردات الراغب ؛ لسان العرب ؛ كتاب العين ؛ وجمع البحرين .

(٣) التحقيق في كلمات القرآن الكريم ؛ ومفردات الراغب .

## جمع الآيات وتفسيرها

**الطير يسبح وأنا صامت!**

أكدت الآية الأولى على أن تخليق الطيور في جو السماء خلافاً للجاذبية الأرضية هو

آية من آيات الله : ﴿أَلَمْ يَرُوا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾<sup>(١)</sup>.

ونظراً لطبيعة الأجسام في الانجداب نحو الأرض فإن حركة الطيور في أعلى الجو تبدو شيئاً عجياً ، ويجب أن تؤخذ مأخذ جدّ ، فمن المُسَلِّم به أنّ هناك مجموعة من المزايا لدى الطيور تمكنها من الطيران بيسيرٍ في السماء مستثمرة مختلف القوانين الطبيعية المعقدة ، إنّه شيءٌ يبعث على الدهشة بلا شك.

إنّ لهذا الميدان العجيب والقوانين التي تسبب هذه الظاهرة المدهشة ربّاً قادرًا حكيمًا مطلعاً على أسرار العلوم ، بل ليست العلوم إلا شيئاً من القوانين التي وضعها ، لهذا يقول في سياق الآية : ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ﴾.

ويضيف في ختام الآية : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لَّفَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

وسترى في الإيضاحات التي ستأتي في نهاية هذه الآيات . إن شاء الله . ما هي القوانين التي يجب أن تتطاير كي تحصل هذه الظاهرة التي تُدعى «الطيران» ، لذلك نواجه في كل خطوة آية جديدةً من آيات مبديء الوجود العظيم.

\* \* \*

والآية الثانية تتشابه مع الأولى من عدة وجوه ، إنّه يلاحظ فيما بينهما اختلافات أيضاً ، ففي هذه الآية يدعون الناس «لا سيما المشركين» إلى تفحص اوضاع الطيور ، هذه الموجودات التي تنطلق من الأرض خلافاً لقانون الجاذبية الأرضية ، وتحرك مسرعةً بكل

(١) لقد اتّخذ بعضهم لفظ «جوّ» بمعنى الفضاء الذي يحيط بالأرض ، وبعضٌ بمعنى «الهواء» قريراً كان أم بعيداً عن الأرض ، ولكن يبدو أنّ ما يستعمل عادةً هو المعنى الأول ، وهو الذي يناسب الآية أعلاه حيث يمكن أن يكون مصدراً للاعجاب.

يُسِّرِ في جو السماء لساعاتٍ وأحياناً لأسابيع ، وحتى أحياناً لعدة شهور بدون توقفٍ ، حركةً مرنة وسريعةً ، بنحوٍ تبرهن على أنها لا تواجه مشكلةً في عملها .  
فيقول : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضُنَ﴾<sup>(١)</sup> .

فلا أحد سوى الرحمن الذي عَمِّت رحمته كلَّ شيء ، يستطيع أن يُمسِّكُهُنَّ هناك :  
﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ .

أجل .. الله الذي منحها كلَّ أدوات الطيران ، وعلَّمها طريقته واسلوبه ، كما وضع قوانين وانظمةً تستفيدها فتحلّق بيسير وسهولة ، فهو العليم بحاجات كل الموجودات والبصير بكلِّ شيء : ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ .

وابتداءً من الذرات حتى المنظومة الشمسية ، والمنظومات الأخرى الجبارات ، ومن النباتات والحيوانات المجهبة ، حتى الموجودات العملاقة ، والكل يستمر في وجوده بتدبيره جلَّ وعلا ، التدبير الذي يُطلعنا في كلِّ مرحلةٍ منه على آيةٍ جديدةٍ من علمه وقدرته تبارك وتعالى ، وينفي كل أشكال الاحتمال بوجود الصدفة وقدرتها على الخلق ، ويملاً القلب بحبه والإيمان به .

ويمكن أن يكون التعبير بـ «صافاتٍ» و «يَقْبِضُنَ» إشارة إلى وضع الطير ، حيث يسيطر أجنحتهنَّ تارةً ، وبجمعنها أخرى ، ويقدرونَ على الطيران من خلال هذين الفعلين ، ويردُّ هذا الاحتمال أيضاً بأنْ يكون إشارة إلى صنفين من الطيور : الطيور التي غالباً ما تكون أجنحتها مبسوطة ، وتركبُ أمواج الهواء ، وفي نفس الوقت تسيرُ في كلِّ اتجاهٍ بسرعة ، فكأنما هناك قدرةٌ خفيةٌ تُحرِّكُها لا نراها بأعيننا ، والطيور التي تحقق اجنحتها باستمرار أثناء طيرانها ، ولبعض الطيور حالةٌ وسطٌ بين هاتين الحالتين أثناء الطيران<sup>(٢)</sup> .

(١) يقول بعض المفسرين لو تعددت «الرؤبة» بـ «إلى» فهي تعني الرؤبة الحسية ، وإذا تعددت بـ «في» فهي تعني المشاهدة القلبية والمطالعة العقلية (تفسير روح البيان ، ج ١٠ ، ص ٩١) .

(٢) لماذا جاءت «صافاتٍ» بصيغة الاسم الفاعل ، و «يَقْبِضُنَ» بصيغة الفعل المضارع؟ وردت تفسيرات كثيرة أفضلها : يقال إِنَّه عند ابسط الاجنحة يأخذ وضع الطائر نسقاً واحداً ، بينما يتكرر رفيق اجنحته عند حفقاتها ، .

وفي الآية الثالثة نواجه صياغة جديدة بقصد الآيات التوحيدية لحياة الطيور إذ يخاطب النبي ﷺ قائلاً : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾ .

الطيور التي تتحرك في الجو صفوافاً ، بجلالٍ وعظمةٍ وجمالٍ ولا تتعبُ العين من مشاهدتها أبداً ، فهي ترسم أشكالاً هندسيةً مختلفة على صفحة السماء بحيث تذهل الإنسان ، إذ قد تطير المئات بل الآلاف من الطيور وتغيّر طريقها باستمرار من خلال أمرٍ خفيٍّ من دون أن يحدث اصطدامٍ فيما بينها.

ويضيف في سياق الآية : ﴿كُلٌّ قدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ (١) .

نعم .. فلكلٍ منها صلاةً وابتهاج ومناجات ودعاءً و حاجاتٍ في عالمها الخاص ، ولكلٍ تسبيحه و تعظيمه و شاؤه ، ومن المعروف أنَّ ذرات وجود أيٍّ منها و بناء مختلف أعضائه وحركاته وسكناته تُخْبِرُ عن مُبْدِيِّ عظيمٍ يجتمع كافة الكمالات و مُنَزِّهٌ عن جميع النواقص ، وهي دائمةُ التسبيح بحمده بلسان حالمها.

ويعتقد بعضهم أنَّ حمدَها وتسبيحها وصلاتها عن وعيٍ ، ويعتبرون لكلٍ موجودٍ حتى الذي تُحسِّبُه جماداً وبلا روح ، عقلاً واحساساً ، بالرغم من جهلنا به ، كما نقرأ في مكانٍ آخر : ﴿وَإِنْ مَنْ شَاءَ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ . (الاسراء / ٤٤)

وكل تفسير من ذينك التفسيرين الصحيحين يصلح أن يكون شاهداً على ادعائنا بأنَّ جميع الموجودات في هذا العالم ، لا سيما الطيور التي تطير في جو السماء ، آياتٌ وبراهينٌ على قدرة وعلم خالق الكون.

- وهذا ما يناسب الفعل المضارع ويكتسبه صفة الاستمرارية . وذكر تفسير آخر في «الكشاف» وأيده بعض المفسرين : بأنَّ منشأ هذا التفاوت ينبع من أنَّ الطيران هو الحالة الأصلية الأولى للطيور ، والحالة الثانية هي عرضية . غير أنَّ الغموض يكتنف هذا التفسير .

(١) هنا حيث يعود الضمير في «عَلِمَ» إلى «الله» أو إلى «كُلٌّ» هنالك حدالٌ بين المفسّرين ، ولكن ما يناسب وضع الآية هو أن يعود الضمير إلى «كُلٌّ» فيعني : «كُلٌ واحدٌ» أي أنَّ كُلَّ واحدٍ من موجودات الأرض والسماء والطيور يعرف صلاته وتسبيحه جيداً.

ويقول في نهاية الآية : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

فهو يعلم كل أعمالهم ونواياهم وجميع حاجاتهم ، وهنا لماذا استند في هذه الآية إلى بسط أجنحة الطيور فقط «صفات»؟ لعل السبب هو هذا الوضع العجيب والمدهش حيث تستطيع أن تتحرك في جو السماء بسرعة بدون تحريك اجنحتها كما أشرنا إلى ذلك سابقاً. والاحتمال الوارد أيضاً هو أنّ الطيور تتحرك في السماء بشكلٍ جماعي بنحوٍ يبعث على الحيرة ، حركة هندسية منتظمة ، متناسقة تماماً ، وبلا قيادةٍ ظاهرةٍ.

\* \* \*

وأشار في الآية الرابعة والأخيرة من البحث إلى مسألةٍ جديدةٍ أخرى من عجائب عالم الطيور فقال : ﴿وَمَا مِنْ ذَبَابٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطْيُرُ بِجَنَاحِيهِ إِلَّا أَمْمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾. والتعبير بـ «أمم» جمع «أمة» يدلُّ على أنَّ لها عقلاً واحساساً في عالمها ، والتعبير بـ «أمثالكم» يؤكد هذا المعنى أيضاً ، لأنَّها تشبه الإنسان في مسألة الإدراك والفهم والشعور ، وهذا تأكيد مجدد للتفسير الذي ورد في الآية السابقة ، بأنَّ لها تسبيحاً ودعاً عن وعيٍ في عالمها الخاص بها <sup>(١)</sup>.

إنَّ القرائن المتوفرة لدى الطيور ، وبقى الحيوانات ، تؤيد بأنَّها ذات ذكاءً وشعور. لأنَّ : أولاً : الكثير من الحيوانات تعمل بمهارةٍ ودقةٍ في بناء بيوتها وجمع غذائها وتربية فرائها ، ورعايتها ، وسعيها لسد حاجات حياتها الأخرى بدقة ومهارة لا يُصدق معها ، صدور هذا العمل عن غير عقلٍ وشعور؟. وهي تبدي ردود فعلٍ مناسبةٍ ازاء الاحداث التي لا تمتلك تحريكَةً سابقةً حيالها ، فمثلاً نرى أنَّ الحروف الذي لم ير ذبابة طيلة حياته له وعيٌ كاملٌ عن خطر هذا العدو ويدافع عن نفسه بكلٍّ وسيلةٍ يستطيعها.

(١) لقد اعطى المفسرون احتمالات كثيرة في تفسير تشبثها بالإنسان حيث ييلو أنَّ ما اورده أعلاه أكثر تناسباً بالرغم من عدم وجود تعارضٍ بين هذه الاحتمالات. يراجع تفسير المنار ، ج ٧ ، ص ٣٩٢ ؛ وتفسير القرطبي ، ج ٤ ، ص ٢٤١٧.

لقد قاموا بتربية الحيوانات من أجل غاياتٍ مهمّةٍ ، كالطيور التي تنقل الرسائل ، والحيوانات التي تُرسل إلى السوق للشراء ، وحيوانات الصيد ، وكلا布 الشرطة التي تستعمل للكشف عن المخدّرات ، وملاحقة الجرميين وامثال ذلك ، فترى هذه الحيوانات بنحوٍ قد تكون أفضل وأكثـر ذكـاءً من الإنسان في انجاز مهمـتها ، حتى في هذا العصر الذي تنوـعـت فيه معدـات كـشف الجـرـائم لم يـجدـوا في انـفـسـهـم غـيـرـ عنـ هـذـهـ الـكـلـابـ !.

خصوصاً أنَّ بعض الحيوانات كالنحل والنمل والأرضة ، وبعض الطيور كالطيور المهاجرة ، وبعض حيوانات البحر كالأسماك الحرة التي تقطع آلاف الأميال في اعمق البحر باتجاه منشئها الأصلي أثناء وضع البيوض ، تعيش حياً دقيقةً و مليئةً بالأسرار بحيث لا يمكن نسبتها إلى الغريزة ، لأنَّ الغرائز تُعتبر عادةً مصدراً للأعمال ذات النـسـقـ الـواـحـدـ ، في حين أنَّ حـيـاةـ هـذـهـ الـحـيـوـانـاتـ لـيـسـ كـذـلـكـ ، وـأـعـمـالـهـ دـلـيـلـ علىـ فـهـمـهـاـ وـاحـسـاسـهـاـ النـسـيـ.

**يقول مؤلف تفسير «روح المعاني» :**

أنا لا أرى مانعاً من القول بأنَّ للحيوانات نفوساً ناطقة وهي متفاوتة الإدراك حسب تفاوتها في أفراد الإنسان وهي مع ذلك كيـفـماـ كـانـتـ لاـ تـصـلـ فيـ إـدـرـاكـهاـ وـتـصـرـفـهاـ إـلـىـ غـاـيـةـ يـصـلـهاـ إـلـىـ إـلـاـنـسـانـ ،ـ وـالـشـواـهـدـ عـلـىـ هـذـاـ كـثـيـرـةـ وـلـيـسـ فيـ مـقـابـلـتـهاـ دـلـيـلـ يـجـبـ تـأـوـيـلـهـ لـأـجـلـهـ<sup>(١)</sup>.

والظاهر أنَّ مقصوده من الشواهد هذه التلميحات أو التصرّفات التي جاءت في القرآن الكريم في قصة «المهدـدـ وـسـلـيـمـانـ» وكذلك «النـمـلـةـ وـسـلـيـمـانـ» ، وكذلك الروايات التي نقلت في تفسير آية البـعـثـ بـأـنـ الـحـيـوـانـاتـ حـشـرـ وـثـنـشـرـ وـتـحـاسـبـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ أـيـضاـ<sup>(٢)</sup>. ولكن على أية حالٍ فـسوـاءـ كـانـتـ أـعـمـالـهـاـ وـتـصـرـفـاتـهاـ نـاتـجـةـ عـنـ عـقـلـ وـإـرـادـةـ أـوـ عـنـ غـرـيـزةـ فـلـاـ أـثـرـ لـذـلـكـ عـلـىـ بـحـثـنـاـ ،ـ فـهـيـ بـأـيـ نـحـوـ آـيـةـ مـنـ آـيـاتـ اللهـ وـبـرـهـانـ مـنـ بـرـاهـينـ عـلـمـهـ وـقـدـرـتـهـ.

(١) تفسير روح المعاني ، ج ٧ ، ص ١٤٧ .

(٢) تفسير مجمع البيان ، ج ٣ ، ص ٢٩٨ .

واللطيف أَنَّه يقول في نهاية الآية : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾<sup>(١)</sup>. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾.

والتعبير بـ «حشر» يشير أيضاً إلى أنها ذات عقل وإرادةً نوعاً ما. يُستفادُ من الآيات أعلاه أنَّ الطيور ومن عدة جوانب تعتبر من آيات الله ولا يمكن نسبة هذه الظواهر الدقيقة والمعقدة والملائكة بالأسرار إلى الصدفة العميماء والصماء أو إلى الطبيعة التي لا عقل ولا شعور لها.

\* \* \*

### توضيحات

#### ١. فَنُ الطيَّران الْمَعَقَدُ

منذ سنواتٍ والإنسان يُفكِّر : ما هذه القوة الخفية التي تساعد الطيور الثقيلة نسبياً على الطيران خلافاً لخواص الأرض وتجعلها تطير بانسيابية ويسِّر ومهارة في أعلى السماء ، وتتنقل بسرعةٍ؟ ولكن باختراع الطائرة وصناعتها تم اكتشاف هذا السر بانَّ هناك قوة تسمى «القوة الرافعة» تستطيع أن ترفع الأجسام الثقيلة جداً وتجعلها تطير في السماء ، فضلاً عن الطيور. ويمكن توضيح ذلك في عبارة بسيطةٍ وحاليةٍ من المصطلحات الفنية بما يلي :

لو كان لجسم سطحان مختلفان (كاجنحة الطيور أو اجنحة الطائرة حيث يكون سطحها العلوي منحنياً وبارزاً ، فلو تحرك هذا الجسم افقياً ستتولد قوةٌ خاصةٌ ترفعه إلى الأعلى ، وهذا يعود إلى أنَّ ضغط الهواء سيتضاعف على السطح السفلي أكثر من العلوي لأنَّ السطح العلوي أوسع من السفلي).

وتعُد الاستفادة من هذا القانون السبب الرئيس في تخليق الأجسام الثقيلة في الجو ،

ولو

(١) «فَرَّطْنَا» من مادة «تُفَرِّطُ» أي التقصير في اداء العمل وتضييعه ب نحوٍ يضيع (صحاح اللغة) ويردُّ هذا الاحتمال أيضاً بأنَّ المقصود من عدم التفريط في هذا الكتاب السماوي يعني أنَّ للقرآن مفهوماً جاماً حيث يشمل كافة حاجات الإنسان إلا أنه نظراً إلى ذيل الآية فإنَّ المعنى أعلاه يعتبر أكثر مناسبة.

تأملنا اجنحة الطيور جيداً للمسنا هذا القانون الفيزيائي بكل دقة.

غير أنّ هذه مسألة واحدة فقط من عشرات المسائل المهمّة في الطيران ، ومن أجل

تصور أوسع له لابد من التطرق إلى الأمور الآتية :

١ . السرعة الأولية لحصول القوّة الرافعة (فالطائرة تسير وقتاً طويلاً على الأرض

للحصول على هذه السرعة ، أمّا الطيور فقد ترکض قليلاً أو بقفزٍ سريعةٍ في الهواء فتصل هذه الغاية!).

٢ . كيفية التحكّم بهذه القوّة أثناء الهبوط (وهذا الأمر يجري في الطيور والطائرة بتقليل

السرعة وتغيير هيئة الجناح!).

٣ . كيفية تغيير الاتجاه أثناء الطيران (ويتم هذا الأمر عن طريق الاستفادة من حركات

مؤخرة الطائرة أو الريش الخاص في قوافي الطيور التي تحدث حركات في مختلف الاتجاهات

وتسوق الطائر نحو أيّ اتجاه).

٤ . اتخاذ الشكل المناسب للطيران بالنحو الذي يجعل مقاومة الهواء على جسم الطائر

تصل إلى الحد الأدنى (وهذا الأمر تمّ تأمينه من خلال الميكل المغزلي للطير ، والرأس البيضوي ، والمنقار المدبّب والحاد ، وهيئة الطائرة تقليل له!).

٥ . أدوات التنسيق مع الطيران (وهذا المعنى متوفّر من خلال الريش الذي يسمح

للطيور أنّ تسبح في الهواء ، ووضع البيوض بدلاً من الحمل ، كي لا يصبح جسمها ثقيلاً ،

والعيون الحادة حيث ترى الفريسة أو الصيد جيداً من مكان بعيد وأمثال ذلك).

٦ . لقد كان العلماء ولدّة من الزمن يلاحظون أنّ عجلات الطائرات علاوة على

تخفييفها لسرعتها فهي لا تخلو من الأخطار أثناء طيرانها ، حتى شاهدوا الطيور تجمع أرجحها

أثناء الطيران وتنفتحها قبل الهبوط بقليل فادركوا أنّه يجب الاستفادة من العجلات المتحركة

التي تُجمّع بعد الارتفاع ، وتنفتح قبيل الهبوط!).

ولا عجب في إجراء العلماء لبحوث كثيرة ولسنواتٍ متتماديّة على مختلف أنواع الطيور

مهتمين بكيفية الطيران ، والهبوط ، وشكل الأجنحة والأذناب ، وقاموا بصناعة أنواع مختلفة

من الطائرات تقليداً ل مختلف الطيور.

فهل يمكن أن تكون الاسس الضرورية المذكورة في الطيران وليدة للطبيعة العميماء والصماء؟ أوليس جملة : **﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾** إشارة دقيقة وجميلة إلى جميع تلك الاسس؟ لا سيما وأنّ المعنى يتم بعد جملة : **﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾**.

\* \* \*

## ٢ . «عجائب الطيور» و «الطيور العجيبة»

للطيور أنواع مختلفة وعجيبة ، وبعضها أكثر عجباً ، إذ يقول بعض العلماء : شوهد ٢٨٩ نوعاً من الحمام و ٢٠٩ نوع من الحجل و ١٠٠ ألف نوع من الفراشة لحد الآن <sup>(١)</sup> . ويمكن ذكر «الخفافش» مثلاً من بين الطيور العجيبة ، فهو يضجر من ضوء الشمس على عكس سائر الطيور ، ويطير في ظلام الليل بكل شجاعةٍ وجرأةٍ وبأي اتجاه شاء ، وجسمه خالٍ من الريش تماماً واجنحته متتشكلة من جلد رقيق ، وهو لبونٌ ولودٌ ، فيحيضُ ، ويأكل اللحم ، ويقال إنَّ الطيور تنصب له العداء ، كما أنه يعاديها أيضاً! لهذا فهو يقضي حياته منعزلاً.

وحركته السريعة والجريئة في ظلمة الليل من دون أن يصطدم بمانع تبعث على الحيرة ، فهو يمر من خلال اخناءاتِ والتواهاتِ كثيرة بدون أن يضل طريقه ، ويوفر طعامه بدقة أينما كان مختفياً ومن دون خطأ ، لامتلاكه لجهازٍ خفي يشبه «الرادار».

فهو يرى بأذنه «أجلٌ بأذنه!» لأنَّ الأمواج الخاصة التي يصدرها من حنجرته ويرسلها إلى الخارج عبر أنفه ترتطم بكل ما يصادفها وتعود ، وهو يلتقط الأمواج المنعكسة بأذنه ، ويتحسن الوضع في جميع الجهات فيتجنب العقبات.

إنَّ بناء حنجرته وانفه وأذنه عجيبٌ ، دقيقٌ لا يوجد له مثيل في أيٍ من اللبائن. والأمواج التي يرسلها إلى الخارج هي أمواج ما وراء الصوت ، التي لا نستطيع سماعها ، وفي كلٍّ ثانيةٍ يرسل ٣٠٠ . ٦ مرة إلى كل الاتجاهات المحيطة به ويستلم ردّها.

(١) يراجع كتاب أسرار حياة الحيوانات ، ص ١٤٢ إلى ١٩٦.

لقد اجروا بحوثاً كثيرة حول «الخفافش» وألقو مقالاتٍ عديدةً ، تتشكل منها دروس حقة لمعونة الله.

ولهذا يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام في نجح البلاغة في خطبةٍ معروفةٍ باسم «خطبة الخفافش» عن هذا الحيوان ، وينبئ مهاراته ودقة في بيانه العظيم والبلغ ، حيث يقول : «من لطائف صنعته ، وعجائب خلقته ، ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش ...» <sup>(١)</sup> ثم يضيف بقصدده قائلاً :

«وقيل من الحيوانات من يختضن صغاره ، ويحمله تحت جناحه وربما قبض عليه بفمه وهو في حنوه عليه واسفاقه عليه وربما ارضعت الانثى ولدتها وهي طائرة ...» <sup>(٢)</sup>.

ومن عجائب الخلق طائر آخر يُسمى «الطاووس» ، برئشه الجميل الذي تصيب الدهشة من يتمتعن بألوانه ، فكأنما خرج لتتوه من تحت يد رسام ماهر مليئاً بالألوان الخلابة الزاهية الشفافة والجذابة ، مصففاً ريشه بمظلة عجيبة التي إذا رأيتها فسوف لن تغيب عن بالك ، أن ذلك لآية أخرى من آيات خلق الله.

لهذا أكدَ معلم التوحيد ومعرفة الله ، الإمام علي عليه السلام في أحدى خطب نجح البلاغة «خطبة الطاووس» على هذا الأمر قائلاً :

«ومنْ أَعْجِبِهَا خلقاً الطاووس الذي أَقَامَهُ فِي أَحَقِّ تَعْدِيلٍ ، وَنَصَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصْبَهُ وَذَنْبَ أَطَالَ مَسْحَبَهُ إِذَا دَرَجَ إِلَى الْأَنْشَى نَشَرَهُ مِنْ طَيْهِ وَسَمَا بِهِ مَطْلَأً عَلَى رَأْسِهِ كَأَنَّهُ قَلْعَ دَارِي عَنْجَةٌ نُوتَيَّةٌ يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ ...» <sup>(٣)</sup>.

و «الطيور المهاجرة» من أكثر أنواع الطيور إثارة للدهشة أيضاً ، فهي تقطع أحياناً كل المسافة بين القطب الشمالي والقطب الجنوبي ، ثم تعود إلى مكانها الأول ، قاطعة سفراً طويلاً بعيداً قد يبلغآلاف الأميال ، والعجيب أنّها تستخدم في هذه المسافة الشاسعة آلاتٍ

(١) نجح البلاغة ، الخطبة ١٥٥ .

(٢) سفينة البحار ، ج ١ ، ص ٤٠٣ .

(٣) تراجع بقية هذا الحديث في الخطبة ١٦٥ من نجح البلاغة.

خفية تستطيع بها تشخيص طريقها بين الجبال والغابات والصحاري والبحار. والأعجب من كل هذا مواصلة طيرانها لعدةأسابيع بدون توقف ليلاً ونهاراً دون الحاجة إلى غذاء ، لأنّها تبدأ بالأكل قبل بداية سفرها . بدافع داخليٍّ . ، أكثر من الحد اللازم ، وتحتزن هذه الأطعمة على هيئة دهون في جسمها ، كي تكتسب الطاقة اللازمة لهذا الطيران الطويل المستمر.

فهل تستفيد من الجاذبية المغناطيسية للأرض من أجل تشخيص طريقها؟ أو من استقرار الشمس في السماء والنجوم أثناء الليل؟ وفي هذه الحالة يجب أن تكون هذه الطيور من الفلكيين المرموقين ، أو تستفيد من طريقةٍ خفيةٍ أخرى بجهلها لحد الآن؟ والأهم من ذلك أنها تناول في السماء أحياناً وهي طائرةٌ وتواصل مسيرتها نحو هدفها! كما أنها تتوقع التحولات في الجو قبل حصولها من خلال تبؤ ذاتي ، فتسعد للحركة. لعلكم شاهدتم بأعينكم أنَّ الطيور المهاجرة تتحرك بشكلٍ جماعيٍّ وتشكلُ نسقاً على هيئةٍ رقم ٧ ، فهل هذا حدثٌ صدفةٌ؟ لقد أثبتت بحوث العلماء أنَّ الطير عندما يحرك جناحه في الماء فهو يخفضه مما يسهل عملية تحريك جناح الطائر الذي يليه ، لهذا فإنَّ الطيور حينما تتحرك بالشكل أعلاه قليلاً ما تتعب ، وتحتزن كمياً لا بأس بها من طاقتها ، فائيٌّ معلمٌ اعطها هذا الدرس الدقيق؟

\* \* \*

### ٣ . الطيور في خدمة الإنسان والبيئة

يقول أحد العلماء : إنَّ شقاء وقسوة الإنسان ، وغفلته وجهله لا عدٌ ولا حدود لها ، فيجب أن يعلم أنَّ قتل الطيور يكلفه خسارةً فادحةً ، ويحرمهُ عون ونصرة أعرّ وأغلى الأصدقاء والرفاق في صراعه مع الحشرات الضارة.

فللإنسان طريقتان في مكافحته للحشرات الضارة : إحداها الأسلوب البدائي وهو عبارة عن إبادة اليرقات في البساتين والمزارع وقتلها ، والقضاء على الجراد وحشرة المن ، عن طريق السموم ، والآخر الصراع العلمي عن طريق «البيولوجيا» بواسطة الفايروسات

والطفيليات الخاصة التي يتم تكثيرها لهذا الغرض.

إلا أنه يدفع ثمناً غالياً في هذين الأسلوبين من الصراع وتحمل المتابع والمشقة ، بينما لو ترك الطيور سالمة ، وقام بتكثير الطيور التي تقتل الحشرات كالبوم ، وبعض الطيور التي تتغذى على الحشرات فستكون المكافحة أسهل وأفضل (وارخص).

يقول عالم يدعى «ميشيل» : «لولا وجود الطيور ستصبح الأرض فريسةً للحشرات» ، ويكتب آخر يسمى «فابر» في تأييده : «لولا وجود الطيور سيقضي القحط على البشر» !.

وتحذّثنا الاحصاءات ، بأنّ لو حصلنا على حسابات دقيقة نسبياً عن معدل اليرقات والحشرات التي تستهلكها الطيور الصغيرة سنوياً في طعامها وطعام فراخها فستتضح هذه المسألة كثيراً.

فهناك طيرٌ صغيرٌ يُدعى «رواتوله» يأكل سنوياً «ثلاثة ملايين» من هذه الحشرات المهاجمة! وهناك نوع من الطيور يُسمى «الطائر الأزرق» يأكل سنوياً «ستة ملايين ونصف المليون» من الحشرات ، ويستهلك «أربعاً وعشرين مليوناً» لاطعام فراخه التي لا تقل عادةً عن اثني عشر أو ستة عشر فرخاً ...

والستونو تطوي يومياً أكثر من ستمائة كيلو متر وتأكل «الملايين» من الذباب ، وهناك طيرٌ يُدعى «تروغلوديت» يتغذى على «تسعة ملايين» حشرة منذ أن يخرج من البيضة وحتى طيرانه من العش! وغالباً ما يعتبر الناس أنَّ الغراب الاسود مضرٌ ، ولكن لو ذبحتم أحد الغربان وتحصتم حوصلته بجدونه مليئاً بنوع من الديدان البيضاء<sup>(١)</sup>.

هذا جانبٌ من خدمات الطيور للمزارعين والبيئة ، فافرضوا الآن لو أنها تأخذ نصيباً من محاصيلنا الغذائية الذي لا يساوي واحداً بالالف مما تستحقه من هدية! فهل يؤذّي بنا هذا إلى اعتبارها حيواناتٍ ضارةً ومؤذية؟

فمنْ أَوْدَعَ هذا التكليف لدى هذه الطيور بأن تتكلّل بدورٍ مهمٍ بموازنة القوى في عالم الحيوانات والحشرات التي لها فوائدتها أيضاً.

\* \* \*

---

(١) نظرٌ إلى الطبيعة وأسرارها ، ص ١٩٥ - ١٩٧ «مع الاختصار».

#### ٤. دروس التوحيد في وجود الطيور

يقول الإمام الصادق عليه السلام معلم التوحيد العظيم في الحديث المشهور بـ «المفضل» : «تأمل يا مفضل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدر أن يكون طائراً في الجو حفف جسمه وادمج خلقه فأقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع ، ومن منفذين للزيل والبول على واحد يجمعهما ثم خلق ذا جوؤجـ محدد ليسهل عليه أن يخرج الهواء كيف ما أخذ فيه كما جعل السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتندفـ فيه وجعل في جناحـيه وذنبـيه ريشـات طوال مـتان لينهض بها للطيران وـكـسيـ كلـه بالـريـش ليـدخلـهـ الهـواءـ فيـقلـهـ ، وـلـماـ قـدـرـ أنـ يـكـونـ طـعـمـهـ الـحـبـ وـالـلـحـمـ يـلـعـهـ بـلـعـاـ بـلـاـ مـضـعـ نـقـصـ منـ خـلـقـ الـأـسـنـانـ وـخـلـقـ ، وـلـمـاـ عـدـمـ الـأـسـنـانـ وـصـارـ يـزـدـرـ الـحـبـ صـحـيـحاـ وـالـلـحـمـ غـرـيـضاـ اـعـيـنـ بـفـضـلـ حـرـارـةـ فيـ الـلـحـمـ ، وـلـمـاـ عـدـمـ الـأـسـنـانـ وـصـارـ يـزـدـرـ الـحـبـ صـحـيـحاـ وـالـلـحـمـ غـرـيـضاـ اـعـيـنـ بـفـضـلـ حـرـارـةـ فيـ الـجـفـوفـ تـطـحـنـ لـهـ الـطـعـمـ طـحـنـاـ يـسـتـغـيـ بـهـ عـنـ الـمـضـغـ ؛ـ وـاعـتـبـرـ ذـلـكـ بـأـنـ عـجـمـ الـعـنـبـ وـغـيرـهـ يـخـرـجـ مـنـ أـجـوـافـ الـأـنـسـ صـحـيـحاـ وـيـطـحـنـ فـيـ أـجـوـافـ الـطـيـرـ لـاـ يـرـىـ لـهـ أـثـرـ ثـمـ جـعـلـ مـاـ يـبـيـضـ بـيـضاـ وـلـاـ يـلـدـ وـلـادـةـ لـكـيـلاـ يـثـقـلـ عـنـ الـطـيـرـ ...ـ»ـ (١ـ)ـ .

ثم يشخّ الإمام عثيّلاً بعد ذلك ، الامور المهمّة والدقيقة الـاخـرى حول الطيور حيث نُعرض عنها مـراعـاـه لـالـاختـصار.

\* \* \*

(١) بحار الأنوار ، ج ٣ ، ص ١٠٣ وما بعدها.

## ١٨ . آياته في حياة النحل

تمهيد :

إنَّ حياة النحل من أكثر ظواهر الخلق دهشةً ، وقد اكتشفت عجائبُ عن حياة هذه الحشرة الصغيرة من خلال بحوث العلماء ، إذ يعتقد البعض أنَّ حضارتها وحياتها الاجتماعية أكثر تطوراً من حياة الإنسان ، فاتم لا تعيشون على أي مجتمعٍ متتطورٍ قد حلَّ مشكلة «البطالة» و «المجاعة» بشكلٍ كاملٍ ، إلَّا أنَّ هذه المسألة حلَّت تماماً في عالم النحل «خلايا النحل» ، فلا يُعُذر في هذه المدينة على زبُورٍ عاطلٍ عن العمل أو زبُورٍ جائعٍ أيضاً.

فبناء الخلية ، وكيفية جمع رحيق الورود ، وصناعة العسل وتخزينه ، وتربيَة الصغار واكتشاف المناطق المليئة بالأزهار ، واعطاء عنوان السكن لباقي النحل ، والعثور على الخلية من بين مئات أوآلاف الخلايا كل ذلك دليلٌ على الذكاء الفارق لهذه الحشرة.

إلَّا أنَّ من المسلم به أنَّ الإنسان لم يكن يمتلك مثل هذه المعلومات عن النحل سابقاً ، ولكن القرآن الكريم أشار في السورة المسمَّاة باسم هذه الحشرة ﴿النَّحْل﴾ باشاراتٍ مليئةٍ بالمعاني إلى الحياة المعقدة والمدهشة لهذه الحشرة.

بجداً التمهيد نتأمل خاسعين في الآيات الآتية :

- ١ . ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَيَّ النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجَيَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمَا يَرِشُونَ﴾ . (النحل / ٦٨)
- ٢ . ﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُّلَ رَبِّكِ ذُلْلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ

مُخْتَلِفُ الْوَانَهُ فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَا يَهُ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٨ - ٦٩﴾ . (النحل / ٦٨ - ٦٩)

\* \* \*

### شرح المفردات :

«النَّحْلُ» : اسم زبور العسل و «نَحْلَة» (على وزن قِبْلَة) تعني العطاء بلا عوض ، ومفهومها محدود أكثر من مفهوم الهبة ، لأن «الهبة» تشمل العطاء بعوض وبغير عوض بينما تشمل النحلة العطاء بلا عوض فقط ، و «نَحْوَل» تعني الضعف ، تشبيهاً بُهْزَال زناير العَسَلِ ، و «نَوَاحِل» تطلق على السيف الحادة «الرَّفِيعَة».

وقد يُحتمل أنَّ المنشأ الاصلي لـ «نَحْلَة» يعني العطاء ، وإذا اطلقَ على زبور العسل

﴿نَحْل﴾ فلأنَّه يصطبُب معه عطاءً وهبةً حلوةً لعالم الإنسانية. (١)

و (أَوْحَى) : من مادة «وَحَى» ولها معانٍ كثيرة وقد ذكرنا شرحها في الجزء الأول من «نفحات القرآن» في بحث «مصادر المعرفة» ، وأصلها يعني «الإشارة السريعة» وبالنظر إلى أنَّ أمَرَ الله تعالى فيما يتعلق بالنشاطات المختلفة والمعقدة للنَّحل قريب الشبه من الإشارة السريعة أو الالهام القلبي فهذا المعنى استُخدم أيضاً فيما يخص النَّحل ، لأنَّ جميع هذه الأفعال المعقدة قد تُتجزَّز من حلال إشارة الهبة سريعة.

\* \* \*

### لنَزُورَ بِلَادَ النَّحْلِ :

لقد استند القرآن الكريم في آيات عديدة إلى جوانب مختلفة من حياة النَّحل حيث كلٌ منها اعجب من الآخر ، فقد أشارَ أولاً إلى مسألة بناء بيوتها ، قائلاً : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنَّ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ .

وقد يكون التعبير بـ «الْخَذِي» بصيغة الفعل المؤنث إشارة إلى أنَّ النَّحل عندما يهاجر

(١) مفردات الراغب.

لاختيار بيتٍ جديداً فهو يسير خلف «الملكة» التي هي بمنزلة القائد في الخلية ، وعليه فإنَّ المتنفذ الحقيقي هي «الملكة».

والتعبير بـ «أوْحى» تعبيِّرُ جميُّلُ حيث يبرهنُ على أنَّ الله تعالى قد علِمَ هذا الحيوان طراز بناء البيت الذي يُعدُّ من أروع أعمال هذه الحشرة بواسطة الماءِ خفيٌّ وسيأتي شرحه في «الوضيحيات» إن شاء الله ، وهي تقوم بانجاز واجباتها على أفضل وجهٍ وفقاً لهذا الوحي الإلهي ، فقد تختار صخور الجبال ، أو بطون الكهوف لبناء بيوها ، وتضع الخلية بين أغصان الأشجار أحياناً ، وقد تستخدم الخلايا الاصطناعية التي يصنعها الإنسان لها على القصب ، أو أئمَّها هي التي تقوم ببناء البيت على القصب.

إنَّ الفاظ الآية تدلُّلُ جيداً على أنَّ بناء البيت هذا ليس بناءً عادياً وإنَّما عبرَ عنه القرآن بالوحي ، وسنرى عاجلاً أنَّ الأمر هكذا.

\* \* \*

وفي الآية الثانية توجَّه نحو صناعة عسل النحل مضيفاً : أنَّ الله قد أوحى لها أن تأكل من جميع الشمار : **﴿ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ﴾** «وأقطعني الطرق التي يَسِّرُها وسخَّرها لكِ رِبُّكِ لتكوين العسل الحلو» : **﴿فَاسْلُكِي سُبُّلَ رَبِّكِ ذُلْلًا﴾**.  
**«سُبُّلٌ»** : جمع «سبيل» وتعني «الطريق اليسير» <sup>(١)</sup>.

وهنا : ما المقصود من هذه السُّبُّل في الآية أعلاه؟ لقد أبدى المفسرون احتمالات

مختلفة :

فقال بعضهم : المقصود هي الطرق التي يطويها النَّحلُ نحو الأزهار ، والتعبير بـ «ذُلْلٌ» (جمع «ذلول» وتعني التسليم والطاعة) <sup>(٢)</sup> يدلُّ على أنَّ هذه الطرق تُعَيَّنَ بدقةٍ بحيث يكون ارتياها سهلاً وعادياً للنحل ؛ وتحتَّمُ دراساتُ خبراء النحل هذا المعنى أيضاً ، فهم يقولون :

(١) كما أوردها الراغب في المفردات.

(٢) من الممكن أن تكون «ذللاً» حالاً لـ «سبيل» ، أو لـ «النحل» ، ويبدو أنَّ الاحتمال الأول أكثر صحةً.

تخرج مجموعة من النحل مكلفةً بتشخيص مكان الأزهار صباحاً ، من الخلية ، وبعد اكتشاف المناطق الملائمة بالأزهار ترجع ، وتعطي للباقي العنوان الكامل لذلك المكان بشكلٍ سريٍ ومدهش ، وقد تشخصُ الطريق بوضعها علاماتٍ عليه مكونة من موادٍ ذات رائحةٍ خاصةٍ ، وبنحوٍ لا تضل أية نحلة باتباعها.

وقال بعضهم الآخر أيضاً : إن المقصود هو طريق العودة إلى الخلية ، لأنَّ النحل قدْ يُجبر على قطع مسافاتٍ طويلةٍ ، ولا يبتلى باليه عند عودته ، فهو يتوجه نحو الخلية بدقةٍ ، بل وأنه يعثر على خليته بيسيرٍ من بين عشرات الخلايا المشابهة.

وقال آخرون : إنَّ «السبيل» هنا لها معنى مجازيٌّ فهي تشير إلى الأساليب التي يتبعها النحل لإعداد العسل من رحى الأزهار ، فهي تختص رحى الأزهار بنحوٍ خاصٍ ترسّله «حوصلتها» وهناك حيث تكون كمحاتٍ للمواد الكيميائية يتبدل إلى «عسل» من خلال التغييرات والتطورات التي تجري عليه ، ثم يستخرجه النبورة من حوصلته.

أجل .. إنَّه يعرف الأسلوب اللازم لإجراء هذا العمل جيداً ، من خلال أمرٍ إلهيٍّ فيسلكُ هذا الطريق بدقةٍ.

ونظراً إلى أنَّ هذه التفسيرات الثلاثة لا تتعارض فيما بينها وكون ظاهر الآية عاماً ، فيمكن القول : بشمل جميع هذه المفاهيم ، إذ يقطع النحل هذه الطرق الملتوية والمنحنية بالاستفادة من الشعور الذي منحه الله له ، أو باللهم الغريزي ، ويستخدم هذه الأساليب بكل مهارةٍ واقتدار.

وفي المرحلة الآتية أشار إلى صفات **﴿العسل﴾** وفوائده وبركاته قائلاً : **﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطْنِنَاهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾**.

وقد حَمَل بعضهم التعبير بـ «بُطْنُونِ» (جمع بطن) على معنى مجازيٍّ وقالوا : إنَّها تعني الأفواه ، وقالوا إنَّ العَسل الذي هو رحى الأزهار مخزون في فم النَّحل ثم ينتقل إلى الخلية (١).

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٦ ، ص ٣٧٢

بينما يعتقد بعضهم أن العسل هو فضلات النحل !

ويعتبره بعضهم الآخر من المسائل الخفية التي لم تُكتشف لحد الآن <sup>(١)</sup> .

ولكن بحوث العلماء برهنت على عدم صواب أيٍّ من هذه الآراء . كما أشرنا . ، بل

إن النحل يُرسّل رحique الأزهار إلى مكان خاصٍ في جسمه يسمى «الحوصلة» وبعد أن يجري عليه تغييرات وتطورات يقذفه خارجاً من فمه <sup>(٢)</sup> .

والتعبير بـ «بُطون» شاهدٌ على هذا المعنى ، واجلى منه التعبير بـ «كلي» ، لأنَّ

العرب لا يقولون لحفظ الشيء في الفم «أكل» أبداً ، وحمل هذه الجملة على المجاز تفسير مجازٍ لا ضرورة له .

وأَمَّا المقصود من «ألوان مختلفة» هنا فهي ذات تفاسير متباعدة أيضاً ، فقد اعتبرها

بعضهم بمعنى هذا «اللون» الظاهري الذي يتفاوت فيه العسل ببعضه أبيضٌ شفاف ،

وبعضٌ أصفر ، والآخر أحمر اللون ، وبعضه يميل إلى السواد ، ويمكن أن يكون هذا التباين

مرتبطاً باختلاف أعمار النحل ، أو مصادر الأزهار التي يتغذى عليها ، أو كليهما .

وقد احتمل أيضاً أن يكون المقصود من هذا التفاوت (نوعية) العسل ، وبعضٌ غليظ

، وبعضٌ خفيف ، أو أنَّ عسل الأزهار المختلفة له آثارٌ ومزايا مختلفة أيضاً ، كما يختلف

العسل العادي كثيراً عن «الشهد» (العسل الخاص الذي يُصنع لملكة الخلية) ، لأنَّ المشهور

أنَّ لـ «الشهد» قيمةً من الناحية الغذائية بحيث يزيد كثيراً في عمر الملكة ولو تمكّن الإنسان

أن يتغذى عليها فإنّها تترك أثراً عميقاً في طول عمره .

وفي بعض البلدان هناك حدائق من ورود متباينة حيث تُنصب فيها الحلايا الخاصة

بالنحل ، وبهذا تُستخلص أنواع مختلفة من العسل كلٌ منها مستخرج من زهرٍ خاص ،

ويتمكن الراغبون من شراء العسل من الورد الذي يرغبونه ، وبهذا نواجه ألواناً مختلفة من

(١) وفي تفسير القرطبي ينقل عن اسطو أنه صنع خليةً من الزجاج كي يرى كيفية صناعة العسل غير أنَّ النحل كان يُعَتمَّ الزجاجة لكي لا يكشف السر حينما يريد مزاولة عمله (المصدر السابق ليري) .

(٢) تربية النحل ، محمد مشيرى ، ص ١١٣ ؛ وكتاب نظرة على الطبيعة وأسرارها ، ص ١٢٦ .

العسل تدخل في المفهوم الواسع والعام للآية.

والتعبير بـ «شراب» جاء لأنَّ العرب لا يستخدمون لفظ «أكل» بخصوص العسل كما يقول بعض شرّاح لغة العرب ، ويُعبر عنه بالشرب دائمًا (ولعلَّه بسبب أنَّ العسل في تلك المناطق يكون خفيًا) <sup>(١)</sup>.

وفي الختام أشار إلى تأثير العسل في العلاج قائلاً : **﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾**.

والتعبير بـ «شفاء» بصيغة النكرة ، إشارةً إلى أهميَّته الفائقة ، وكما سيأتي في التوضيحات إن شاء الله ، فللعسل الكثير من المزايا العلاجية الجاهزة التي تحتوي عليها الأزهار والنباتات الطبية الموجودة على الكرة الأرضية ، وقد ذكر العلماء لا سيما في هذا العصر خصائص عديدة له تشمل الجانب العلاجي وجانِب الوقاية من الأمراض أيضًا. فللعسل تأثيرات مذهلة في علاج الكثير من الأمراض وهذا يعود إلى الفيتامينات والمواد الأساسية التي يحتويها ، حيث يمكن القول : (إنَّ العسل يخدم الإنسان علاجيًّا وصحيًّا وجماليًّا).

وفي نهاية الآية أشار إلى الجوانب الثلاثة الآنفة (بناء خلية النحل ، طريقة جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل ، وخصائصه العلاجية) فيقول : **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**.

وعليه ففي كل مراحل حياة النحل ، واستخراج مصوّل هذه الحشرة الذكية والمتّابرة ، تظهر للعيان آيةٌ بل آياتٌ لعلم وقدرة الخالق جلَّ وعلا الذي ابتدأ مثل هذه الظواهر المذهلة.

\* \* \*

### توضيحات

#### ١. حضارة النَّحل العجيبة!

مع اتساع علم الحيوان وعلم الاحياء والدراسات المستفيضة للعلماء تم اكتشاف

(١) تفسير روح المعاني ، ج ١٤ ، ص ١٦٨.

مسائل عجيبة وحديثة عن حياة هذه الحشرة الصغيرة أذهلت الإنسان بشدة ، ولا يصدق أبداً بأن يسود حياة النحل مثل هذا النظام والتدبير والتخطيط بلا أي احساسٍ طبيعيٍ. يقول أحد العلماء المختصين بعلم الاحياء ويدعى «متلينغ» الذي كانت له دراسات كثيرة على مدى سنوات طويلة حول حياة النحل ، والنظام العجيب الذي يحكم مالكها يقول : «إنَّ الملكة في مدينة النحل ليست هي الزعيم كما نتصورها ، بل هي كسائر أفراد هذه المدينة تخضع لسلسلةٍ من القوانين والأنظمة العامة أيضاً».

ثم يضيف : «نحن لا نعرف مصدر هذه القوانين وبأية طريقةٍ توضع ، ونحن ننتظر اليوم الذي نتوصل فيه إلى معرفة واضع هذه المقررات ، إلَّا أننا نطلق عليه حالياً اسم «روح الخلية» ، ولا ندري أين تكمن «روح الخلية» وفي أيٍ من سكان الخلية حلَّ ، إلَّا أننا نعرف أنَّ الملكة كالآخرين تعطي روح الخلية أيضاً»!

«إنَّ روح الخلية لا تشبه غريرة الطيور ، ولا تعمل بالآلية وإرادة عمياء ، فهي تشخص تكليفَ كلٍّ واحدٍ من سكان هذه المدينة العملاقة حسب قابلية وتعطي لكلٍّ منها واجباً ، فقد تأمر مجموعةً ببناء البيت ، وأحياناً تُصدر أمراً الرحيل والهجرة»

«والخلاصة إننا لا نستطيع إدراك أنَّ قوانين مملكة النحل التي توضع من قبل روح الخلية هل ستطرح في «مجلس شورى» ويُصادق عليها ويُتخذُ القرار بتنفيذها؟ ، ومن الذي يُصدرُ أمراً الحركة في اليوم المحدَّد؟؟! (١)

إلا أنَّ القرآن الكريم أعطى جواباً لجميع هذه التساؤلات بتعبيرٍ جميلٍ ودقيقٍ جدًا إذ يقول : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾!

وهو نفس التعبير الذي ذكره بخصوص الأنبياء (عليهم السلام) ، صحيح أنَّ هذا الوحي يختلف عن ذلك الوحي كثيراً ، إلَّا أنَّ تناسق التعبير دليلٌ على أهمية العلم الذي أودعه الله لدى النَّحل ، كي يدعو مفكري العالم إلى دراسة أوضاعها. فمن المسلم به أنَّ بناء خلية النحل يجري بالهَامِ المَيِّ ، لأنَّها تبني تشكيلاً سداً ساسياً

(١) كتاب النحل ، تأليف متلينغ ، ص ٣٥ و ٣٦ مع الاختصار.

منظمة واسعة من كمية قليلة من الشمع (حيث يمكن استغلال جميع زواياه ويكون مقاوماً أمام الضغط أيضاً) وتكون بيوتها من طبقتين ، وعندما تبني بيتاً في الجبال أو على الأشجار فهي تقتصر على هاتين الطبقتين لأنهما تضيف طبقتين اخريين في الحاليا الاصطناعية وما يمكن استيعابه منها.

ويتخذ قعر البيت شكلاً هرمياً حيث يتتألف من ثلاثة سطوح لوزية الشكل ويغور الرأس والأجزاء البارزة بكل طبقةٍ في قعر الطبقة السفلية .

وقد أثبتت التجارب أنه لو كان سطح الشمع مربع الشكل أو باي شكل آخر وصُبَّ في قوالب اصطناعية ووضع النحل في داخله فسوف لا يرتضي مثل تلك الجدران غير المطابقة للمواصفات ، بل يرفع الجدران إلى الأعلى ويعيدها إلى وضعها الصحيح .

لقد قاسَ أحد العلماء ، قعر بيت النحل ، فكانت زاويته الكبيرة تقدّر ب ١٠٩ درجة و ٢٨ دقيقة ، ثم طرحت هذه المسألة على مهندس الماني كبيرٍ يُدعى «كنيك» كسؤال عامٍ بأن لو أراد إنسان بناء هرم بأقل كميةٍ من مواد البناء وبأكبر ظرفية بحيث يتشكل من ثلاثة سطوح لوزية فما مقدار زواياه؟ .

فقام بحل هذه المسألة المعقّدة بالاستعانة بحساب «ديفرانسيل» وكتب في الجواب ، مائة وتسعة درجات وستة وعشرين دقيقة بدون علمٍ منه بأنَّ هذا يرتبط ببيت النحل ومتفاوت معه بدققتين فقط.

ثم تلاه مهندسٌ آخر يُدعى «ماغ لورن» فاجرى حساباتٍ دقيقةً وتأكدَ بأنَّ تلك الدققتين كانتا نتيجةً لاهال المهندس الأول ، والجواب الصحيح كما في عمل النحل»!<sup>(١)</sup> ينقل العالم البلجيكي المعروف «متر لينع» في كتاب «النحل» عن أحد العلماء ويندّعى «رأيت» ما يلي : لدينا ثلاثة طرق علمية فقط في الهندسة لتقسيم الفوائل المنظمة وربطها وتكون الأشكال الكبيرة والصغيرة ، وهذه الطرق الثلاثة عبارة عن (المثلث القائم الزوايا) و (المربيع) و (المسدس) وتستخدم الطريقة الثالثة أي «المسدس» في بناء غرف النحل

‘

(١) تفسير روح الجنان هامش المرحوم الشعراوي ، ج ٧ ، ص ١٢٣ «مع شيء من الاختصار».

وهذا الشكل أكثر ملاءمةً لاستحكام البناء (لأننا لو دققنا قليلاً نجد أنَّ الشكل السادس يشبه الأقواس من جميع الجهات حيث يمتلك الحد الأقصى لمقاومة الضغط ، بينما تتضرر المثلثات والمربعات أمام الضغط كثيراً).

بالإضافة إلى أنَّ جسم النحل اسطواني الشكل تقريباً ويتألم كثيراً مع الخروج والدخول في مثل هذه البيوت.

على أية حالٍ ، كلما تحققنا بخصوص ما أشار إليه القرآن الكريم في مسألة بناء بيت النحل نحصل على مسائل عجيبةٍ جديدة ، تجعلنا نعزم خالق ومبدع ومربي هذه الحشرة العجيبة.

\* \* \*

## ٢ . جمع رحى الأزهار وصناعة العسل

الأمر الثاني الذي استند إليه القرآن هو جمع العسل من رحى الأزهار ، وهو من المسائل المدهشة والمحيرة حقاً.

يقول بعض العلماء : يجب أن ت ATF ٥٠ الف نحلة من أجل إعداد كيلو غرام واحد من العسل !.

وتؤكد حسابات العلماء أيضاً أنه من أجل إعداد كيلو غرام واحد من الرحيق يجب أن يمتص النحل سبعة آلاف وخمسمائة زهرة كمعدل ويستخرج رحىها (وطبقاً لهذه المعادلة يجب امتصاص ٥ ، ٧ مليون زهرة لإعداد كيلو غرام واحد من العسل !) <sup>(١)</sup>.

ولابد أن نعلم أيضاً أنَّ النَّحل يسافر يومياً حوالي ٢٤ . ١٧ مرتة من أجل جمع رحى الأزهار .

ولا عجب أن نعلم أنَّ النَّحل لم يذق طعم الراحة طول عمره ، وأنَّه لا يرى النوم أبداً ، فهو يقطُّ طول عمره ! <sup>(٢)</sup>.

(١) تربية النحل ، ص ١١٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٥ .

ومن أجل أن ندرك العمل المرهق لهذه الحشرة الكادحة يجب أن نقول اللهم يتعين على النحل أن يسافر ٨٠ ألف متر ذهاباً وإياباً على الأقل من أجل كل أربعين غرام من العسل الذي يحصل عليه ، ولو ربطنا هذا الذهاب والإياب معاً وقدرنا مسافة كل متر (كمعدل) بكيلو متر واحد ، ستكون المسافة التي يقطعها النحل من أجل الحصول على أربعين غرام من العسل تعادل ضعف محيط الكرة الأرضية ، أي أن هذه الحشرة الكادحة تقطع مسافة ما يعادل ضعف محيط الكرة الأرضية من أجل جمع شراب يُصنع من أربعين غرام من العسل !

(١).

ومن الضروري الانتباه إلى هذه النكتة وهي أن معظم الأزهار لا تمتلك الرحيق باستمرار كي يستطيع النحل امتصاصه ، بل إنها تقدم رحيقها مرتاً واحدةً في اليوم وفي ساعات معينة تتبع نوع الزهرة ، فبعض الأزهار تعطي رحيقها صباحاً ، وبعضها ظهراً ، وبعضها الآخر بعد الظهر ، والعجيب أن النحل يعرف هذه البرامج جيداً فيتوجه نحو الأزهار وفقاً لها تماماً فلا يذهب وقته هدرأ !<sup>(٢)</sup>.

وحرى بالإنسان أن يحصل عندما يشاهد هذه الأرقام والأعداد في مجال جمع العسل وعدد مرات الطيران وعدد الأزهار المستهلكة من أجل غرام واحد من هذه المادة الغذائية المهمة ، ولكن لو فكر بامان في نفس الوقت بعظامه خالق هذه الحشرة الكادحة وتحمّق بعلمه وقدرته لخضع امامه مؤدياً شكر هذه النعمة ، ويمكن أن يكون كل ذلك مقدمةً لهذه الغاية السامية.

والنكتة الأخيرة التي يجب أن نذكرها ونغلق هذا الملف الكبير قبل أن نخرج عن مضمون البحث التفسيري ، هي أن النحل علاوة على امتصاصه للرحيق فهو مكلّف بجمع «الحبوب الصفراء» للأزهار المسماة «بولن» ومزجها مع العسل.

ولهذه الحبوب آثار حياتية فائقة ، فهي تحتوي على ٢١ نوعاً من حامض الامونيك

(١) عالم الحشرات وفقاً لنقل عجائب الخلق ، ص ١٤٣.

(٢) الحواس الخفية للحيوانات تأليف فيتوس دروشر ، ص ١٥٧ (مع الاختصار).

وأنواع الزيوت ، وهو موئنات النمو ، والسكر ، والانزيمات ، كما تستخدم عصارة الحبوب تلك في معالجة الالتهابات والآورام المزمنة التي تعجز المضادات الحيوية عن علاجها ، كما أنّ لها آثاراً منشطة أيضاً<sup>(١)</sup>.

وللأرجل الخلفية للنحل نتوءات كأسنان المشط يشير بها غبار الأزهار ، ويصنع منه ذرات كروية ، وهنالك أيضاً إلى جانب تلك النتوءات ما يشبه «السلة» وآخر يشبه «الملقط» حيث يجمع ذرات غبار الورد هناك ويحفظها ، وحينما يعود إلى الخلية يجلب معه بالإضافة إلى رحيق الأزهار كرتين صفراوين كانتاج لعمله اليومي<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

### ٣ . العسل غذاءٌ مفیدٌ ودواءٌ شافٍ

لقد تحدث القرآن الكريم في الجزء الثالث من الآيات المذكورة عن مسألة التأثير المهم للعسل في شفاء المرضى بتعبير مختصر وعامض ويتم في هذا العصر كشف النقاب عن أسراره من خلال دراسات المختصين بعلم الغذاء ، إذ يذكر هؤلاء مزايا وآثاراً لا تُحصى للعسل تبعث على دهشة الإنسان.

فهم يقولون : إنَّ العسل مادةٌ لا تفسد أبداً وتبقى صالحةً لآلاف السنين فيما إذا كان صافياً ، لأنَّ أي مكروب لا يمكنه أن يعيش فيه أبداً<sup>(٣)</sup>.

وقد عُثِر في قبور الفراعنة على ظروفٍ من العسل تعود إلى آلاف خلت من السنين ، وقد بقي هذا العسل صالحاً وطبيعياً بشكل كامل ، وهذا بحد ذاته دليلٌ على صدق الادعاء أعلاه.

العسل ونظراً لأنَّه يُستخرج من رحيق الأزهار المختلفة (ونحن نعلم أنَّ كل نوع من

(١) الجامعة الأولى ، ج ٥ ، ص ٥٧ إلى ٥٩ (مع الاختصار).

(٢) نظرة على الطبيعة وأسرارها ، ص ١٢٧.

(٣) مجلة السلام.

الأزهار يحتوي على موصفات علاجية خاصة) فيمكن أن يحمل معه صفات هذه الأزهار. يقول العلماء : يعتبر العسل مادةً حيّةً بسبب احتوائه على الفيتامينات و «الانزيمات» و «حامض الفورميك» فهو يحتوي على الفيتامينات : أ ، ب ، ث ، د ، ك ، آي ، مواد معدنية كالبتواسيوم ، والحديد ، والفسفور ، و «الرصاص» و «المغنيز» و «الالمنيوم» و «النحاس» و «الكربونات» و «الصوديوم» و مواد أخرى متفرقة ، وكذلك يحتوي على مختلف الحوامض <sup>(١)</sup>.

ونحن نعلم أنَّ لكلَّ من هذه المواد الحياتية دوراً أساساً في حياة الإنسان ، ولهذا فإنَّ العسل يحتوي على الموصفات الآتية :

يؤثر العسل في تركيب الدم.

للعسل أثرٌ جيدٌ في إزالة التعب وتقلص العضلات.

يحدُّ العسل من حدوث الالتهابات في المعدة والامعاء.

ويؤدي إلى أن يتمتع الوليد بجهازٍ عصبيٍّ متينٍ إذا ما تناولته المرأة الحامل.

والعسل مفيدٌ لمن لديهم جهازٌ هضميٌّ ضعيف.

ويعتبر العسل مُرْمِماً قوياً.

ويؤثر في تقوية القلب.

ويولدُ العسل طاقةً لا يأس بها لدى المسنّين.

ينفع لعلاج قرحة المعدة والثني عشرى.

ويغيدُ العسل لعلاج مرض الريو «ضيق التنفس».

ويعتبر عاملاً مساعداً في علاج الأمراض الرئوية.

ويعتبر دواء لعلاج مرض الروماتيزم ، وضعف نمو العضلات ، والمتاعب العصبية.

ويعدُّ العسل مفيداً للمصابين بالاسهال نظراً لميزته في قتل الجراثيم.

---

(١) الجامعة الأولى ، ج ٥ ، ص ١٢٩ (مع شيء من الاختصار).

وُتُصنَعُ منه أدوية تؤثِرُ في نعومة وجَمال الجلد وازالة الحروق والتجعدات.

وُتُصنَعُ من العسل دواء يعالج ورم الفم ويُعَطِّر التنفس.

ويُستَمِر العسل أَيْضًا في معالجة ذبَول الجلد ، والتشققات ، والحرُوق ، والرَّمَد ،

واللدغات المؤلِمة للحيوانات ، وورم العين ، والسعال.

وقد قام بعض العلماء بصناعة اقراصٍ من رحِيق الأَزهار تحتوي على مواصفاتٍ تشبه

مواصفات العسل واهم آثارها مضاعفة طاقة الشباب وتنشيط الخلايا ومن ثُمَّ يؤدِي إلى

الراحة وطول العمر <sup>(١)</sup>.

ولهذا فقد عُرِفَ أَنَّ «فيشا غورس» كان يوصي طلَابَه «كُلُوا العَسَلَ وَالْخَبْزَ مَا

استطعتم» وكان «بقراط» يقول : «لَوْ أَرْدَتُمْ عَمْرًا طُويَّلًا فَعَلَيْكُمْ بِالْعَسَلِ».

إِنَّ الآثار المنشَطة والخواص العلاجية والتَّرميمية للعسل أَكْثَرَ مَا تمَّ بحثه في هذا

المختصر ، حتى دَوَّنَ بعضُ العلماء كُتُبًا مستقلةً حول الميزات الغذائية والعلَاجية للعسل.

وقد جمع القرآن الكريم كلَّ هذه المطالب في جملة : «فِيهِ شَفَاءٌ لِلنَّاسِ» بشكل دقيق.

ولَا عَجَبٌ إِنْ كَانَتْ لَدْغَةُ النَّحْلِ وَالسَّمُّ الْمُوْجُودُ فِيهَا عَلَاجًا لِلَّكَثِيرِ مِنَ الْأَمْرَاضِ

أَيْضًا ، كَالرُّومَاتِيْزم ، وَالْمَلَارِيَا ، وَتَضَخُّمِ الْغَدَةِ الدَّرْقِيَّةِ ، وَأَلْمِ الْأَعْصَابِ ، وَبَعْضِ أَمْرَاضِ

الْعَيْنِ ، وَغَيْرِهَا ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ التَّدَاوِي بِوَخْرِ النَّحْلِ حَسْبَ بَرْنَامِجٍ خَاصٍ وَبِإِشْرَافِ

الْطَّبِيبِ ، فَمَثَلًاً فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مَرَّةً وَاحِدَةً ، وَفِي الشَّانِي اثْنَتَانِ ، وَحَتَّى الْيَوْمِ الْعَاشِرِ يَسْتَفَادُ

مِنْ عَشَرَةِ زَنَابِيرٍ ، وَتَلَكَ هِيَ الْمَرْحَلَةُ الْأَوَّلَى مِنَ الْعَلَاجِ ، وَأَمَّا فِي الْمَرْاحِلِ الثَّانِيَةِ فَيَتَّخِذُ الْعَلَاجُ

شَكَلًاً آخَرَ ، وَإِذَا تَجَاهَ وَخْرُ النَّحْلِ الْحَدَّ الْمَعِينَ فَمِنَ الْمُمْكِنِ طَبِيعًا أَنْ تَتَمَخَّضَ عَنْهُ أَخْطَارٌ

كَمَا أَنَّ قَلِيلًاً مَضَرُّ بِالْأَشْخَاصِ الَّذِينَ لَدِيهِمْ حَسَاسِيَّةٌ اِبْتَاهِهِ.

لَقَدْ كَتَبَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مَقَالَةً أَوْ مَقَالَاتٍ بِهَذَا الْخَصْصُوصِ ، وَاخْتَارَ بَعْضُهُمْ رِسَالَتَهُ

لِلْدَكْتُورَاهُ تَحْتَ عَنْوَانَ «مُسْتَخْرِجَاتٌ سَمِّ النَّحْلِ وَخَوَاصِهَا الْعَلَاجِيَّةِ» <sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

(١) الجامعة الأولى ، ج ٥ ، ص ٢١٢ . ٢٩٠ . نشرة الطب والدواء وكتب أخرى.

(٢) المصدر السابق ، ص ١٧٤ .

#### ٤ . خدماتٌ أخرى للنحل أثمن من العسل !

إنَّ حياة النحل مليئةٌ بالعجائب والاحداث ، وما تحدثنا عنه لحد الآن كان جانباً منها ، فقصة بناء الشمع . تلك المادة التي يُشيد منها بيت النحل بشكلٍ كامل . بحد ذاتها قصةٌ مفصلةٌ ، والعجيب أَنَّها لا تستثمر هذا الشمع لبناء البيت فقط ، فقد تقوم بتحنيط أجساد الحشرات المؤذية التي لا تستطيع دفعها إلى الخارج كي تأمن شرّها !

يقول أحد خبراء النحل : أنه لفت انتباهه في أحد الأيام وجود كرة كبيرة نسبياً داخل خلية نحل ، وعندما فتحها وجد فيها جثة جرادةٍ حنّطها النحل .

وقال بعضهم عن الشمع ، أنه روح العسل والعلل روح الزهر وهو خفيف ، بحيث إنَّ وزن خمسمائة بيت من مدينة النحل لا يتجاوز بضعة غرامات ، ولا شك في صعوبة معرفتنا بكيفية ترشح هذا الشمع بالنسبة للنحل ، غير أنها نعرف جيداً أنَّ للشمع استعمالاً هاماً .

وعملية تلقيح وحمل الأزهار ، من أهم أعمال النحل .

يقول أحد العلماء : «لولا وجود الحشرات ، لخلت سلالتنا من الفاكهة ، لأنَّ الحشرات التي تستفيد من الأزهار يمكن أن تلقيها أفضلاً من بقية عوامل نقل حبوب اللقاح ، فعندما تُدخل أحدى الحشرات التي تعيشُ الأزهار خرطومها في الزهرة ، فهي إما أنْ تُدخل أغلبَه ، أو أنْ تُدخل جزءاً من جسمها في الزهرة كما يحدث غالباً ، وفي خروجها يتغطى جسمها بالغبار ذي اللون الأصفر وهو غبار الورد ، فتنقله مباشرة إلى زهرة أخرى . وكما نعلم . أن غبار الأزهار عاملٌ مؤثرٌ فلا تبدل البذور إلى حبوب ، ولا المبيض إلى ثمار بدونه .

وهذه النكتة جديرةٌ بالاهتمام من الناحية الفلسفية إذ إنَّ الحشرات التي تعيشُ الأزهار تميل إليها منذ بدء التكوانين ... كلٌ منها بموازاة الأخرى ، ينمو ويتکامل ، وقد وصل الحال بهااليوم إلى عدم قدرتها على الحياة منفصلة عن بعضها ... ومن أهم الحشرات التي تعيشُ الأزهار . ولا بد أنكم تعرفونها . هي : الفراشة ، والنحل ، والزنبور الذهبي و ... لكن النحل أكثر استعداداً وتجهيزاً من بين هذه الحشرات لـ اخراج الغبار والرحيق من الأزهار» <sup>(١)</sup> .

(١) نظرة على الطبيعة وأسرارها ، ص ١٢٦

ومن الضروري الانتباه إلى أنَّ الأشجار التي تحتوي على الأزهار الذكورية والأنثوية صنفان : الأشجار العقيمة غير المثمرة ، والأشجار المثمرة التي لها القدرة على ذلك. ومن أجل تكون الشمار في الصنف الأول لابد من وجود واسطةٍ للتلقيح ، وهذه الواسطة عبارة عن النحل ، وقد ثبتَ أنَّ ٨٠٪ من عملية تلقيح الأزهار يجري عن طريق النحل ، ومن أجل المزيد من الاطلاع على دور النحل يجب الانتباه إلى أنَّ جميع أنواع التفاح ، والاجاص ، والكرز ، واللوز وأمثالها تعتبر من الأشجار العقيمة! وقد واجهت المساعي التي بذلت بقصد إجراء التلقيح بالطرق الكيميائية والميكانيكية والاصطناعية فشلاً ذريعاً ، ومن هنا يتضح دور النحل <sup>(١)</sup>. ويضيف العلماء : «إنَّ النحل يساعدنا بكلفة لا تقل عن مائة الف درهم في الزراعة مقابل كل الف درهم من العسل والشمع الذي يصنعه لنا»! <sup>(٢)</sup>. ونختم هذا الحديث بجملة عجيبةٍ عن «متر لينغ» استاذ علم البيئة ، بقوله : «لو هلك النحل (سواء الوحشي منه أو الأليف) ، فسييفني مائة الفٍ نوع من النباتات والأزهار والشمار وما يدريك بأنْ لا تزول حضارتنا أصلاً»! <sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

## ٥ . البناء الجسمي للنحل عجيبٌ أيضاً!

إنَّ تركيب النحل ذاته ذو قصبةٍ طويلةٍ ومدهشةٍ وعيونها بالذات أكثرُ عجباً إذ يقول العلماء : تتألف عيون النحل من الفين وخمسين طبقة صغيرة! تشكّل مع بعضها زاوية من ٢٠ درجة ، وهذه العيون قادرةٌ على تعيين موقع الشمس فيما إذا حجبتها الغيوم ، عن طريق الأشعة فوق البنفسجية التي تؤثر فيها.

(١) تربية النحل ، ص ٢٣٣ و ٢٣٤ «مع الاختصار».

(٢) اقتباس عن عالم الحشرات.

(٣) الجامعة الأولى ، ج ٥ ، ص ٥٥.

لغة النحل وتشاورها مع بعضها تعد من الحقائق العلمية التي تم اكتشافها في السنوات الأخيرة أيضاً<sup>(١)</sup>.

إنَّ النحل لا يرى الأزهار الملونة بشكلها ولو أنها الذي نراه ، بل إِنَّه يرى بواسطة الأشعة فوق البنفسجية ، وهذا النور يضاعف في جمال الأزهار فيجدوها نحوها<sup>(٢)</sup>. وللأسف فإنَّ طبيعة البحث لا تسمح لنا بمزيد من الكلام في هذا المضمار ، ولكن يجب القول بأنَّه كَلَّما سمعنا عن هذه الحشرة ونشاطها التي أشار إليها القرآن الكريم تتكشفُ لنا أسرارٌ جديدة عن قدرة الإله العظيم خالق كلِّ هذه العجائب. و «مسك الختام» نَيِّمُ بساماعنا وقلوبنا صوب كلام الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَام يقول في توحيد «المفضّل» :

«انظر إلى النحل واحتشاده في صنعة العسل ، وتحيّة البيوت المسدسة وما ترى في ذلك اجتماعه من دقائق الفطنة فانك إذا تأملت العمل رأيته عجيبةً لطيفاً وإذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفاً موقعه من الناس ، وإذا رجعت إلى الفاعل فيته غبياً جاهلاً بنفسه فضلاً عما سوى ذلك ، ففي هذا أوضح الدلالة على أنَّ الصواب والحكمة في هذه الصنعة ليس للنحل بل هي للذي طبعه عليها وسخره فيها لمصلحة الناس ...»<sup>(٣)</sup>.

\* \* \*

(١) الحواس الخامضة للحيوانات ، ص ١٣٧ و ١٤٠ و ١٤٣.

(٢) سُرُّ خلق الإنسان ، ص ٩٣.

(٣) بخار الأنوار ، ج ٣ ، ص ١٠٨.

## ١٩ . آياته في خلق الحيوانات

تمهيد :

إنَّ الحيوانات تُمثل جانباً عظيماً من الموجودات الحيَّة في العالم ، وهي تجلب اهتمام كلِّ ناظِرٍ إليها لتركيبها المختلفة وشكلها المتنوعة وتأييدها الكثير ، وعجائبها العظيمة ، ودراسة كلِّ منها ، تُعرِّفُ الإنسان على العلم والقدرة اللامتناهية لخالقها. وتتجلى أهميَّة هذه المسألة عندما نرى هذه الحيوانات في مكانٍ واحدٍ ، فمثلاً لو ذهبنا إلى حديقة الحيوانات ، وزرنا غرفَ الأسماك وأنواع الطيور ، والقردة ، والأسد والفهد والنَّمر والزَّرافة والفيل ، وننظر عادات وعجائب خلقِ كلِّ منها ، فلا يمكن لمن يمتلك قليلاً من العقل والغطنة ، أن لا يغرق بتفكيره بها ، ولا يُدْعِنَ أمام خالق هذه الموجودات المتنوعة والعجبية.

ومن بين هذه الحيوانات ، هنالك حيوانات أليفة تخدم الإنسان وذات منافع وبركات مختلفة للبشر ، جديرةً بالاهتمام أكثر من غيرها ، لهذا فقد استند القرآن الكريم في آياته التوحيدية إلى جميع الدواب بشكلٍ عام وإلى الأنعام والبهائم بشكلٍ خاص ، وذكر جوانب من عجائبها في آياتٍ عديدة.

بهذا التمهيد نُمعن خاشعين في الآيات الآتية :

- ١ . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ ذَابَةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ . (الشُّورى / ٢٩)
- ٢ . ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ \* وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبْثُ مِنْ ذَابَةٍ﴾

- آيات لِّقَوْمٍ يُؤْقَنُونَ ﴿٣﴾. (الجاثية / ٣ . ٤)
- ٣ . ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْأَيْلِ كَيْفَ خُلِقُتُمْ﴾. (الغاشية / ١٧)
- ٤ . ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لِعِبْرَةً نُسْقِيْكُمْ مَمَّا فِي بُطُونَهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾. (المؤمنون / ٢١ . ٢٢)
- ٥ . ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لِعِبْرَةً نُسْقِيْكُمْ مَمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا حَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ﴾. (النحل / ٦٦)
- ٦ . ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بَيْوِتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ ظَعِنْكُمْ وَيَوْمَ إِقَامِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينِ﴾. (النحل / ٨٠)
- ٧ . ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفُ الْوَانُهُ كَذَلِكَ أَنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَفُورٌ﴾. (فاطر / ٢٨)
- ٨ . ﴿أَوْلَمْ يَرَوَا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مَمَّا عَمِلْتُ أَيْدِيهِنَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَا لَكُونَ \* وَذَلِكُنَا هَا لَهُمْ فَمِنْهَا رُكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ \* وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَشَارِبُ افْلَى يَشْكُرُونَ﴾. (يس / ٧١ . ٧٣)
- ٩ . ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْزُواجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ \* لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾. (الزخرف / ١٢ . ١٣)
- ١٠ . ﴿الَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكِبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ \* وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَلَتَبَلُّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ \* وَبُرِيْكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾<sup>(١)</sup>. (غافر / ٧٩ . ٨١)

\* \* \*

(١) هالك آيات اخرى في هذا المجال أيضاً مثل : الشعاء ، ٣٣ ؛ والانعام ، ١٤٢ ؛ والزمر ، ٦ ؛ والزخرف ،

### شرح المفردات :

«دَابَّة» : كما قلنا سابقاً من مادة «دب» أي السير ببطء وهدوء ، إلأكها تُطلق عادةً على جميع الحيوانات ، وعلى المذكر والمؤنث وال موجودات التي تَدُبُّ على الأرض وحتى طيور السماء ، وجمعها «دواب» وتعني البهائم.

وقد تستعمل أحياناً بقصد نفود وحلول شيءٍ في موجود آخر ، فيقال مثلاً : دب الشراب في الجسم ودب السُّقم في البدن.

وهذا المفهوم يشمل حتى الإنسان ، وموارد استعماله في القرآن الكريم تشهد على ذلك <sup>(١)</sup>.

«انعام» : جمع «نعم» (على وزن قَلَم) وهي ماخوذة في الأصل من مادة «نعم» ثم اطلقت على «الجمل» ، لأنَّ الجمل كان من أفضل النعم لدى العرب ، ويُطلق هذا اللفظ على الدواب الأخرى كالبقر والماشية بشرط أن يكون الجمل جزءاً منها <sup>(٢)</sup>.

وصرَّح رهطٌ من أرباب اللغة أنَّ «النعم» ذات معنى جمعي ولا مفرد لها ، و «انعام» جمع الجمع <sup>(٣)</sup>.

يقول «ابن منظور» في «لسان العرب» : إنَّ «النعم» تعني الحيوان الجتر ، ثم ينقل عن آخرين أنَّ «النعم» تُقال بخصوص الجمل ، وعن بعضهم الآخر أكها تُطلق على الجمال والماشية.

وسميت «النعم» بهذا الاسم لأنَّها تشبه «البعير» كثيراً لضخامة جسمها ، ولذلك اطلقت على ظلال الجبال وغيرها ، أو الأعلام التي تُثبت في الصحاري لتحديد الطريق. على أية حال .. مهما كان المعنى الأول للفظ «انعام» فهو يطلق في الاستعمالات العادية على الحيوانات الجترة (البقر والأغنام والجمال).

(١) لسان العرب ، مفردات الراغب ، وجمع البحرين مادة (دب).

(٢) مفردات الراغب.

(٣) جمع البحرين ، وأقرب الموارد.

## جمع الآيات وتفسيرها

### ماذا يجري في عالم الحيوانات؟

بعد الإشارة في الآية الأولى والثانية إلى آيات الله في خلق السماوات والأرض ، وكذلك خلق الإنسان أشار إلى خلق كافة الحيوانات الموجودة في السماوات والأرض ، قائلاً ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ .

«بَثَ» : تعني في الأصل تفريق الشيء كما يُفَرِّقُ الماء الاتربة ، وهذا التعبير في الآية يعني تكوين وخلق وابراز الموجودات المختلفة ، ونشرها في مختلف المناطق.

على آية حال .. فإنَّ هذا التعبير يشملُ جميع البهائم والحيوانات والإنسان ، ابتداءً من الموجودات المجهريَّة التي تتحرك حركةً دقيقةً وخفيةً وحتى الحيوانات العملاقة التي يبلغ طولها عشرات الأمتار وقد تزن أكثر من مائة طن<sup>(١)</sup> ويضم كلَّ أنواع الطيور ومئات الآلاف من أنواع الحشرات المختلفة ، وآلاف الآلاف من أنواع الحيوانات الوحشية والأليفة والحيوانات المفترسة والزواحف والأسماك الصغيرة والكبيرة والموجودات الحية في البحر.

ولو تأملنا قليلاً في سعة مفهوم «دابة» وشموله بالنسبة لجميع أنواع البهائم لتجسد أمامنا عالمٌ من العجائب والغرائب ومناظرٌ من القدرة ، حيث يكفي كلُّ منها أنْ يُعرَفَنا على علم وقدرة الخالق العظيم لهذا الخلق.

لقد دُوّنت الملايين من الكتب وبمختلف اللغات حول خصائص بناء وحياة أنواع الاحياء ، واعدُوا الكثير من الاشرطة المصورة في هذا المجال ، واصدروا مجلات مختلفة وبلغاتٍ متباعدة بخصوص هذا الموضوع ، حيث تجعل مطالعتها الإنسان يغرقُ في بحرٍ من

(١) يصل وزنُ بعض الحيتان إلى مائة وعشرين طناً ، وكما يقول صاحب كتاب «نظرة على الطبيعة وأسرارها» (البروفسور ليون برتن) فإنَّ هذا الوزن يعادل وزن الفِي وخمسين رجلاً ضخم الجثة! أو أربعين وعشرين فيلاً ضخماً! وقد أجريت حساباتٍ على وزن أعضاء جسمها : فقلبه يزن ستمائة كيلو غرام ، والدم يزن ثمانية آلاف كيلو غرام ، والرئتان طناً واحداً ، والعضلات خمسين طناً ، والجلد والعظام والامعاء والاحشاء تزن ستين طناً .

العجائب والغرائب ، وقد أزالت المساعي التي بُذلت من قبل العلماء على مدىآلاف السنين لمعرفتها ، الحجاب عن جانب واحدٍ فقط من حياتها ، ومن المسلم به أنَّ المستقبل سيشهد في كل يوم انكشاف اسرارٍ جديدة من حياتها.

فبعض العلماء قضى عشرين عاماً من عمره لدراسة حياة النمل فقط ، وإذا أرادوا دراسة حياة كافة أنواع الحيوانات بهذا الاسلوب فمن غير المعلوم أنْ يكفي عمر البشرية لمعرفة أسرارها.

والحدير بالذكر أنَّ ما نتحدث عنه هو الكائنات الحية الموجودة في الأرض ، بينما يستفاد من تعبير «فيهما» (في السماء والأرض) أنَّ هنالك أحياء كثيرة في السماوات أيضاً ليست في متناول دراسات علمائنا ، وربما يعثر الإنسان على موجوداتٍ حيةٍ عجيبةٍ وغريبةٍ أخرى في باقي الكواكب من خلال الرحلات الفضائية حيث يصعب علينا الآن تصور شكلها ومواصفاتها.

وقال بعض المفسّرين إنَّ المقصود من حيوانات السماوات هي الملائكة ، بينما لا يُطلقُ كلمة «دابة» على الملائكة ويعتقد بعضهم أيضاً بعدم وجود أيٍّ كائنٍ حيٍّ في السماوات غير الملائكة ، وقد ذكروا تبريرات وتفاصيل أخرى للاية ، بينما يتضح هذا المعنى لدينا اليوم إذ إنَّ الكائنات لا تقتصر على الكورة الأرضية فقط ، وكما يقول العلماء هنالك ملايين الملايين من الكواكب في هذا الفضاء الفسيح يمكنُ السكنُ فيها من قبل الدواب والحياء.

والحدير بالذكر أيضاً أنَّ الحيوانات لا تعتبر آية من آيات الله في خلقتها وطراز حياتها وحيوانها المختلفة فحسب ، بل لفوائدها العديدة وخيراتها الكثيرة التي تفيض بها على الإنسان.

وإذا قال : **﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقَنُونَ﴾** فهو إشارة إلى الذين لديهم الاستعداد لقبول الحق والإيمان ولم يقصد المعاندين والمتكبرين والأنانيين.

\* \* \*

ويقول في الآية الثالثة من البحث بصيغة استفهام توبيخي : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ  
كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.

واللطيف أنّه تمت الإشارة بعد ذلك إلى عظمة خلق السماء ، ثم الجبال ومن بعدها الأرض ، فوضع الإبل إلى جانب هذه الأشياء ، يُعتبر دليلاً على أهمية خلق هذا الحيوان . إنّ التأمل في أوضاع هذا الحيوان ، يدلّ على أنّه ذو مواصفاتٍ متمايزة تجعله مختلفاً عن باقي الحيوانات الأخرى ، ويتبّع جيداً من خلال الانتباه إلى هذه المواصفات لماذا استند القرآن الكريم إلى هذا الموضوع بشكلٍ خاص ومن جملتها :

- ١ . إنّ مقاومة الجمل لا نظير لها ، لا سيما ازاء الجوع والعطش ، وشدة التحمل ، وقد يقاوم العطش وهو اصعب من الجوع لعشرة أيام أو أكثر ولهذا يعتبر أفضل وسيلة لقطع الصحراء القاحلة ، لذلك فقد اطلقوا عليه «سفينة الصحراء». لأنّه يتمكّن من حزن الغذاء والماء لعدة طوبيّة في بطنه ويقتصر في استهلاكه أيضاً.
- ٢ . لا يتقيّد بنوع خاصٍ من الغذاء في طعامه ، وغالباً ما يتغذى على كلّ ما ينمو في الصحراء.

٣ . والأعجب من ذلك أنّه يواصل طريقه شاقاً العواصف الترابية المليئة برمائ تعمي العيون وتضم الآذان ، وهو يستطيع سداً منخرقه مؤقتاً ، ويحافظ على اذنيه من الغبار ، ولعينيه هدبان يطبق أحدهما على الآخر في هذه الظروف ، وينظر من خلفهما ، وما قاله بعضهم بأنّ الجمل يسير مغمض العينين فانّ هذا هو المقصود.

حتى ذكر بعض المفسّرين إنّه يُحسن تشخيص الطريق في الليالي المظلمة أيضاً.

- ٤ . إنّ الحيوانات تتباين فيما بينها ، فبعضها يستفاد من لحمه ومنها ما يفيد في الركوب ، وبعضٍ يستفاد من لبنيه فقط ، وبعضها الآخر للحمل ، إلّا أنّ الجمل يجمع بين هذه الجوانب الأربع جميعها ، فيستفاد منه للركوب ولحمل الأمتنة ومن لبنيه وحمله ووبره.
- ٥ . ومن العجائب المتميزة لهذا الحيوان هي أنّ الحمل يوضع على ظهره أو يركب أثداء بروكه ، وينهض وبحركة واحدةٍ من مكانه ليقف على أرجله ، بينما تتعذر هذه القدرة لدى باقي الحيوانات.

وقد ذكر بعضهم أنَّ هذا يعود إلى القدرة العجيبة الكامنة في رقبته الطويلة التي تعمل طبقاً لقانون «الرافعة» الذي اكتشفه «ارخميدس» لأول مرة ، ( فهو يقول : لو وجدت نقطة للاتكاء خارج الكرة الأرضية لتمكنت برافعة ضخمة من تحريك هذه الكرة عن مكانها ! وهذا هو الواقع ، فطبقاً لقانون الرافعة أنَّ الضغط الوارد على أحد طرف الرافعة الذي يضرب في المسافة بينه وبين نقطة الاتكاء يوجد في الطرف الآخر للرافعة الاقرب إلى نقطة الاتكاء ضغطاً عظيماً ).

وانطلاقاً من هذا فإنَّ رقبة البعير تكتسب صفة الرافعة استناداً إلى نقطة ارتكازها المتمثلة في الأرجل الإمامية ومن خلال حركة سريعة وقوية تعمل على تخفيف الاحمال الموجودة على ظهر البعير وتسمح له باطلاق رجليه الخلفيتين وينهض من مكانه ! <sup>(١)</sup> . كلُّ هذا وعجائب ومواصفات اخرى أدت إلى أن يُستند إليه بوصفه آيةً من آيات الله العظيمة ، وليس فقط لأنَّ الجملَ كان من الأركان المهمة في حياة العرب الذين كانوا أول من خوطب بهذه الآيات.

فمنْ يستطيع أنْ يخلقَ كلَّ هذه العجائب والبركات في مخلوقٍ واحدٍ؟ ومنْ ثمَّ يجعلُه مطيناً للإنسان بحيث لو أَحَدَ طفلٌ صغيرٌ بعنانٍ قافلةً من الإبلِ لكان بقدوره أن يأخذه إلى المكان الذي يصبووا إليه ، والعجيب أنَّ الأنعام الموزونة «كالحدِي» تترك أثراً في نفسه أيضاً وتدفعه إلى الحركة بحيوية ونشاط وشوقٍ .

أوليس هذه آياتٌ عن عظمة وقدرة الخالق؟ أَجلٌ ؛ فاولئك الذين لا يمرون على هذه الآيات مرور الكرام باستطاعتهم أن يدركوا أسرارها (لا تنسوا أن جملة : **﴿إِنَّا لَنَاظِرُونَ﴾** من مادة «نَظَرٌ» إلَّا أَنَّها ليست النظر العادي ، بل النظر المتزامن مع التفكُّر والتأمُّل).

\* \* \*

---

(١) اشير إشارة قصيرة في كتاب الجامعة الاولى ، ج ٦ ، ص ٣٢ إلى هذه المسافة ، وكما اشير في كتب اخرى باشاراتٍ مفصلة .

ويقول في الآية الرابعة والخامسة ضمن إشارته إلى المنافع المختلفة للحيوانات بالنسبة للإنسان : **﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ﴾**.

وذكرت «عبرة» هنا بصيغة «نكرة» حيث تعتبر دليلاً على أهميتها الفائقة ، وكما يقول الراغب في كتاب المفردات «عبرة» من مادة «عَبْرٌ» وتعني العبور والانتقال من حالة إلى أخرى ، وهنا حيث يرى المعتبر حالة يدللُ من خلالها على حقيقة لا يمكن ملاحظتها فاطلقوا على ذلك «عبرة».

وعليه فإنَّ مفهوم الآية يشير إلى أنَّ بقدوركم أنْ تصلوا إلى معرفة الله وعظمته وعلم وقدرة مبدئِ الخلق العظيم من خلال ملاحظة أسرار وعجائب الحيوانات.

ثم أشار القرآن في شرحه لهذا المعنى إلى أربعة جوانب من الفوائد المهمة للحيوانات فيقول ابتداءً : **﴿تُسْقِيْكُمْ مَمَّا فِي بُطُونِهَا﴾** نعم ، اللبن هذه المادة السائعة الطعم التي تخرج من الحيوانات ومن بين دمها ولحمها شراباً مغذيَاً كاملاً ، وورد هذا المعنى مع تأكيد أكثر في الآية الخامسة إذ يقول : **﴿تُسْقِيْكُمْ مَمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدِمْ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾** (١).

فأيُّ قدرٍ تلك التي تُخرج مثل هذا الغذاء الظاهر الصافي اللذيد من بين تلك الأشياء الملوثة؟ لونه أبيض ، طعمه حلوٌ ، رائحته عطرة ، ومقبُولٌ من جميع الجهات.

والعجب ما يذكره العلماء .. فمن أجل انتاج لتر واحد من الحليب في ثدي الحيوان يجب أنْ يمرَّ ما يقارب خمسمائة لتر من الدم خلال هذا العضو كي يتم امتصاص المواد الالزمة من الدم لتكوين ذلك اللتر من اللبن! ومن أجل انتاج لتر واحد من الدم في الشرايين

(١) «فرث» بمعنى الغذاء المهضوم ، والحدير بالذكر أنَّ «بطونها» ذُكرت في سورة المؤمنون مع ضمير مؤنث حيث لها معنى يفيد الجمع في مثل هذه الموارد ، وفي سورة النحل «بطونه» بضمير المذكر إذ لها معنى فردي ، وقال بعض المفسِّرين أنَّ «انعام» اسمٌ جمعٌ ولو لوحظ ظاهر اللفظ فانَّ ضمير المفرد يعود إليها ، ولو لوحظ معناه فانَّه ضمير جمعٍ ولو لوحظ ظاهر اللفظ فانَّ ضمير المفرد يعود إليها ، ولو لوحظ معناه فانَّه ضمير جمعٍ وقال بعضهم أنَّ ضمير المفرد لمفهوم الجمع وضمير المؤنث لمفهوم الجماعة ، (يراجع تفاسير الكشاف والكبير وروح المعانى وأبو الفتوح الرازي).

لابد أن تمرُّ الكثير من المواد الغذائية خلال الامعاء هنا حيث يتجلّى مفهوم : ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ﴾ .

وقد قيل الكثير حول تركيب اللبن وكيفية تكوينه في الأداء ، وأنواع المواد الأولية والفيتامينات الموجودة فيه ، وزيادة التي تمنح الطاقة ، والمستخرجات المتعددة التي تُستخرج منه ، وفائدة لكل الأعمار ، بحيث لو جمعت لألف كتاباً معتبراً ، يخرجنا التطرق إليه عن إطار البحث التفسيري.

ونكتفي هنا بذكر رواية مليئة بالمعاني عن النبي ﷺ حيث يقول : ﴿إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَاماً فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَأَطْعُمْنَا خَيْرًا مِنْهُ، وَإِذَا شَرَبَ لَبَنًا فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ، وَرَدْنَا مِنْهُ، فَإِنَّمَا لَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَنْفَقْتُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مِنْهُ﴾ (١) .

ثم يتطرق إلى الفائدة الثانية للحيوانات ذات الأربع ، فيقول في جملة قصيرة وغامضة : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرٌ﴾ .

وهذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى الصوف والوبر والشعر في الحيوانات والتي يُصنع منها أنواع الملابس والفرش باستمرار ، وكذلك إشارة إلى الجلد والأمعاء والظامان والقرون التي تُصنع منها وسائل الحياة المختلفة ، وحتى فضلاً عنها يمكن استخدامها كأسدمة في تنمية الأشجار وتنشيط الزراعة والنباتات.

وفي المرحلة الثالثة أشار إلى فائدة أخرى قائلاً : ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ .

مع ما ذكره خبراء الغذاء من كل أضرار اللحم ، وبالرغم من المؤاذنات الواردة على أكل اللحوم في العالم من الناحية الطبية والأخلاقية وغيرها ، فإنَّ الكثير يعتقدون أنَّ استهلاك اللحم بكمية قليلة ليس غير مضر فحسب بل وأنَّه ضروري بالنسبة لجسم الإنسان ، وتبهُّن تجاه الدين يعيشون على النباتات بأكمل مصابون بالاضطرابات والنواقص وتويدُ وجودُهم الصفراء ذلك ، وهذا يعود إلى أنَّ البروتين وبعض العناصر الأساسية الموجودة في اللحم لا يمكن الحصول عليها في أي نباتٍ أبداً ، والأهمية التي

(١) تفسير روح البيان ، ج ٥ ، ص ٤٨ .

يعطيها القرآن لهذه المسألة تحكى عن هذا المعنى.

ولكن مما لا شك فيه أنَّ الإفراط في أكل اللحوم شيءٌ مذمومٌ في نظر الإسلام ومن وجهة النظر الطبية أيضاً.

وأشار في الجزء الرابع والأخير من هذه الآية إلى الاستفادة من الحيوانات للركوب.

فيقول : ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحَمَّلُونَ﴾.

فقد كانت هذه الحيوانات على الدوام خير وسيلة للحمل والركوب ، واليوم في عصر السيارات والشاحنات لم يستغنِ البشر أيضاً عن وجود هذه الحيوانات للركوب وحمل الأمتنة ، لا سيما في بعض المناطق الجبلية والطرق التي لا يمكن استغلال وسائل النقل الحديثة فيها ، فيستفاد من الحيوانات في الحمل والنقل فهنالك حيوانات كالبغال تعتبر أفضل وسيلة لارسال العتاد إلى جبهات الحرب على أعلى الجبال الوعرة ، ولو لاها لاصبح من الصعوبة السيطرة على الجبال الشاهقة الواسعة.

وبهذا فقد أودعَ الباري تعالى فوائد جمّة في هذه الحيوانات ، وبيّنَ آثار عظمته وفضله على الإنسان من خلاها.

واللطيف أنَّ الحيوانات جاءت في هذه العبارة من الآية في مقابل السفن وهذا دليل على أنَّها بمثابة سفن في اليابسة ! <sup>(١)</sup>.

وفي الآية السادسة وكتتعريفٍ بالذات الإلهية ، أو ذكر النعم التي تجُّرُ الإنسان إلى معرفته ، أشار إلى ما يستفيده الإنسان من جلود واصوف الحيوانات ، فيقول : ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾.

ثم يضيف : ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ ظَغْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾.

أجل .. فالبيوت الثابتة لا تُلِي حاجة الإنسان باستمرار ، ففي الكثير من الحالات يحتاج الإنسان إلى بيوت متنقلةٍ كي يستطيع حملها ونقلها بسهولة وتقاوم في نفس الوقت

(١) وورد ما يشابه هذا المضمون في الآيات ٥ إلى ٨ من سورة النحل حيث يشير إلى المنافع المتعددة للحيوانات.

البرد والحرّ والرياح والعواصف وأمثال ذلك ، ومن افضل البيوت المتنقلة هي الخيام التي تصنع من الجلود التي تمت الإشارة إليها في هذه الآية ، وهي أقوى من الخيام المصنوعة من الصوف أو القطن وأكثر مقاومةً وراحةً.

ويتطرق في ختام الآية إلى جانب آخر من منافعها المهمّة ، إذ يضيف : **﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأُوبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾** <sup>(١)</sup>.

ونحن نعلم طبعاً أنَّ الصوف من الأغذام ، والوبر من الابل ، والشَّعْرُ من الماعز ، ونعلم أيضاً أنَّ أنواع الملابس ، والفرش ، والاغطية ، والستائر ، والخيام ، والسُّفَرُ ، والحبال ، وأمثالها ممّا يلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان ، تُصنَّعُ جميعها من هذه المواد الثلاث.

وبالرغم من أنَّهم قاموا في هذا العصر بصناعة أنواع الملابس والفرش من المواد الصناعية والنفطية ، إلَّا أنَّ دراسات العلماء أثبتت أنَّها لا تُعتبر صالحةً لحياة الإنسان ، وغالباً ما تؤدي إلى مضاعفاتٍ غير ملائمة له ، بينما تُعتبر الملابس الصوفية والوبرية والشعرية من أصلح الملابس.

وقد اعتبر بعضهم التعبير بـ «إِلَى حِينٍ» إشارةً إلى دوام الآلات التي تُصنَّعُ من هذه المواد الثلاث ، ويعتبرها بعضهم إشارةً إلى أنَّ جميع ذلك الأثاث معرض للزوال ولا يحب التعلُّق به ، ويبدو أنَّ هذا المعنى أكثر تناسباً.

\* \* \*

وفي الآية السابعة التي وردت ضمن الآيات التوحيدية في سورة فاطر ، حيث أثارت انتباه النبي ﷺ إلى خلق الإنسان والدواب والأنعام ، قائلاً : **﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ**

(١) «بيوت» جمع «بيت» ويعني حجرة أو بيت الإنسان الذي يأوي إليه ليلاً ، ولنفظة «بيته» التي تعني «المبيت ليلاً» مأخوذة من ذلك أيضاً ، «ظعن» تعني الرحيل والتنقل من مكان إلى آخر وهي تقابل «الإقامة» ، ... «اث» مأخوذة من مادة «اَثَّ» وتعني الكثرة والاضطراب وتطلق على لوازم البيت نظراً لكثرتها واعتبرها بعضهم بمعنى الغطاء واللباس وبعضهم بمعنى البساط في حين اعتبرها بعضهم الآخر راجعة إلى «المتاع» الذي يعد وسيلة للتمتع والاستفادة وأنَّهما بمعنى واحد.

### وَالْأَنْعَامُ مُخْتَلِفُ الْوَانُهُ كَذلِكَ ﴿١﴾.

أي كما خلق الله تعالى انواع الشمار وبألوان متباعدة ، وتباعد الوان الجبال فيما بينها ، فقد خلق ألواناً مختلفةً من الاحياء سواء الإنسان أم الدواب أم الأنعام ، بالرغم من أنَّ اغلب المفسرين اخذوا الألوان هنا بمعنى الألوان الظاهرة المختلفة <sup>(٢)</sup> ، ولكن يبدو أنَّ التعبير المذكور ذو معنى واسع ، ويعتبر إشارة إلى تفاوت أنواع واصناف الناس والدواب والأنعام ، الذي يعتبر من اهم عجائب وغرائب الخلق.

لا شك أننا نعلم أنَّ هنالك اليوم مئات الآلاف من أنواع الدواب والحيوانات في العالم ، بل يذكر بعض العلماء أنَّ أنواعها يبلغ مليوناً وخمسماة الف نوع! ، وهذا التباهي العجيب وبهذه الموصفات التي تتصف بها كلٌ منها يعتبر آيةً عظيمةً من آيات الله ، وبراهين عل علمه وقدرته.

نعم ... فقد ابدع هذا الرسام الماهر بقلم واحد ولون واحد في رسم انواع لا تُحصى من الرسوم ونماذج ملوّنةٍ من الألواح كل منها آية في صنع الخليق.

غير أنَّ المفكرين والعلماء هم الذين فتحوا بصائرهم ليروا روح العالم في هذه الميادين البديعة ، و «يرؤون مالا يُرى» ، لذلك يقول في ذيل الآية : ﴿إِنَّمَا يَخْشِيُ اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعَلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

إنَّ ألوانها الظاهرة المختلفة تَشْعُلُ أهلَ الظاهر ، وألوانها الباطنية وخلقها المتباهي تشغل اهلَ الباطن والمعنى.

فالألوان الظاهرة للأزهار تحذب نحوها النحل ، كي يساعدها في التلقيح ، كما تتحاذب الإناث والذكور من الحيوانات فيما بينها «لا سيما في الطيور» ، إلا أنَّ ألوانها الباطنية وبناءها المتفاوت يدعو العلماء وأصحاب الفكر نحوه ، كي يُلْفَحَ فكره من بذر التوحيد.

(١) «من الناس» خبرٌ لم يبدأ محدوفي ، والتقدير هو : «ما هو مختلف الوانه» ، و «كذلك» أشار إلى الشمار المختلفة وألوان الجبال المتفاوتة التي وردت في الآية السالفة.

(٢) تفسير الميزان ، وتفسير روح الجنان ، وتفسير في ظلال القرآن ، وتفسير القرطبي وغيره.

و «خَشْيَة» : تعني «الخوف الممزوج بالتعظيم الناتج عن علمٍ ووعي» ، وفي الحقيقة هي مزيجٌ من الرهبة والرجاء لهذا وصفَ الله نفسه بعد هذا الكلام مباشرة بصفتي «عزيز» و «غفور» حيث إنَّ الأول منشأ للرهبة والثاني مصدر للرجاء ، وعليه فانَّ ذيل الآية مركبٌ في الحقيقة من العلة والمعلول.

علمًا أنَّ ذكر «الإنعام» بعد الدواب ، جاء من باب ذكر الخاص بعد العام ، لأهمية الانعام في حياة الناس.

\* \* \*

وفي الآية الثامنة وجَّه اللَّوْمَ من خلال استنفهٍ توبخِي للمشركين والكافرين الذين ضلّوا وتركوا خالق الكون وتوجهوا نحو الأصنام ، فقال : ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِّمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُون﴾.

إنَّ التعبير بـ «لَهُمْ» ذو مفهومٍ واسعٍ للغاية حيث يشمل المنافع المختلفة لجميع أجزاء هذه الانعام ، أَجْلَان .. فقد اقتضى لطفُ الله أن يكونَ هو «الخالق» والآخرون هم «المالكون»! .

ثم أشار إلى نكتةٍ اخرى فيما يخص الانعام ، مضيفاً : ﴿وَذَلِكُنَّا لَهُمْ فِيمُنْهَا رُكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمَسَارِبٌ﴾.

ويقول في الختام «فهلا يشكرون هذه النعم التي وهبها الله للناس»؟ ولا يسعونَ لمعرفة ذاته المقدّسة؟ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

ويُكَلِّفُ أن يكون التعبير بـ «مِمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا» إشارة إلى تعقيد مسألة الحياة التي لم ينكشف لغُزُها للبشر لحد الآن ، وهذا نابعٌ من قدرته الازلية فقط.

والتعبير بـ «المشارب» بعد ذكر «المنافع» من قبيل ذكر الخاص بعد العام حيث تم الاستناد إليه بسبب أهميته.

علمًا أنَّ «مَشَارِب» جمع «مَشَرِب» (لأَنَّهَا جاءت مصدرًا ميمياً بمعنى اسم المفعول ،

ويمكن أن تكون إشارة إلى أنواع حليب الانعام المختلفة ، التي لكل منها آثاره ومزاياه الخاصة به ، أو إشارة إلى مستخلصات الحليب التي تحصل عليها ، وبما أنّ اصلها هو الحليب فقد اطلق عليها لفظ «مشارب» ، ونحن نعلم أنّ الحليب ومستخرجاته يُمثلُ جانباً مهماً من غذاء الناس <sup>(١)</sup>.

ولنا بحث مناسب حول «ذلّنهاها» سيأتي في قسم التوضيحات إن شاء الله.

\* \* \*

والآية التاسعة من البحث وقعت ضمن سلسلة الآيات التي تتعلق بمعرفة الله والتوحيد لأنّه قال في الآيات التي سبقتها : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتُهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقُهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ، ثم تَطَرَّقَ إلى وصف الله القدير قائلاً : ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدْرِ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بِكُلِّدَةٍ مَيْتَانًا كَذَلِكَ تُخْرِجُونَ﴾ ، ثم يضيف في آية البحث : ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

ويبدو أنّ المقصود من **﴿أزواج﴾** هنا هو أزواج الاناث والذكور من الحيوانات والاحياء ، لا سيما وانه يضيف بعد ذلك : **﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَكَبُونَ﴾** أي الفلك في البحار والانعام في اليابسة.

وبهذا فانّ ذكر «أنعام» بعد «الأزواج» جاء من باب ذكر الخاص بعد العام .  
إلا أنّ بعض المفسّرين يعتقدون أنّ «الأزواج» هنا إشارة إلى «الاصناف المتفاوتة» لل موجودات ، سواء كانت حيوانات أم نباتاتٍ أم جماداتٍ ، لأنّ كلاً منها له جنسٌ يقابلها ، ففي الحيوانات هنالك الذكر والانثى ، وفي غيرها النور والظلام ، السماء والأرض ، والشمس والقمر ، اليابس والرطب ، وحتى داخل أفكار الإنسان هنالك الخير والشر ، الكفر والإيمان ، التقوى والفحور ، وامثال ذلك ، والوجود الوحيد الذي لا اختلاف فيه هو ذاته

(١) يعتبر بعض المفسّرين أنّ «مشارب» إشارة إلى الأواني التي تُصنّع من جلد الحيوانات كأنواع القرّب والأواني الأخرى ، إلا أنّ هذا التفسير يبدو بعيداً إذ ليس لهذا الأمر أهمية بالغة بحيث يُستند إليه بعد ذكر المنافع.

المقدّسة ، وهو متفردٌ في كافة النواحي ، إلّا أنَّ التفسير الأول يبدو أكثر صواباً من خالل ما ذكرناه من قرينة.

على أية حالٍ ، فقد ذُكر حلق الأزواج من جانبٍ وخلق الانعام للركوب من جانبٍ آخر في هذه الآية براهين عن الوجود المقدّس لله تبارك وتعالى.

إنَّ النّظام الدقيق الذي يسود مسألة التكاثر في الموجودات الحيّة والحيوانات نظامٌ معقدٌ وعجيبٌ للغاية ، فما هي العوامل التي تؤدي إلى أن يكون الجنين في رحم امه ذكراً أو انثى؟ وما هي العوامل التي تؤدي إلى حفظ التوازن بين جنس الذكر والانثى؟ وما هي العوامل التي تؤدي إلى أن ينحدب أحدهما نحو الآخر كي تحصل مقدّماتُ الحمل؟ وما هي العوامل التي تعمل على تكامله في مرحلة الحياة الجنينية المعقّدة؟

فإذا تأملنا جيداً ، لوقع بصرنا على آياتٍ عظيمةٍ من آياتِ الله في هذا الطريق الطويل ، وفيما يخص تذليل الحيوانات لركوبها.

ثم تحدّث عن تسخير هذه الحيوانات القوية والضخمة للإنسان ، قائلاً : ﴿لِتَسْتَوِوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ .

صحيحٌ أننا ننظر إلى هذه المسألة نظرةً بسيطة جراء اعتمادنا عليها يومياً ، حيث نرى قوافل كبيرة من الأبل والخيول ، وحتى حيواناتٍ ضخمة كالفيلة مُسخّرة بيد طفل صغيرٍ ، وأحياناً يُودعُ عنانُ قافلةٍ منها بيد طفلٍ فيقودها حيث يشاء ، إلّا أنها في الحقيقة ليست أمراً هيناً ، فلو كان لأحدها أقلُّ حالةً من التمرد والمواجهة فلا يستفاد منها في الركوب أبداً بل لأنَّها تربّيتاً من قِبَل الإنسان خطيرةً جدّاً.

فنحن لا نستطيع أنْ نُرِّي بازاً مشاجراً ، وحتى قطة غاضبة وهائجة ، فكيف نُرِّي هذه الحيوانات الكبيرة القوية التي يمتلك بعضها قرونًا وبعضها ذات اسنانٍ قاطعةٍ وفكٍ قويٍّ ، وارجل بعضها قوية وكبيرة تستخدمنها للضرب والركل ، فإذا لم تكن مطيعة فكيف

نستخدمها للركوب؟ ولولا التسخير الإلهي حقاً لم نستفد منها أبداً : ﴿مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾

(١)

والنكتة الجديرة بالذكر أيضاً أنَّ ظهرَ الْأَنْعَامِ خُلُقٌ بحيث يكون مناسباً ومُعَدّاً لركوب الإنسان.

وممّا يلفت النظر أنَّه يذكرُ الركوبَ عليها هدفاً أولاً ، وذكر نعَمِ الخالقِ يعتبره المدف الشانِي ، وتعد معرفة الذات الإلهية المقدّسة وتسبيحه وتقديسه هي المدف النهائِي ، فذكر النَّعَمِ يضعُ الإِنْسَانَ دائمًا في طريق معرفتها ، ومن ثمَّ كُلُّ مواهِبِ الْخَلْقِ دافعٌ ومقدمة لمعرفة الله سبحانه.

وذكر هذا المعنى في الآية العاشرة والأخيرة بالإضافة إلى منافع أخرى ، وقد تمت الإشارة في هذه الآية إلى خمس فوائد أساسية للاِنْعَامِ ، واعتبرها من آيات الله.

فيقولُ في البداية : ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكِبُوهَا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

ثمَّ أشار إلى الفوائد المختلفة ، كاللبن والصوف والجلد والمواد الطبية وامثال ذلك ،

فيقول إجمالاً : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ﴾ (٢).

ويقول في المرحلَةِ الأخيرة : ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾.

إنَّ ذكرَ هذا المعنى على هيئةِ منفعةٍ مستقلة ، مع أنَّ مسألة الركوب قد ذُكرت سابقاً ، يُمْكِنُ أن يكون المقصود منه حمل ونقل الاممَّةِ وضروريات الحياة (٣) ، أو لاغراض التنزُّه والسباحةِ والمسابقات أو كسب القوة في ساحةِ الجهاد ، أو الصراع مع بعضِ الحيوانات الوحشية ، أو عبور الأنهر عن طريق سباحةِ الحيوانات ، لآهَماً جمِيعاً تندَرُجُ في لفظ «حاجة» الشامل ، وهذهِ الضروريات لا شأنَ لها مع مسألةِ الركوب في الأسفار.

(١) إنَّ الضمير المفرد في «ظهوره» و «عليه» و «له» يعود إلى «الأنعام» لأنَّ «الأنعام» - وكما قلنا سابقاً - ذات معنى جمعي ، إلاَّ أنها تلفظ مفردة ، وظن بعضهم أنَّ هذهِ الضمائر تعود إلى «ما» في «ما ترکبون» ، وفي هذهِ الحالة تشمل «الأنعام» و «السفن» علمًا أنَّ «مقرني» من مادةِ «إقران» وتعني الاقتدار على الشيء ، وفسَّرها بعضُهم بمعنى القرض والحفظ.

(٢) ذكرت منافع بصيغةِ النَّكْرَةِ كي تُبرهنَ على أهميتها.

(٣) كما ثَمَّت الإشارة إلى ذلك في الآية ٦ من سورة النحل.

ويقول في الفائدة الخامسة والأخيرة : **﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾**.

ولتعبير «حمل» مفهوم غير «الركوب» ويبدو أنَّ المقصود منه هو المحامل والهداج التي توضع على ظهور الأنعام ويجلس فيها النساء والأطفال الذين لا طاقة لهم على الركوب ، كما يستفاد منها للمرضى والعجراة والضعفاء.

إنَّ ذكر «تُحْمَلُونَ» بصيغة «ال فعل المجهول » ، وجعلها إلى جانب **الْفُلْك** حيث يوضح تشابههما مع بعضهما (الفلك في البحر والانعام على الأرض) يعتبر من القرائن أيضاً على التفسير أعلاه ، وبهذا يتضح اختلاف هذه العبارات الثلاث : **﴿لَتَرْكَبُوا . وَلَتَبْلُغُوا . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾** ، وطالما وقع بعض المفسرين في مضلات تفسيرها ، وقد فسّروها بمعنى واحدٍ !

ومع أنَّ بعضهم يعتقد أنَّ الانعام في هذه الآية تعني الأبل فقط ، ولكن نظراً لسعة مفهوم «الانعام» وعدم وجود قيدٍ في الآية فلا دليل لحصرها ، لا سيما أنَّ تكرار «منها» (علمًا إنَّ «من» في مثل هذه الموارد تُفيد التبعيض) يبرهنُ على أنَّ بعض الانعام يفيد في الركوب ، وبعضاها يُفيد في الأكل ، بينما لو كان المقصود هو الأبل فإنَّها تُفيد في جميع هذه الجوانب .

واللطيف أنَّه يقول في الآية الآتية باستنتاج عامٍ : **﴿وَيُرِيْكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾**.

إشارة إلى أنَّ كُلًاً من هذه الامور يعتبر آيةً من آياتِ الله بالنسبة للمتفكرِين والعقلاء ، آيةٌ يُبَيَّنُهُ ولا يمكنُ انكارها ، والمنكرون يستحقون كُلَّ اشكال اللوم والتوبیخ . وهكذا نرى أننا نواجه في كُلِّ خطوةٍ نخطوها في هذا الجانب آيةً من آياتِه في عالم الاحياء والحيوانات خصوصاً الانعام ، ونواجه برهاناً من براهين علمه وقدرته وحكمته ولطفه ورحمته ، وكلُّ يحكي بلا لسان ويعطينا درساً في التوحيد ومعرفة الله ، ويُثْبِتُ فينا دافع الشكرِ الذي يدعونا إلى معرفته .

## توضيحات

### ١ . عجائب عالم الحيوانات

إنَّ كِتابَ الْخَلْقِ الْعَظِيمِ كِتابٌ تَكْمِنُ فِي كُلِّ جَلَلٍ . بَلْ فِي كُلِّ كَلْمَةٍ وَكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ . نَكَاتٌ ، بَنْحُو لَا يَشْعُرُ إِلَيْنَا بِالْتَّعِبِ مِنْ مَطَالِعِهَا ، فَلَوْ طَالَعْتُمْ أَحَدَ جَمِيلِ هَذَا الْكِتابِ الْعَظِيمِ مَائَةً مَرَّةً فَسَيَكَشِّفُ لَهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ مَفْهُومٌ جَدِيدٌ وَاسْرَارٌ جَدِيدَةٌ . فَعَامُ «الْحَيَّوَانَاتُ وَالْأَنْعَامُ» الَّذِي يُمْثِلُ جَانِبًا مِنْ هَذَا الْكِتابِ الْعَظِيمِ مُلْجِيًّا بِالْأَسْرَارِ وَالْعَجَائِبِ ، نَكْتَفِي بِعَضِّ مِنْهَا وَيَجِبُ أَنْ نُوكَلَ الْإِعْمَانُ فِي التَّفَصِيلِ إِلَى الْكِتَابِ الْمَدَوَّنِ فِي هَذَا الْمَحَالِ .

### ٢ . ترويض الحيوانات

إِنَّ اسْتِعْدَادَ الْحَيَّوَانَاتِ لِلتَّرْوِيْضِ مَسَأَلَةٌ مَهْمَةٌ لِلْغَايَاةِ . وَمِنْ أَجْلِ إِدْرَاكِ أَهْمِيَّةِ كُلِّ نَعْمَةٍ ، لَابْدُ مِنْ تَصْوُرِ الْحَالَةِ الَّتِي تَحْوَلُ فِيهَا الْحَيَّوَانَاتُ الْأَلْيَفَةُ إِلَى حَيَّوَانَاتٍ وَحْشِيَّةٍ ، «فَالْجَمَلُ» يَشْنُ هَجْمَاتِهِ كَالْفَهْدِ وَيَمْرِّقُ إِلَيْنَا بِفَكِّيهِ الْقَوْيَيْنِ ، وَيُسْتَخْدِمُ «الْبَقْرُ» قَرْنَاهُ ، وَتَضْرِبُ الْحَيْلُ بِحَوَافِرِهَا مَنْ يَقْرَبُ مِنْهَا ، حِينَهَا لَا يَمْكُنُ اعْتِبَارُ هَذَا الْقَطْبِيْعِ مِنَ الْأَغْنَامِ وَالْأَبْلَلِ وَالْبَقْرِ أَسَاسِيَّ الْوُجُودِ فَحَسْبٌ ، بَلْ وَسَنَسْتَعِينُ بِأَيَّةَ آلَةٍ قَاتِلَةٍ مِنْ أَجْلِ الْخَلَاصِ مِنْ شَرِّهَا وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا ، وَفِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ أَيْضًا تَغْضِبُ هَذِهِ الْحَيَّوَانَاتُ الْأَلْيَفَةُ أَحِيَّانًا فَتُشَكَّلُ خَطْوَرَةٌ بِالْغَةِ ، فَمَثَلًا تُلْقَنُ الْفِيلَةُ الْمَنْوَدَ دَرْوِسًا ، وَتَشَنُ الْجَمَالُ الْغَاضِبَةُ هَجْمَاتِهَا عَلَى أَصْحَابِهَا ، وَمِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ تَنْتَهِي بِالْقَضَاءِ عَلَيْهِمْ إِذَا مَا غَفَلُوْا ، وَكَانَ اللَّهُ تَعَالَى يَرِيدُ أَنْ يُبَرِّهَنَ عَلَى أَنْ لَوْ ارْدَثْتُ سَلْبَهَا أَمْرَ الطَّاعَةِ وَالْتَّسْلِيمِ وَالْخُضُوعِ فَسَتَرَوْنَ بِاِيِّ صُورَةٍ تَظَهُرُ !

وَقَدْ عَبَرَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ بِتَعَايِيرٍ مُخْتَلِفَةٍ ، فَيَقُولُ أَحِيَّانًا : ﴿وَذَلِّلْنَا هَا لَهُمْ﴾ . (بِس / ٧٢)

وَحِينَأَ يَقُولُ : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُفْرِنِينَ﴾ . (الْزُّخْرُفُ / ١٣)

وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه المسألة في توحيد المفضل ، فيقول بعد بيان خلق الأنعام : ... «ثُمَّ مُنْعَتِ الْدُّهْنَ وَالْعَقْلَ لِتَنْذِلَ لِلْأَنْسَانِ فَلَا تَمْتَعِنُ عَنْهُ إِذَا كَدَّهَا الْكَدَّ الشَّدِيدَ وَحَمَلَهَا الْحِمْلَ الشَّقِيقَ» <sup>(١)</sup> .

وبالطبع أن عدم امتلاكها للعقل جزء من الدليل على تآلفها ، علاوة على هذا أن الله تعالى خلقها بشكل تألف فيه بسرعة وتبقي على هذا الحال إلى الأبد ، بينما نجد أن بعض الحيوانات التي تمثلها في الذكاء والعقل (كالذئاب والنمور) إذا ما ألغت فبمشقة تكون مؤقتة ، ومع ذلك يجب الحذر منها ، وأحياناً تفترس أصحابها إذا ما غفلوا عنها.

### ٣ . ذكاء الحيوانات

لعل اختيار هذا العنوان بعد الذي قيل في البحث السابق يبدو عجباً ومتناقضاً ، والحال أنه ليس كذلك ، مع أن الحيوانات تبدو بلا عقل أو قليلة العقل ، ونحن نشبّه البلداء بالبهائم ، إلا أنها تبدي ذكاءً ووعياً في بعض المسائل بحيث تبعث على الدهشة.

فقد شاهدنا أغلبنا قطبيع الأغنام عندما يعود من الصحراء ، فهناك عدد من الغنم والماغر تعود إلى عائلة ما وبمجرد اقتربها من القرية يسلك كل منها فروع وازقة القرية وينتجه نحو بيت صاحبه بدون أي اختلاف.

كما شاهدنا أن النعجة لا تسمع أبداً لغير ولدتها أن يرتفع من شديها ، وعندما تطلق الصغار في ظلمة الليل وتدخل في القطيع يذهب كل منها إلى امه ، فتعرفه وتستعد لإضاعه ، وهذه المعرفة تحصل عن طريق «الشم» فقط ، وهذا يعني أن عدد روائح الأغنام تضاهي عددها ، وكل نعجة تشخص رائحة صغيرها من بين هذه الروائح !

يقول «غرسي موريسن» في كتاب «سر خلق الإنسان» : (إن) أغلب الحيوانات تشخص طريقها في الليالي المظلمة ، وتسير بيسير ، وإذا كانت لا تبصر في الظلمة الحالكة فهي تعرفه من تفاوت الهواء الحبيط بالطريق ، ويؤثر النور الضعيف جداً للأشعة مافوق الحمراء الذي

(١) بحار الأنوار ، ج ٣ ، ص ٩١ ، توحيد المفضل.

يشع من سطح الطريق على عيونها.

إنَّ طراز بناء البيت ، وتربيَّة الصغار ، وكيفية مقاومة العدو ، وحتى معالجة نفسها أثناء المرض من الأمور العجيبة في الحيوانات ، وشرح كلٌ منها يحتاج إلى بحثٍ مفصَّل . ذكر أحدُ علماء البيئة وُيدعى «البروفسور هانر منرو» في كتابه في خصوص استعداد بعض الحيوانات لمعالحة أمراضها قائلاً :

«اجريت بعض الكشوفات الطبية على علاجاتها ، فمثلاً هناك نوعٌ من الطيور التي تأكل الأسماك ، تتضرر أرجلها أثناء الطيران الجماعي أو المبوط على الأرض ، بسبب طولها ، فوجدت أنها على اطلاعٍ تامٍ بالتجبير وعلاج الكسور ، فتذهب إلى ساحل البحر والمناطق الملوحة التي يمتنج طينها مع النورة الخاصة بالتجبير ، وتغمسُ أرجلها بالنورة الرطبة ، ثم تجلس تحت أشعة الشمس كي تجفَّ النورة ، وتبقى تراقب أرجلها بهذا الحال حتى يلتحم مكانُ الكسرِ تماماً ...»

ومن الصدفة أنَّ النورة التي يستخدمها الأطباء في المستشفيات من نفس هذا النوع الذي يستخدمه هذا الطائر الذي يأكل السمك لعلاج نفسه ، لأنَّه لزوجٌ ومتماستُ جدًا»

(١).

يعتقد العلماء أنَّ معظمَ الحيوانات لديها لغةٌ خاصةٌ بها ، وتفاهم فيما بينها عن طريقها ، فالنمل يتحدث فيما بينه من خلال اللمس ، أو من خلال اصطدام لوماسها ، وتتبادل الرسائل ، وبعضُها تخابر أثناء حلول الخطر من خلال ضرب أرجلها على باب الخلية فترسل برقيات بهذه الطريقة إلى بعضها الآخر.

إنَّ أغلبَ الأحياء علاوة على امتلاكها للغةٍ خاصةٍ فهي تملك لغةً عامَّةً تستطيع من خلالها فهم لغة بعضها البعض الآخر ، وهذه اللغة التي يصدرها الغراب أثناء حصول الخطر حيث يحدُّر بقيةَ الحيوانات بصوتٍ خاصٍ كي تبتعد سريعاً عن منطقة الخطر ، ويعتبر الغراب في الواقع مبنزلة جاسوس من جواسيس الغابة!

لقد توصلَ علماء البيئة في دراساتِهم إلى هذه النتيجة وهي أنَّ الحشرات تلي الإنسان

(١) أفضل طرق معرفة الله ، ص ١٩٧.

في امتلاك جهاز اتصالاتٍ متكاملٍ ، لا سيما التكلم وجهاز اتصالات النحل ، فهو أكثرها عجباً وندرة<sup>(١)</sup> .

القى عالمُ حياءٍ سويدى مخاضرةً تشير الاهتمام في جامعة «لاند» حول لغة النحل وكانت نتيجةً لهذا التحقيق والتجربة التي أجرتها عالمُ الأحياء هذا بمساعدة الأجهزة وعن طريق المقايسة ، أكّها لغة يمكن فهمُ معناها<sup>(٢)</sup> .

إنَّ عجائب عالم الحيوانات أكثرُ من أن يُؤدي حُقُّها في كتابٍ واحدٍ أو عشر كتب . والأفضل أن نكتفي بهذا المقدار ونغلق الملف ونقول بكلِّ خصوصٍ وخشوعٍ أمام الحضرة الإلهية المقدّسة : ﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ لَا تُحْصِي عَجَابِكُ خَلْقِكَ وَإِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

\* \* \*

(١) مجلة الصيد والطبيعة ، العدد ٧٢ .

(٢) تربية النحل ، ص ٦٠ .



## ٢٠ . آياته في خلق اعضاء جسم الإنسان

تمهيد :

من أجل أن يتمكن الإنسان من إقامة الأواصر مع العالم الخارجي فهو يحتاج إلى أدواتٍ مختلفةٍ ، حيث جهزه الله بها ، فقد جهزه بحاسة البصر لرؤية هيئة ولون وكمية ونوعية الموجودات ، وبحاسة السمع من أجل معرفة أنواع الأصوات كما جهزه بحواس أخرى من أجل الاحساس بالروائح ، البرد والحر ، الخشونة والنعومة و ...

إنَّ بناء هذه الآلات معقدٌ ودقيقٌ بالقدر الذي يُمْكِن أن يكون شرح كلٌّ منها موضوعاً لعلمٍ مستقِلٍّ ، وقد دوّنت كتبٌ كثيرة بهذا الخصوص حيث تُعتبر في الحقيقة جموعةً من أسرار التوحيد ، ودروس ، وبلاغات ونغمات لمعرفة الله تُرْدُّدها هذه الأعضاء في مسامع روح الإنسان ، فمن غير الممكِن أن يتَّمَّلَ المرءُ في بناء هذه الأعضاء ولا يخضع أبداً لِأَمَامَ قدرة وعظمة خالقها ، سواء اعترف بلسانه أم لا.

بهذا التمهيد نُيَمِّنُ وجوهنا صوب القرآن الكريم ونتأمل خاسعين في الآيات التالية :

١ . ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . (النحل / ٧٨)

٢ . ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ . (المؤمنون

٧٨ /

٣ . ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْنٌ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ... وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَسْقُونَ﴾ . (يونس / ٣١)

- ٤ . ﴿أَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ‏وَلِسَانًا وَشَفَقَتَيْنِ﴾ . (البلد ٨ و ٩)
- ٥ . ﴿فُلَانْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْدَ اللَّهَ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَحَسْنَمْ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ مِنَ الْهُنَّاءِ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيْكُمْ بِهِ أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُنْ يَصْدِفُونَ﴾ . (الانعام / ٤٦)
- ٦ . ﴿سَنُرِبُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ . (فصلت /

(٥٣)

\* \* \*

### شرح المفردات :

«السَّمْعُ» : تعني في الأصل قوة السَّمع ، وقد تطلق على الأذن أيضاً ، وقد ورد هذا اللفظ بمعنى الاستماع ، واستجابة الدعوة والقبول والتتجسس أيضاً ، وإذا ما استخدمت في ما يخص الباري تعالى فهي تعني علمه واطلاعه على المسموعات ، و «اسْمَاع» جمع «سَمْع» إلا أنَّ هذا اللفظ لم يُستخدم في القرآن الكريم اطلاقاً ، ولعله بسبب أنَّ «السَّمع» تستعمل في معنى الجمع أيضاً <sup>(١)</sup>.

«بَصَرُ» : وتعني «العين» وتستخدم أيضاً بمعنى «قوة النظر» ، ويُستعمل هذا اللفظ في معنى قوة العقل والفهم أيضاً ، فيقال لها «بَصَر» و «بَصِيرَة» (جمع بصر ، «ابصار» وجمع بصيرة «بصائر»).

إلا أنَّ لفظ بصيرة لا يُطلق على العين أبداً ، بل يُقال لها «بَصَر» والعجيب أنَّ لفظ البصير يُطلق أحياناً على المكفوفين ، ولكن يظهر أنَّ هذا الاستعمال ليس بسبب علاقة التضاد ، بل لأنَّ المكفوفين غالباً ما يتميزون بقدرة إدراكٍ فائقة ، ويتألفون فقدانهم لقدرة البصر بقدرة التفكير والبصيرة <sup>(٢)</sup>.

واعتبر بعضُ أرباب اللغة كمؤلف «المصباح» أنَّ المعنى الأصلي لـ «بَصَر» هو النور

(١) لسان العرب ، المفردات ، مجمع البحرين ، والتحقيق في كلمات القرآن الكريم.

(٢) مفردات الراغب.

الذي نتمكن من خلاله من رؤية الموجودات ، وفي «المقاييس» ذُكر لها معنيان : الأول الاطلاق على الشيء ، والثاني ضخامة وسمك الشيء ، ولكن يبدو أنَّ المعنى الأول والذى أوردهُ الراغب في المفردات أيضاً أكثر صواباً وتناسباً مع موارد هذا اللفظ.

و «افندة» : جمع «فؤاد» من مادة «فَاد» (على وزن وَعد) وتعني في الأصل «الشوي» ، لذا يُقال «فؤاد» للأفكار والعقول الناضجة ، وقد يأتي هذا اللفظ بمعنى القلب ، أو غلاف القلب أيضاً ، وقال بعضهم أيضاً أنَّ هذا اللفظ يطلق على القلب والعقل حينما يكون متنوراً ومشرقاً ، وقال بعضهم إنَّ «فؤاد» تعني مركز القلب يُطلق على مجموعه. و «العيَن» : ذات معانٍ كثيرة والمعروف أنَّ لهذا اللفظ سبعين معنىًّا في لغة العرب. إلا أنَّ المعنى الاصلي لـ «العين» هو العضو الخاص بالنظر ، وقد يأتي أيضاً بمعنى قوة البصر.

ولكن لها معانٍ كنائية ومجازية كثيرة بربرت على هيئة معانٍ حقيقة نتيجة لكثره الاستعمال ، فمثلاً يُقال للينبوع «عين» لأنَّه يشبه العين ، ويُقال للجاسوس والمكلف بالتجسس والاستطلاع «عين» أيضاً ، كما يُطلق هذا اللفظ على ذوي المكانة وعلى الشمس والذهب أيضاً لأنَّ الذهب من بين الفلزات كالعين بين الأعضاء ، وكذلك «الشمس» بين النجوم ، وكالمروقين من بين أبناء قومهم ، كما يُطلق هذا اللفظ أيضاً على الشروة والمتاع الذي يمكن الاستفادة منه ، وثقب الحلقة ، والبصرة والاطلاع على الشيء كلُّ في محله ، وسميت الحور العين بهذا الاسم لأنَّها ذات عيونٍ جميلةٍ وواسعة.

و «اللسان» : تعني عضو التكلُّم ، ووردت أيضاً بمعنى قوة البيان ، وتُطلق أيضاً كنائية على الأشخاص المتكلمين نيابة عن جماعة ما ، كما يُقال لـ «أُلْسِنَة» (جمع لسان) أيضاً ، ويُستخدم هذا اللفظ بصيغة المذكر والمؤنث لأنَّه جاء في القرآن الكريم بصيغة المذكر.

و «شَفَة» : على وزن (سَعَة) وتستخدم بصيغة الثنائية «شَفَتَان» <sup>(١)</sup>. ومفهوم «مشافهة» يعني مقابلة الشخص والاستماع إلى شيءٍ ما من شفتيه ، وورد هذا اللفظ بمعنى شاطيء «النهر» وساحل «البحر» لأنَّه شفة له.

(١) لقد ذكر بعضهم أنَّ اصلها «شَفُو» (ناقصة الواو) وبعضُ «شَفَة» لأنَّ مصغّرها «شفيهة» وجمعها «شفاه».

## جمع الآيات وتفسيرها

### الدور الحساس لآلات المعرفة :

يقول في الآية الأولى كتعريفٍ بالذات الإلهية المقدّسة وبيانٍ لآياته في خلق الإنسان :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَتَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾.

إنَّ هذا التعبير يُبيِّنُ بحلاءَ أنَّ صفحةَ القلب تخلو من جميعِ المعرفَ عند الولادة ،

إِلَّا أَنَّ بعضَ المفسِّرين قالوا إِنَّ المقصود ليسَ العلمُ الحضوريُّ للإِنسان بذاته ، أو بتعبير آخر إنَّ المقصود هو العلمُ بِالأشياءِ الْخَارِجِيَّة ، وذكروا ذلكَ كشاهدٍ في قوله تعالى : ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ

يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْغَمْرِ لَكُنَّ لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾. (النحل / ٧٠)

والإِنسان في سنِ الشِّيخوخة يعلمُ بِوْجُودِه إِلَّا أَنَّهُ يُحْتَمِلُ جهْلِ الوليد بِوْجُودِه في بِدايةِ الولادة وأول ما يُدركه هو وُجُودُه.

ثم يضيفُ : ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْنَادَةَ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ﴾.

لقد جعلَ اللهُ العينَ والاذنَ كي يُدركَا الحسوسات ، والعقل لإدراكِ المعقولات ،

وَتَطَلَّعونَ عَلَى الْعَالَمِ الْخَارِجِيِّ مِنْ خَلَالِ وَسَائِلِ الْعِرْفَةِ الْمُلْتَلِيَّةِ هَذِه ، ثُمَّ تَقُومُونَ بِشَكْرِ هَذِهِ النَّعْمَ وَتَتَوَجَّهُونَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ الْخَالِقِ الَّذِي مِنْحَكُمْ وَسَائِلَ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَةِ.

وَإِدْرَاكُ أَهْمَيَّةِ الْعَيْنِ وَالْأَذْنِ وَالْعُقْلِ يَكْفِي تَصْوِيرَ الْحَالَةِ الَّتِي تَتَمَخَّضُ عَنْ فَقْدَانِ أَحَدِهِمَا (فَضْلًا عَنْ كُلِّيْمَاهَا) ، فَمَا هُوَ حَالُ مَكْفُوفِ الْبَصَرِ ، أَوِ الْأَخْرَسِ أَوِ الْجَنُونِ أَوِ جَمِيعِهِمْ؟ وَكَمْ يَنْأَى عَنْ مَوَاهِبِ هَذَا الْعَالَمِ الْعَظِيمِ؟ وَقَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ يَفْقَدُ مَوْهَبَةَ الْعِلْمِ وَالْإِطْلَاعِ الَّتِي هِي أَفْضَلُ الْمَوَاهِبِ وَمَقْدِمَةً لِلتَّنَعُّمِ بِالْمَوَاهِبِ الْأُخْرَى.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ المقصودَ مِنْ «شَيْئًا» فِي الآيةِ أَعْلَاهُ هُوَ حَقُّ الْمَنْعَمِ ، وَقَالَ بَعْضُ آخَرَ : إِنَّ المقصودُ هُوَ مَصَالِحُه ، وَفَسَّرَهَا قَسْمٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنَّهَا السُّعَادَةُ وَالشَّقَاءُ ، أَوِ الْمِيَاثِ الْإِلَهِيِّ فِي يَوْمٍ : «أَلْسُنُ بَرِّكُمْ» ، إِلَّا أَنَّ اطْلَاقَ الآيَةِ يَنْفِي كُلَّ اشْكَالِ التَّقْيِيدِ فَتَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ.

وَهُنَا لِمَاذَا تَقْدِمُ «السَّمْعُ» عَلَى «الْأَبْصَارِ»؟ فَلَعْلَهُ يَرْجُعُ إِلَى اسْتِخْدَامِ الْأَذْنِ قَبْلِ الْعَيْنِ ، لِأَنَّ الْعَيْنَ لَمْ تَكُنْ لَدِيهَا الْقَابِلِيَّةُ عَلَى الرَّؤْيَا فِي مُحِيطِ رَحْمِ الْأَمِّ الَّذِي يَسُودُهُ ظَلَامٌ

مطبيقٌ ، وتكون حساسة حدّاً أزاء النور إلى حينٍ بعد الولادة ، لذلك فهي غالباً ما تكون مغمضة ، حتى تستعد تدريجياً لمواجهة النور ، إلّا أنَّ الأذن ليست كذلك فباعتقاد بعضهم أنها تسمع الأصوات في عالم الجنين أيضاً ، وتتعرف على انغام قلب الأم! .

بالاضافة إلى أنَّ الأذن تعتبر وسيلةً لسماع رسالة الوحي الإلهي الذي هو أشرف المسموعات ، وكذلك وسيلة عامة لنقل العلوم من جيلٍ إلى جيلٍ آخر ، بينما ليست العين كذلك ، لا شكَّ أنَّ القراءة والكتابة وسيلةً لنقل العلوم إلَّا أنها ليست عامة وشاملة.

وجعل **﴿الْأَفْشَدَة﴾** وراءَهَا واضحَ الدليل أيضاً ، لأنَّ البشر ينقلون المشاهدات والمسموعات إلى العقل ، ومن ثمَّ يقوم بتحليلها وتفكيكها وينتقي منها معلومات حديثة ويكتشف القوانين العامة للعالم <sup>(١)</sup> .

\* \* \*

وفي الآية الثانية يتبع الحقيقة التي وردت في الآية الآنفة ، وأشار إلى مسألة خلق الأذن والعين والقلب ، من أجل معرفة الله ، مثيراً في الإنسان الشعور بالشكر الذي هو السُّلْمُ لمعرفة الله تعالى ، مع هذا الاختلاف حيث يُعبّرُ عن خلق هذه الأعضاء بتعابير «انشاء» وفي الختام يوجّه اللوم والتأنيب لِأولئك الذين قليلاً ما يشكرون الله ، فيقول : **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْشَدَةَ قَلِيلًاً مَا تَشْكُرُونَ﴾**

و **«الإنشاء»** : كما يقول الراغب تعني في الأصل إيجاد الشيء وانائه ، ولهذا يقال «ناشئة» للشباب.

إنَّ التعبير بإنشاء غالباً ما يخص الحيوانات ، بالرغم من استخدامها أحياناً في غير هذا المورد مثل : **﴿إِنَّمَا أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾** . (الواقعة / ٧٢)

ومن الممكن أن يكون هذا التعبير في الآية أعلاه إشارة إلى المسيرة التكاملية للعين

(١) إنَّ «سمع» تُطلق على المفرد والجمع ، بالرغم من أنَّهم يجتمعونا بصيغة «اسمع» أيضاً.

والاذن والعقل حلال مرحلة الجنين ثم في مرحلة الطفولة ، حيث أُوجَدَها الباري تعالى ثم يقوم بتربيتها.

\* \* \*

ويقول في الآية الثالثة «كاستفهم تقريري» من المشركين الذين انفصلوا عن الله وضلّوا في وادي عبودية الأوثان : ﴿فَلَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾.

من المسلمين به أنَّ الأرزاق التي يحصل عليها الإنسان إِمَّا أَنْ تكون من السماء (كالامطار والهواء وضوء الشمس) أو من الأرض (كالنباتات والأشجار والمعادن المختلفة) فكذلك العلوم والمعارف فغالباً ما يحصل عليها الإنسان عن طريق العين والاذن ، لأنَّ هاتين الحاستين المهمتين تُعتبران وسيلة اتصال الإنسان بالعالم الخارجي ، وكلُّ هذه الأرزاق المادية والمعنية من الله تبارك وتعالى.

واللطيف أنَّه عَبَرَ هنا بتعبير المالكية ، وِعِما أَنَّ المالكية هنا تكوينية فانها لن تنفصل عن مسألة «الخلق» وفي الحقيقة أصبح هذا التعبير من لوازمه ، وكذلك لن تكون منفصلةً عن مسألة «تدبير الامور» لذا يقول مستفسراً في نهاية الآية : ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾<sup>(١)</sup>.  
فيضيف مباشرةً : «أَنْهُمْ وبالمهام من وحي فطرتهم يقولون بسرعةٍ : إِنَّ اللَّهَ هُوَ مَالِكُ  
وَخَالِقُ وَمَدْبُرُ هَذِهِ الْأَمْرَوْر﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾.  
﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

أي ترك عبادة الأوثان والتوجه إلى غير الله ، والابتعاد عن الذنوب والظلم.

\* \* \*

(١) قال بعض ارباب اللغة إنَّ «مِلْك» (بفتح الميم وكسر اللام ، تعني مَنْ يتصرف بعامة الناس من خلال أمره وخيه وهذا يستلزم السلطة والقدر والتدبير).

ويقول في الآية الرابعة ضمن إشارته إلى جانب من نعم الله على الإنسان لتحريك الاحساس بالشكر الذي هو مقدمة لـ «معرفة الله» : **﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾**. العينان اللتان يتمكن من خلاهما أن يرى عالم الوجود ، وأن يشاهد عجائب الخلق ، وأن ينظر إلى الشمس والقمر والنجوم وأنواع النباتات وأنواع الموجودات الحية والحيوانات ، وأن يتفرج على عجائب صنع الله ، وأن يميز الخير من الشر ، ويشخص الصديق من العدو ، وأن ينقد نفسه من مخالب الحوادث.

ثم يضيف «**﴿وَلِسَانًاً وَشَفَقَتِينِ﴾**.

اللسان الذي يمثل وسيلة اتصاله بالآخرين ، اللسان الذي يعتبر عاملاً في نقل العلوم والمعارف من جيل إلى آخر ومن قوم إلى آخرين ، اللسان الذي يردد ما يحتاجه ، وبه يدعو ويتوسل إلى المعبد جل وعلا ، وهو الذي ينطق عن جميع ذرات وجوده.

وكذلك الشفاه التي تلعب دوراً مهماً في النطق ، وتحمّل مسؤولية تلفظ كثير من مخارج الحروف <sup>(١)</sup> بالإضافة إلى مساعدتها في شرب الماء وأكل الطعام وهضمها والحفظ على سوائل الجسم ، ببحوٍ لو جُدّع جانب من الشفة فلن تصبح هذه الأمور صعبةً بالنسبة للإنسان فحسب ، بل وسيكون منظرة وصورته باعثاً على الحسقة.

واللطيف أن القرآن يتحدث بعد هاتين الآيتين عن هداية الإنسان إلى الخير و «الشر» ، قائلاً : **﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجَدَيْنِ﴾**.

إنَّ هذا التعبير البليغ يشير إلى علاقة العين واللسان والشفاه بمسألة المداية ومعرفة الخير والشر ، لأنَّها تُعتبر آلات لهذا المدف العظيم.

\* \* \*

وفي الآية الخامسة يُلفت الانتباه إلى الحالة التي تحصل لدى الإنسان بسبب فقدانه

---

(١) وهذه أربعة حروف بالعربية (ب . ف . م . و) وهي (حروف شفهية) بكثرة فقدان الشفة يؤدي إلى أن يفقد المرء قدرة التكلم إلى حدٍ ما.

للاذنِ والعينِ والعقلِ ، فيقول : **﴿فَلَمْ أَرَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَّا اللَّهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ﴾** <sup>(١)</sup>.

ثم يضيف في نهاية الآية : **﴿أَنْظُرْ كَيْفَ نُصْرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾** <sup>(٢)</sup>.

وفي الحقيقة أنَّ القرآن ي يريد أن يقول : إنَّ آلات المعرفة المهمة تلك ليست ملكاً لكم لأنَّها لو كانت كذلك لما سُلِّبت منكم فليس بالقليل أو لشك الدين فقدوا نعمة السمع والبصر والعقل نتيجة لتأثير عوامل مختلفة ، اذن فهي ملك خالقٍ آخر ، هذا من جهة . ومن جهة أخرى ، بما أنَّ الأشياء تعرف باضدادها فانَّ القرآن ي يريد أن يلفت نظرَ الإنسان إلى عظمة الخالق وواهب هذه النعم ، من خلال تذكيره بالوضع المؤلم الذي يطرأ للإنسان بسبب فقدان هذه النعم التي لا مثيل لها ، ويرشهده عن هذا الطريق ويُحفِّزه إلى الخضوع أمام عظمته تعالى .

ويمكن أن يكون التعبير بـ «أخذ» الأذن والعين بمعنى أخذ هذه الأعضاء ، أو أخذ قوة السمع والبصر أو كليهما .

\* \* \*

وفي الآية الأخيرة من البحث التي تعتبر من آيات التوحيد ومعرفة الله يُسلط الانتباه على آياته قاطبةً في عالم الخلق بأسره ، فيقول : **﴿سَرِّنِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾**.

«آفاق» : جمع «افق» وتعني الأطراف ، وعليه فانَّ «آفاق الأرض» تعني أطراف

(١) لقد فسر المفسرون جملة «أرأيْتُمْ» وكذلك «أرأيْتُكُمْ» بمعنى اخريوني أو «هل علمْتُمْ» ولكن باعتقاد بعض المحققين فانَّ هذه الجمل تنسماح مع المعنى الأصلي فمثلاً جملة (رأيْتُمْ) بمعنى (هل شاهدْتُمْ) ، ولكن حيث تكون المشاهدة في مثل هذه الموارد للعلم والأخبار فقد فسّرت بلازم المعنى ، وعلى آية حالٍ فإنَّ الغاية من ذكر هذه الجمل هو التذكير والتأكيد على دقة المخاطب ، ولو أردنا أن نفسّرها بلازم المعنى فيمكننا القول بانَّ هذا هو مفهومها .

(٢) «نصرف» من مادة «تصريف» وتعني التغيير ، وتعني هنا ذكر حقيقة ما بلباس وبيان مختلف ، و «يصادفون» من مادة «صَدَفَ» (على وزن هدف) وتعني هنا الإعراض .

الأرض ، و «آفاق السماء» تعني أطراف السماء ، وبما أنها ذكرت في آية البحث بشكلٍ مطلق ، فهي تشمل كل الأطراف شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً .  
و «أنفس» : لها هنا معنىً واسع حيث تتضمن الروح والجسم أيضاً ، وجميع أعضاء الجسم التي هي موضوع بحثنا .

وهنا إلى من يعود الضمير في «أنه الحق»؟ قال بعض المفسرين : المقصود هو القرآن ، والمقصود من آيات الآفاق الانتصارات التي حققها المسلمون في أطراف العالم ، والمقصود من آيات الانفس ، انتصاراتهم في بلاد العرب أي أننا نُرِيَهم الانتصارات في أطراف العالم وفي بلاد العرب كي يعلموا أنَّ القرآن حق .

وقال بعضهم : المقصود هو «رسول الله» ﷺ أو دينه ، حيث لا يتفاوت كثيراً مع التفسير الأول .

لكن الظاهر هو (كما فهمه عددٌ من المفسرين) أنَّ المقصود هو الله ، أي أننا نُرِيَهم آيات الآفاق والأنفس كي يتجلّى لهم أنَّ الله هو الحق .

يُعدُّ التعبير بـ «آياتٍ» من جانبٍ ، والتعبير بـ «الآفاق والأنفس» من جانبٍ آخر بالإضافة إلى الآية التي تليها والتي تتحدث عن التوحيد شواهد على هذا التفسير ، علمًا أنَّ هذه الآية تتوافق مع عدة آيات في القرآن الكريم التي تعرض آياتِ الله في عرضِ الخلق وجود الإنسان ، مثل : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ \* وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا لَا تُبَصِّرُونَ﴾ .

(الذاريات / ٢١ . ٢٠)

وقد ذُكر هذا المعنى أيضاً في تفسير على بن إبراهيم ، على الرغم من أنَّ بعض الروايات ذكرت أنَّ ضمير ، (أنَّه) يقصد به الإمام المهدى «عج» ولكن الظاهر أنَّه تفسيرٌ لبطون الآيات (والجمع بين التفاسير ممكن أيضاً) ، على أية حال ... ففي أيٍّ منها تمعنا نرى من خلاله آثار علمه وقدرته تعالى ، وكلُّ نباتٍ ينبعُ من الأرض ينطق بنفسه بـ «لا شريك له» و «قلب كلٌّ ذرة نفتحه . نرى شمسه في وسطه» .

والتعبير بـ «سُرِّيَهم» (نظراً لأنَّ الفعل المضارع في مثل هذه الموارد يعني الاستمرارية)

يُعتبر إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهي أنَّ كُلَّ يَوْمٍ يُمْرُّ من عمر الإنسان تُنكِشَفُ له حقائق جديدة عن هذا العالم ، وتنجلى أَسْرَارٌ خافية ، ففي كُلَّ يَوْمٍ يتوصَّلُ العلماء في مختبراتِهم ومكتباتِهم إلى اكتشافِ حديث ، وتتضح آيات جديدة من آيات الله ، ومن المُسْلِمُ به أنَّ هذه المسألة ستستمر حتى لو انقضت ملايين السنين من عمر الخليقة ، فكم هو عجيب عالمُ الْخَلْقِ الْوَاسِعِ ، وَكَمْ عَظِيمُ خَالِقُهُ؟

وَمِنْ شَمَّ فَانَّا لَا نَعْلَمُ شَيْئاً عَنْ مِلِيَّارَاتِ السَّنِينِ السَّابِقةِ وَمَا تَلَّا هَا ، وَلَيْسَ لِدِينِا أَدْنَى اطْلَاعَ عَنْ هَذَا الْكِتَابِ الْعَتِيقِ الَّذِي فُقِدَ فَصْلَاهُ (الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ). وَكُلُّ مَا نَعْلَمُهُ هُوَ نَزْرٌ يُسِيرٌ يَتَعَلَّقُ بِجَانِبٍ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الْوَاسِعِ وَفَصْلٌ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ الْكَبِيرِ : «الْعَظِيمُ لَهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

نَسْتَنْتَجُ مِنْ مَجْمُوعِ مَا مَضِيَّ مِنَ الْآيَاتِ أَنَّ كُلَّ عَضُوٍّ مِنْ أَعْضَاءِ جَسْمِِ الإِنْسَانِ ، بَلْ كُلَّ جَزْءٍ مِنْهَا ، يَعْتَبِرُ مَرَأَةً وَاضْحَاءً لِلْحَقِّ تَعَالَى ، وَآيَةً مُسْتَقْلَةً وَجْلِيَّةً مِنْ عِلْمٍ وَقُدْرَةٍ وَحِكْمَةٍ وَتَدْبِيرٍ خَالِقِ الْكَوْنِ.

\* \* \*

### توضيحان

#### ١. عجائب أعضاء الجسم

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي كُلِّ الْكَوْنِ مُوْجَودٌ سُوَىِّ الإِنْسَانِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي جَمِيعِ كِيَانِ هَذَا الإِنْسَانِ شَيْءٌ سُوَىِّ عَيْنٍ أَوْ أَذْنٍ وَاحِدَةٍ ، لَصَارَ ذَلِكَ سَبِيلًا لِمَعْرِفَةِ النَّذَاتِ الإِلَهِيَّةِ الْمُقَدَّسَةِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ ، لَأَنَّ بَنَاءَهَا دَقِيقٌ وَمُعَقَّدٌ وَمُحِبُّوكٌ بِقَدْرِ لَا يَصْدُقُ أَيُّ عَقْلٍ أَهْنَا مِنْ صَنْعِ الصَّدْفَةِ أَوْ الطَّبِيعَةِ الْعَمِيَّاءِ وَالصَّمَّاءِ ، بَلْ نَوَاجِهُ فِي كُلِّ مَرْحَلَةٍ مِنْ دَرَاسَتِهَا ، آيَةً جَدِيدَةً مِنْ عِلْمٍ وَقُدْرَةِ ذَلِكَ الصَّانِعِ الْحَكِيمِ.

فَمِنْ بَيْنِ مِئَاتِ الْخَصَائِصِ وَمِنْ خَلَالِ الدَّفَّةِ فِي حَاسَةِ الْبَصَرِ ، أَيِّ الْعَيْنِ ، يَكْفِيَنَا ذَكْرُ الْمَوْضِعِ الْآتِيَةِ كَيْ نَعْرِفَ الْعَرَابَةَ الْمَذَهَلَةَ فِي هَذَا الْعَضْوِ :

**١ . العدسة المتغيرة :** من المعروف أن العين تُشبّه بآلية التصوير ، بينما لا تصل أحدث آلات التصوير في العالم أن تكون كأُلُوبَةِ أمام عين الإنسان ، لأنّها تحتوي على عدسة ثابتة ، حيث يجب أن تُنظَم وتدَّارَ من قبل مصوِّر باستمرار من أجل التقاط الصور من عدة جهات ، إلَّا أنَّ عدسة العين الواقعَة خلف إنسان العين مباشرة ، تتغيَّر دائمًا بشكلٍ آلي ، فقد يتقلص قطرها أحياناً فيبلغ ٥ / ١ ملميتَر وأحياناً يتَّسع حيث يبلغ ٨ ملمترات فيسمح لها بالتقاط الصور من مناظر بعيدة وقرينة جدًا.

**٢ . طبقات العين السبع :** إن العين تتَّألف أساساً من سبعة حُجُب أو سبع طبقات وُتُسمى «الصلبية» و «العنبية» و «المشيمية» و «الجلدية» و «الرُّبالية» و «الرُّجاجية» و «الشَّبَكِيَّة» ، حيث لكل منها بناؤها الخاص بها وواجبها الذي تتحمِّله ، وشرحها يجُزُّنا إلى الاطالة ، فيكفيانا أن نعلم أنَّ اخْتِلَافَ فيها يُؤدي إلى اختلال النظر ، طبعًا تكمن خلف «الشَّبَكِيَّة» أعصاب بصرية تقل الصور التي تقع على الشبَّكِيَّة إلى الدماغ.

**٣ . الحساسية ازاء الضوء :** إن تنظيم النور بالنسبة للمصوِّرين يعتبر عملاً شاقاً ، وكثيراً ما تُكَلِّفُ مجموعة متخصصة بهذا العمل ، بينما تستطيع العين من خلال تغيير حساسيتها ازاء شدة الضوء أن تلتقط الصور من مناظر مختلفة وفي نور ضعيف أو قوي جدًا.

**٤ . الحركة المستمرة :** إن المصوِّرين يديرون أجهزتهم باستمرار نحو اليمين واليسار وإلى الأعلى والأسفل ، ويستخدمون مختلف الآلات لهذا العمل ، بينما نجد أنَّ العضلات التي تحيط بكرة العين تُدِيرُ هذا الجهاز بحركةٍ خاطفة إلى الجهات الأربع بشكلٍ كامل ، وتضاعف قدرة المناورة لديها للتصوير في جميع الجهات.

**٥ . المركبات البسيطة والدقيقة :** فمن أجل إعداد أجهزة التصوير يستفاد من أقوى العدسات والفلزات ، بينما تم صنَّاعَة العين من مواد لطيفة وفي نفس الوقت قد تستمر في العمل مائة عام لأنَّها جهاز حي يستطيع بناء نفسه وتَحْدِيد قواعده باستمرار ، بينما تعتبر الأجهزة التي يصنِّعها البشر أجهزةً ميتة!

**٦ . اعداد شريط التصوير :** يعتبر اعداد شريط التصوير بالنسبة لاجهة التصوير عملاً

صعباً ويجب استعمال حلقاتٍ متباعدة باستمرار من أجل التصوير ، بينما تصورٌ شبكيٌّ العين ذاتياً على الدوام ، وبعد انتقاله وحفظه في الدماغ يُمحى وتستعد لتصوير منظرٍ آخر ، وينجزُ هذا العمل بسرعةٍ عجيبةٍ ومدهشةٍ للغاية ، علمًا أنَّ مسألة اخراج شريط التصوير التي تعتبر عملاً شاقاً ومستهلكاً للوقت لم تُطرح هنا.

**٧ . الأجهزة الجانبية :** من أجل أن تقوم العين بانجاز واجباتها فقد جُهزت بالكثير من اللوازم التي يعتبر كلٌ منها مدهشاً أيضاً.

إنَّ وجود العدد «الفواره» التي تصبُّ السائل الخاص والشفاف بشكلٍ دائمٍ في العين ، ويسمح للاجفان أن تتحرك فوق فص العين بدون أقل تماسٍ خشنٍ ، وتسوق فضلات الماء الموجودة في أسفلها إلى الخارج ، فينحدر إلى بؤؤ العين ، وللأجفان ردود فعل سريعة مقابل الحوادث المختلفة حيث تحافظ على العين من الصدمات ، وهجوم التراب والغبار ، أو الضوء الشديد ، وبناء «الأهداب» التي هي بمنزلة ستائر تسمح للعين بالاستئثار قليلاً مع كون العين مفتوحة وتحفظها من دخول الغبار والتربا ، واستقرار العين في صندوقٍ عظمي قويٍّ جدًا كالقلعة المنيعة ، ووضع هذا الصندوق في مكانٍ مرتفعٍ من الجسم حيث يسمح لها أن ترى جوانبها كالراصد الذي يتمركز في المرصد ، ووجود الحاجب التي تمثل درعاً لحمايتها ، وامور جمَّة أخرى حيث لكلٍ منها قصةٌ لطيفةٌ ومدهشةٌ وغنية بالمعاني.

لو جمعنا كلَّ هذه الامور وتمعن فيها قليلاً فمن المسلم به اننا سنذعنُ أنَّ صانع العين كانَ مطلعًا على جميع الأنظمة المتعلقة بالعدسات ، وانعكاس الضوء ، ومسائل أخرى معقدة من هذا القبيل ، وخلقَ مثل هذا الموجود العجيب بعلمه وقدرته الأزلية.

\* \* \*

## ٢ . اللسان ، هذا العضو المحترف !

إنَّ من بين الأعضاء التي تمت الإشارة إليها في الآيات المذكورة هو اللسان ، الذي يعتبر بحقٍّ من عجائب خلق الله ، ولو كان لهذا اللسان لسانٌ ينطقُ عنه ، لشرحَ لنا ما فيه من

عجائب ، حينها يتضح لنا لماذا استند إليه القرآن الكريم.

لو القينا نظرةً قصيرةً على واجبات ومسؤوليات اللسان ، لاظهرت لنا جانبًا من هذه الحقائق ، وإنماً فلسان ستة واجبات أساسية هي :

**١ . دور اللسان في هضم الطعام :** لولا اللسان لما تمت عملية هضم الطعام بشكل كامل ، ولبقي قسم من الغذاء غير مهضوم ، وسوف نضطر إلى تحريك الأكل باصابعنا لتم عملية مضغه بواسطة الأسنان فاللسان يُقلب الطعام باستمرار من ثلاث جهات بين الأسنان بحركاته السريعة الماهرة ، دون أن يبقى في وسطها! أجل قد يصيّب التعب والعجز أحياناً فتقتصره الأسنان فيصاب بشدة ، وكأنَّ الله يريد أن يثبت لنا بأنَّ اللسان لو لم يمنح تلك المهارة الفائقة لتكرر هذا المشهد يومياً ولتعرض اللسان للجرح دائماً.

**٢ . خلط الطعام بلعاب الفم :** اللعاب هو ذلك السائل اللزج الذي يعمل على ترقيق وانزلاق الطعام وإعداده للبلع ، من جهة ، ومن جهة أخرى يجري عليه تفاعلات كيميائية خاصة ، ويعده للبلع والهضم ، فاللسان هو الذي يتکفل بمسؤولية مزجه بهذا السائل الحيوي.

**٣ . المساعدة في ابتلاع الطعام والماء :** إنَّ اللسان يلعب دوراً أساسياً في نفوذ الطعام والماء ، فبالتحمُّع والالتصاق بسقف الفم والضغط على الماء والطعام يدفعه سريعاً نحو البلعوم ، ولو اصيب بشلل ليوم واحدٍ على سبيل المثال لتعسر ابتلاع لقمةٍ واحدةٍ ولعله يصبح مستحيلاً.

**٤ . السيطرة على المواد الغذائية :** يستطيع اللسان . وبسبب قوة التذوق الشديدة فيه أن يشخص الكثير من المواد الضارة والسمامة للجسم ، ويقذفها خارجاً ، ولولا دور اللسان في السيطرة الماهرة على باب الدخول إلى الجسم لأُصيبَ الإنسان بالأمراض بسرعة نتيجة لأكلِه الأطعمة المضرة ، ولأصبح عرضة للأخطار ، فالطعام المير والمالح ، أو المتَّبل ، أو الفاسد والمعفن يميزه اللسان أولاً ، فيمنعه من الورود إلى الجسم ، أجل . هذا الحارس الغذائي مكلَّفٌ بالسيطرة على جميع المأكولات والمشروبات ليلاً ونهاراً.

٥ . تنظيف الفم : لابد أنكم قد تفحصتم يوماً أنَّ الفم واللسان ينشغلان بالحركة بعد الانتهاء من الطعام ، فهذه الحركة هي لتحريك وإزالة بقايا الطعام حيث تُجتمع في فضاء الفم ثم تُرسَلُ إلى القناة الهضمية ، وهذا العمل يتحمله اللسان بشكلٍ أساسي وحتى أنَّه ينظفُ الأسنان إلى حدٍ ما ، وخلاصة الأمر : يعتبر اللسان منظفًا ماهراً للفم.

٦ . النُّطُقُ : وأخيراً فانَّ أهْمَّ وادِقَّ واجِبٌ للسان هو البيان الذي استند إليه القرآن لا سيما في بداية سورة الرحمن لتعريف الله قائلاً : **﴿الرَّحْمَنُ عَلَمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْأَنْسَانَ عَلَمَهُ الْبَيْانَ﴾** . ومع أنَّ النُّطُقَ يُعتبر أمراً بسيطاً بسبب كثرة ممارسته ، إلا أنَّه يعتبر في الحقيقة من أكثر الأفعال تعقيداً حيث ينجزه الإنسان بـ «لسانه» و «عقله».

فيجب أن يختار أولاً الكلمة المناسبة من بين عشرات الآلاف أو مئات الآلاف من الكلمات وأحياناً أكثر من هذا العدد ، ثم يصدر الأوامر إلى اللسان أن يتحرك على مقاطع الحروف بحركاته الملتوية السريعة الماهرة ، وأن يُركِّب الحروف المطلوبة بمساعدة الرئة والحنجرة والأوتار الصوتية ويربطها فيما بينها وأن يكُونَ كلمةً واحدة ، ثم يختار الكلمة الثانية بنفس السرعة ، ويولِّدُ أصواتاً معينة ، ويستمر هكذا حتى تكتمل الجملة ، ولو اخطأ الذهن قليلاً في اختيار الكلمات فإنه يقصر عن استيعاب المعنى ولو حدث أدنى خطأ في حركات اللسان السريعة في فضاء الفم لما كانت هناك جملة واحدة مفيدة.

تأملوا الآن متتكلماً يتحدث باتزانٍ وفصاحة وبلاعنة ساعة كاملة ، لقد أدار لسانه في أطراف الفم آلاف المرات واستند إلى مقاطع الحروف تماماً وذلك في محيط صغيرٍ تتقلص إمكانية المناورة فيه كثيراً فائيُّ عملٍ عجيبٍ واعجaziٍّ يُؤديه؟ وهذا ليس إلا عرضٌ لقدرة الخالق العظيم.

ومن المسلم به أنَّ الشفاه تكملُ عمل اللسان ، وتنقُول بتكوين بعض الحروف ، وهذا التنسيق بين هذين العضوين يمثل عملاً لطيفاً ومدهشاً وأهم منه العمل الفكري الذي يلازم.

والخلاصة أنَّ لكلٍّ عضوٌ من الأعضاء الظاهرة أو الأجهزة الداخلية للجسم كالقلب والدماغ والشرايين وشبكة الأعصاب قصةً مفصلةً ومثيرةً ، ولو أردنا أن نتطرق إلى أسرارها واحد تلو الآخر لاستلزم سبعين متنًا من الورق لأنَّ من يسير أن تمتليء آلاف الكتب بأسرارها ، فالأفضل لنا أن نعترف بقصورنا في هذا المجال ونخضع إجلالاً على اعتاب قدرة الخالق العظيم ، ونترمّم بقول الشاعر بصدق الخلق ونقول أيّها الإنسان : عجباً لك إذ لم يكن للعالم مجال لمشاهدتك فلماذا لا تنظر إلى نفسك متعجباً :  
أَتَزُعمُ أَنَّكَ جَرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ!

\* \* \*



## ٢١ . آياته في الحياة الاجتماعية للإنسان

تمهيد :

مما لا شك فيه أنَّ الإنسان موجودٌ اجتماعيًّا بالطبع ، ويحصل على ما يحتاج إليه في الحياة الجماعية ، فتكامل الإنسان معنوياً ومادياً ، في العلوم والمعارف ، الحضارات والصناعات ، الآداب والتقاليد ، يحصل من خلال الحياة الجماعية ، بنحوٍ يمكننا من القول أنَّه لو فقدَ الإنسان هذا الطراز من الحياة فسيفقد كلَّ شيءٍ ، ويهبط إلى مستوى الحيوان . إنَّ اهتمام الإنسان بهذا الطراز من الحياة علاوة على فطريته ، فهو نابع من كثرة وتبادر حاجاته ، وهمته العالية لبلوغ مراحل اعظم وأكمل ، ولا يمكن تأمين هذه الحاجات الجسمية والروحية بدون الحياة الاجتماعية ، وإنَّما هو دور الإنسان منفردًا؟ ولكن يجب أن لا ننسى أنَّ الإنسان يحتاج إلى عوامل نفسية وبدنية كثيرة من أجل التعايش اجتماعيًّا ، حيث وضعها الخالق في متناول يديه ، وإذا تمَّ تحليل هذا الجانب من حياة الإنسان تحليلًا موضوعياً فسيتضح أنَّه من أكثر آيات الله عجباً . بهذا التمهيد نتجه نحو آيات القرآن التي تستند إلى هذا الأمر ونتمعن خاسعين في الآيات التالية :

- ١ . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ . (الروم / ٢١)
- ٢ . ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَفْسِيرٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيُسْكِنَ إِلَيْهَا﴾ . (الاعراف / ١٨٩)

٣ . ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ تَبَتَّلَهُ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيرًا﴾ . (الإنسان /

(٢)

٤ . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَانْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعْارِفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُمْ﴾ . (الحجرات / ١٣)

٥ . ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ \* وَالَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ انْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً \* مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . (الأنفال / ٦٣ . ٦٢)

\* \* \*

### جمع الآيات وتفسيرها

#### شرح المفردات :

«زوج» : تعني في الأصل الحيوان المذكر والمؤنث حيث يطلق هذا اللفظ على كلٌّ منهما ، ويطلق أحياناً بمعنى أكثر شموليةً . على كلٌّ شيئين متناظرين ، سواء كان من ناحية التشابه أو التضاد ، كزوج الحذاء ، أو الجوراب ، أو الليل والنهار والخير والشر وأمثالها ، أو الأرقام التي تقبل القسمة على اثنين متساوين ، لأنَّ كلاًّ منها يناظر الآخر ، إلَّا أَنَّهَا تُقال في خصوص البشر لمن أبرم عقد الزواج بينهما .

وقال بعض أرباب اللغة إنَّ معنى «زوج» عبارة عن الشكل الذي يكون له مثيل ، كالأنواع والألوان المختلفة ، أو الشيء الذي له مضاد ، كالرطب والجاف ، المذكر والمؤنث ، الليل والنهار ، الحلو والمر ، كما صرَّحوا أنَّ «زوج» تعني كلَّ فردٍ من الزوجين ، لا الاثنين معاً بل يجب أن يقال ل الاثنين «زوجان» ، واطلاقُ زوج على الاثنين هو من كلام الجهلة (١) .

«لِتَسْكُنُوا» : من مادة «سكن» وتعني في الأصل ثبات الشيء بعد الحركة ، وجاء في «مقاييس اللغة» أنَّ أصلها بمعنى الاطمئنان ، والحالة التي تعاكس الاضطراب والحركة ، وتطلق أحياناً على تخفيف ضغط العاصفة والحر والبرد ، والمطر والغضب أيضاً ، ولهذا سُميَّ «سكن» السفينة بهذا الاسم حيث يعتبر أساس واطمئنان السفينة ووضعها في

(١) المفردات ، مصباح اللغة ، التحقيق ولسان العرب .

الطريق الصحيح ، ومن هذا الجانب سميت «السِّكينة» بهذا الاسم ، حيث تُسكن حركات الحيوان بقطع رأسه ، كما يقال حالة الاطمئنان والاستقرار النفسي «سَكينة» أيضاً ، وتنطبق «مسكين» على من يبدو ساكناً في محله لشدة الفقر الذي يعانيه ، ويقال لمكان سكن واستقرار الإنسان «مسكناً» <sup>(١)</sup>.

و «شُعُوب» : طبقاً لقول بعضهم ، جمع «شَعْب» (على وزن صَعْب) ، وجمع «شِعْب» (على وزن فِعل) طبقاً لقول بعضهم الآخر ، بينما يعتقد البعض كصاحب مجمع البحرين أنَّ جمع الأول «شَعْب» وجمع الثاني «شَعَاب» ، وعلى أيَّةٍ حالٍ فائِّها تعني كما يقول صاحب «لسان العرب» الجمع والتفرق ، أو الإصلاح والفساد (وذلك يصور إلى أنَّ معناها الأصلي هو الوادي الذي يتجمَّع في الجانب الآخر من الجبل ويتسَعُ في الجانب السفلي وكما يقول الراغب في المفردات أنَّ المفهومين اجتمعاً فيه) لذلك يقال «شَعْب» للقبيلة التي انفصلت عن طائفةٍ كبيرة (فها صفةٌ جماعيةٌ تفريقية) وقال بعض أيضاً أنَّ «شَعَاب» تستخدم بخصوص العجم و «قبائل» للعرب <sup>(٢)</sup>.

ولهذا تأتي «شَعْب» أيضاً بمعنى التفرق وكذلك الاجتماع ، والإصلاح والفساد.

«أَلْف» : من مادة «إِلْف» على وزن «جَلْف» وتعني الاجتماع المتقارن بالانسجام والوئام ، وتأليف القلوب يعني إيجاد الالفة والأواصر والصلة بينها (وعلى هذا الأساس اطلقوا على تأليف الكتاب هذا الاسم حيث يتم إيجاد نوع من التألف والانسجام بين الألفاظ والمعاني والمواضيعات) ولهذا يقولون للعدد أَلْف حيث يعتقد العرف أنَّ كافية الاعداد مجموعه فيه لأنَّه يتكون من عدد واحد والعشرات والمائات والآلاف ، ولم تكن هناك أعدادٌ بعده بل تتكرر نفس الأرقام ، عشرة آلاف ومائة ألف و .... <sup>(٣)</sup>.

(١) التحقيق ، لسان العرب ، المفردات ، مجمع البحرين ، وكتاب العين.

(٢) تفسير مجمع البيان ، ج ٩ ، ص ١٣٨ .

(٣) مجمع البحرين ، لسان العرب ، مفردات الراغب.

## تفسيرٌ وتحليل

### الروح الاجتماعية للبشر واحدة من أعظم الموهاب الإلهية :

في سورة «الروم» وأثناء تعداد الآيات الإلهية في سبع آيات متقاربة<sup>(١)</sup> حيث تبدأ كل منها بتعبير «ومن آياته» أوضح جانباً من براهين عظمة الله في عالم الوجود بلحنٍ مرغوبٍ وجاذبٍ ونغمٍ لطيفةٍ ومحبٍّ والأية الأولى في البحث إحداها فقد أشارت إلى اللبنة الأولى في بناء المجتمع البشري ، أي وحدة الأسرة والعلاقة التي تسودها ، فيقول : **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾**

واللطيف أنه لم يذكر هنا أنَّ الهدف من الحياة الزوجية هو بقاء النسل ، بل يذكر نيل الاطمئنان والسكينة ، الذي يحصل من خلال الحياة الزوجية ، لأنَّ هذين الجنسين يُكمل أحدهما الآخر ، ويكونان سبباً لتفتح وانقاد وتربيَّة كلِّ منهما ، بنحوٍ يدوِّي كُلُّ منهما ناقصاً بدون الآخر ، وينال تكامله عن هذا الطريق.

إنَّ هذا الاطمئنان والسكون لا يقتصر على الجانب الجسدي بل إنَّ جانبه الروحي أهم وأقوى.

والاضطرابات النفسية وفقدان التوازن الروحي ، والأمراض المختلفة المتخضة عن الزهد في الزواج ، شاهدٌ ناطقٌ على هذا المعنى.

ثم يضيف : **﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوْدَةً وَرَحْمَةً﴾**.

هذه المودة والرحمة التي تُعتبر في الحقيقة الركن الأساس وحلقة الوصل والإرتباط ما بين الناس ، فترتبط الأشخاص المترافقين والمتباعد़ين ، وتخلق من ذلك مجتمعاً قوياً ، تقوم المواد الأساسية في البناء بشدَّ قطع الطابوق والحجر ويشيدُ منها بناءً ضخمًّا وعظيماً.

واللطيف كذلك أنه استند مره ثانية في نهاية الآية إلى هذه النكتة التوحيدية : قائلاً :

**﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لِآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾**.

(١) تبدأ هذه الآيات من الآية ٢٠ من السورة وحتى الآية ٢٥ (ست آيات متتابعة) والآية ٧ والآية ٤٦ من نفس السورة.

ولو تأملنا في تشكيل الحياة الزوجية وهي أول وحدة اجتماعية ، في الرابطة القوية التي تتكون بين هذين الجنسين المختلفين ، ومن ثم لو تأملنا في الوحدات الاجتماعية الأكبر : العائلة ، الأقارب ، الطائفة والعشيرة ، ثم في المدن والاقطاع وفي كل المجتمع البشري ، فاننا سنواجه في كل خطوة خطوها آية من آيات الله العظيمة .

فمن الذي خلق الحبّة والمودة بين المرأة والرجل ، والأب والام وابنهما ، والعشيرة والأقارب ، وكل الناس بشكل عام؟

من الذي وضع التوازن بين جنس المرأة والرجل في المجتمع البشري؟ بشكل يتم الحفاظ على هذا التوازن رغم الحوادث المعقّدة التي تطرأ في المجتمعات كالموت والولادات!

من الذي خلق الأذواق المختلفة في العقول ، والرغبات المتباعدة في القلوب؟ وأخذ يبد كل صنفٍ نحو عملٍ و برنامِج ، كي يتكون من مجموعهم مجتمع إنسانيٌ ككتلةٍ واحدةٍ متكاملةٍ من جميع الجوانب .

ولعله لهذا السبب أشار في الآية الآتية إلى اختلاف الألسن و تباين الألوان و يعتبر ذلك من آيات الله . فيقول : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقُ الْسِنَّاتِ كُلُّهُمْ وَالْوَانِّيْنَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِيْنَ﴾ . (الروم / ٢٢)

وما لا شك فيه أن أحد التفاسير لاختلاف الألسن والألوان ، هو هذا التباين الموجود في النطق والأذواق والجذب الفكري للأشخاص ، مما يؤدي إلى أن يتحلى المجتمع البشري بالانسجام التام ، بنحو لا يحصل معه فراغ في أي من الحاجات المعنوية والمادية للبشر .

«مَوَدَّة» : من مادة «وُدّ» (على وزن حُبّ) وتعني الحبّة كما تطلق على «الأمل في تحقيق الشيء» (وكلا المعنيين فرييان لبعضهما) ولفظ «وَدّ» (على وزن حَدّ) اسم لأحد اصنام الجاهلية ، وسمي بذلك الاسم لحبّتهم الشديدة له ، أو لأنّهم كانوا يظنّون بوجود مودة بين الله وهذا الصنم ، كما يطلق هذا اللفظ على «المسمار» ، حتى قال بعض إن لفظ «وَدْ»

الذي يعني في لغة العرب «المسمار» مأخوذه من أصل «ؤد» لأنَّ المسامير تلتصق بالجدار أو الأشياء الأخرى ، ومن هنا فهي تتشابه مع مفهوم الحبّة <sup>(١)</sup> .

«رَحْمَة» : وتعني حالة الليونة التي تحصل في قلب الإنسان فتجعله يميل إلى الاحسان تجاه من يستحق الرحمة ، ومن المسلم به أكّاً حينما تُستخدم في مورد الباري تعالى فاكّاً تعني الإنعام والعطاء والاحسان.

وهنا ما الفرق بين الاثنين «المودة والرحمة» في هذه الآية؟ لقد اعطى المفسّرون عدّة احتمالات ، ويمكن القول أنَّ الجامع بينها هو أنَّ «المودة» تُقال لشيءٍ له مقابل ، كالمحبة التي بين المرأة والرجل أو الأخوين ، حيث تدفع كلاًّ منهما إلى تقديم الخدمة إلى الآخر ، إلّا أنَّ «الرحمة» من جانبٍ واحدٍ وتشتمل على التضاحية ، كعلاقة الحب بين الوالدين وابنهما ، أو أحد الزوجين نحو الآخر عندما يعجز عن العمل.

وهنا تكمن نكثة مهمّة ، وهي يجب أن يقوم في الحياة الزوجية وكذلك الحياة الاجتماعية بشكلٍ عامٍ نوعان من العلاقة المعنوية :

الأول : العلاقة التي تتحذ طابع الخدمات المقابلة ، فيقوم كل فرد أو طبقة بخدمات مقابلة تجاه الأفراد أو الطبقات الأخرى.

والثاني : «الخدمات المجانية» ، لأنَّ المجتمعات البشرية أو الأسر التي هي مجتمعٌ مصغرٌ تعُج بالأطفال والضعفاء والعجزة باستمرار ولو شاؤ انتظار الخدمات المقابلة لظلّوا يعانون الحرمان ، هنا حيث يعطي مفهوم «المودة» مكانه إلى «الرحمة» ، وتحلُّ الخدمات التضاحية محلَّ الخدمات المقابلة ، وكم لطيف هذا التعبير القرآني الذي لن ترى المجتمعات البشرية صورة الاطمئنان والراحة إلّا بالعمل به.

\* \* \*

والآية الثانية من البحث تردد هذه الحقيقة التي وردت في الآية الآنفة مع هذا الفارق

(١) مفردات الراغب مادة (ود).

حيث تقول : **﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيُسْكُنَ إِلَيْهَا﴾** .  
 والمقصود من «نفسٍ واحدةٍ» باعتقاد اغلب المفسّرين هو آدم عليه السلام<sup>(١)</sup> ،  
 ومن المسلم به أنَّ التعبير التي جاءت في ذيل الآية وتشتمل منها رائحة الشرك ، لا تعني الشرك  
 في الاعتقاد ولا في العبادة ، بل يمكن أن يكون المقصود منها هو ميل آدم إلى ابنته ، الميل  
 الذي قد يجذبُ الإنسان نحوه في لحظات خاطفة ويجعله يغفل عن غيره .  
 ويُحتملُ أن يكون المراد من «نفسٍ واحدةٍ» هو «الوحدة النوعية» ، أي (خلقكم من  
 نوعٍ واحدٍ) .

وليس المقصود من عبارة : «جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» أنَّ زوجة آدم «حواء» قد خُلِقَتْ من  
 جزءٍ من جسمه ، كما نُقل في الرواية الموضوعة أنَّ حواء خُلِقتْ من ضلع آدم الأيسر ،  
 ولهذا يقل عدد الأضلع في الجانب الأيسر عنها في الجانب الأيمن بضلع واحدٍ ، لدى الرجال  
 ، ولا شك أنَّ عدد الأضلع في كلا جانبي الرجل لا يتفاوت أبداً ، ومن السهولة تجربة ذلك  
 ، بل إنَّ المقصود هو :

إِنَّهُ خَلَقَ زَوْجَهَا آدَمَ مِنْ جَنْسِهِ ، كَيْ تَكُونَ بَيْنَهُمَا الْجَاذِبَةُ الْجَنْسِيَّةُ ، وَلَيْسَ مِنْ جَنْسِ  
 بَعِيْدٍ وَغَرِيْبٍ ، كَمَا نَقَرَأَ بِخَصْصَوْصِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي  
 الْأَمِيْنِ رَسُوْلًا مِنْهُمْ﴾** .

\* \* \*

ويشير في الآية الثالثة إلى خلق الإنسان من نطفةٍ مختلطة ، فيقول : **﴿إِنَّا خَلَقْنَا  
 الْأَنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّيْتَلِيهُ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيْعًا بَصِيْرًا﴾** .

وتم التلميح في هذه الآية إلى ثلث مزايا للإنسان : الأولى امتزاج النطفة ، ويستفاد  
 هذا الامتزاج من لفظ «أمشاج» جمع «مشيج» أو «مَسَّاج» (على وزن مَدْ) وتعني الشيء

(١) تفسير مجمع البيان ، ج ٤ ، ص ٥٠٨ ؛ والتفسير الكبير ، ج ١٥ ، ص ٨٥ ؛ وتفسير روح البيان ، ج ٣  
 ، ص ٢٠٩٤ ؛ تفسير الميزان ، ج ٨ ، ص ٣٩١ ، ونقل هذا المعنى في تفسير القرطبي (ج ٤ ، ص ٢٧٧٣) عن  
 جمهور المفسّرين .

الممزوج ، ولهذا معنىً واسع حيث يشمل احتلاط النطفة من «البيضة» و «الحيمن» ، وكذلك المواد المعدنية المختلفة وغيرها من المواد التي تتضاهر لصنع النطفة ، كما يمكن أن تكون إشارة إلى القوى المختلفة والقابليات المتباينة والأدوات المتفاوتة الموجودة في نطفة الإنسان وتعده للحياة الاجتماعية في الحالات كافة.

والثاني عبارة «نبتليه» التي تشير إلى انتقال الإنسان من حالة إلى أخرى ، والتحولات المستمرة وأنواع الابتلاءات والاختبارات التي تأخذ بيده في مسيرته التكاملية وتعتبر دليلاً على تكليف الإنسان ومسؤوليته ، لأنَّ الاختبار غير ممكِّن بدون حرية الإرادة ، والقابلية على أداء التكليف.

والثالث امتلاك الأدوات المهمة للمعرفة ومن أهمها السمع والبصر ، فالسمع للاستفادة من العلوم النقلية وأفكار الآخرين ، والعين للمشاهدة والاتصال المباشر بحقائق العالم.

فهكذا إنسان وبمثل هذه الموصفات جديرٌ بأن يرتقي إلى مقام خليفة الله وقدرٌ على الحياة الجماعية.

\* \* \*

وفي الآية الرابعة وجَهَ الكلام إلى الناس قاطبةً ، قائلاً : ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ دَرَجَاتٍ﴾ .

بناءً على ذلك ليس هنالك أي تمايزٍ بين الأجناس والقبائل والشعوب ، لأنَّهم يرجعون إلى أصلٍ واحدٍ : «أبواهم آدم وأمّهم حواء».

ثم أشار إلى فلسفة تصنيف الناس إلى شعوب وطوائف مضيفاً : ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِيلَ لِتَعْرِفُوا﴾ .

لا شكَّ أنَّ أول شروط الحياة الاجتماعية هي معرفة الأشخاص ببعضهم ، إذ لو لاهما لاختَلَّ نظام المجتمع البشري خالل يوم واحد ، فلم يُعرف المجرم من البري ، ولا الدائن من المدين ، ولا القائد من المقود ، ولا الأئمَّة من التابعين ، و ... أجمل .. اللهُ الذي خلقَ الإنسان مثل هذه الحياة وبجعله أجناساً وقبائل وجماعاتٍ تتباين تماماً بالمواصفات وبجعل في كلِّ

قبيلةٍ أشخاصاً يمتازون بـ مزايا شخصية خاصةٍ كـي تحلَّ مسألة «التعارف». ويقول في نهاية الآية كاستنتاج أخلاقي من هذه المسألة الاجتماعية : إنَّ الانتساب للقبائل والجماعات ليس دليلاً على أيِّ تفاضل أبداً بل : ﴿أَنَّ أَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْقَاصُكُمْ﴾ . فالتفوى لا تُعتبر مسألة أخلاقية فحسب ، بل مسألة اجتماعية لا تستقيم الحياة الاجتماعية للبشر إلَّا من خاللها ، التقوى في جميع المحالات ، التقوى الاقتصادية ، التقوى السياسية ، تقوى اللسان والتقوى الفكرية.

\* \* \*

وفي الآية الخامسة والأخيرة من البحث يعتبر «تأليف القلوب» أحد الأدلة المهمة على انتصار نبي الإسلام ﷺ ، فيقول : ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ .

ويثبتُ هذا التعبير بوضوح أنَّ تأليف القلوب يعتبر أمراً حتمياً من أجل التغلُّب على المشكلات الاجتماعية ، وقد خلقَ اللهُ هذا الاستعداد لدى البشر ولولاه لم يتسمَّ التأليف بين القلوب ، ولو لم يحصل فستضطرُّب حياة البشر الاجتماعية.

ثمَّ يُلمّحُ إلى مسألةٍ لطيفةٍ وهي أنَّ تأليف القلوب لا يتحقق بالطرق المادية ، بل يمكن تحقيقه من خلال الإيمان والأساليب المعنوية والقيم الإنسانية السامية ، فيقول : ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

صحيحٌ أنَّ هذه الآية نزلت بخصوص أصحاب رسول الله ﷺ ، إلَّا أنَّ من الواضح أنَّ مفهومها عامٌ ويشمل المؤمنين قاطبةً ، كما اشير إلى هذا المعنى في تفسير الميزان <sup>(١)</sup> . إنَّ المسائل المادية وبسبب ضيقها تكون مصدراً للنزاعات والصراعات ، ولو فرضنا أن تكون عاملًا للوحدة يوماً ما ، فستكون وحدةً غير راسخةً ، فالوحدة الراسخة تتحقق في ظلِّ الإيمان والتقوى والقيم الروحية فقط.

(١) تفسير الميزان ، ج ٩ ، ص ١٢٠ .

وورد قرئًّا هذا المعنى بتعابير أخرى في قوله تعالى حيث يقول حول أصحاب رسول

الله عَلَيْهِ الْحَمْدُ : **﴿أَشَدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحْمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾** . (الفتح / ٢٩)

وما يثير اهتمامنا هنا هو التعبير بـ **﴿هُوَ الَّذِي﴾** في بداية الآية ، حيث تُعرَّفُ الباري من خلال نصرة رسول الله عَلَيْهِ الْحَمْدُ والتأليف بين قلوب المؤمنين ، ويعدها من آيات وجود الله تعالى ، التاليف الذي يسمى على جميع أنواع التاليف ، حتى على الروابط النسبية والسببية ، ولهذا فقد هيمنت أواصر العصبية القبلية وبنحوٍ مذهبٍ على العلاقات التي كانت تسود المجتمع العربي أبان العصر الجاهلي لكن أواصر الإيمان والتقوى طفت على جميع أنواع الروابط ، وظهرت آثار هذا التاليف الروحي والمعنوي في جميع جوانب حياتهم الفردية والاجتماعية ، وأدْعَنَ العَالَمَ باسْرِهِ أَمَامَ عَظَمَتِهِمْ .

\* \* \*

### توضيح

#### هل للمجتمع روح؟

إنَّ الْأَحْيَاءَ عَلَى قَسْمَيْنِ وَأَغْلُبُهَا يَعِيشُ مُنْفَرِدًا وَلَا وَجْهُ اجْتِمَاعِيٍّ فِيمَا بَيْنَهَا وَلَوْ عَلَى صَعِيدِ اصْغَرِ وَحْدَةِ اجْتِمَاعِيَّةِ أَيِّ الْعَائِلَةِ ، وَبَعْضُهَا قَدْ تَخْطُّى هَذِهِ الْحَيَاةِ قَلِيلًاً وَأَخْذَ يَعِيشُ مَعَ قَرِيبِهِ ، وَلَكِنْ قَلِيلًاً مِنَ الْحَيَّانَاتِ تَعِيشُ حَيَاةً جَمَاعِيَّةً ، وَبَعْضُهَا قَدْ كَوَنَ حَضَارَةً ، كَالنَّحْلُ ، وَالنَّمَلُ ، وَالْأَرْضَةُ وَغَيْرُهَا مِنَ الْحَيَّانَاتِ .

إِلَّا أَنَّ هَذِهِ الصِّنْفَ «الْحَيَّانَاتُ الاجْتِمَاعِيَّةُ» لَهَا نُوعَانٌ مِنَ النَّقْصِ أَيْضًاً : الْأَوْلُ : هُوَ اسْتِحَالَةُ الْحَيَاةِ الْمُشَتَّكَةِ بَيْنَ الْمُجَامِعِ الْمُتَبَايِنَةِ (كَنْحُلٌ خَلِيَّتَيْنِ أَوْ بَضْعٌ خَلَائِيَا) ، وَالثَّانِي : إِنَّ حَيَاكُمُ الاجْتِمَاعِيَّةَ تَتَخَذُ طَابِعًاً وَاحِدًاً بَاسْتِمْرَارٍ ، أَيْ أَنَّ النَّحْلَ يَعِيشُ الْيَوْمَ كَمَا يَعِيشُ قَبْلَ مَلِيُونِ سَنَةٍ .

فَالْكَائِنُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَعِيشُ حَيَاةً جَمَاعِيَّةً غَيْرَ مَقِيَّدةٍ وَيَسِيرُ نَحْوَ التَّطْوِيرِ وَالْتَّكَامِلِ هُوَ إِنْسَانٌ ، وَالْدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ هُذَا النَّمَوُ وَالْتَّطْوِيرُ وَسِيَادَةُ الْعِلْمِ وَالْعُقْلُ عَلَى حَيَاتِهِ الاجْتِمَاعِيَّةِ .

وهنا بحوث كثيرة لو أردنا الولوج فيها سنخرج من إطار البحث التفسيري ولكن يبدو من الضروري التذكير ببعض الأمور :

١ . ما هو منشأ رغبة الإنسان للحياة الاجتماعية؟ . هنالك آراء مختلفة ، ويبدو أكثرها صواباً هو أنه مزيج من الحوافر «الغريزية» و «العاطفية» و «الفكرية» فالعقل يقول إن التكامل ممكن في ظل الحياة الاجتماعية فقط سواء كان معنوياً أو عادياً ، لأنَّه من البديهي إذا أراد فرد أو اسرة أن تعيش بمعزل عن الآخرين ، فلا وجود لهذه العلوم والمعارف ولا هذه الصناعات والابداعات ، فلا شك أَنَّها حصلت من خلال استثمار تكُّدُّس الطاقات الفكرية والجسمية ، ونقل كل جيل تجاريه إلى الأجيال الأخرى ، واثرت هذه الظواهر الجبارية من خلال تجمعها وتظافرها .

ومن ناحيةٍ أخرى فأنَّ الإنسان يميل إلى هذه الحياة من خلال حافرٍ ذاتيٍّ وعاطفيٍّ ، فهو يضجر من العزلة ، ويشعر باللذة من خلال حديثه وجلوسه وقيامه مع رفقاء ، وسجُّل الوحيدة يمثل أقسى عذابٍ بالنسبة له ، وقد اثبتت تجارب العلماء أنَّ العزلة لو استمرت فستؤدي إلى اضطرابات نفسية على مدى فترة قصيرة ، وبغض النظر عن منافع التعايش الجماعي فإنَّ هذا يؤكد على أنَّ الإنسان يرغب بطبعه في هذا التعايش .

٢ . لقد اعتبر الإسلام الحياة الاجتماعية للبشر من أهم مبادئه ، ولم يهتم بها في العلاقات السياسية والاقتصادية فقط بل حتى في مسألة العبادات التي تعتبر علاقة بين الخلق والخالق ، فاعطى للعبادات الجماعية «صلوة الجمعة» وصلوة الجمعة ومناسك الحج ، أهمية لا مثيل لها .

فماهية الصلاة ، والاذان والاقامة تُحفَّزُ الجميع لصلة الجمعة ، ويرهن ضمير الجمع الوارد في سورة الفاتحة ، والسلام الذي في خاتمة الصلاة ، على أنَّ الصلاة ذات صفةٍ اجتماعية واداؤها فرادي يُعد صيغة فرعية .

وقد اعطيت الحياة الاجتماعية أهمية بالغة في الإسلام بحيث اعتبر كل ما يؤدي إلى الاختلاف والتفرقة ( كالحسد ، قول الزور ، والغيبة ، والنفاق و ...) من الذنوب الكبيرة ، وكل

ما يؤدّي إلى السّلام والوئام والإصلاح بين الناس جزءاً من أفضل العبادات.

٣ . أنَّ تَحْقِيقَ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْبَشَرِ لَيْسَ امْرًا بِسِيْطًا ، لِأَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى تَوْزِيعِ الْقَابِلِيَّاتِ وَالْقَدْرَاتِ الْعُقْلِيَّةِ وَالْجَسْمِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَتَخْطِيطٍ دَقِيقٍ ، وَتَوْزِيعٍ لِلأَعْمَالِ ، وَالْتَّنْسِيقِ وَالتَّالِفِ بَيْنَ الْقُلُوبِ ، وَطَبِيقًا لِلتَّعْبِيرِ الَّذِي وَرَدَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ فَإِنَّ الْبَشَرَ كَمَوَادِ الْبَنَاءِ . الطَّابُوقُ وَالْحَدِيدُ وَالْمَوَادُ الْإِنْشَائِيَّةُ الْأُخْرَى . الَّتِي إِذَا لَمْ تَكُنْ فِي مَا بَيْنَهَا وَسِيلَةً لِلرِّبْطِ وَالْالْتَحَامِ لَمْ يَتَشَيَّدْ مِنْهَا بَنَاءً شَامِحًا ، وَهُنَا جَاءَتْ يَدُ الْقَدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ مُسَاعِدَةً لِلْإِنْسَانِ ، وَوُضِعَتْ الْخَطَّةُ الدَّقِيقَةُ الرَّامِيَّةُ إِلَى تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ ، وَتَوْزِيعِ الْقَابِلِيَّاتِ الْعُقْلِيَّةِ وَالْجَسْمِيَّةِ ، وَأَنْوَاعِ الْأَذْوَاقِ وَالْفَنَوْنِ ، وَرَفَدَتِ الْإِنْسَانَ بِالْمَوَاهِبِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي لَنْ تَدُورْ عَجْلَةُ الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْبَشَرِ بِدُونَهَا أَبَدًا ، وَيُعَيِّرُ عَنْ مَجْمُوعِ هَذِهِ الْأَمْرَوْنِ أَحَيَّانًا بِ«رُوحُ الْمَجَمِعِ» وَإِلَّا فَانَا نَعْلَمُ أَنَّ لِيَسُ لِلْمَجَمِعِ رُوحٌ خَاصَّةٌ غَيْرُ مَا دُكُرَ.

مِنْ يَا تَرَى أُوجَدَ هَذِهِ الرُّوحُ الْاجْتِمَاعِيَّةُ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ مَوَاضِعٍ مِنْ أَجْلِ دَفْعِ الْإِنْسَانِ نَحْوَ التَّكَامُلِ؟ فَهَلْ تَسْتَطِعُ الطَّبِيعَةُ الْعَمِيَّةُ الصَّمَمَ الَّتِي لَا عُقْلَ لَوْلَا احْسَاسٌ لَهَا أَنْ تُوجَدَ هَذَا التَّخْطِيطُ ، وَهَذِهِ الْمَوْدَةُ وَالرَّحْمَةُ ، وَهَذِهِ السَّكِينَةُ وَالْأَطْمَئْنَانُ ، وَنَطْفَةُ الْأَمْشاجِ ، وَهَذَا التَّعَارُفُ الْعَامُ ، وَهَذَا التَّالِفُ بَيْنَ الْقُلُوبِ؟!

لَهُذَا تَعَتَّبُ الْآيَاتُ الْمَذَكُورَةُ هَذِهُ الْأَمْرَوْنِ مِنْ آيَاتِ عَظِيمَةٍ وَعِلْمٍ وَقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

وَنَخْتَنِمُ هَذَا الْكَلَامَ بِالْحَدِيثِ الَّذِي وَرَدَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا يَخْصُ اهْتِمَامَ الْإِسْلَامِ بِتَقْوِيَةِ الْأَوَّلِيَّاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بَيْنَ أَبْنَاءِ الْبَشَرِ ، إِذَا يَقُولُ ﷺ :

«إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ فَاخْدَأْ بِيَدِهِ تَحَاتَتْ عَنْهُمَا ذُنُوبُهُمَا كَمَا تَسْتَحَاثُ الْوَرْقُ عَنِ الشَّجَرِ الْيَابِسِ فِي يَوْمِ رِيحٍ عَاصِفٍ وَ«لَا يَفْتَرُقَانِ» إِلَّا عُفِرَ لَهُمَا ذُنُوبُهُمَا وَلَوْ كَانَ مِثْلُ زَيْدٍ الْبَحَارِ!»<sup>(١)</sup>.

### كَلْمَةُ الْخَتَامِ :

مِنْ مَجْمُوعِ مَا جَاءَ فِي بَحْوَتِ هَذَا الْكِتَابِ الْمُخْتَلِفَةِ تَتَضَعَّ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ بِجَلَاءِ وَهِيَ أَنَّ

(١) الطَّبِيرَانيُّ ، نَقْلًا عَنْ تَفْسِيرِ فِي ظَلَالِ الْقُرْآنِ ، جِ ٤ ، صِ ٥٧ .

المعشوق يتخلّى من كلّ بابٍ وجدارٍ ، وفاض بأنواره على كلّ موجودات الدنيا ، ورسم اسماءه وصفاته على جبين كلّ الكائنات.

فقد تخلّى بمائة الفٍ من الأنوار ، كي نراه بمائة الفٍ من الأ بصار ، وهو قد اضاء شمساً في قلب كلّ ذرة ، واظهر آثار علمه وقدرته في السماء والأرض.

وقد وُصفَ في آيات القرآن بهذا الطريق وأحصى آياته في الآفاق والأنفس.

فتكتفي عينان ، واذنان ، وقلب يقظٌ كي يرى المرء هذه الأنوار ، وأن يسمع انعام التوحيد ، وان يدعو خير المحسنين إلى القلب ، ويستضيفه في هذه الخلوة الانيسة ، وهذا العرش العظيم ، ويخاطبه في جذبٍ روحيةٍ ويترنم بما يلي من الاشعار :

لَبَّيْكَ يَا عَالَمًا سَرِّي وَجْهَوَائِي      لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يَا فَقْرَى وَمُغْنَائِي  
 أَدْعُوكَ بَلَى أَنْتَ تَدْعُونِي فَهَلْ      نَاجِيَتْ إِيَّاكَ أَوْ ناجِيَتْ إِيَّائِي  
 حُبِّي لِمَوْلَاي أَضَنَانِي وَأَشْقَمَنِي      فَكَيْفَ أَشْكَوْهُ إِلَى مَوْلَاي مَوْلَائِي  
 يَا وَبْحَ رُوحِي مِنْ رُوحِي وِيَا أَسَفِي      عَلَيَّ مَنِي فِي إِلَيِّي أَصْلَ بُلْوَائِي<sup>(١)</sup>  
 الْهَيْ ! امْلأَ قلوبَنَا مِنْ حَبْلِكَ وَمَعْرِفَتِكَ وَإِيمَانِ بِكَ.

رَبَّا ! أَفِضْ عَلَيْنَا نَحْنُ الْعَطَاشِي مِنْ كَوْسِ مَعْرِفَتِكَ وَاجْعَلْنَا سَكَارِي إِلَى الْأَبْدِ في

جَذْبَةٍ رُوحِيَّةٍ مِنْ جَذْبَاتِكَ.

يَا مَوْلَاي ! مِنْ الصَّعْبِ طَرِيْقُ مَعْرِفَةِ ذَاتِكَ الْمَقْدَسَةِ إِلَّا بِلَطْفِكَ وَرِعَايَتِكَ وَتَوْفِيقِكَ ، فَاجْعَلْنَا مَشْمُولِينَ بِرِعَايَتِكَ وَفَضْلِكَ وَتَوْفِيقِكَ.

آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ

ختام الجزء الثاني من نفحات القرآن

١٣٦٧ / ٤ / ١١

الموافق لـ ١٧ ذي القعدة ١٤٠٨

(١) روضات الجنان ، ج ٣ ، ص ١٤٨ ، الشعر لحسين بن منصور الحلاج.

## الفهرس

	البحث عن عظمة الله ومعرفته في القرآن الكريم.....
٥	أسئلة مهمة ومصيرية.....
٥	<b>د الواقع في البحث عن عظمة الله.....</b>
٧	١. الدافع العقلي.....
٩	جمع الآيات وتفسيرها.....
١٠	التحقيق من مسؤوليات الإنسان الأساسية.....
١٠	النتيجة.....
١٧	توضيحان.....
١٧	١. الدوافع العقلية لفهم الدين في الروايات الإسلامية.....
١٨	٢. المعاندون المخلون .....
١٩	٢. الدافع العاطفي .....
٢٠	جمع الآيات وتفسيرها.....
٢٠	شكر المنعم سلم إلى معرفة الله .....
٢٤	شكر المنعم في الروايات الإسلامية.....
٢٧	٣. الدافع الفطري .....
٢٩	توضيحات.....
٢٩	التبيرات المنحرفة .....

٢٩	١. نظرية الجهل
٣١	٢. نظرية الخوف
٣٢	٣. نظرية العامل الاقتصادي
٣٣	٤. النظرية الجنسية
٣٥	٥. نظرية الحاجات الأخلاقية
٣٧	براهين معرفة الله
٣٩	١. برهان النظم
٣٩	مميزات برهان النظم
٤٠	أسس برهان النظم
٤١	العلاقة بين النظام والعلم
٤٥	١. آياته في خلق الإنسان
٤٥	شرح المفردات
٤٧	جمع الآيات وتفسيرها
٤٧	آيات الأنفس الأولى
٥١	التعقيد والدقة في نظام الخلق
٥٥	٢. آياته في نمو الجنين
٥٦	شرح المفردات
٥٧	جمع الآيات وتفسيرها
٥٧	علم الجنين الغامض
٦١	توضيحات
٦١	١. صورة في الماء
٦٢	٢. في ظلمات ثلاث

٣ . مقر الأمان والأمان .....	٦٢
٤ . خصيمٌ مبين .....	٦٣
٥ . تغذية الجنين .....	٦٣
٦ . مصير الجنين من حيث الجنس .....	٦٥
٧ . تغيرات سريعة ومبهمة .....	٦٥
٨ . نظرة الرحم المستقبلية .....	٦٦
٩ . كسائ للعظام .....	٦٦
١٠ . خروج الجنين .....	٦٧
١١ . التغيرات المذهلة في لحظة الولادة .....	٦٧
١٢ . بكاء الأطفال .....	٦٩
١٣ . اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الأطفال .....	٧٠
١٤ . غذاء الطفل مُعدًّا قبل ولادته .....	٧١
٣ . آياته في عالم الحياة .....	٧٣
شرح المفردات .....	٧٤
جمع الآيات وتفسيرها .....	٧٦
خلق الحياة آية الخلق .....	٧٦
توضيحان .....	٨٢
١ . لغر الحياة الكبير .....	٨٢
٢ . هل بإمكان الإنسان صناعة كائن حي .....	٨٤
٤ . آياته في خلق الروح .....	٨٧
شرح المفردات .....	٨٨
جمع الآيات وتفسيرها .....	٨٩
الروح أعجوبة عالم الخلقة .....	٨٩

٩٤	توضيحات
٩٤	١. القوى الظاهرة والباطنة للروح
٩٥	٢. الروح ... الظاهرة الخفية في عالم الوجود
٩٦	٣. نشاطات الروح المختلفة
٩٩	٤. مقارنة عقل الإنسان بالعقلون الألكترونية
٩٩	٥. أصلية واستقلال الروح
١٠١	٦. خصوصيات الروح في القرآن الكريم
١٠٢	٧. مسک الختام حول الروح
١٠٣	٥. آياته في المداية الفطرية والغريزية للإنسان والحيوان
١٠١	جمع الآيات وتفسيرها
١٠٤	أستاذ الأزل
١١١	توضيح: المداية الفطرية والغريزية في العلم المعاصر
١١٩	٦. آياته في حالي النوم واليقظة
١٢٠	شرح المفردات
١٢٠	جمع الآيات وتفسيرها
١٢٠	النوم من آيات الله
١٢٥	٧. آياته في بسط السماوات والأرض
١٢٧	شرح المفردات
١٢٩	جمع الآيات وتفسيرها
١٢٩	ارتفاع السماء آية حق
١٤٠	النتيجة
١٤١	توضيحات

١ . عَظَمَتْهُ وَوُسِعَتْ السَّمَوَات.....	١٤١
٢ . الدَّقَةُ الْعَجِيَّةُ فِي الْقَوَافِينَ الَّتِي تَحْكُمُ الْمَسَاءَ وَالْأَرْضَ.....	١٤٢
٣ . السَّمَوَاتُ السَّبْعُ.....	١٤٤
٤ . لَمْ لَا تَنْظُرُونَ إِلَى السَّمَاءِ.....	١٤٥
٨ . آيَاتُهُ فِي خَلْقِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ ..	١٤٧
جَمْعُ الْآيَاتِ وَتَفْسِيرُهَا ..	١٤٨
الْقَسْمُ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ ..	١٤٨
تَوْضِيْحَاتُ ..	١٥٨
١ . هُوَيَّةُ الشَّمْسِ ..	١٥٨
٢ . الْبَرَكَاتُ الْعَظِيمَةُ لِلشَّمْسِ ..	١٦٠
٣ . الْقَمَرُ وَبِرَكَاتِهِ ..	١٦٢
٤ . الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ فِي كَلَامِ الْأَئمَّةِ الْمَعْصُومِينَ <small>لِيَحْمَدُ اللَّهُ</small> ..	١٦٤
٩ . آيَاتُهُ فِي خَلْقِ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ..	١٦٧
جَمْعُ الْآيَاتِ وَتَفْسِيرُهَا ..	١٦٨
النَّظَامُ الْعَجِيبُ لِلْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ..	١٦٨
تَوْضِيْحَاتُ ..	١٧٤
١ . أَهْمَيَّةُ النُّورِ وَالظَّلَامِ وَفَوَائِدِ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ ..	١٧٤
٢ . ظَاهِرَةُ الْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ..	١٧٥
١٠ . آيَاتُهُ فِي خَلْقِ الْجَبَالِ ..	١٧٧
شَرْحُ الْمَفَرَدَاتِ ..	١٧٨
جَمْعُ الْآيَاتِ وَتَفْسِيرُهَا ..	١٧٩
الْبَرَكَاتُ وَالْأَسْرَارُ الْعَجِيَّةُ لِلْجَبَالِ ..	١٧٩
تَوْضِيْحَاتُ ..	١٨٥

١ . الجبال والإعجاز العلمي للقرآن.....	١٨٥
٢ . حديث للإمام الصادق عليه السلام حول الجبال.....	١٨٧
٣ . كلام لعلم كبير .....	١٨٧
٤ . حديث اعجازي حول تكوين الجبال.....	١٨٨
١١ . آياته في تكوين الغيوم والرياح والأمطار.....	١٨٩
شرح المفردات.....	١٩١
جمع الآيات وتفسيرها.....	١٩٣
ظاهرة الريح والأمطار والأسار الكامنة فيها.....	١٩٣
النتيجة .....	٢٠٢
توضيحات.....	٢٠٢
١ . تكوين الرياح وفوائدها .....	٢٠٢
٢ . أسرار تكوين الغيوم وهطول الأمطار.....	٢٠٥
٣ . الرياح والأمطار في الروايات .....	٢٠٧
١٢ . آياته في حدوث الرعد والبرق.....	٢١١
شرح المفردات.....	٢١١
جمع الآيات وتفسيرها .....	٢١٢
أسرار خلق الرعد والبرق .....	٢١٢
توضيحان.....	٢١٥
١ . الرعد والبرق في نظر العلم المعاصر .....	٢١٥
٢ . فوائد وبركات الرعد والبرق .....	٢١٦
١٣ . آياته في خلق البحار والفلك.....	٢١٩
شرح المفردات.....	٢٢٠
جمع الآيات وتفسيرها .....	٢٢١

٢٢١	عجائب البحار.....
٢٢٦	توضيحات.....
٢٢٦	١ . البحر مركز لأنواع النعم.....
٢٣١	٢ . البحر عالم العجائب .....
٢٣٣	٣ . البحر في كلام المعصومين <small>عليهم السلام</small> .....
٢٣٥	٤ . آياته في خلق الظلال .....
٢٣٦	شرح المفردات.....
٢٣٦	جمع الآيات وتفسيرها .....
٢٣٦	هل إن <small>الظل</small> نعمة عظيمة .....
٢٤٠	توضيح: لو لم تكن هناك الظلال.....
٢٤٣	٥ . آياته في عالم النباتات والشمار.....
٢٤٤	شرح المفردات.....
٢٤٦	جمع الآيات وتفسيرها .....
٢٤٦	الورق الأخضر للأشجار.....
٢٦٠	توضيحات.....
٢٦٠	٦ . التركيب المذهل للنباتات .....
٢٦٣	٧ . فوائد وبركات النباتات .....
٢٦٥	٨ . الأنواع غير المحددة للنباتات .....
٢٦٦	٩ . عجائب عالم النباتات .....
٢٦٩	١٠ . أسرار خلق النباتات في توحيد المفضل .....
٢٧٣	١١ . آياته في خلق الأرزاق العامة .....
٢٧٤	شرح المفردات.....
٢٧٦	جمع الآيات وتفسيرها .....

الكل يتنعم بهذه المائدة عدواً كام أَم صديقاً.	٢٧٦
توضيحات	٢٨٧
١ . من عجائب عالم الأَرْزَاق	٢٨٧
٢ . هل أَنَّ الرِّزْقَ مَقْسُومٌ	٢٩٠
٣ . إِذَا كَانَ الرِّزْقُ مَضْمُونًا لِلْجَمِيعِ فَلِمَاذَا يَمُوتُ الْبَعْضُ جَوْعًا	٢٩٢
٤ . سَعْةُ الرِّزْقِ وَضَيْقِه	٢٩٣
١٧ . آياته في خلق الطيور	٢٩٥
شرح المفردات	٢٩٦
جمع الآيات وتفسيرها	٢٩٧
الطيير يُسبح وأنا صامت	٢٩٧
توضيحات	٣٠٢
١ . فَنِّ الطِّيَارُونَ	٣٠٢
٢ . «عجائب الطيور» و «الطيور العجيبة»	٣٠٤
٣ . الطيور في خدمة الإنسان والبيئة	٣٠٦
٤ . دروس التوحيد في وجود الطيور	٣٠٨
١٨ . آياته في حياة النحل	٣٠٩
شرح المفردات	٣١٠
لنزور بلاد النحل	٣١٠
توضيحات	٣١٤
١ . حضارة النَّحْلِ العجيبة	٣١٤
٢ . جمع رحيق الأَزهار وصناعة العسل	٣١٧
٣ . العسل غداءً مفید ودواءً شافِ	٣١٩
٤ . خدمات أخرى للنحل أَثْنَانِ من العسل	٣٢٢

٥ . البناء الجسمى للنحل عجيب أيضاً.....	٣٢٣
١٩ . آياته فى خلق الحيوانات.....	٣٢٥
شرح المفردات.....	٣٢٧
جمع الآيات وتفسيرها .....	٣٢٨
ماذا يجري في عالم الحيوانات .....	٣٢٨
توضيحات.....	٣٤٢
١ . عجائب عالم الحيوانات.....	٣٤٢
٢ . ترويض الحيوانات .....	٣٤٢
٣ . ذكاء الحيوانات .....	٣٤٣
٢٠ . آياته فى خلق أعضاء جسم الإنسان .....	٣٤٧
شرح المفردات.....	٣٤٨
الدور الحساس لآلات المعرفة.....	٣٥٠
توضيحات.....	٣٥٦
١ . عجائب أعضاء الجسم .....	٣٥٦
٢ . اللسان، هذا العضو المخترف.....	٣٥٨
٢١ . آياته في الحياة الاجتماعية للإنسان .....	٣٦٣
جمع الآيات وتفسيرها .....	٣٦٤
شرح المفردات.....	٣٦٤
تفسير وتحليل: الروح الاجتماعية للبشر واحدة من أعظم الموahب الإلهية .....	٣٦٦
توضيح: هل للمجتمع روح .....	٣٧٢
كلمة الختام .....	٣٧٤